شعراء الغدير

الجزء الأوّل

في القرن الأوّل والثاني والثالث

إعداد وتحقيق

مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة

الغدير
بيروت - لبنان

شعراء الغدير

الغديــر للدراسات والنشر

حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري

هاتف ٦٤٤٦٦٢/٠٣ ـ ٥٥٨٢١٥/٠١ ـ ٢٧٣٦٠٤/٠١

ص. ب ٢٤/٥٠ ـ بيروت ـ لبنان

E-mail: algadeer@ inco. com.lb

الطبعــة الأولــى

١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م

شعراء الغدير

الجزء الأوّل

في القرن الأوّل والثاني والثالث

إعداد وتحقيق

مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة

الغدير
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين، محمد وآله الطَّاهرين.

لمَّا وصل رسول الله ﷺ إلى غدير خمّ، عائداً من مكة المكرّمة، بعد أن قضى حجَّة الوداع، نزل إليه جبرئيل الأمين، عن الله بقوله: ﴿**يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّك فإنْ لم تَفعَلْ فما بلَّغتَ رسالتَه والله يَعْصِمُك من النَّاس**﴾. وفي ذلك اليوم، الخميس، الثامن عشر من ذي الحجَّة، بلَّغ رسول الله ﷺ النَّاس ما أُنزِلَ إليه من ربِّه، وهو: «... فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحبَّ من أحبَّه، وابغِضْ من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار...»، ولم يتفرَّق النَّاس حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿**اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾.

حسم ما بلَّغه رسول الله ﷺ، في ذلك اليوم، قضيَّة من أهمّ قضايا البشرية بعامَّة، والمسلمين بخاصَّة، وهي قضيَّة الإمامة والخلافة. وإن تكن بيعة السَّقيفة تستند إلى اتفاقِ بين عددِ محدود من المسلمين، وقد سمّاها رجلُها «فَلْتة...» في ما بعد، فإنَّ بيعة يوم الغدير تستند إلى النصّ الإلهي الذي شهد إبلاغه حوالى المئة وعشرين ألفاً من المسلمين العائدين من الحجّ. وإن تكن تلك «الفَلْتة» قد آلت إلى أن تكون الخلافة وراثيَّة في نسل مَنْ غَلَبَ، فإن هذه البيعة المنزَّلة على لسان أمين الوحي، والمبلَّغة من رسول الله ﷺ، قد مثَّلت معتقد فئةٍ مؤمنةٍ صادقة، تعارض السلطان المغتصب، وتسعى إلى يوم يتحقَّق فيه قول الله تعالى، فيكمل دين الناس وتتمّ نعمته.

ولمَّا كان لبيعة «الغدير» مثل هذه الأهميَّة، فقد جهد السّلطان الغالب على الأمر وأعوانه في تحقيق أمرين: أوَّلهما إخفاء ذكر هذه البيعة ما أمكن، والتعتيم عليها، وثانيهما المغالطة في تفسير نصِّها، وفي دلالتها.

وأيّاً كان مبلغ الجهود التي بُذلت في هذا المجال، فإن الله، سبحانه وتعالى، أتاح لرجالٍ مؤمنين، أن يتولَّوا مهمة إظهار ما أنزله وإثبات صحّته، وتفسيره، ونشره، ومن هؤلاء العلاَّمة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (رضوان الله عليه)، في موسوعته: «الغدير في الكتاب والسنَّة والأدب». فقد نهض بهذه المهمة، واستوفى البحث والإثبات والتحليل والشرح والجدل...، فجزاه الله خير الجزاء عمَّا فعل.

وقد تضمَّنت موسوعة الغدير، في ما تضمَّنت، بحوثاً في شعر الغدير، وهو شعر ينظم ما حدث في ذلك اليوم، وما بلَّغه رسول الله ﷺ للمسلمين، ويستوحي ذلك كلَّه. . . وهذا الشِّعر يعود لشعراء كبار تعاقبوا على امتداد التاريخ الإسلامي، منذ ساعة الإبلاغ وإلى أيامنا هذه.

وإن يكن هذا الشِّعر يعدُّ وثيقة تاريخيّة، تروي الحديث شعراً، وتوضِّح معانيه، ما يجعله وثيقة إثبات وشرح، فإنه في الوقت نفسه لغة الوجدان الإسلامي المتشكِّل طوال التَّاريخ، لغة تنبض بخفقات القلوب وشجى الأنفس، وتشعّ بنور العقل وهدى الإيمان. .

وقد رأى مركز الغدير للدِّراسات الإسلاميّة، وهو العامل على التعريف بمنهج أئمة أهل البيت عليهم السلام وتسليط الأضواء على المساحات المعتمة من مواطن الخلاف بين الفرق والمذاهب الإسلامية، وبعد أن قام بمهمَّة تحقيق موسوعة الغدير ونشرها، أن يعنى بهذا الشعر وشعرائه، فيُفرد له موسوعة تستند إلى ما جاء في موسوعة الغدير من معلومات بذل صاحبها الجهد الكبير في تحصيلها وتقديمها للقارئ.

وقد ارتأينا أن نعتمد المنهج الذي اعتمده العلامة الأميني (رضوان الله عليه)، في موسوعته، من حيث السِّياق التاريخي، واستندنا إلى مصادره الكثيرة التي عاد إليها، محيلين في الهوامش إلى الطَّبعات التي اعتُمدت في تحقيق مركز الغدير، غير أنَّنا تصرَّفنا في عرض المعلومات وتبويبها، معتمدين سياقاً يتدرّج بالقضايا والمسائل تدرّجاً يهدف إلى التعريف بالشاعر وشعره وخصائص كلٍّ منهما، وقد اقتضى هذا الأمر أن نعدِّل في ترتيب الفقرات، وأن نحذف بعضها وأن نضيف بعضاً آخر، وحرصنا على اعتماد لغةٍ معاصرةٍ، ليسهل على القارئ العادي والطَّالب، الإفادة من هذا الكتاب.

وقد رأينا أنَّه من الضروري التمهيد لهذا الكتاب بأمرين: أوَّلهما التعريف بواقعة الغدير، وثانيهما بيان أهمِّيتها في التأريخ، وتقديم قائمة بأسماء أئمة المؤرِّخين والمحدِّثين والمفسّرين والمتكلِّمين الذين ذكروها في مؤلّفاتهم. ووجدنا أن العلاَّمة الأميني قد استوفى البحث في هذين الأمرين، في الفصلين: الأول والثاني اللذين صدَّر بهما موسوعته، فاعتمدناهما كما جاءا في الموسوعة المذكورة.

والله نسأل أن يتقبَّل جهد المؤلِّف وجهدنا بقبول حسن، ويمنَّ علينا جميعاً بواسع رحمته.

مركز الغدير للدِّراسات الإسلامية

تمهيد

أولاً: واقعة الغدير

ثانياً: أهميّة الغدير في التاريخ

أوّلاً ـ واقعة الغدير

أجمع رسول الله ﷺ الخروج إلى الحجّ في سنة عشر من مُهاجره، وأذّن في الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتمّون به في حجّته تلك التي يُقال عليها[1]: «حجّة الوداع»، و «حجّة الإسلام»، و «حجّة البلاغ» و «حجّة الكمال» و «حجّة التمام»[2]؛ ولم يحجّ غيرها منذ هاجر إلى أن توفّاه الله.

فخرج ﷺ من المدينة مُغتسلاً مُتدهّناً مُترجّلاً مُتجرّداً في ثوبين صُحاريّين[3]: إزار ورداء؛ وذلك يوم السّبت لخمس ليالٍ أو ستٍّ بقين من ذي القعدة؛ وأخرج معه نساءه كلّهنّ في الهَوادج، وسار معه أهل بيته، وعامّة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأفناء الناس[4].

وعند خروجه ﷺ، أصاب الناس بالمدينة جُدَريٌّ، أو حَصْبةٌ منعت كثيراً من الناس من الحجّ معه ﷺ، ومع ذلك كان معه جموعٌ لا يعلمها إلاّ الله تعالى.

وقد يقال: «خرج معه تسعون ألفاً»، ويقال: «مئة ألف وأربعة عشر ألفاً»، وقيل: «مئة ألف وعشرون ألفاً»، ويقال: «مئة ألف وأربعة عشر ألفاً»، وقيل: «مئة ألف وعشرون ألفاً»، وقيل: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً»، ويقال: «أكثر من ذلك»، وهذه عدّة من خرج معه، وأمّا الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك، كالمقيمين بمكّة والّذين أتوا من اليَمَن مع عليٍّ (أمير المؤمنين) وأبي موسى[5].

---

(١) الظّاهر أنه ضمّن «قال» معنى «يطلق» فعدّاه بـ «على».

(٢) الذي نظنّه أنّ الوجه في تسمية حجّة الوداع «بالبَلاغ» هو نزول قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآية، كما أنّ الوجه في تسميتها بالتمام والكمال هو نزول قوله سبحانه: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾ الآية.

(٣) نسبة إلى صُحار، وهي مدينة عمان أو قصبتها.

(٤) الطبقات لابن سعد، ٢/ ١٧٣، امتاع المقريزي، ص ٥١٠، إرشاد الساري، ٩/ ٤٢٩.

(٥) السيرة الحلبيّة، ٣/ ٢٥٧، سيرة أحمد زيني دحلان، ٢/ ١٤٣، تاريخ الخلفاء، لابن الجوزي في=

أصبح ﷺ يوم الأحد بيَلَمْلَم، ثمّ راح فتعشّى بشَرَف السَّيالة، وصلّى هناك المغرب والعشاء، ثمّ صلّى الصبح بِعرْق الظَّبيَة، ثمّ نزل الرّوحاء، ثمّ سار من الرّوحاء فصلّى العصر بالمُنصرَف، وصلّى المغرب والعشاء بالمُتعشّى وتعشّى به، وصلّى الصبح بالأثابة، وأصبح يوم الثلاثاء بالعَرْج واحتجم بلحى جمل، وهو عقبة الجُحفة، ونزل السقياء يوم الأربعاء، وأصبح بالأبواء، وصلّى هناك ثمّ راح من الأبواء ونزل يوم الجمعة الجُحفة، ومنها إلى قديد وسبَت فيه، وكان يوم الأحد بعُسفان؛ ثمّ سار فلمّا كان بالغميم، اعترض المشاة فصفّوا صفوفاً فشكوا إليه المشي، فقال: استعينوا بالنَّسَلان (مشيٌ سريع دون العَدْو) ففعلوا فوجدوا لذلك راحة؛ وكان يوم الإثنين بمَرّ الظهران فلم يبرح حتّى أمسى، وغربت له الشمس بسرف، فلم يصلّ المغرب حتّى دخل مكّة، ولمّا انتهى إلى الثنيَّتَين بات بينهما فدخل مكّة نهار الثُلاثاء[1].

فلمّا قضى مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة، ومعه من كان من الجموع المذكورات، ووصل إلى «غدير خُمّ» من الجحفة التي تتشعّب فيها طرق المدنيِّين، والمصريِّين، والعراقيِّين، وذلك في «اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة»، نزل إليه جبرئيل الأمين عن الله تعالى بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ [المائدة: ٦٨]. الآية، وأمره أن يُقيم علياً عليه السلام عَلَماً للناس، ويُبلّغهم ما نزل فيه من الولاية، وفرض الطاعة على كلِّ أحدٍ.

وكان أوائل القوم قريباً من الجُحفة، فأمر رسول الله ﷺ أن يُردّ من تقدّم منهم، ويُحبس من تأخّر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سَمُرات[2] خَمس متقاربات، دَوْحات عِظام، أن لا ينزل تحتهنّ أحدٌ، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فقُمّ ما تحتهنّ، حتى إذا نُودي بالصلاة، صلاة الظهر، عمد إليهنّ فصلّى بالناس تحتهنّ.

= الجزء الرابع، تذكرة خواص الأمة، ص ٣٠، دائرة المعارف: لفريد وجدي، ٣/ ٥٤٢.

(١) الإمتاع للمقريزي، ص ٥١٣ ـ ٥١٧.

(٢) سَمُرات جمع سَمُرة: شجرة الطَّلح. قُمَّ: اُستؤصِل وكُنِس.

وكان يوماً هاجراً يضع الرجل بعضَ ردائه على رأسه وبعضَه تحت قدَميْه من شدّة الرَّمضاء، وظُلِّل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سَمُرة من الشمس.

فلمّا انصرف ﷺ من صلاته قام خطيباً وسط القوم[1] على أقتاب الإبل[2] وأسمَعَ الجميع، رافعاً عَقيرته فقال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به ونتوكَّل عليه، ونعوذ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضلّ ولا مُضلّ لمن هَدى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

أمّا بعد:

أيّها الناس! قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبيٌّ إلاّ مثل نصف عُمر الذي قبله، وأنّي أوشك أن أُدعى فأجيبُ، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغتَ ونصحتَ وجهدتَ، فجزاك الله خيراً».

قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ جَنّته حقّ وناره حقّ، وأنَّ الموت حقّ، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث مَن في القبور؟».

قالوا: «بلى نشهد بذلك».

قال: «اللّهمّ اشهد!».

ثمّ قال: «أيّها الناس! ألا تسمعون؟».

قالوا: «نعم».

---

(١) جاء في لفظ الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، ٩/١٥٦ وغيره.

(٢) ثمار القلوب، ص ٥١١. أقتاب جمع قتب وهو الرَّحل.

قال: «فإنّي فرَط[1] على الحوض وأنتم واردون عليَّ الحوضَ، وإنَّ عرضه ما بين صَنعاء وبُصرى[2]، فيه أقداحٌ عدد النجوم من فضّة؛ فانظروا كيف تُخلّفوني في الثَّقَلَيْن[3]؟».

فنادى منادٍ: «وما الثَّقَلان، يا رسول الله؟».

قال: «الثَّقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله، عزّ وجلّ، وطرفٌ بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا، والآخَر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليَّ الحوض فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصُروا عنهما فتهلكوا».

ثمّ أخذ بيد عليٍّ فرفعها حتى رُؤِيَ بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون.

فقال: «أيّها الناس! مَن أَوْلَى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: «الله ورسوله أعلَم».

قال: «إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمَنْ كُنتُ مَوْلاهُ، فعليٌّ مَوْلاهُ». (يقولها ثلاث مرّات، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة: أربع مرّات). ثمّ قال: «اللّهمّ! والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه، وأحبّ مَنْ أحبّه، وابغض مَنْ أبغضه، وانصُر مَنْ نصره، واخذُل مَنْ خذله، وأدرِ الحقّ معه حيث دار؛ ألا! فلْيبلّغ الشاهدُ الغائبَ».

ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأتممتُ عَلَيْكُمْ نِعمتي...﴾ الآية.

(١) الفَرَط: المتقدّم قومه إلى الماء، ويستوي فيه الواحدُ والجمع.

(٢) صنعاء: عاصمة اليمن اليوم. وبُصرى: قصبة كورة حوران من أعمال دمشق.

(٣) الثَّقَل، بفتح المثلثة والمثنّاة: كل شيء خطير نفيس.

فقال رسول الله ﷺ:

«الله أكبر! على إكمال الدين، وإتمام النِّعمة، ورضى الربِّ برسالتي والولاية لعليٍّ من بعدي».

ثمّ طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين صلوات الله عليه. وممّن هنّأه في مقدّم الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر كلٌّ يقول:

«بَخٍ بَخٍ لك يابن أبي طالب! أصبحتَ وأمسيتَ مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ».

وقال ابن عباس: «وجبتْ والله في أعناق القوم».

فقال حسّان: «إئذن لي يا رسول الله! أن أقول في عليٍّ أبياتاً تسمعهنّ».

فقال: «قل على بركة الله».

فقام حسّان فقال: يا معشر مشيخة قريش! أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية. ثمَّ قال:

يناديهمُ «يوم الغدير» نبيُّهم بخُمٍّ واسمِع بالرسولِ مُناديا...

ثانياً ـ أهميّة الغدير في التاريخ

... إنّ واقعة «غدير خُمّ» هي من أهمّ القضايا، لما ابتنى عليها، وعلى كثير من الحُجَج الدامغة، مذهب المُقتصّين أثَر آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم، وهم معدودون بالملايين، وفيهم العِلم والسؤدد، والحكماء، والعلماء، والأماثل، ونوابغ في علوم الأوائل والأواخر، والملوك، والساسَة، والأُمراء، والقادة، والأدب الجَمّ، والفضل الكُثار، وكتب قيّمةٌ في كلّ فن.

فإن يكن المؤرِّخ منهم، فمن واجبه أن يفيض على أُمّته نبأ بدء دعوته؛ وإن يكن من غيرهم فلا يعدوه أنْ يذكرها بسيطة عندما يسرد تأريخَ أُمّةٍ كبيرةٍ كهذه؛ أو يشفعها بما يرتئيه حول القضيّة من غميزة في الدلالة، إن كان مزيج

نفسه النزول على حكم العاطفة؛ وما هنالك من نَعَرات طائفته، على حين أنّه لا يتسنّى له غمز في سندها، فإنّ ما ناء به نبيُّ الإسلام ﷺ «يوم الغدير» من الدَّعوة إلى مفاد حديثه لم يختلف فيه إثنان، وإن اختلفوا في مؤدّاه لأغراض وشوائب غير خافية على النابه البصير.

فذكرها من أئمّة المؤرّخين:

ابن قُتَيبة المتوفى(٢٧٦هـ) في «المعارف» و «الإمامة والسياسة».

البلاذريّ المتوفى (٢٧٩هـ) في «أنساب الأشراف».

الطبريّ المتوفى (٣١٠هـ) في كتاب مفرد.

ابن زولاق الليثيّ المصريّ المتوفى (٣٨٧هـ) في تأريخه (تأريخ بغداد).

الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣هـ) في تأريخه.

ابن عبد البرّ المتوفى (٤٦٣هـ) في «الإستيعاب».

الشهرستانيّ المتوفى (٥٤٨هـ) في «الملل والنحل».

ابن عساكر المتوفى (٥٧١هـ) في تأريخه (تأريخ دمشق).

ياقوت الحمويّ المتوفى(٦٢٦هـ) في «معجم الأُدباء».

ابن الأثير المتوفى (٦٣٠هـ) في «أُسدلغابة».

ابن أبي الحديد المتوفى (٦٥٦هـ) في «شرح نهج البلاغة».

ابن خلّكان المتوفى (٦٨١هـ) في تأريخه (وفيات الأعيان).

اليافعي المتوفى (٧٦٨هـ) في «مرآة الجنان».

ابن الشيخ البَلَويّ المتوفى حدود (٦٠٥هـ) في «ألف باء».

ابن كثير الشاميّ المتوفى (٧٧٤هـ) في «البداية والنهاية».

ابن خلدون المتوفى (٨٠٨هـ) في «مقدّمة تأريخه».

شمس الدين الذهبيّ المتوفى (٧٤٨هـ) في «تذكرة الحفّاظ».

النويريّ المتوفى حدود (٨٣٣هـ) في «نهاية الأرب في فنون الأدب».

ابن حجر العسقلانيّ المتوفى (٨٥٢هـ) في «الإصابة» و «تهذيب التهذيب».

ابن الصبّاغ المالكيّ المتوفى (٨٥٥هـ) في «الفصول المهمّة».

المقريزيّ المتوفى (٨٤٥هـ) في «الخطط المقريزية».

جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١٠هـ) في غير واحدٍ من كتبه.

القرمانيُّ الدمشقيّ المتوفى (١٠١٩هـ) في «أخبار الدول».

نور الدين الحلبيّ المتوفى (١٠٤٤هـ) في «السيرة الحلبية».

وغيرهم.

وهذا الشّأن في علم التأريخ لا يقلُّ عنه الشّأن في «فنّ الحديث»، فإنّ المحدِّث إلى أيّ شطر ولّى وجهَه من فضاء فنّه الواسع، يجد عنده صِحاحاً ومَسانيد تُثبت هذه المأثرة لوليّ أمر الدين عليه السلام، وَلَمْ يزل الخَلَف يتلقّاه من سَلَفه حتّى ينتهي الدور إلى جيل الصحابة الوعاة لٰلخبر، ويجد لها مَعَ تعاقب الطبقات بَلَجاً ونوراً يذهب بالأبصار.

فإن أغفل المحدّث عمّا هذا شأنه، فقد بخَس للأُمّة حقّاً، وحرمها عن الكثير الطيّب ممّا أسدى إليها نبيُّها نبيُّ الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم من بِرّه الواسع، وهدايته لها إلى الطريقة المُثلى.

فذكرها من أئمة الحديث:

إمام الشافعية أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعيُّ، المتوفى سنة (٢٠٤هـ)، كما في «نهاية ابن الأثير».

إمام الحنابلة أحمد بن حَنبَل المتوفى (٢٤١هـ) في «مسنده» و «مناقبه».

ابن ماجَه المتوفى (٢٧٣هـ) في «سننه».

الترمذيّ المتوفى (٢٧٩هـ) في «صحيحه».

النسائيّ المتوفى (٣٠٣هـ) في «الخصائص».

أبو يَعلى الموصليّ المتوفى (٣٠٧هـ) في «مسنده».

البغويّ المتوفى (٣١٧هـ) في «السنن».

الدولابيّ المتوفى (٣٢٠هـ) في «الكنى والأسماء».

الطحاويّ المتوفى (٣٢١هـ) في «مشكل الآثار».

الحاكم المتوفى (٤٠٥هـ) في «المستدرك».

ابن المغازليّ الشافعيّ المتوفى (٤٨٣هـ) في «المناقب».

ابن مندة الأصفهانيّ المتوفى (٥١٢هـ) بعدّة طُرُق في «تأليفه».

الخطيب الخوارزميّ المتوفى (٥٦٨هـ) في «المناقب» و «مقتل الإمام السبط عليه السلام».

الكنجيُّ الشافعي المتوفى (٦٥٨هـ) في «كفاية الطالب».

محبّ الدين الطبريّ المتوفى (٦٩٤هـ) في «الرياض النضرة» و «ذخائر العقبى».

الحموينيّ الشافعي المتوفى (٧٢٢هـ) في «فرائد السمطين».

الهيثميّ المتوفى (٨٠٧هـ) في «مجمع الزوائد».

الذهبيّ المتوفى (٧٤٨هـ) في «التلخيص».

الجزريّ المتوفى (٨٣٠هـ) في «أسنى المطالب».

أبو العبّاس القسطلانيّ المتوفى (٩٢٣هـ) في «المواهب اللدنيّة».

المتّقي الهنديّ المتوفى (٩٧٥هـ) في «كنز العمال».

الهرويّ القاري المتوفى (١٠١٤) في «المرقاة في شرح المشكاة».

تاج الدين المناويّ المتوفّى (١٠٣١هـ) في «كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق» و «فيض القدير».

الشيخانيّ القادريّ المتوفى في القرن الحادي عشر في «الصراط السويّ في مناقب آل النبيّ».

أحمد باكثير المكيّ الشافعي المتوفّى (١٠٤٧هـ) في «وسيلة المآل في مناقب الآل».

أبو عبدالله الزرقاني المالكيّ المتوفّى (١١٢٢هـ) في «شرح المواهب».

ابن حمزة الدمشقيّ الحنفيّ المتوفى (١١٢٠هـ) في كتاب «البيان والتعريف».

وغيرهم.

كما أنّ المفسّر، ونصب عينيه آيٌ من القرآن الكريم نازلةٌ في هذه المسألة، يرى مِنْ واجبه الإفاضةَ بما جاء في نزولها وتفسيرها، ولا يرضى لنفسه أن يكون عمله مبتوراً، وسعيه مُخدَجاً.

فذكرها من أئمّة التفسير:

الطبريّ المتوفّى (٣١٠هـ) في «تفسيره».

الثعلبيّ المتوفّى(٤٢٧هـ) أو (٤٣٧هـ) في «تفسيره».

الواحديّ المتوفّى (٤٦٨هـ) في «أسباب النزول».

القرطبيّ المتوفّى (٥٦٧هـ) في «تفسيره».

أبو السعود المتوفى (٩٨٢هـ) في «تفسيره».

الفخر الرازيّ المتوفّى (٦٠٦هـ) في تفسيره الكبير «مفاتيح الغيب».

ابن كثير الشاميّ المتوفّى (٧٧٤هـ) في «تفسيره».

النيشابوريّ المتوفى في القرن الثامن الهجري في «تفسيره».

جلال الدين السيوطيّ المتوفّى (٩١١هـ) في تفسيره «الدرّ المنثور».

الخطيب الشربيني المتوفى (٩٧٧هـ) في «تفسيره».

الآلوسيّ البغداديّ المتوفى (١٢٧٠هـ) في «روح المعاني».

وغيرهم. والمتكلّم حين يقيم البراهين في كلّ مسألة من مسائل علم الكلام، إذا انتهى به السير إلى مسألة الإمامة فلا مُنتدح له من التعرُّض لـ «حديث الغدير» حجّةً على المدّعى، أو نقلاً لحجّة الخصم، وإن أردفه بالمناقشة في الحساب عند الدلالة، مثل:

القاضي أبو بكر الباقلانيُّ البصريّ المتوفى (٤٠٣هـ) في «التمهيد».

القاضي عبد الرحمن الإيجي الشافعيّ المتوفى (٧٥٦هـ) في «المواقف».

السيّد الشريف الجرجانيّ المتوفى(٨١٦هـ) في «شرح المواقف».

البيضاويّ المتوفى (٦٨٥هـ) في «طوالع الأنوار».

شمس الدين الاصفهانيّ (٧٤٩هـ) في «مطالع الأنظار».

التفتازانيّ المتوفى (٧٩٢هـ) في «شرح المقاصد».

القوشجي المولى علاء الدين المتوفى (٨٧٩هـ) في «شرح التجريد».

وهذا لفظهم:

إنّ النبيّ ﷺ قد جمع الناس يوم «غدير خُمّ» ـ موضع بين مكّة والمدينة ـ بالجُحفة، وذلك بعد رجوعه مِنْ حجّة الوداع، وكان يوماً صائفاً حتى أنّ الرجل ليضع رداءه تحت قدميه من شدّة الحرّ، وجمع الرّحال، وصعد عليها.

وقال مخاطباً: «معاشر المسلمين! ألستُ أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: اللّهمّ بلى، قال: «مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه. اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وَعادِ مَنْ عاداه، وانصر مَنْ نصره، واخذل مَنْ خذله».

ومن المتكلّمين:

القاضي النجم محمّد الشافعيّ المتوفى (٨٧٦هـ) في «بديع المعاني».

جلال الدين السيوطيّ المتوفى (٩١١هـ) في «أربعينه».

مفتي الشام حامد بن علي العماديّ المتوفى (١١٧١هـ) في «الصلاة الفاخرة بالأحاديث المتواترة».

الآلوسي البغداديّ المتوفى (١٣٢٤هـ) في «نثر اللئالي».

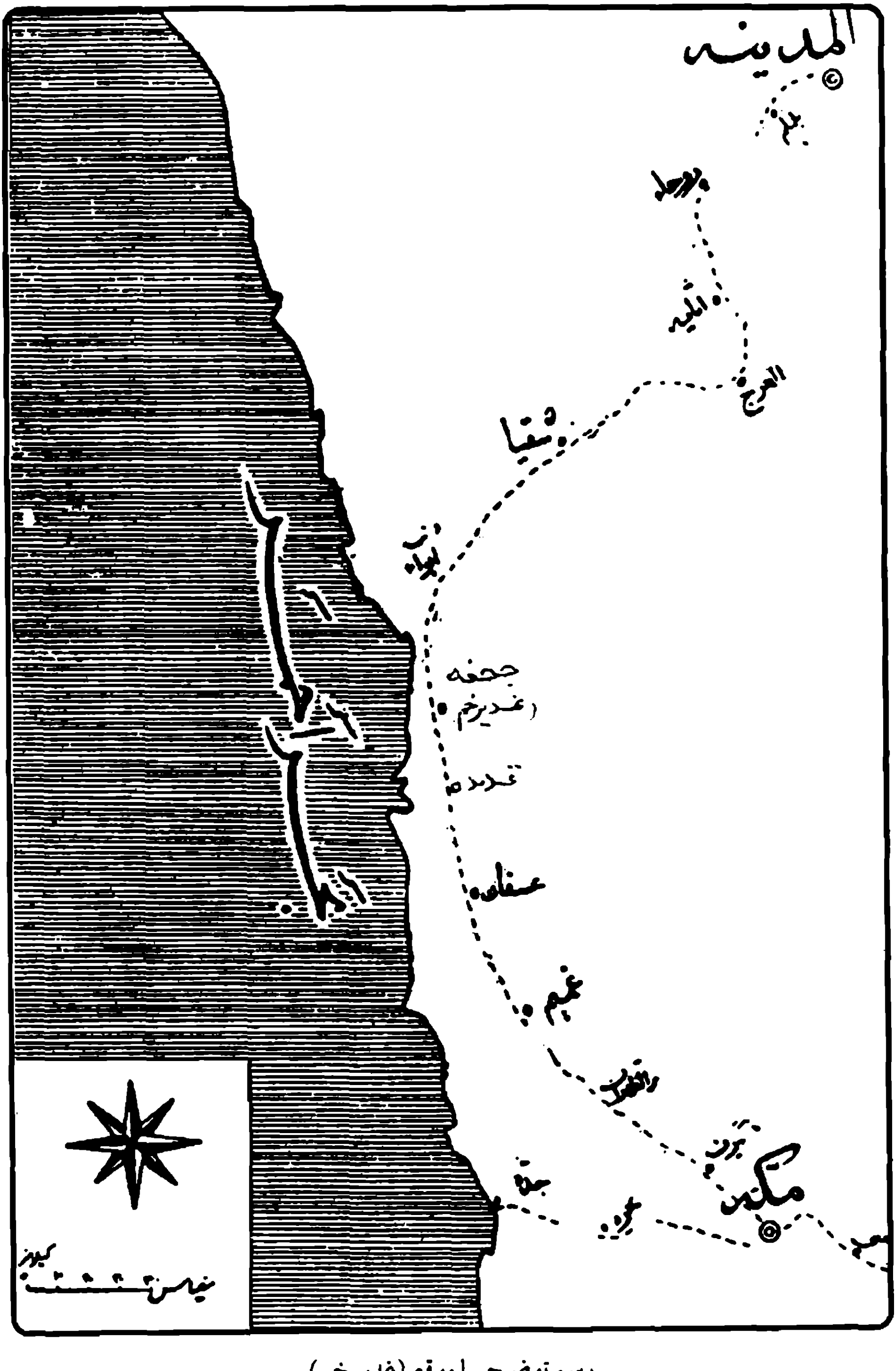
وغيرهم.

واللغويّ لا يجد مُنتدحاً من الإيعاز إلى «حديث الغدير» عند إفاضة القول في معنى «المولى» أو «الخُمّ» أو «الغدير» أو «الوليّ»، مثل:

ابن دريد محمد بن الحسن المتوفى (٣٢١هـ) في «جمهرته» ج١، ص ٧١[1]. ابن الأثير المتوفى (٦٠٦هـ) في «النهاية». الحمويّ المتوفى (٦٢٦هـ) في «معجم البلدان» في «خُمّ». الزبيديُّ الحنفيّ المتوفى (١٢٠٥هـ) في «تاج العروس» ج١٠، ص ٣٩٩. والنبهانيّ المتوفى في القرن الرابع عشر في «المجموعة النبهانية».

---

(١) قال: «غدير خم معروف، وهو الموضع الذي قام فيه رسول الله ﷺ خطيباً بفضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»... كذا في المطبوع من الجمهرة، وقد حكى عنه ابن شهرآشوب وغيره في العصور المتقادمة من النسخ المخطوطة من الجمهرة ما نصّه: «هو الموضع الذي نصّ النبيّ عليه السلام فيه على عليٍّ عليه السلام ...» وقد حرّفته يد الطبع الأمينة!



رسم توضيحي لموقع (غدير خم)

شعراء القرن الأول الهجري

١ ـ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
٢ ـ حسان بن ثابت الأنصاري
٣ ـ قيس بن سعد الأنصاري
٤ ـ عمرو بن العاص
٥ ـ محمد بن عبدالله الحميري

(١)
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

شيءٌ من سيرة الإمام عليه السلام

الإمام علي بن أبي طالب (واسمه عبد مناف) بن عبد المطلب (واسمه شيبة الحمد) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف بن قصيّ...، ولد، على الأرجح، يوم الجمعة في الثالث عشر من رجب، بعد عام الفيل (٥٧٠م) بثلاثين سنة، أي في العام ٥٩٩م أو ٦٠٠م. وهذا ما تفيده روايات تقول: إنه ولد قبل النبوّة بعشر سنين، وقبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وفي سنة ثلاثين من مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم[(١)].

أطلّ الإمام عليّ على هذه الدّنيا من الكعبة، فكانت ولادته، في بيت الله الحرام، إكراماً من الله جلّ اسمه لم يكن لأحدٍ قبله، ولم يحدث لأحدٍ من بعده. وهو أوّل مولود ولد من فرعي هاشم، فأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ووالده أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم.

وقد سجّل التاريخ لهذين الأبوين مواقف كريمة في تاريخ محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم الذي فقد أباه وأمّه وجدّه، وهو طفل صغير، فحضنه عمّه أبو طالب وحماه، وكانت فاطمة بنت أسد بمنزلة الأمّ له، ربي في حجرها، وكان

---

(١) السيّد محسن الأمين، أعيان الشيعة، بيروت: دار التعارف، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦، المجلد الأول، ص ٣٢٣. وقد استندنا في كتابة ترجمة حياة الإمام علي عليه السلام، إضافةً إلى موسوعة الغدير، إلى مصادر كثيرة، منها المصدر نفسه، ص ٣٢٣ ـ ٥٦٢ والفصل الذي يصدّر به ابن أبي الحديد شرحه، والسيد هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر، بيروت: دار التعارف، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، القسم الأول، ص ١٤١ ـ ٤٥٨.

رسول الله ﷺ يكرمها ويعظّمها ويدعوها: «أمّي»، وقال لأصحابه: «إنه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّما ألبستها قميصي لتُكسى من حلل الجنّة، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر».

اختار النبي ﷺ علياً، في سنة قحط أصابت مكة، وكان في السادسة أو الثامنة من عمره، ليكون في رعايته، وبقي معه يتعهّده بالتّربية والتّعليم، إلى أن جاء الوحي بالرّسالة، فأسلم وهو ابن عشر، على الأرجح، فكان أوّل من أسلم من الرّجال. ويروى أنه قال: لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمّة بسبع سنين، وقد أجمع المؤرّخون والمحدّثون والعلماء أنه «كان وسيبقى المثل الأعلى للمسلم، وأنه أعلم المسلمين وأقضاهم وأشجعهم وأكثرهم عبادةً وزهداً وأوفرهم إدراكاً وعقلاً وأعظمهم بلاءً وجهاداً وأحرصهم على إقامة العدل وانتشاره بين الناس وإنصاف المظلومين وأقربهم إلى الله وأدناهم إلى معرفته»[1].

قال رسول الله ﷺ لقومه، لمّا أجاب علي دعوته يوم الدار: «إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»[2]. ويروى أنه كان يبيت في فراش النبي ﷺ في أثناء حصار المشركين للهاشميين في شعب أبي طالب. وبات في فراشه ليلة هاجر من مكة إلى المدينة، وكانت قريش قد خطّطت لاغتياله، في ذلك الفراش، في تلك الليلة. فإضافة إلى عمق الإيمان، وسموّ التضحية، وعظمة الشجاعة، يمكن لنا أن ننظر إلى علي، كما يقول عبد الكريم الخطيب: «وهو في برد رسول الله وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه، وقلنا هذا خلف رسول الله والقائم مقامه» و«أن له شأناً في رسالة الرسول ودوراً في دعوة الإسلام ليست لأحد غيره من صحابة الرسول»[3].

---

(١) السيد هاشم الحسني، مصدر سابق، ص ١٤٤.

(٢) نفسه، ص ١٥٦، نقلاً عن كنز العمال، والدلائل للبيهقي وتاريخ الطبري، والإمام أحمد في مسنده، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة، ١/٣٣٥، والكامل لابن الأثير، وحياة محمد لهيكل، في الطبعة الأولى، وتاريخ الجمعيات لمحمد عبدالله عنان.

(٣) نفسه، ص ١٦٨ و١٦٩.

هاجر عليّ عليه السلام إلى المدينة المنوّرة بعد أن أدّى الأمانات لأهلها. وعندما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين المسلمين آخره، ثم قال له: «والذي بعثني بالحق ما أخّرتك إلا لنفسي، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي وأنت أخي ووارثي»[1].

جاهد الإمام علي عليه السلام إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله في سبيل نشر الإسلام، فكان فارس جميع المعارك التي خاضها المسلمون، من بدر إلى أحد والأحزاب وخيبر وفتح مكة وحنين. ولمّا «رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع ونزل في غدير خمّ أمر بدوحات فقممن، ثم وقف بين تلك الجموع، وقال: أيها الناس كأني قد دعيت فأجبت. إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. ثمّ قال: إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة. وأخذ بيد علي عليه السلام وقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[2].

حدثت بعد حجة الوداع وقائع كثيرة، ومنها: تخلّف مجموعة من المسلمين عن جيش أسامة، حيلولة عمر بن الخطاب بين النبي وبين ما يريد من كتابة كتاب للمسلمين لن يضلّوا بعده أبداً، تناسي الرُّواة لوصيّة النبي صلى الله عليه وآله الثالثة المتعلقة بالخلافة، موقف عمر النافي لموت رسول الله صلى الله عليه وآله، وهدفه إشغال الناس إلى حين مجيء أبي بكر، (كان خارج المدينة) الإسراع إلى سقيفة بني ساعدة لبحث أمر الخلافة من دون الاهتمام بموت النبي عليه السلام ودفنه. تفيد هذه الوقائع أن تكتُّلاً قد تكوّن وحدّد ما يريده. وفي هذا الصدد يقول المستشرق لامنس: «إن الحزب القرشي الذي يرأسه أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح

---

(١) نفسه، ص ١٧٦، نقلاً عن الطبراني في الرياض النضرة، المجلد الأول.
(٢) نفسه، ص ٢٤٧، نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير، عن زيد بن أرقم، وقد سبق ذكر مصادر هذا الحديث بالتفصيل في مقدّمة الكتاب.

لم يكن وليد مفاجأة وارتجال وإنّما كان وليد مؤامرة سريّة. . حيكت أصولها ورتِّبت أطرافها بكل إحكام وإتقان. . .»[١].

استطاع هذا التكتّل أن يوصل أبا بكر إلى الخلافة، وله في ذلك حجّتان: أولاهما أن المهاجرين أوّل الناس إسلاماً، وثانيتهما أنهم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وأمسّهم به رحماً، وقد أدان هؤلاء القادة، كما يقول السيد هاشم معروف الحسني، أنفسهم بهاتين الحجّتين؛ ذلك لأنَّ الخلافة إذا كانت بالسبق إلى الإسلام والقرابة القريبة من رسول الله، كما يدَّعون، «فهي لعلي وحده، لأنه أول الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً برسالة محمد بن عبدالله ﷺ وأخوه بمقتضى المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بينه يوم آخى بين المهاجرين في مكة، وبينهم وبين الأنصار في المدينة وابن عمه نسباً وأقرب الناس إلى نفسه وقلبه بلا شك في ذلك عند أحد من الناس»[٢].

ويبدو أن اجتماع الأنصار في السقيفة كان ردّاً على تخطيط هذا التكتّل، وأنّهم طلبوا الأمر لسعد بن عبادة لما رأوا تصميم رؤوس التكتّل على عدم إعطاء الحقّ لأهله. يقول توفيق أبو علم، في كتابه «أهل البيت»، في هذا الصدد: «ولا يبعد أن يكون سعد بن عبادة، لما رأى تصميم المهاجرين على عدم إعطاء الحق لأهله، طلبه لنفسه»[٣]. ومن الإشارات الدالّة على ذلك: أن زيد بن الأرقم ردّ على عبد الرحمن بن عوف الذي كان يفخر بالقرشيين، فقال: «. . . وإنّا لنعلم أن بين من ذكرت من قريش من لو طلب الخلافة لما ينازعه فيها أحد، وهو علي ابن أبي طالب». وقال الأنصار، عندما اقترح أبو بكر أحد الرجلين: أبا عبيدة أو عمر بن الخطاب، وبعد انسحاب هذين له: لا نبايع إلا علي بن أبي طالب[٤].

(١) نفسه، ص ٢٥٨.
(٢) نفسه، ص ٢٦٢.
(٣) نفسه، ص ٢٦٥.
(٤) نفسه، ص ٢٦٤ و٢٦٥، الطبري ٣/ ١٩٨.

دهش الإمام علي عليه السلام ومن معه لما حدث، وقد وصف موقفه من هذا الأمـر فقال: «والله، ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته.. فما راعني إلا انثيال الناس إلى أبي بكر يبايعونه، فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به أعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يـزول السـراب، أو كمـا يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى راح الباطل واطمأن الدين وتنهنه»[1].

أملت مصلحة الإسلام مواقف الإمام عليّ عليه السلام، ومنها هذا الموقف، غير أنّه، في الوقت نفسه، أعلن حقّه في الخلافة، وهو يضع يده في يد أبي بكر، فقال له: «لم يمنعنا عن مبايعتك أننا ننافسك على خيرٍ ساقه الله إليك، ولكنا نرى أن هذا الأمر هو حقُّنا، وقد استبددتم به علينا وحلتم بيننا وبينه»[2].

كـان للإمـام علـي عليه السلام، بعـد البيعـة، الـدور البـارز فـي جمـع القرآن وتـفسيـره، وفـي القضـاء والفتيـا، فكـان قوله الفصل إذا تعقّدت الأمور، ورأيه الأول والأخيـر إذا تبـاينت الآراء، وكـان المسلمـون يـرجعـون إليـه فـي جميع المشـاكـل التـي كـانت تعترضهم ولم يجدوا لها حلاًّ، وهم يسعون إليه واثقين، بعـدمـا سمعـوا أحـاديث رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: «علي باب مدينة العلم» و «علي أقضاكم، وهو مع الحق يدور معه كيفما دار وأنى اتجه». وكان عمر بن الخطاب يقول في غير مناسبة: «لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن» و «لولا علي لهلك عمر»[3].

(١) نفسه، ص ٢٧٢،
(٢) نفسه، ص ٢٧٣.
(٣) السيد محسن الأمين، في رحاب أئمة أهل البيت، بيروت: دار التعارف، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٢٤٩.

وكان الإمام عليه السلام يدعو الناس إلى النهل من المعرفة، وممّا قاله لهم في هذا الصَّدد: «سلـونـي عن كتاب الله، فوالله الذي لا إله غيره ما من آيةٍ نزلت إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار أم بسهل أم بجبل».

وصل الحزب الأموي إلـى السلطـة، بعـد مؤامرة قتل عمر بن الخطاب، ومن طريق الشورى التي ارتآها، فتولى عثمان بن عفان الخلافة، وانتهج سياسة محـابيـةً لبني أميّة، تهـدف فـي المحصّلـة إلى جعلهم طبقة حاكمة مستأثرة بالأمـوال والمراكـز وجميـع خيرات البلاد، فأفضت هذه السياسة إلى تحرّك شعبـي نـاقـم. سعى الإمام علي عليه السلام جهده لإصلاح الأمور، لكن السياسة نفسها استمرت، مـا جعـل التحـرّك يتطـوّر إلى قتل عثمان، وسيادة الفوضى. وأقبل الناس يبايعون الإمام علياً عليه السلام، فارتضى ذلك، ومضى يمارس نهج الإسـلام فـي الحكـم، ما جعل فئتين تخرجان عليه، أولاهما: الطبقة القرشية الثرية التي تشكّلت إبّان عهد الخلفاء ويمثلها طلحة والزبير وعائشة، وثانيتهما: الحزب الأموي ويمثله معاوية بن أبي سفيان وأعوانه. انتصر الإمام علي عليه السلام علـى الفئـة الأولـى فـي معركة الجمل، وكاد ينتصر على الفئة الثانية في صفين لولا مؤامرة أُعِدَّت بعنـاية، ووقع ضحيتها القرّاء السذّج الذين سُمُّوا في ما بعد بالخوارج، فرفعت المصاحف على رؤوس الرماح وكانت قصّة التحكيم.

استشهـد الإمـام علي عليه السلام في المسجد، وهو بين يديّ الله «سنة أربعين من الهجرة في شهر رمضـان، ضـرب ليلة تسع عشرة، ليلة الأربعاء، وقُبض ليلة الجمعـة، ليلـة إحـدى وعشرين»، فخرج من الدنيا من بيت الله في الكوفة، كما دخلها، من بيته تعالى في مكة المكرمة.

الوصيّ

يكنّـى الإمـام علـي عليه السلام أبـا الحسـن وأبا الحسين وأبا الحسنين، وأبا تـراب، وهـذه كنيـة كنّـاه بـهـا رسول الله صلى الله عليه وآله، سمّته أمه حيدرة، ومن ألقابه: المرتضى، وأمير المؤمنين، والأنزع البطين، والوصي. وكان يعرف، كما يقول

السيد محسن الأمين بذلك عند أوليائه وأعدائه. خرج شابٌ من بني ضبة يوم الجمل من معسكر عائشة، وهو يقول:

نحن بني ضبّة أعداء علي ... ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي
وفارس الخيل على عهد النبي ... ما أنا عن فضل علي بالعمي
لكنني أنعي ابن عفان التقي ... إن الولي يطلب ثأر الولي

وقال رجل من الأزد يوم الجمل:

هذا علي وهو الوصي ... آخاه، يوم النجوة، النبي
وقال: هذا بعدي الولي ... وعاه واعٍ، ونسي الشقي

وقال زفر بن قيس الجعفي يوم الجمل:

أضربكم حتى تقروا لعلي ... خير قريش كلها بعد النبي
من زانه الله وسمّاه الوصي ... إن الولي حافظ ظهر الولي
كما الغوي تابع أمر الغوي

وقال أيضاً:

فصلّى الإله على أحمد ... رسول المليك تمام النعم
رسولٌ نبيّ ومن بعده ... خليفتنا القائم المدعم
عنيت علياً وصيّ النبي ... يجالد عنه غواة الأمم[1]

فضائل الإمام عليه السلام

وفي فضائله عليه السلام يقول ابن أبي الحديد: «... فإنها قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمج معه التعرّض لذكرها، والتصدّي لتفصيلها.. وما أقول في رجل أقرَّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ولم يمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله(...) وما أقول في رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل

(١) أعيان الشيعة، مصدر سابق، ١/ ٣٢٥ و٣٢٦.

وينبـوعهـا، وأبـو عـذرها، وسابق مضمارها، ومجلّي حلبتها، كل من بزغ فيها بعده، فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى»[١].

ويضيـف ابـن أبـي الحـديـد فيقول: «ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه، ومن العلوم تفسير القرآن، وعنه أُخذ، ومنه فُرِّع.. ومن العلوم علـم الطـريقـة والحقيقـة وأحـوال التصوف، وإن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون.. ومن العلوم علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافـة أنه هو الـذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله..، وإن رجعت إلى الخصائص الخلقية والفضائل النفسانية وجدته ابن جلاها وطلاع «ثناياها»، في الشجاعة والقوة والسخاء والجود والحلم والصفح والجهـاد فـي سبيـل الله والفصاحة، والتواضع وطلاقة المحيَّا، والزهد في الدنيا والعبادة وقراءته القرآن واشتغاله به والرأي والتدبير والسياسة...» الخ[٢].

لقد خرج الإمام علي عليه السلام من هذه الدنيا من بيت الله، كما دخلها من بيت الله بعد ما خاطبها بقوله: يا دنيا غرِّي غيري، فلقد طلقتك ثلاثاً.

أشْعَرُ الصَّحابة وأَفْصَحُهم وأَخْطَبُهم

كان الإمام علي عليه السلام، في ما يروى، يقول الشِّعر، وينقل السيد محسن الأمين «عـن الجـاحظ في كتابي البيانِ والتبيين وفضائل بني هاشم والبلاذري في أنساب الأشراف أن علياً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم».

وجـاء فـي مستـدرك الصحيحين للحاكم أن الإمام علياً بن الحسين، زين العـابـديـن عليه السلام قـال: «أوّل مـن شـرى نفسـه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان يقول:

وقَيْتُ بنفسي خير من وطئ الحصى   ومـن طـاف بالبيت العتيق وبالحجر

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م. المجلد الاول، ص ١٦ و١٧.

(٢) يراجع للتفصيل، المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ٣٠.

محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقاه ربي ذو الجلال من المكر
وبتُّ أراعيهم متى ينشرونني ... وقد وطَّنت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً ... هناك وفي حفظ الإله وفي ستر[1]

ونسب إليه بعض الرواة مقطوعات شعرية جمعوها في ديوان مستقل طُبع غير مرّة، وشرح[2]. لكن بعض الباحثين يشكُّون في صحّة هذه الروايات وينفون قوله للشِّعر، وحجتهم في ذلك ما جاء في سورة الشعراء: **﴿والشُّعراءُ يتَّبِعُهُمُ الغَاوون. ألم تَرَ أنَّهُم في كلِّ وادٍ يهيمون. وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون. إلاَّ الذين آمَنُوا وعملوا الصَّالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا﴾** [الشعراء/ ٢٢٤ ـ ٢٢٧]. كأنهم بذلك ينزّهونه عن قول الشعر كما تنزّه النبيّ محمد ﷺ عن ذلك.

والحقيقة أن سورة الشعراء تتحدَّث عن الشعراء وليس عن الشعر، ثم تخصِّص فئة منهم، وتستثني فئة أخرى، وهذا يعني أنّ الشعر، كما يقول النبي ﷺ، كلام من كلام العرب مؤلَّف، فما وافق الحق منه فهو خير، وما وافق الباطل فهو شرّ، ولهذا كان ﷺ كما يُرْوَى يستنشد الشعر ويرتاح له، ويجيز عليه، ويكرم الشاعر إن وجد في شعره ما يوافق الحقّ. وتتحدَّث الروايات عن مواقف كثيرة تفيد ذلك، ومنها موقفه من كعب بن زهير وحسان بن ثابت وكعب بن مالك، إذ قال له، وقد جاء يسأل عن الشعر بعد نزول الآية: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»[3].

ويقول الشيخ الأميني، صاحب الغدير، في هذا الصدد: «على أن في وسع الباحث أن يقول: إن المراد بالشعراء في الآية الكريمة كل من يأتي بكلام شعري منظوماً كان أو منثوراً، فتكون مصاديقها أحزاب الباطل وقوّالة الزور، فعن

---

(١) أعيان الشيعة، مصدر سابق، ١/ ٥٤٩.
(٢) يراجع المصدر نفسه لمعرفة أسماء جامعي شعر الإمام علي، أمير المؤمنين عليه السلام في ديوان، أعيان الشيعة: ١/ ٥٤٩ و٥٥٠.
(٣) يراجع لمعرفة هذه المواقف بالتفصيل، الغدير، مصدر سابق، ص ١٨ ـ ٢٦.

مولانا الصادق عليه السلام : إنهم القصاصون»، ويضيف : «فليس في الآية حطّ لمقام الشعر بما هو شعر، وإنما الحطّ على الباطل منه ومن المنثور»، وقد ثبت عند المسلمين قوله صلى الله عليه وآله : «إنَّ من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا»(١).

غديريَّة الإمام عليه السلام

ويرى السيد محسن الأمين أنه لا يوجد بين أيدينا اليوم من ديوان الإمام علي عليه السلام الذي جمع غير مرّة سوى نسخة «الظاهر أنها هي التي جمعها علي ابن أحمد النيسابوري، وشرحها بالفارسية القاضي حسين بن معين الدين الميبدي المتوفى سنة ٨٧٠ هـ، من علماء أهل السنة، ولم يأل جامعها جهداً في جمع ما صحت نسبته إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، فجمع جلّه وفاته شيء كثير عثرنا عليه أثناء تتبعاتنا، لكنه أضاف إليه ما علم أنه ليس له، وما يحتمل كونه له، ولا أمارة تنفي ذلك، وما يظن أنه ليس له، فإما أن يكون هذا الديوان تناولته أيدي الزيادة، والتحريف من الناس أو يكون جامعه قليل البصيرة لبعده عن اللسان العربي وعدم اقتصاره على المصادر الصحيحة، فخلط الدرّ بالحصباء . .»(٢).

ويروي الشيخ الأميني، في كتاب الغدير، عن مصادر كثيرة(٣)، أنَّ

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥ و٢٦.

(٢) أعيان الشيعة: ١/ ٥٥٠.

(٣) الغدير، مصدر سابق، ص ٥٣ ـ ٦٤، والمصادر التي يذكرها الشيخ الأميني هي:

١ ـ الشيخ المفيد (ت/ ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م)، في (الفصول المختارة)، ص ٢٢٦.

٢ ـ الشيخ الكراجكي (ت٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)، في (كنز الفوائد)، ١/ ٢٦٦.

٣ ـ الشيخ أبو علي الفتال النيسابوري، في (روضة الواعظين)، ١/ ٨٧.

٤ ـ الشيخ أبو منصور الطبرسي، في (الاحتجاج)، ١/ ٤٢٩، حديث ٩٣.

٥ ـ ابن شهرآشوب (ت٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، في (مناقب آل أبي طالب)، ٢/ ١٩٤.

٦ ـ أبو الحسن الأربلي (ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، في (كشف الغمّة)، ١/ ٣٢٠.

٧ ـ ابن سنجر النخجواني، في (تجارب السلف) ص ٤٢.

٨ ـ الشيخ علي البيّاضي (ت ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) في (الصراط المستقيم)، ١/ ٢٧٧.

٩ ـ الشيخ المجلسي، (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م) في (بحار الأنوار)، ٣٨/ ٢٣٨. =

. . . .

= ١٠ ـ صدر الدين علي خان المدني (ت ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) في (الدرجات الرفيعة)، ص ٧٧.
١١ ـ الشيخ أبو الحسن الشريف، في ضياء العالمين، المؤلّف سنة (١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م).
وروى هذه القصيدة من أعلام المسلمين السُّنّة:
١ ـ الحافظ البيهقيّ: المتوفّى (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م). رواها برمّتها، وقال: «إنّ هذا الشعر ممّا يجب على كلّ أحد متوالٍ في عليّ حفظه، ليعلم مفاخره في الإسلام».
٢ ـ أبو الحجّاج يوسف بن محمد البلوي المالكيّ، الشهير بابن الشيخ: المتوفّى حدود (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م). قال في كتابه (ألف باء ١/ ٤٣٩):
«وأمّا عليّ عليه السلام فمكانه عليٌّ، وشرفه سَنيٌّ، أوّل من دخل في الإسلام، وزوج فاطمة عليها السلام بنت النبيّ، وقد نظم في أبيات المفاخرة، وذكر فيها مآثره حين فاخره بعض عِداه، ممّن لم يبلغ مداه، فقال عليه السلام يفخر بحمزة عمّه وبجعفر ابن أمّه رضي الله عنه:

محمّدٌ النبيّ أخي وصنوي ... وحمزةُ سيّدُ الشهداء عمّي

وذكر إلى آخر بيت الغدير.
فقال: يريد بذلك قوله عليه السلام: «مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه».
٣ ـ أبو الحسين الحافظ زيد بن الحسن تاج الدين الكنديّ الحنفيّ: المتوفّى (٦١٣)، رواه من طريق ابن دريد في كتابه المجتنى (ص٣٩) ذكر منها خمسة أبيات.
٤ ـ ياقوت الحمويّ: المتوفّى (٦٢٦هـ/ ١٢١٦م). ذكر ستّة أبيات منها في معجم الأدباء ١٤/ ٤٨ وزاد الدكتور أحمد رفاعي المصري بيتين في التعليق.
٥ ـ أبو سالم محمد بن طلحة الشافعيّ: المتوفّى (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، تأتي ترجمته في شعراء القرن السابع. رواها برمّتها في مطالب السؤول (ص ١١) طبع إيران، فقال: «هذه الأبيات نقلها عنه عليه السلام الثقات، ورواها النقلة الأثبات».
٦ ـ سبط ابن الجوزيّ الحنفيّ: المتوفّى (٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م). رواها بجملتها في (تذكرة خواصّ الأمّة ١٠٧) وفي بعض أبياتها تغيير يسير.
٧ ـ ابن أبي الحديد: المتوفّى (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م). ذكر منها في (شرح نهج البلاغة) بيتين مكتفياً عن البقيّة بشهرتها في الخطبة ٥٦، ٤/ ١٢٢.
٨ ـ أبو عبدالله محمد بن يوسف الكنجيّ الشافعيّ: المتوفّى (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م). رواها في (المناقب) المطبوع بمصر (ص ٤١)، وقال في الاستدلال على سبق أمير المؤمنين إلى الإسلام: وقد أشار عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ إلى شيء من ذلك في أبيات قالها، رواها عنه الثقات. ثمّ ذكر البيت الأوّل والثالث والخامس والسابع.
٩ ـ سعيد الدين الفرغانيّ: المتوفّى (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م). ذكر في شرح تائيّة ابن الفارض في قوله:

وأوضَحَ بالتأويلِ ما كان مُشْكلاً ... عليٌّ بعلمٍ نالَهُ بالوصيّةِ =

. . . .

= بيتين وهما:

وأوصاني النبيُّ على اختيارٍ لأُمّتهِ رضىً منه بحُكمي
وأوجبَ لي ولايتَهُ عليكمْ رسول الله يومَ غديرِ خُمِّ

١٠ ـ شيخ الإسلام أبو إسحاق الحمّوئيّ: المتوفّى (٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م). رواها في فرائد السمطين ١/ ٤٢٧، حديث ٣٥٥، باب ٧٠، وذكر من أوّلها إلى آخر بيت الولاية وزاد قبله:

وأوصاني النبيُّ على اختيارٍ لأُمّتهِ رضىً منه بحُكمي

١١ ـ أبو الفداء: المتوفّى (٧٣٢هـ/ ١٣٢٢م)، أخذ منها في تاريخه (١/ ١١٨) ما يرجع إلى إسلامه عليه السلام.

١٢ ـ جمال الدين محمد بن يوسف الزرنديّ: المتوفّى (بضع ٧٥٠هـ بضع/ ١٣٤٩م). ذكرها برمّتها غير البيت الأخير: فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ... في كتابه نظم درر السمطين، ص ٩٧.

١٣ ـ ابن كثير الشاميّ: المتوفّى (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م). رواها في البداية والنهاية، ٨/ ٩، حوادث سنة ٤٠هـ، عن أبي بكر بن دريد، عن دماد، عن أبي عبيدة: وذكر منها خمسة أبيات.

١٤ ـ خواجة پارسا الحنفيّ: المتوفّى (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م). رواها برمّتها في فصل الخطاب عن الإمام تاج الإسلام الخدابادي البخاري في أربعينه.

١٥ ـ ابن الصبّاغ المكيّ المالكيّ: المتوفّى (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م). رواها في الفصول المهمّة (ص ٣٢) وذكر منها أربعة أبيات، وقال: رواها الثقات الأثبات.

١٦ ـ غياث الدين خواندمير: رواها في تاريخ حبيب السِيَر مج٢، ج١/ ١١، نقلاً عن فصل الخطاب لخواجه پارسا. على أن هناك نقاش في مذهبه.

١٧ ـ ابن حجر: المتوفّى (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م). ذكر خمسة أبيات منها في الصواعق المحرقة (ص ١٣٢) ونقل كلام الحافظ البيهقي المذكور.

توجد في المخطوط من الصواعق المحرقة سبعة أبيات، وكذلك في المنقول عنه كينابيع المودّة للقندوزي باب ٥٩، ٢/ ١١٥، ويؤيّد صحّة نقله عن البيهقي، فإنّه ذكرها برمّتها، لكنّ يد الطبع الأمينة حرّفت عنه بيت الولاية وما بعده.

١٨ ـ المتّقي الهنديّ: المتوفّى (٩٧٥هـ/ ١٥٥٠م). روى كتاب معاوية في كنز العمّال (١٣/ ١١٢) حديث رقم ٣٦٣٦٦، وذكر من الأبيات خمسة.

١٩ ـ الإسحاقيّ: روى كتاب معاوية باللفظ المذكور في لطائف أخبار الدول (ص٤٩) وذكر الأبيات كلّها، ولفظ بيت الولاية فيه كذا:

وأوجَبَ طاعتي فَرْضاً عليكمْ رسولُ الله يومَ غديرِ خُمِّ
فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ لِمَنْ يَرِدُ القيامةَ وهو خصمي =

معاوية بن أبي سفيان كتب إلى الإمام علي عليه السلام: «إنّ لي فضائل! كان أبي سيِّداً في الجاهلية، وصرتُ ملكاً في الإسلام، وأنا صهر رسول الله، وخال

= ٢٠ ـ الحلبيّ الشافعيّ: المتوفّى (١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م). أخذ منها في السيرة النبوية (١/ ٢٦٩) ما يرجع إلى إسلامه عليه السلام.
٢١ ـ الشبراويّ الشافعيّ، شيخ جامع الأزهر: المتوفّى (١١٧٢هـ/ ١٧٥٨م). رواها في الإتحاف بحبّ الأشراف (ص ١٨١)، وفي طبعة أخرى (ص ٦٩) وذكر منها خمسة أبيات.
٢٢ ـ السيد أحمد قادين خاني، رواها في هداية المرتاب ص ١٥٣، وحكى عن البيهقي قوله المذكور.
٢٣ ـ السيد محمود الآلوسيّ البغداديّ: المتوفّى (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م). رواها غير البيت الأوّل والأخير، في شرح عينيّة الشاعر المفلق عبد الباقي العمري (ص ٧٨)، وقال: هي ممّا رواه الثقات عنه عليه السلام.
٢٤ ـ القندوزيّ الحنفيّ: المتوفّى (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م). رواها في ينابيع المودّة (٢/ ١١٥) باب ٥٩، و٣/ ٢٠، باب ٦٥، نقلاً عن ابن حجر، و(ص ٣٧١) نقلاً عن أربعين الإمام تاج الإسلام الخدابادي البخاري.
٢٥ ـ السيّد أحمد زيني دحلان: المتوفّى (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م). ذكر منها في السيرة النبويّة ١/ ٩١ ـ هامش السيرة الحلبيّة ـ (١/ ١٩٠) ما يرجع إلى إسلامه وقال: «هي ممّا كتبه عليٌّ عليه السلام لمعاوية، ثمّ ذكر كلام البيهقي المذكور».
٢٦ ـ الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطيّ المالكيّ، ذكرها برمّتها في كفاية الطالب (ص ٦٣) وعدّها ممّا وُثِقَ به أنّه من شعر أمير المؤمنين.
على أن ابن عساكر قد أخذ منها في تاريخه (تاريخ مدينة دمشق) وفي مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٧٧. (٨/ ٥٩) بيتاً في بيان الفَرق بين الصِهر والخَتَن، وقال: قال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه:

محمّـدٌ النبـيُّ أخـي وصهـري ... أحـبُّ النـاس كلّهـمُ إليّـا

وذُهِل عن أنّ الشطر الثاني المذكور هو لأبي الأسود الدؤلي من قوله:

بنـو عـمّ النبـيّ وأقـربـوه ... أحـبُّ النـاس كلّهـم إليّـا

وممّن روى هذه الأبيات له عليه السلام:
البلاذري في أنساب الأشراف في ترجمة معاوية من قسم ـ بنو عبد شمس ـ القسم الرابع: الجزء ١، ص ١١١، وابن دريد في المجتنى: ص ٤٩ و٥٠ من طبعة حيدرآباد الثانية سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م، وابن المغازلي في كتاب مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: ص ٤٠٤ ح ٤٥٨، وابن عساكر في ترجمته عليه السلام من تاريخ مدينة دمشق: رقم ١٣٢٨ من طبعة الشيخ المحمودي، والسيوطي في جمع الجوامع: ٢/ ١٧٥.

المؤمنين، وكاتب الوحي، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أبالفضائل يبغي عليَّ ابن آكلة الأكباد[1]؟! أكتب يا غلام:

محمّد النبيّ أخي وصنوي[2] — وحمزةُ سيّدُ الشهداءِ عمّي
وجعفرٌ الذي يُضحي ويُمسي — يطيرُ مع الملائكة ابنُ أمّي
وبنتُ محمد سَكَني وعِرْسي — منوطٌ لحمُها بدمي ولحمي
وسبطا أحمدٍ وَلَداي منها — فأيّكمُ له سَهْمٌ كسهمي
سبقتكمُ إلى الإسلام طُرّاً — على ما كان من فَهْمي وعلمي[3]
فأوجبَ لي ولايتَهُ عليكمْ — رسولُ الله يومَ غديرِ خُمِّ[4]
فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ — لمن يلقى الإلهَ غداً بظلمي

ويروي المؤرخون أن معاوية لمّا قرأ كتاب الإمام علي عليه السلام المتضمّن هذه الأبيات الشعرية، قال: أخفوا هذا الكتاب، لا يقرأه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب.

تحريف بعض الكتب

ويناقش الشيخ الأميني التصحيف، أو التحريف، الذي ورد في بعض الكتب المطبوعة في مصر، فيقول:

---

(١) آكلة الأكباد: هند بنت عتبة، أُم معاوية بن أبي سفيان.

(٢) في تاريخ ابن عساكر، ١٢/ ٣٩٧، وفي ترجمة الإمام علي بن أبي طالب (الطبعة المحققة)، رقم ١٣٢٨، وغير واحدٍ من المصادر: «صهري».

(٣) في رواية ابن أبي الحديد، في شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٢٢، خطبة ٥٦، وابن حجر في الصواعق المحرقة، ص ١٣٣، وابن شهرآشوب، في مناقب آل أبي طالب، ٢/ ١٩٤: «غلاماً ما بلغت أوان حلمي». وفي رواية أبي الحجاج يوسف البلوي الشهير بابن الشيخ، ألف باء، ١/ ٤٣٩ وبعض آخر: «صغيراً ما بلغت أوان حلمي». وفي رواية الطبرسي، الاحتجاج، ١/ ٤٢٩، حديث ٩٣، بعد هذا البيت:

وصلّيت الصلاة وكنت طفلاً — مقرّاً بالنبيّ في بطن أمّي

(٤) وذكر الدكتور أحمد رفاعي في تعليقه على معجم الأدباء، ١٤/ ٤٨:

وأوصاني النبيُّ على اختيارٍ — ببيعته غداة غدير خُمِّ

«لا أحسب أنّ أساتذة مصر يخفى عليهم صحيح لفظة «غدير خُمّ»، أو لا يوقفهم السير على مسمّاها وقصّتها، وإن قال قائلهم: إنّها واقعة حرب معروفة، أو يكون لهم معها حساب آخر دون سائر الألفاظ، أو يروقهم أن تكون الأمّة على جهل منها، لكن أسفي على إغضائهم عن تصحيح هذه اللفظة في غير واحد من التآليف، بل تركوها بصورة يتيه بها القارىء».

ويضيف الشيخ الأميني: يذكر الدكتور أحمد رفاعي، في تعليقه على معجم الأدباء، طبع مصر (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، (٤٨/١٤) من شعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بيت الولاية بهذه الصورة:

وأوصاني النبيُّ على اختيارٍ ببَيعَتِهِ غداةَ غدٍ بِرَخْمِ!

وأعجب من ذلك أنّه جعل للكتاب فهرس البلدان والبقاع والمياه في (٤٧) صفحة، وأهمل فيها غدير خُمّ، وقد ذكرت في عدّة مواضع من المعجم.

ويقف الأستاذ محمد حسين، مصحّح ثمار القلوب، طبع مصر (١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م)، على هذه اللفظة في صحيفة واحدة (ص ٥١١) وهي مذكورة فيها غير مرّة (س ٦ و٨ و١٢) ويدعها «غدير حم»، وهذا ثمار القلوب المخطوط بين أيدينا وفيه: غدير خُمّ. ومصحّح لطائف أخبار الدول ص ٤٩ طبع مصر (١٣١٠هـ، ١٨٩٢م)، يترك البيت المذكور من شعر أمير المؤمنين في (ص ٣٣) هكذا:

وأوجبَ طاعتي فرضاً عليكم رسولُ الله يومَ غدا برحمي!

وأنت تجد في مطبوعات غير مصر لِدَةَ هذا التصحيف أيضاً [1].

نماذج من شعر الإمام علي عليه السلام

ويثبت الشيخ الأميني قصيدة أخرى تروى للإمام علي عليه السلام، فيقول: «ما أخرجه الإمام علي بن أحمد الواحدي، عن أبي هريرة، قال: اجتمع عدّةٌ من

(١) المصدر نفسه، ص ٦١.

أصحاب رسول الله ﷺ منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، والفضل بن عبّاس، وعمّار، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان، وعبدالله بن مسعود، رحمهم الله، فجلسوا وأخذوا في مناقبهم، فدخل عليهم عليٌّ عليه السلام فسألهم: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر مناقبنا ممّا سمعنا من رسول الله، فقال عليٌّ: اسمعوا منّي، ثمّ أنشأ يقول:

لقدْ عَلِمَ الأُناس بأنَّ سَهْمِي ... مِنَ الإسلام يَفْضُلُ كلَّ سَهْمِ
وأحمدُ النبيُّ أخي وصِهري ... عليهِ اللهُ صلّى وابنُ عمّي
وإنّي قائدٌ للناسِ طُرّاً ... إلى الإسلامِ من عُربٍ وعُجْمِ
وقاتلُ كلِّ صنديدٍ رئيسٍ ... وجبّارٍ من الكفّار ضَخْمِ
وفي القرآنِ ألزَمَهمْ ولائي ... وأوجبَ طاعتي فَرْضاً بِعَزْمِ
كما هارونُ من موسى أخوهُ ... كذاك أنا أخوه وذاك اسمي
لذاك أقامني لَهُمُ إماماً ... وأخبَرَهُمْ به بغديرِ خُمّ
فَمَنْ منكُم يعادلني بسهمي ... وإسلامي وسابقتي ورحمي
فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ ... لمن يلقى الإلهَ غداً بِظُلمي
وويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ ... لجاحدِ طاعتي ومُريدِ هَضمي
وويلٌ للذي يشقى سِفاهاً ... يريدُ عداوتي مِن غيرِ جُرْمِ(١)

وذكره عن الواحدي القاضي الميبذيّ الشافعيّ في شرح الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧)، والقندوزيّ الحنفيّ في ينابيع المودّة [ج١] (ص ٦٨).

ويروي السيد محسن الأمين من شعر الإمام علي عليه السلام قوله:

فإن كُنتَ بالشّورى مَلَكْتَ أمورهم ... فكيف بهذا المعنى والمشيرون غُيَّبُ

(١) المصدر نفسه، ص ٦٣. ينابيع المودّة، باب ١٤، ١/ ٦٧، بيروت، الأعلمي. وفيه: لقد علم «الأنام».

وإن كُنْتَ بالقربى حججت خصيمهم　　فغيرك أولى بالنبيّ وأقرب

وقد أومأ الكميت إلى هذا المعنى بقوله:

بحقِّكم أَمْسَت قريشٌ تقودُنا　　وبالفذِّ منها والرَّديفين نُرْكَبُ
فإن هي لم تصلح لحيٍّ سواهم　　فإن ذوي القربى أحقّ وأوجب[1]

* * *

(١) في رحاب أئمّة أهل البيت، ص ٣٠٥، أعيان الشيعة، ١/ ٥٥١.

(٢)
حسان بن ثابت الأنصاري

حياته

ولـد أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي في يثرب. وكـان لـه مـن العمـر، ليلـة ولادة النبـيّ ﷺ، ثماني سنين أو سبع. يروي صاحب الأغاني أنه قـال: «. . . إنـي لغـلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمانٍ، إذا يهـودي بيثـرب يصـرخ ذات غداة: يا معشر يهود. . .، طلع نجم أحمد الذي يولـد به في هذه الليلة، قال: ثم أدركه اليهودي، ولم يؤمن به»(١). وهو من بنـي النجّـار الخـزرجيّيـن، أخـوال النبـيّ ﷺ. كـان والـده مـن سادة قومه وأشـرافهـم، وكانت أمّه «الفُريعة» خزرجيّة، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله.

يعـدّ حسّـان مـن المخضرمين المعمّرين، إذ يروى أنّه عاش في الجاهلية ستيـن سنـة وفـي الإسـلام ستّيـن أخـرى(٢)، واختُلـف فـي سنـة وفاته فقيل: تـوفـي سنـة أربعيـن، وقيـل: سنـة خمسيـن، وقيـل: سنـة أربـع وخمسيـن للهجرة، ٦٧٣م.

---

(١) أبـو الفـرج الأصفهـانـي، الأغـانـي، بيروت: دار الثقافة ١٣٩/٤ و١٤٠. وانظر في ترجمة حسـان وأخبـاره، المصـدر نفسـه، ص ١٣٨ ـ ١٧٤، وطبقـات الشعـراء لمحمـد بـن سـلام الجمحـي، ص ١٧٩، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/ ٢٦٤. والموشح للمرزباني ص ٦٠، والاستيعـاب لابـن عبـد البـر، بيـروت: دار الكتـب العلميـة، ١/ ٤٠٠، إضافـة إلـى مصـادر أخرى كثيرة.

(٢) الأغاني، ص ١٣٩ و١٤٠.

مكانته الشعريَّـة

في الجاهلية

لحسّان مكانة متميِّزة في تاريخ الشعر العربيّ، يـوضحها صاحب الأغاني عنـدمـا يقـول: «فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهليَّة، وشاعر النبيّ ﷺ في النبوّة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام»، ثم عندما ينسب إلى أبي عبيدة قوله: «وأجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر»[1].

تـردّد حسان على بلاط الغساسنة في بلاد الشام، ومدحهم بقصائد كثيرة، بـلغت درجـة عاليـة من الجـودة، ما دفع الحطيئة إلى القول: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:

يُغْشَـون حتّى مـا تَهِـرُّ كـلابُهـم   لا يَسْـألـون عـن السَّواد المقبل[2]

ويروى أنه رحل إلى بلاط النعمان بن المنذر في العراق، ومدحه.

ينتمـي حسّـان إلى أسرة عريقة في قول الشعر. يروي المرزباني في معجم الشعـراء: «قـال دعبل والمبرّد: أعرق الناس كانوا في الشعر آل حسّان، فمنهم يعدّون ستـة فـي نسـق كلهم شاعر، سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام»[3].

ويذكـر الشيـخ الأمينـي، صـاحب الغدير، أن ولده عبد الرحمن المذكور شاعر قليل الحديث (ت١٠٤هـ ـ ٧٢٢م) وفيه وفي والده حسان قال شاعر:

فـمن للقـوافي بعد حسان وابنه؟   ومـن للمثـانـي بعد زيد بن ثابت؟

وكان لسان قومه: الخزرج في الصِّراع الذي كان يدور بينهم وبين الأوس في الجاهليّـة، وتهـاجى لذلك هو والشاعرين الأوسيَّين: قيس بن الخطيم وأبي

(١) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(٢) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بيروت: دار الكتب العلمية، ١/ ٤٠٤.
(٣) المرزباني، معجم الشعراء، ص ٣٦٩.

قيس بن الأسلت. ويروى أنّه أنشد شعره في مجلس النابغة الذبياني في سوق عكاظ، فحكم له مرّة أنه شاعر، وميّزه من الخنساء إذ وصفها بالبكّاءة، وقدّم عليه الأعشى، في مرّة أخرى، فأثار موجدته.

في الإسلام

وعندما هاجر النبيّ ﷺ إلى مكّة دخل حسّان في الإسلام، وكان واحداً من الأنصار، ويروى أنّ رسول الله قال للأنصار بعد ما راح شعراء قريش يهجونه: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟». فقال حسّان: «أنا لها»، وأخذ بطرف لسانه، وقال: «والله ما يسرّني به مقول بين بصرى وصنعاء». وجاء في رواية أخرى أنه قال عن لسانه: «يا رسول الله، لو شئت لفريت به المزاد». فقال رسول الله ﷺ له: «اهجهم وجبريل معك». وجاء في رواية أخرى أنه كان يدعوه للردّ على هجاء المشركين، ويدعو له بمثل قوله: «اللهم أيّده بروح القدس» وأنه قال له: «إن روح القدس لا يزال يؤيّدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله ﷺ»، وأنه استمع إلى هجائه، فقال: «لَهذا أشدّ عليهم من وقع النّبل».

كان حسّان، في الجاهليّة، هجّاءً قديراً، وقد شارك في معارك قومه، وقال موضحاً أنه على الهجاء أقدر منه على القتال:

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي[١]

وبرزت هذه القدرة في الإسلام، سأله رسول الله ﷺ: «كيف تهجوهم. [أي القرشيين] وأنا منهم؟»، فقال: «إني أسلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين».

واتّبع حسّان، مثله مثل كعب بن مالك، في هجائه المشركين، الطريقة التقليديّة؛ فعارضهم بمثل قولهم بالوقائع والأيّام والمآثر، وعيّرهم بالمثالب،

(١) مذودي: لساني الذي أَذود به: أي أُدافع عن نفسي وقومي.

فكان في ذلك الزمان أشدّ عليهم من وقع عبدالله بن رواحة الذي كان يعيّرهم بالكفر. فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة.

وفي حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت عبدالله بن رواحة [بهجاء قريش] فقال وأحسن. وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن. وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى».

ومن مواقفه المشهودة ردّه على شاعر وفد بني تميم، حين قدم على رسول الله ﷺ، فقد أنشد في ذلك المجلس مديحاً رائعاً، ومنه:

إن الذّوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بيَّنوا سنَّة للناس تُتَّبعُ(١)

وفخر، في هذه القصيدة، بشعره المجوّد: «لسان حائك صنع»، الذي يؤازر إيمانه، فقال:

أهدى لهم مدحي قلبٌ يؤازره ... في ما أراد لسان حائكٌ صَنَعُ

آزر هذا اللِّسان «الحائك الصَّنع» الإيمان، فحقّق الشاعر مكانة، قامت في طور الصراع مع المشركين، على الهجاء الموجع، المتضمِّن صوراً ساخرة مضحكة. ومن القصائد التي تمثّل هذا اللون من الشعر قصيدته في هند أم معاوية يوم أحد، وكانت قد بقرت بطن حمزة(رض) حين استشهد في هذه المعركة، فاستخرجت كبده ولاكتها ثم لفظتها، وقال فيها:

أشِرت لكاعِ وكان عادَتَها ... لؤمٌ إذا أشِرت مع الكفرِ
. . . أقبلْتِ زائرةً مبادرةً ... بأبيك وابنك يوم ذي بدرِ
ونسيتِ فاحشةً أتيتِ بها ... يا هند، ويحك سبَّة الدَّهرِ . .

ومن هذه القصائد قصيدته في هجاء عمرو بن العاص، وقال فيها:

أمّا ابنُ نابغة العبدُ الهجينُ فقد ... أُنحي عليه لساناً صارماً ذكرا

---

(١) الذوائب: الأعالي في الشرف، فهر: قريش.

ما بال أمّك راغت عند ذي شرفٍ ... إلى جذيمة لما عفّت الأثرا
ظلّت ثلاثاً وملحانٌ معانقها ... عند الحجون فما ملاًّ ولا فترا

ويقصر هجاء حسان فيكون لاذعاً مثل أبياته في هجاء المغيرة بن شعبة:

لو أنَّ اللؤم يُنسب كان عبداً ... قبيح اللون أعورَ من ثقيف
تركت الدين والإسلام جهلاً ... غداة لقيت صاحبة النَّصيف
وراجعت الصِّبا وذكرت لهواً ... من الأحشاءِ والخصر اللّطيف

واكب حسان بشعره جهاد المسلمين، وكان شعره الإسلامي يتطوَّر بوضوح إلى أن استطاع أداء القيم الإسلامية الجديدة بلغة محكمة الصَّنع، تجاوز بها ارتباك بدايات التعبير عن التجربة الجديدة. ومن القصائد التي استجابت فيها اللُّغة لتجسيد القول الجديد قصيدته التي أنشدها بعد صلح الحديبيّة، فقد قال بعد مقدّمة غزليّة:

عَدِمْنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْها ... تثير النَّقع موعدها كداء(١)
. . . فإمّا تُعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلاَّ فاصبروا لجلاد يوم ... يعزُّ الله فيه من يشاء
. . ألا فابلغ أبا سفيان عنّي ... فأنت مجوَّفٌ نخبٌ هواء

ويبلغ البوح الوجداني، المتمثّل لغة شعرية راقية، أوجه في جملة مراثي الشاعر للنبي ﷺ، ومن هذه المراثي قصيدته التي يقول فيها:

بِطيبة رسم للرسول ومَعهدٌ ... مُنيرٌ. وقد تعفو الرُّسوم وتَمْهَدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دار حُرْمَةٍ ... بها مِنبرُ الهادي الذي كان يَصعَدُ
وواضحُ آياتٍ وباقي مَعالمٍ ... وربْعٌ له فيه مُصَلّىً ومَسْجِدُ
بها حُجراتٌ كان ينزل وَسْطها ... من الله نورٌ يُستضاء ويُوقَدُ
مَعالِمُ لم تُطْمَسْ على العهد آيُها ... أتاها البِلى، والآيُ منها تَجَدَّدُ

(١) كداء: جبل بأعلى مكّة، وباب من أبوابها.

عرفتُ بها رَسْمَ الرَّسولِ وعهدَه ... وقبراً به واراه في التُّرب مُلْحِدُ[1]
ظَلِلْتُ بها أبكي الرسولَ، فأسعدت ... عيونٌ ومثلاها من الجَفْنُ تُسعِدُ
تَذكَّرُ آلاءَ الرسول، وما أرى ... لها مُحْصياً نفسي، فنفسي تَبَلَّدُ
مُفَجَّعةٌ قد شفَّها فَقْدُ أحمدٍ ... فظلّت لآلاء الرسولِ تُعَدِّدُ
وما بلَغتْ من كلِّ أمرٍ عشيرَهُ ... ولكنَّ نفسي بعضَ ما فيه تَحْمَدُ
أطالتْ وُقوفاً تَذْرفُ العينُ جهدَها ... على طَلَلِ القبرِ الذي فيه أحمدُ
فبوركْتَ يا قبرَ الرسول وبوركَتْ ... بلادٌ ثَوى فيها الرشيدُ المسَدَّدُ
وبورك لَحْدٌ منكَ ضُمِّن طيِّباً ... عليه بناءٌ من صفيح، مُنَضَّدُ
تَهيلُ عليه التُّربَ أيدٍ، وأعْيُنٌ ... عليه، وقد غارَتْ بذلك أسعُدُ
لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمةً ... عَشِيَّةَ علَّوْه الثرى لا يُوَسَّدُ
وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نَبيُّهم ... وقد وَهَنتْ منهم ظُهورٌ وأعْضُدُ
يُبَكُّون من تبكي السماواتُ يومَه ... ومن قد بكته الأرضُ فالناس أكْمدُ

تغيَّرت الأمور بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبقي حسّان يجلس في المسجد ينشد الشعر، ويروى أن عمر بن الخطاب مرّ به، وهو في تلك الحالة، «فأخذ بأذنه، وقال: أرغاءٌ كرغاء البعير! فقال حسان: دعنا عنك يا عمر، فوالله لتعلم أنّي كنت أُنشِدُ في هذا المسجد من هو خير منك فلا يغيّر عليَّ...». وقد سأل عمر أبا هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عنّي، اللهم أيِّده بروح القدس؟» قال: نعم. ويروى، في خبر آخر، أن الزبير بن العوّام قال لجلساء حسان: «... كان يعرض لرسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه بشيء»[2].

ويذكر الشيخ الأميني أن أبا عبدالله الآبي المالكي قال في شرح صحيح مسلم (ص ٣١٧): «وهذا يدل على أن عمر (رض) كان يكره إنشاد الشعر في

(١) الملحد: الذي واراه في لحده.
(٢) الأغاني، مصدر سابق، ص ١٤٨ و١٤٩.

المسجد، وكان قد بنى رحبة خارجه، وقال: من أراد أن يلغط وينشد شعراً فليخرج إلى هذه الرحبة». ويعلّق على ذلك فيقول: «كل ذلك على خلاف ما كان عليه النبيّ ﷺ. وفي وقته أفحمه حسان بما ذكر من قوله، لكن لا رأي لمن لا يُطاع، وقبل حسّان نهاه النبي ﷺ عن فكرته هذه، وفهّمه بما هناك من الغاية الدينية المتوخّاة حين تعرّض لعبدالله بن رواحة، لمّا كان رسول الله ﷺ يطوف البيت على بعير، وعبدالله آخذ بغرزه وهو يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله خلّوا فكل الخير مع رسوله..»[1]

تعرّض شعره للوضع والحذف

ويبدو أن شعر حسّان الإسلامي تعرَّض للوضع والحذف، ويقول د. شوقي ضيف في هذا الصدد: «والحقّ أن شعر حسان الإسلامي كثر الوضع فيه»، ومن هذا الباب «أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون، ليظهروا للناس أن شاعر رسول الله ﷺ كان في صفّهم، وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظّمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضدَّ الرسول ويحادّونه، ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مدح الزبير بن العوام وعبدالله بن العباس، وكأنَّ الأحزاب السّياسيَّة لعبت دوراً في وضع الشعر على لسانه»[2].

وكان الشيخ الأميني قد تحدّث، من قبل، عمّا تعرّض له ديوان حسّان من تحريف، فقال:

---

(١) العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط١، ١٤١٦هـ، ص ١٠٨ و١٠٩.

(٢) د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، القاهرة: دار المعارف، ط٧، ص ٨١. ويحيل د. ضيف إلى ابن عبد البر في الاستيعاب، حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء عثمان أبياتاً، وقد ردَّ بيتاً له فيه إلى عمران بن حطّان.

«إنّ لحسّان في مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مدائح جمّة، وسنوقفك على ما التقطناه من ذلك، فمن هذه الناحية نعرف أنّ يد الأمانة لم تقبض عليها يوم مدّت إلى ديوانه، فحرّفت الكلم عن مواضعه، ولعبت بديوان حسّان كما لعبت بغيره من الدواوين والكتب والمعاجم، التي أسقطت منها مدائح أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم، والذكريات الحميدة لأتباعهم، كديوان الفرزدق الذي أسقطوا منه ميميّته المشهورة في مولانا الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام مع إشارة الناشر إليها في مقدّمة شرح ديوانه، وقد طفحت بذكرها الكتب والمعاجم، وكديوان الكميت، فإنّه حُرّفت منه أبيات كما زيدت عليه أخرى، وكديوان أمير الشعراء أبي فراس الحمداني، وكديوان كشاجم الذي زحزحوا عنه كميّة مهمّة من مراثي سيّدنا الإمام السبط الشهيد الحسين بن علي (سلام الله عليه) وكتاب المعارف لابن قتيبة الذي زيد فيه ما شاءه الهوى للمحرّف ونقص منه ما لا يلائم خُطّته، بشهادة الكتب الناقلة عنه من بعده»[1].

مديح أمير المؤمنين،الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام غديريّة حسّان

ويعود الشيخ الأميني إلى المصادر الوثيقة، فيقرأها، ويجد فيها قصائد مدح بها حسّان بن ثابت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبرز هذه القصائد يائيّة مشهورة أنشدها الشاعر في يوم الغدير، ويقول فيها:

يُناديهمُ يومَ الغديرِ نبيُّهمْ ... بخمٍّ، وأسْمِعْ بالرَّسولِ مُنادِيا
فقال: فمن مولاكُمُ ونبيُّكمْ؟ ... فقالوا، ولم يُبدوا هناك التعاميا:
إلهُكَ مولانا، وأنتَ نبيُّنا ... ولم تَلْقَ منّا في الولايةِ عاصيا.
فقال له: قم، يا عليُّ، فإنّني ... رضيتُكَ من بعدي إماماً وهادياً،
فمن كنتُ مولاهُ فهذا وليُّهُ ... فكونوا له أتباع صدقٍ مواليا.

---

(١) الغدير، مصدر سابق، ص ٧٦.

هنــاك دعــا : اللّهــمّ والِ وليّــهُ ... وكــن للـذي عــادى عليّـاً معــاديــا
وكــان علـيٌّ أرمـدَ العينِ يبتغـي ... دواءً فلمّــا لــم يحــسَّ مــداويــا
شفـاهُ رســولُ اللهِ، منــه، بتفلـةٍ ... فبــوركَ مَــرْقيّــاً وبــورك راقيــا
فقال: سأُعطي الراية اليوم ضارباً ... كَمِيّـاً مُحبّـاً للـرســولِ مــواليــا
يحــبُّ إلهــي والإلــه يُحبُّــهُ ... بــه يفتــحُ اللهُ الحصــونَ الأوابيــا
فخَــصَّ بهــا دون البـريّــةِ كلِّها ... عليّاً وسمّـاهُ الـوزيـرَ المـواخيـا(١)

---

(١) يراجع: المصدر نفسه، ص ٦٥ ـ ٧٦. حيث يذكر العلامة الأميني مصادر هذه القصيدة بالتفصيل فيقول:

روت جلّ كتب التاريخ والأدب هذا الشعر، ولعلّ أقدم كتاب سبق لروايتها هو كتاب سليم بن قيس الهلالي (٢/ ٨٢٨، ح٣٩)، ويمكن إدراج بعض مَن رواها بعد الهلالي من الحُفّاظ كالتالي:

١ ـ الحافظ أبو عبيدالله المرزباني محمد بن عمران الخراسانيّ (المتوفى ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م). أخرج في مرقاة الشعر عن محمد بن الحسين، عن حفص، عن محمد بن هارون، عن قاسم بن الحسن، عن يحيى بن عبد الحميد، عن قيس بن الربيع، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، قال:

لمّا كان من غدير خُمّ، أمر رسول الله منادياً فنادى الصلاة جامعة. فأخذ بيد عليّ وقال: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعاد من عاداه».

فقال حسّان بن ثابت: يا رسول الله أقول في عليّ شعراً؟ فقال رسول الله ﷺ: «افعل»، فقال: «يناديهُم يوم الغدير نبيّهم»... الأبيات.

٢ ـ الحافظ الخركوشيّ أبو سعد (المتوفّى ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م). أخرجه في كتابه شرف المصطفى.

٣ ـ الحافظ ابن مردويه الأصبهانيّ (المتوفّى ٤١٠هـ/ ١٠١٩م). أخرج بإسناده عن أبي سعيد الخدري حديث الغدير وفيه:

فقال حسّان بن ثابت: يا رسول الله أتأذن لي أن أقول أبياتاً؟ فقال: «قل على بركة الله». فقال: «يناديهم يوم الغدير نبيّهم»... الأبيات.

٤ ـ الحافظ أبو نعيم الإصبهانيّ (المتوفّى ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م). أخرجه في كتابه: ما نزل من القرآن في عليّ، ص ٥٧، وفيه:

فقال حسّان: ائذن لي يا رسول الله أن أقول في عليّ أبياتاً تسمعهنّ.

فقال: «قل على بركة الله». فقام حسّان فقال: يا معشر مشيخة قريش أُتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية...

٥ ـ الحافظ أبو سعيد السجستانيّ (المتوفّى ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)، أخرجه في كتاب الولاية.

٦ ـ أخطب الخطباء الخوارزميّ المكيّ (المتوفّى ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، رواه في مقتل الإمام السبط=

. . . .

= الشهيد (مقتل الإمام الحسين، ص ٤٧ والمناقب ص ١٣٥ ح١٥٢).

٧ ـ الحافظ أبو الفتح النطنزيّ: رواه في الخصائص العلويّة على سائر البريّة عن الحسن بن أحمد المهري، عن أحمد بن عبدالله بن أحمد، عن محمد بن أحمد بن عليّ، عن ابن أبي شيبة محمد بن عثمان، عن الحمّاني، عن ابن الربيع، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري بلفظ أبي نعيم الإصبهاني، وذكر من الأبيات أربعة من أوّلها.

٨ ـ أبو المظفّر سبط الحافظ الحنفيّ (المتوفّى ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) رواه في تذكرة خواصّ الأمّة (ص ٣٣).

٩ ـ صدر الحفّاظ الكنجيّ الشافعيّ (المتوفّى ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م). ذكره في كفاية الطالب (باب ١، ص ٦٤) بلفظ أبي نعيم المذكور.

١٠ ـ شيخ الإسلام صدر الدين الحمّوئي (المتوفّى ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م). رواه في فرائد السمطين (١/ ٧٣ ح٣٩ في الباب الثاني عشر)، عن الشيخ تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب بن عثمان الخازن، عن برهان الدين ناصر بن أبي المكارم المُطَرّزي، عن أخطب خوارزم بسنده ولفظه المذكورين.

١١ ـ الحافظ جمال الدين محمد بن يوسف الزرنديّ شمس الدين الحنفيّ (المتوفّى بضع و٧٥٠هـ/ وبضع و١٣٤٩م) أخرجه في كتابه نظم درر السمطين ص ١١٢.

١٢ ـ الحافظ جلال الدين السيوطيّ (المتوفّى ٩١١هـ/ ١٥٠٥م). ذكره في رسالته الازدهار في ما عقده الشعراء من الأشعار، نقلاً عن تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم الحنفي (المتوفّى ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

ورواه من أعلام الإمامية:

١ ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد المفجّع (المتوفّى ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م). رواه في شرح قصيدته المعروفة بالأشباه. عن عبدالله بن محمد بن عائشة القرشي، عن المبارك، عن عبدالله بن أبي سلمان، عن عطا، عن جابر بن عبدالله: أنّ رسول الله ﷺ نزل بغدير خُمّ، ونصب بدوحات، وكان يومٌ حارٌّ، وإنّ أحدَنا ليستظلُّ بثوبه، ويبلُّ خرقةً فيضعها على رأسه من شدّة الحرّ، فقام عليه السلام فقال:

«أيّها الناس ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجي أمّهاتهم؟». قلنا: بلى يا رسول الله. فأخذ بيد عليّ، فرفعها، ثمّ قال:

«اشهدوا، من كنت مولاه فعليٌّ مولاهُ، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه». يقولها ثلاثاً. فقال عمر: هنيئاً لك يا أبا الحسن، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، فقام رجل إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، أتأذن لي في إنشاد أبيات في عليّ؟ فقال عليه السلام: «قل يا حسّان» فقال:

«يناديهمُ يوم الغدير نبيّهم». . . الأبيات إلى آخرها. =

. . . .

= ٢ ـ أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم بن يزيد الطبريّ، رواه في المسترشد بإسناده عن يحيى الحمّاني عن قيس، عن العبدي، عن أبي سعيد بلفظ الحافظ أبي نعيم الإصبهاني المذكور، إلاّ أنّ البيت الثالث فيه:

إلهُك مولانا وأنتَ وليُّنا ... ولا تَجِدَنْ منّا لك اليومَ عاصيا

٣ ـ أبو جعفر الصَّدُوق محمد بن بابويه القمّي: (المتوفّى ٣٨١هـ/ ٩٩١م). رواه في الأمالي (ص ٤٦٠) بالسند والمتن المذكورين، عن الحافظ المرزباني.

٤ ـ الشريف الرضيّ: من شعراء القرن الهجري الرابع (المتوفّى ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) جامع نهج البلاغة ـ خطب الإمام علي ـ في خصائص الأئمّة ص ٤٢.

٥ ـ الشيخ المفيد أبو عبدالله محمد بن النعمان: (المتوفّى ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م). رواه في الفصول المختارة ص ٢٣٥ وقال: وممّا يشهد بقول الشيعة في معنى المولى وأنّ النبيَّ أراد به يوم الغدير الإمامة، قول حسّان بن ثابت على ما جاء به الأثر: أنّ رسول الله لمّا نصب عليّاً يوم الغدير للناس عَلَماً وقال فيه ما قال، استأذنه حسّان بن ثابت في أن يقول شعراً فأنشأ يقول:

«يناديهمُ يوم الغدير نبيّهم». . . الأبيات.

فلمّا فرغ من هذا القول، قال له النبيُّ ﷺ: «لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القُدس ما نصرتَنا بلسانك»، فلولا أنَّ النبيّ ﷺ أراد بالمولى الإمامة لما أثنى على حسّان بإخباره بذلك، ولأنكره عليه، وردّه عنه.

ورواه في رسالته في معنى المولى المطبوع ضمن مصنّفات الشيخ المفيد (٨/ ٣١)، وقال بعد ذكره: شعر حسّان مشهورٌ في ذلك، وهو شاعر رسول الله ﷺ وقد قال له: «لا تزال مؤيَّداً بروح القدُس ما نصرتنا بلسانك». وهذا صريح في الإقرار بإمامته من جهة القول الكائن في يوم الغدير من رسول الله له، لا يمكن تأويله، ولا يسوغ صرفه إلى غير حقيقته.

ورواه في تأليفه النصرة لسيِّد العترة في حرب البصرة كتاب الجمل ص ١١٧. وفي كتابه الإرشاد (١/ ١٧٧) بلفظ يقرب من رواية الحافظ أبي نعيم الأصبهاني المذكور.

٦ ـ الشريف المرتضى علم الهدى: (المتوفّى ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، في شرح بائيّة السيِّد الحميري ضمن رسائل الشريف المرتضى، المجموعة الرابعة ص ١٣١.

٧ ـ أبو الفتح الكراجكي: (المتوفّى ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) في كنز الفوائد (١/ ٢٦٨) وقال ما ملخّصه: إنَّ شعر حسّان هذا قد سارت به الركبان، وقد تضمّن الإقرار لأمير المؤمنين عليه السلام بالإمامة والرئاسة على الأنام، لمّا مدحه بذلك يوم الغدير بحضرة رسول الله ﷺ على رؤوس الأشهاد، فصوّبه النبيُّ في مقاله، وقال له: «لا تزال يا حسّان مؤيّداً ما نصرتنا بلسانك».

٨ ـ الشيخ عبيدالله بن عبدالله السدابادي: رواه في المقنع في الإمامة ص ٧٥.

٩ ـ أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ: (المتوفّى ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) في تلخيص الشافي. =

. . . .

= ١٠ ـ المفسّر الشيخ أبو الفتوح الخزاعيّ الرازيّ من مشايخ ابن شهرآشوب (المتوفّى ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م): رواه في تفسيره (٤/ ٢٧٩) بلفظ يقرب من لفظ الحافظ أبي نعيم وزاد فيه:

فَخَصّ بها دونَ البريّةِ كلِّها ... عليّاً وسمّاه الوزيرَ المواخيا

١١ ـ الفتّال أبو عليّ الشهيد، المترجَم في كتاب (شهداء الفضيلة للأميني، ص ٣٧) رواه في روضة الواعظين (١/ ١٠٣).

١٢ ـ أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ، رواه في إعلام الورى (ص ١٣٩).

١٣ ـ ابن شهرآشوب السرويّ: (المتوفّى ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م). في مناقب آل أبي طالب ٣/ ٣٧.

١٤ ـ أبو زكريّا يحيى بن الحسن الحلّي الشهير بابن البطريق: رواه في خصائص الوحي المبين (ص ٦٢) من طريق الحافظ أبي نعيم الإصبهاني.

١٥ ـ السيّد هبة الله: رواه في كتابه المجموع الرائق ص ٢٠٤.

١٦ ـ رضيّ الدين عليّ بن طاووس (المتوفّى ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) في الطرائف (ص ١٤٦) ح ٢٢.

١٧ ـ بهاء الدين أبو الحسن الإربليّ: المتوفّى (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) في كشف الغمّة ١/ ٣٢٥.

١٨ ـ عماد الدين الحسن الطبريّ، في الكامل البهائي (١/ ٢٨١).

١٩ ـ الشيخ يوسف بن حاتم الشاميّ، في موضعين من كتابه الدرّ النظيم ١/ ٩٠ و١٤١.

٢٠ ـ الشيخ عليّ البياضيّ العامليّ، في كتابه الصراط المستقيم ١/ ٣٠٥.

٢١ ـ القاضي نور الله المرعشيّ (المستشهد ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م)، المترجم في كتاب شهداء الفضيلة للأميني (ص ١٧١): ذكره في مجالس المؤمنين ١/ ٤٦.

٢٢ ـ المحقّق محسن الكاشانيّ (المتوفّى ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م). في علم اليقين (٢/ ٦٥١) نقلاً عن ـ التهاب نيران الأحزاب ـ بلفظ يقرب من لفظ سليم بن قيس الهلاليّ التابعيّ في كتابه، وهو:

يناديهمُ يومَ الغديرِ نبيُّهم ... بخمٍّ وأَسْمِعْ بالنبيِّ مناديا
وقد جاءَهُ جبريلُ عن أمرِ ربّه ... بأنّك معصومٌ فلا تَكُ وانيا
وبلّغهُمُ ما أنزلَ اللهُ ربُّهم ... إليكَ ولا تخشَ هناك الأعاديا
فقام به إذ ذاك رافعَ كفِّهِ ... بكفِّ عليٍّ مُعلنَ الصوتِ عاليا
فقال: فمن مولاكمُ ووليّكم؟ ... فقالوا، ولم يُبدوا هناك تعاميا:
إلهُكَ مولانا وأنت وليّنا ... ولَنْ تَجِدَنْ فينا لك اليومَ عاصيا
فقال له: قُم يا عليُّ فإنّني ... رَضيتُكَ من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنتُ مولاهُ فهذا وليُّه ... فكونوا له أنصارَ صدقٍ مَواليا
هناك دعا أللهمّ والِ وليَّهُ ... وكُن للّذي عادى عليّاً مُعاديا
فيا ربِّ أُنصر ناصريه لنَصْرِهِمْ ... إمامَ هدىً كالبدرِ يجلو الدياجيا

٢٣ ـ الشيخ إبراهيم القطيفيّ، في الفرقة الناجية بلفظ الكاشاني. =

في ذلك اليوم التاريخيّ العظيم الذي بلَّغ فيه النبي ﷺ الناس وصيّته، وقف حسّان بن ثابت، شاعر الرسول ﷺ يستأذن في قول الشعر، فأذن الرسول ﷺ له، فأنشد قصيدته. وقد اتّبع فيها سياقاً سردياً يروي ما حدث، وطوّع اللغة الشعرية للسرد والحوار، فأدّى ما بلّغه النبيّ ﷺ للمسلمين، وما أجاب به هؤلاء، ثم نظم دعاء النبيّ، وصوّر الحال التي كان عليها الوصيّ عليه السلام، وكيف شفاه النبي ﷺ، وقرّر أنه يحبّ الله، عز وجل، والله يحبّه، وبه يفتح الحصون المنيعة، وقد خصّه من دون البريّة كلّها بمنزلة الإمامة والولاية، وسمّاه «الوزير المؤاخيا»، وقد سمع رسول الله ﷺ هذه القصيدة، فقال لحسّان: «لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

□ وتذكر كتب التاريخ والأدب مواقف أنشد فيها حسان الشعر في مدح الإمام علي عليه السلام وقد أثبت الشيخ الأميني، في كتابه «الغدير»، الكثير

= ٢٤ ـ السيّد هاشم البحرانيّ (المتوفّى ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م). في غاية المرام (ص ٨٧ حديث ٧٢).

٢٥ ـ الشيخ محمد باقر المجلسيّ (المتوفّى ١١١١هـ/ ١٦٩٩م): في بحار الأنوار (٢١/ ٣٨٨ و٣٧/ ١١٢).

٢٦ ـ الشيخ يوسف البحرانيّ، صاحب الحدائق الناظرة (المتوفّى ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م). في كشكوله ٢/ ٣١٨.

وهناك جمع آخرون رووا هذا الحديث، وفي المذكورين كفاية.

ويقول الشيخ الأميني، في ما يتعلق بالأبيات الخمسة الأخيرة من القصيدة: «والذي يظهر للباحث أنّ حسّاناً أكمل هذه الأبيات قصيدةً ضمّنها نُبذاً من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام، فكلٌّ أخذ منها شطراً يناسب موضوعه. وذكر الحافظ ابن أبي شيبة، قال: حدّثنا ابن فضل، قال: حدّثنا سالم بن أبي حفصة، عن جُميع بن عمير، عن عبدالله بن عمر. وصدر الحفّاظ الكنجي الشافعي في كفايته (كفاية الطالب، ص١٠٤، باب ١٤، طبع النجف ص ٣٨، طبع مصر ص ١٦، طبع إيران، ص ٢١، وابن الصبّاغ المالكي في فصوله المهمّة ص ٢٢، وغيرهم، منها قوله:

وكان عليٌّ أرمدَ العين يبتغي ... دواءً فلمّا لم يحسّ مداويا الأبيات...

وهذه الأبيات إشارة إلى حديث صحيح متواتر، أخرجه أئمّة الحديث بأسانيد رجالها كلّهم ثقات.

أنهوها إلى:

بُريدة بن الخصيب، عبدالله بن عمر، عبدالله بن العبّاس، عمران بن حصين.

منهـا[١]، وإنّـا نـذكـرهـا هنـا، استناداً إليه، بعد أن عدنا إلى مصادره، وحقّقنا الروايات والنصوص. ومن هذه المواقف ما يرويه اليعقوبي، وابن أبي الحديد[٢]:

«صعـد أبـو بكـر المنبـر عنـد ولايتـه الأمـر، فـجلس دون مجلس رسول الله ﷺ بمـرقـاة، ثـمّ حَمَـدَ الله وأثـنى عليه، وقال: إنّي وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فـإن استقمت فـاتّبعـونـي، وإن زغتُ فقوّموني، لا أقول إنّي أفضلكم فضـلاً، ولـكنّي أفضلـكم حمـلاً، وأثـنى علـى الأنصار خيراً، وقال: أنا وإيّاكم معشر الأنصار كما قال القائل:

جزى الله عنّا جعفراً حين أزْلَقَتْ ... بنـا نعلُنـا فـي الـواطئيـن فَـوَلّـتِ
أَبَـوا أن يملّـونـا ولـو أنَّ أمَّنـا ... تـلاقـي الـذي يلقـون منّـا لَمَلَّـتِ

فـاعتـزلـت الأنصـار عن أبي بكر، فغضبت قريش وأحفظها ذلك، فتكلّم خطباؤها، وقدم عمرو بن العاص، فقالت له قريش: قُم فتكلّم بكلام تنال فيه من الأنصار، ففعل ذلك.

فقام الفضل بن العبّاس فردّ عليهم، ثمّ صار إلى عليّ فأخبره وأنشده شعراً قـالـه. فخـرج علـيٌّ مغضبـاً حتـى دخل المسجد فذكر الأنصار بخير، وردّ على عمرو بن العاص قوله. فلمّا علمت الأنصار ذلك سرّها، وقالت: ما نبالي بقول مـن قـال مـع حُسْـن قـول علـيّ، واجتمعت إلى حسّان بن ثابت، فقالوا: أجب الفضل، فقال: إن عارضته بغير قوافيه فضحني، فقالوا: فاذكر عليّاً فقط، فقال:

جـزى اللهُ خيـراً والجـزاءُ بكفّـهِ ... أبـا حسـنٍ عنّـا ومَـن كأبي حَسَنْ
سبقتَ قـريشـاً بـالذي أنت أهلُهُ ... فصـدرُكَ مشـروحٌ وقلبُـك مُمْتحـنْ
تمنّـت رجـالٌ مـن قـريـشٍ أعـزّةٌ ... مكانَكَ، هيهات الهُزالُ من السَّمَنْ

(١) الغدير، مصدر سابق، ص ٧٩ ـ ١٠٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٢٧، شرح ابن أبي الحديد، ٦/ ٢٠ ـ ٣٥، خطبة ٦٦، الغدير، مصدر سابق، ص ٧٧ و٧٨.
أعيان الشيعة عن مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب، ٦/ ٦٢١ و٦٢٢.

وأنتَ من الإسلامِ في كلِّ منزلٍ بمنزلة الطرفِ البطينِ من الرَسَنْ
غَضِبْتَ لنا إذ قالَ عمروٌ بخصلةٍ أمات بها التقوى وأحيا بها الإحَنْ
وكنت المرجّى من لؤيّ بنِ غالبٍ لِما كان منهُ والذي بَعْدُ لم يَكُنْ
حفظتَ رسولَ اللهِ فينا وعهدَهُ إليك ومَن أولى به منك مَن ومَنْ
ألستَ أخاهُ في الهدى ووصيّهُ وأعلمَ فِهرٍ بالكتابِ وبالسُّنَنْ
فحقُّكَ ما دامتْ بنجدٍ وَشيجةٌ عظيمٌ علينا ثمّ بعدُ على اليَمنْ

يتوقّف الشيخ الأميني عند هذه القصيدة، ويشرحها، ويذكر ما تتضمّنه من إشارات إلى الآيات القرآنية، فيقول[1]: «قوله: فصدرك مشروحٌ، إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدرَهُ لِلإسلام﴾ [الزمر/٢٢]، فإنّها نزلت في عليٍّ وحمزة. رواه الحافظ، محبّ الدين الطبري، في الرّياض النضرة (٣/ ١٥٧) عن الحافظين الواحدي وأبي الفرج، وفي ذخائر العقبى (ص٨٨).

قوله: وقلبك ممتحن. أشار به إلى الحديث النبويّ الوارد في عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّه امتحن الله قلبه بالإيمان». أخرجه جمعٌ من الحفّاظ والعلماء منهم: النسائي في خصائصه (ص ٥٥) حديث ٣١، والترمذي في الصحيح (٥/ ١١٥) حديث ٨٤١٦، والخطيب البغدادي في تاريخه (١/ ١٣٣)، والبيهقي في المحاسن والمساوىء (ص٤١) ومحبّ الدين الطبري في الرياض (٣/ ١٣٨) وذخائر العقبى (ص٧٦) وقال: أخرجه الترمذي وصحّحه، والكنجي في كفاية الطالب (ص ٩٧) باب ١٣ وقال: هذا حديثٌ عالٍ حسنٌ صحيح، والحمّوئي في فرائده في الباب (٣٣)، والسيوطي في جمع الجوامع بعدّة طرق كما في كنز العمّال (٦/ ٣٩٣، ٣٩٦)، والبدخشي في نُزُل الأبرار (ص٤١) وغيرهم.

قوله: ألست أخاه في الهدى ووصيّه. أوعز به إلى حديثَي الإخاء والوصيّة، وهما من الشهرة والتواتر بمكان عظيم، يجدهما الباحث في جلّ مسانيد الحفّاظ والأعلام.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٨ ـ ٨١.

قوله: وأعلم فهرٍ بالكتاب وبالسنن. أراد به ما ورد في علم عليّ أمير المؤمنين بالكتاب والسنّة. وأخرج الحفّاظ عن النبيّ ﷺ في حديث فاطمة عليها السلام: «زوّجتكِ خير أهلي، أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم إسلاماً».

وفي حديث آخر: «أعلم أمّتي من بعدي عليٌّ بن أبي طالب».

وفي ثالث: «أعلم الناس بالله وبالناس».

وفي حديث: «يا عليّ لك سبع خصال»، وعدّ منها: «وأعلمهم بالقضيّة» (حلية الأولياء: ١/ ٦٦ رقم ٤، كنز العمّال: ٦/ ١٥٣، ١٥٦، ١١٣٩٨/ ٦٠٥ ح٣٢٩٢٦، وص ٦١٧ ح٣٢٩٩٥، ١٣/ ١٣٥ ح٣٦٤٢٣).

□ ومن جميل شعر حسّان بن ثابت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قوله:

أنـزلَ اللهُ، والكتـابُ عـزيـزٌ، فـي علـيٍّ وفـي الـوليـدِ قُـرانـا
فتبـوّأ الـوليـدُ مـن ذاك فسقـاً وعلـيٌّ مبـوّأٌ إيمـانـا
ليس من كان مؤمناً عَرَفَ اللـ ـه كمـنْ كـان فـاسقـاً خـوّانـا
فعلـيٌّ يلقـى لـدى الله عِـزّاً ووليـدٌ يلقـى هنـاك هـوانـا
سوف يُجزى الوليدُ خزياً وناراً وعلـيٌّ لا شـكَّ يُجـزى جِنـانـا[1]

وقد روى ابن أبي الحديد هذه الأبيات في شرح نهج البلاغة، وفيه بعد البيت الثالث:

سـوف يُـدعـى الـوليدُ بعد قليلٍ وعلـيٌّ إلـى الحسـابِ عِيـانـا
فعلـيٌّ يُجـزى بـذاك جِنـانـاً ووليـدٌ يُجـزى بـذاك هَـوانـا
رُبَّ جَـدٍّ لعُقْبَـة بـنِ أبـانٍ لابـسٌ فـي بـلادنـا تُبّـانـا[2]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٢ وما بعدها. سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ص ٢٠٢، والكنجي الشافعي، كفاية الطالب، ص ١٤١، باب ٣١، الشافعي، مطالب السؤول، ص ٢٠.

(٢) أبان: هو أبو معيط، جدّ الوليد. التُّبان: سراويل صغيرة مقدار شبر، كان يرتديه الملاّحون في البحر. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٠٣، أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٢/ ٢٩، فقرة ١٨.

يشير الشاعر حسّان بن ثابت بهذه الأبيات، كما يقول الشيخ الأميني[1]، إلى قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يَسْتَوون﴾ [السجدة/١٨]، وإلى نزول هذه الآية في الإمام علي عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط في ما شجر بينهما من خلاف.

فقد أخرج الطبري في تفسيره (جامع البيان في تأويل آي القرآن، مجلد ١١ ج٢١، ص ١٠٧) بإسناده عن عطاء بن يسار، قال: كان بين الوليد وعليّ كلامٌ، فقال الوليد: أنا أبسط منك لساناً، وأحدُّ منك سناناً، وأردُّ منك للكتيبة. فقال عليٌّ: «اسكت فإنّك فاسقٌ». فأنزل الله فيهما: ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كمنْ كانَ فاسقاً لا يستوون﴾.

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٥/ ١٥٣)، وتفسير الخازن (لُباب التأويل في معاني التنزيل، ٣/ ٤٤٧): كان بين عليّ والوليد تنازعٌ وكلامٌ في شيءٍ، فقال الوليد لعليّ: اسكت فإنّك صبيٌّ وأنا شيخ، والله إنّي أبسط منك لساناً، وأحدُّ منك سِناناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة. فقال له عليٌّ: «اسكت فإنّك فاسقٌ». فأنزل الله هذه الآية.

وأخرجه الواحدي بإسناده من طريق ابن عبّاس في أسباب النزول (ص٢٣٥)، ومحبّ الدين الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٥٦) عن ابن عبّاس وقتادة من طريق الحافظين السلفي والواحدي، وفي ذخائر العقبى (ص٨٨)، والخوارزمي في المناقب (ص ٢٧٩) حديث ٢٧١، والكنجي في كفاية الطالب (ص١٤٠) باب ٣١، والنيسابوري في تفسيره (غرائب القرآن) مجلد ١٠ ج٢١، ص ٧٢، وابن كثير في تفسيره (تفسير القرآن العظيم) (٣/ ٤٦٢) قال: ذكر عطاء بن يسار والسدّي وغيرهما: أنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب وعقبة ـ فيه تصحيفٌ لا يخفى ـ ورواه جمال الدين الزرندي في نظم درر السمطين ص ٩٢.

---

(١) الغدير، مصدر سابق، ص ٨٣ و٨٤.

وذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٤/ ٨٠ خطبة ٥٦ و٦/ ٢٩٢ خطبة ٨٣. وحكى عن شيخه: إنّه من المعلوم الذي لا ريب فيه لاشتهار الخبر به، وإطباق الناس عليه. وأخرجه السيوطي في الدرّ المنثور (٦/ ٥٥٣) وقال: أخرج أبو الفرج في الأغاني، والواحدي، وابن عديّ، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٧/ ٨٧٦ ومختصر تاريخ دمشق: ٢٦/ ٣٤٠. من طرق عن ابن عبّاس. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي رضي الله عنه مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه. وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عبّاس. وذكره الحلبي في السيرة الحلبية ٢/ ٧٦.

□ ومن شعر حسّان في أمير المؤمنين:

مَن ذا بخاتَمِهِ تصدّق راكعاً ... وأسرّها في نفسِهِ إسرارا
مَن كان باتَ على فراشِ محمدٍ ... ومحمّدٌ أسرى يؤمُّ الغارا
مَن كان في القرآن سُمِّيَ مؤمناً ... في تسعِ آياتٍ تُلِينَ غِزارا(١)

يشرح الشيخ الأميني هذه الأبيات فيقول: «**في البيت الأوّل**: إيعازٌ إلى مأثرة تصدّقه ـ صلوات الله عليه ـ بخاتمه للسائل راكعاً، وفيها نزل قوله تعالى: **﴿إنّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالّذين آمنوا﴾** [المائدة/ ٥٥]. وسنوقفك على بيانها في شرح البيت الثالث إن شاء الله تعالى.

وبثاني الأبيات: أشار إلى حديث اتفقت الأمّة عليه من أنّ عليّاً عليه السلام لَبِسَ بُرد النبيّ صلى الله عليه وآله الحضرميَّ الأخضر، ونام على فراشه ليلة هرب النبيّ من المشركين إلى الغار، وفداه بنفسه، ونزلت فيه: **﴿ومِنَ الناسِ مَن يَشرِي نَفسَهُ ابتِغاءَ مَرْضاتِ الله﴾** [البقرة/ ٢٠٧].

(١) المصدر نفسه، ص ٨٤ وما بعدها، سبط ابن الجوزي الحنفي، تذكرة الخواص، ص ١٦. رُوي عجز البيت الأخير كما يلي: «في تسع آياتٍ جُعِلنَ كباراً». انظر: الكنجي في الكفاية، ص ١٢٣.

قال أبو جعفر الإسكافي، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٣/ ٢٦١، خطبة ٢٣٨): حديث الفراش قد ثبت بالتواتر؛ فلا يجحده إلاّ مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة، وقد روى المفسّرون كلّهم أنّ قول الله تعالى: ﴿وِمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي﴾ نزلت في عليّ ليلة المبيت على فراش النبي ﷺ.

وروى الثعلبي في تفسيره (الكشف والبيان) في شرح الآية ٢٠٧ من سورة البقرة: أنّ النبيّ ﷺ لمّا أراد الهجرة إلى المدينة، خلّف عليّ بن أبي طالب بمكّة لقضاء ديونه، وأداء الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه، وقال له: «اتّشح ببردي الحضرميّ الأخضر، ونَمْ على فراشي، فإنّه لا يصل منهم إليك مكروهٌ إن شاء الله تعالى».

ففعل ذلك عليٌّ عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: إنّي آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل عليٍّ بن أبي طالب؟! آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه. فنزلا، فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادي: بخٍ بخٍ من مثلك يا عليُّ! يباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة.

فأنزل الله على رسوله وهو متوجّهٌ إلى المدينة في شأن عليّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾. وقال ابن عبّاس: نزلت الآية في عليّ حين هرب ـ رسول الله ـ من المشركين إلى الغار مع أبي بكر، ونام على فراش النبيّ.

وحديث الثعلبيّ هذا رواه بطوله الإمام أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٢٣٨)، والكنجي في كفاية الطالب (ص ١١٤)، والصفوري في نزهة المجالس (٢/ ٢٠٩) نقلاً عن الحافظ النسفي. ورواه ابن الصبّاغ المالكيّ في الفصول المهمّة (ص ٣٣)، وسبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرة الخواص

(ص ٢١) والشبلنجي في نور الأبصار (ص ٨٦). وفي المصادر الثلاثة الأخيرة: قال ابن عبّاس: أنشدني أمير المؤمنين شعراً قاله في تلك الليلة:

وقيتُ بنفسي خيرَ من وَطِئَ الحصى — وأكرمَ خلْقٍ طافَ بالبيتِ والحَجَرْ
وبتُّ أُراعي منهمُ ما يسوؤني — وقد صَبَرَتْ نفسي على القتلِ والأسرْ
وباتَ رسولُ اللهِ في الغارِ آمناً — وما زالَ في حفظ الإلهِ وفي السترْ

ويوجد حديث ليلة المبيت في مسند أحمد (١/ ٣٤٨)، تاريخ الطبري (٢/ ٩٩ ـ ١٠١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢١٢)، تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٩)، سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩١)، العقد الفريد (٣/ ٢٩٠)، تاريخ الخطيب البغدادي (١٣/ ١٩١)، تاريخ ابن الأثير (٢/ ٤٢)، تاريخ أبي الفدا (١/ ١٢٦)، مناقب الخوارزمي (ص ٧٥)، الإمتاع للمقريزي (ص ٣٩)، تاريخ ابن كثير (٧/ ٣٣٨)، السيرة الحلبيّة (٢/ ٢٩).

البيت الثالث: أشار به الشاعر إلى الآيات التسع النازلة في عليّ أمير المؤمنين التي سُمّي فيها مؤمناً، وقفنا من تلك على عشر آيات، ولم نعرف خصوص التسع المراد لحسّان في قوله. وقال معاوية بن صعصعة في قصيدة له، ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب وقعة صفّين (ص ٢٧):

ومَنْ نَزَلَتْ فيه ثلاثون آيةً — تُسمّيهِ فيها مؤمناً مخلصاً فَرْدا
سوى موجباتٍ جئنَ فيه وغيرها — بها أوجبَ اللهُ الولايةَ والوُدّا

والآيات:

١ ـ ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة/ ١٨].

٢ ـ ﴿هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال/ ٦٢].

أخرج الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٣٠٧ قال: ... مكتوبٌ على العرش: لا إله إلاّ الله وحدي لا شريك لي، ومحمّد عبدي ورسولي، أيّدته بعليّ، وذلك قوله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿هُوَ الذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمُؤْمِنِينَ﴾ عليٌّ وحده.

ورواه بإسناده الكنجيّ الشافعيّ في كفاية الطالب (ص ٢٣٤) باب ٩٢.

ورواه الحافظ جلال الدين السيوطي في الدرّ المنثور (٤/ ١٠٠) نقلاً عن ابن عساكر، والقندوزي في ينابيع المودّة ١/ ٩٣ باب ٢٣، نقلاً عن الحافظ أبي نعيم بإسناده عن أبي هريرة، ومن طريق أبي صالح عن ابن عبّاس.

٣ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنينَ﴾ [الأنفال/ ٦٤].

أخرج الحافظ أبو نعيم في فضائل الصحابة بإسناده: أنّها نزلت في عليّ، وهو المعنيُّ بقوله: ﴿المؤمنين﴾.

٤ ـ ﴿مِنَ المُؤْمِنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْديلاً﴾ [الأحزاب/ ٢٣].

أخرج الخطيب الخوارزمي في المناقب (ص ٢٧٩، حديث ٢٧٠) وصدر الحفّاظ الكنجي في كفاية الطالب (ص ٢٤٩ باب ٦٢) نقلاً عن ابن جرير وغيره من المفسّرين، أنّه نزل قوله:

﴿فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحبَهُ﴾ في حمزة وأصحابه، كانوا عاهدوا الله تعالى لا يُولّون الأدبار، فجاهدوا مقبلين حتى قُتلوا ﴿وَمِنْهُم مَن يَنتَظِر﴾ عليُّ بن أبي طالب، مضى على الجهاد لم يبدِّل ولم يغيِّر الآثار.

وفي الصواعق المحرقة لابن حجر (ص ١٣٤): سُئل عليٌّ، وهو على المنبر بالكوفة، عن قوله تعالى: ﴿مِنَ المُؤْمِنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

فقال: «اللهم غفراً هذه الآية نزلت فيّ، وفي عمّي حمزة، وفي ابن عمّي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأمّا عبيدة فقضى نحبه شهيداً يوم بدر، وحمزة قضى نحبه شهيداً يوم أُحد، وأمّا أنا فأنتظر أشقاها، يخضب هذه من هذه ـ وأشار إلى لحيته ورأسه ـ عهد عهده إليَّ حبيبي أبو القاسم ﷺ».

٥ ـ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة/ ٥٥].

أخرج أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره (الكشف والبيان ص ١٨٠)، عند تفسير الآية ٥٥ من سورة المائدة، بإسناده عن أبي ذرّ الغفاري، قال: أما إنّي صلّيت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيّام الظهر، فسأل سائلٌ في المسجد فلم يعطه أحدٌ شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء، وقال: اللّهمّ اشهد أنّي سألت في مسجد نبيّك محمّد ﷺ فلم يعطِني أحدٌ شيئاً، وكان عليّ عليه السلام في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأى من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء، وقال:

«اللّهمّ إنّ أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه/ ٢٥ ـ ٣٢] فأنزلت عليه قرآناً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص/ ٣٥] اللّهمّ، وإنّي محمد نبيّك وصفيّك، اللّهمّ واشرحْ لي صدري، ويسِّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، عليّاً أشدد به ظهري».

قال أبو ذر رضي الله عنه: فما استتمّ دعاءه حتّى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله عزّ وجلّ، وقال: يا محمّد اقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

٦ ـ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾ [التوبة/ ١٩].

أخرج الطبري في تفسيره جامع البيان (١٠/ ٥٩) بإسناده عن أنس أنّه قال: قعد العبّاس وشيبة بن عثمان ـ صاحب البيت ـ يفتخران، فقال له العبّاس: أنا أشرف منك، أنا عمُّ رسول الله، ووصيُّ أبيه، وساقي الحجيج. فقال شيبة: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته وخازنه، أفلا ائتمنك كما ائتمنني؟!

فهما على ذلك يتشاجران، حتى أشرف عليهما عليٌّ، فقال له العبّاس: إنَّ شيبة فاخرني، فزعم أنّه أشرف منّي، فقال: «فما قلت له يا عمّاه؟». قال: قلت: أنا عمُّ رسول الله، ووصيُّ أبيه، وساقي الحجيج، أنا أشرف منك. فقال لشيبة: «ماذا قلت أنت يا شيبة؟» قال: قلت: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته وخازنه، أفلا ائتمنك كما ائتمنني؟!

قال: فقال لهما: «اجعلاني معكما فخراً». قالا: نعم. قال: «فأنا أشرف منكما، أنا أوّل من آمن بالوعيد من ذكور هذه الأمّة، وهاجر، وجاهد».

وانطلقوا ثلاثتهم إلى النبيّ، فأخبر كلُّ واحد منهم بمفخره، فما أجابهم النبيُّ بشيءٍ، فانصرفوا عنه، فنزل جبرئيل عليه السلام بالوحي بعد أيّام فيهم، فأرسل النبيُّ إليهم ثلاثتهم حتى أتوه، فقرأ عليهم: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾** الآية.

قال الشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطّلب وطلحة بن أبي شيبة[1] افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه. وقال العبّاس: وأنا صاحب السقاية والقيام عليها. وقال عليّ: «ما أدري ما تقولون، لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد». فأنزل الله هذه الآية.

٧ ـ **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً﴾** [مريم/ ٩٦].

أخرج أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره (الكشف والبيان ص ١٩)، بإسناده عن البرّاء بن عازب، قال:

قال رسول الله ﷺ لعليّ: «قل: اللّهمّ اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة». فأنزل الله هذه الآية.

(١) ليس هناك من يُسمّى طلحة بن أبي شيبة، وإنما هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة.

ورواه أبو المظفّر سبط ابن الجوزي الحنفيّ في تذكرة الخواص (ص ١٧) وقال: ورُوي عن ابن عبّاس أنَّ هذا الودّ جعله الله لعليّ في قلوب المؤمنين.

وفي مجمع الزوائد (٩/ ١٢٥) عن ابن عبّاس قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب ﴿إنَّ الذين آمنوا﴾ الآية. قال: محبّة في قلوب المؤمنين.

وأخرج الخطيب الخوارزمي في مناقبه(ص ٢٧٨، حديث ٢٦٨ و٢٦٩) حديث ابن عبّاس، وبعده بالإسناد عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «لقيني رجلٌ فقال: يا أبا الحسن، والله إنّي أُحبّك في الله. فرجعت إلى رسول الله فأخبرته بقول الرجل، فقال: لعلّك يا عليُّ اصطنعت إليه معروفاً. قال: فقلت: والله ما اصطنعت إليه معروفاً. فقال رسول الله: الحمد لله الذي جعل قلوب المؤمنين تتوق إليك بالمودّة، فنزل قوله: ﴿إنَّ الذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالحات سَيجْعلُ لَهُمُ الرَّحمٰنُ وُدّاً﴾...».

٨ ـ ﴿أمْ حَسِبَ الّذينَ اجترَحوا السيّئاتِ أن نَجعَلَهُم كالَّذِينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحاتِ﴾ [الجاثية/ ٢١].

قال أبو المظفّر، سبط ابن الجوزي الحنفي، في تذكرة الخواص (ص ١٧): قال السدّي عن ابن عبّاس: نزلت هذه الآية في عليّ عليه السلام يوم بدر: فـ ﴿الّذينَ اجتَرَحوا السَيّئاتِ﴾، عتبة وشيبة والوليد والمغيرة، ﴿والّذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ﴾: عليٌّ عليه السلام.

وتجد ما يقرب منه في كفاية الطالب الكنجي (ص ٢٤٧، باب ٦٢).

٩ ـ ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيّةِ﴾ [البينة/ ٧].

أخرج الطبري في تفسيره (جامع البيان مج ١٥، ج٣٠، ص ٢٦٤) بإسناده عن أبي الجارود، عن محمد بن عليّ: ﴿أُولئك هُمْ خَيرُ البريّة﴾. فقال: «قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: أنت يا عليُّ وشيعتك».

وروى الخوارزمي في مناقبه (ص ١١١، حديث ١٢٠ وص ٢٦٥ حديث ٢٤٧) عن جابر، قال: كنّا عند النبي ﷺ فأقبل عليٌّ بن أبي طالب، فقال رسول الله: «قد أتاكم أخي، ثمّ التفت إلى الكعبة، فضربها بيده. ثمّ قال: والذي نفسي بيده، إنَّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة».

ثمّ قال: «إنّه أوّلكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعيّة، وأقسمكم بالسويّة، وأعظمكم عند الله مزيّة».

١٠ ـ ﴿وَالعَصرِ * إنَّ الإنسَان لَفي خُسرٍ * إلاّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَالِحاتِ﴾.

قال جلال الدين السيوطي في الدرّ المنثور (٨/ ٦٢٢): أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿وَالعَصر * إنَّ الإنسانَ لَفي خُسرٍ﴾**. يعني أبا جهل بن هشام **﴿إلاّ الّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصالِحاتِ﴾** ذكر عليّاً وسلمان.

ومن شعر حسّان في عليّ أمير المؤمنين عليه السلام:

أبا حسنٍ تَفْديكَ نفسي ومهجتي ... وكلُّ بطيءٍ في الهُدى ومُسارِعِ
أيذهبُ مدحي والمحبِّينَ ضائعاً ... وما المدحُ في ذات الإله بضائعِ
فأنت الذي أعطيتَ إذ أنتَ راكعٌ ... فدتْكَ نفوسُ القومِ يا خيرَ راكعِ
بخاتَمِك الميمونِ يا خير سيِّدٍ ... ويا خيرَ شارٍ ثمَّ يا خير بائعِ
فأنزل فيك اللهُ خيرَ ولايةٍ ... وبيّنها في مُحْكَماتِ الشَّرائعِ[1]

نظم بها الشاعرُ حديثَ تَصدُّق أمير المؤمنين عليه السلام بخاتمه للسائل راكعاً ونزول قوله تعالى: **﴿إنّما وَليُّكُمُ اللهُ ورَسولُه وَالّذينَ آمَنوا الّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاة وهُم راكِعونَ﴾** فيه كما مرّ حديثه في الصفحات السابقة.

ذكرها لحسّان الخطيب الخوارزمي في المناقب (ص ٢٦٤، حديث ٢٤٦)، وشيخ الإسلام الحمّوئي في فرائد السمطين (١/ ١٩٠، حديث ١٥٠ في

(١) المصدر نفسه، ص ١٠١.

الباب التاسع والثلاثين)، وصدر الحفّاظ الكنجيّ في كفاية الطالب ص ٢٢٩، باب ٦١)، وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص (ص ١٥)، وجمال الدين الزرندي في نظم درر السمطين (ص ٨٨).

□ ومن شعر حسّان في أمير المؤمنين:

جبـــريـــلُ نـــادى معلنـــاً　　　والنَّقـــعُ ليـــس بمنجلـــي
والمسلمـــون قـــد أَحـــدَقـــوا　　　حـــول النبـــيِّ المـــرســـل
لا سيـــف إلاّ ذو الفقـــا　　　ر ولا فتـــىً إلاّ علـــي[(١)]

يشير بها إلى ما هتف به أمين الوحي جبرئيل عليه السلام يوم أُحد في عليٍّ وسيفه.

أخرج الطبري في تاريخ الرّسل والملوك (٢/ ٥١٤) حوادث سنة ٣هـ عن أبي رافع، قال: لمّا قَتل عليُّ بن أبي طالب يوم أُحُد أصحابَ الألوية، أبصر رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جماعةً من مشركي قريش، فقال لعليٍّ: «احمل عليهم». فحمل عليهم ففرّق جمعهم، وقتل عمرو بن عبدالله الجمحي.

قال: ثمَّ أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جماعةً من مشركي قريش، فقال لعليّ: «احمل عليهم». فحمل عليهم ففرّق جماعتهم، وقتل شيبة بن مالك.

فقال جبريل: يا رسول الله إنَّ هذا للمواساة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّه منّي وأنا منه». فقال جبريل: وأنا منكما.

قال: فسمعوا صوتاً:

لا سيـــفَ إلاّ ذو الفقـــا　　　ر ولا فتـــىً إلاّ علـــيّ

ومن شعر حسّان:

□ وإنْ مـريـمٌ أحصنـت فرجها　　　وجـاءت بعيسـى كبـدر الـدُّجـى
فقـد أحصنـت فـاطـمٌ بعـدهـا　　　وجـاءت بسبطَـي نبـيِّ الهـدى[(٢)]

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

يشير إلى ما صحَّ عن النبيِّ الطاهر في بضعته الصدّيقة فاطمة:

«إنَّ فاطمة أحصنت فرجها، فحرّم الله ذريّتها على النار». كما رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (٣/ ١٦٥، حديث ٤٧٢٦).

وذكر المتّقي الهندي في إكماله في كنز العمّال (١٢/ ١١١، حديث ٣٤٢٣٩) من طريق الطبراني بلفظ: «إنَّ فاطمة أحصنت فرجها، وإنَّ الله أدخلها بإحصان فرجها وذريّتها الجنّة».

□ وقال حسّان في غزوة بني قريضة:

لله أي كـــريهـــةٍ أبليتهـــا ... ببنـي قـريضـة والنفـوس تطلـع

أردى رئيسهـــم وآب بتسعـــةٍ ... طـوراً يشلّهـم وطـوراً يـدفـع[1]

يُفيد هذا الشعر الذي يجده الباحث، في غير كتاب من كتب التراث، أن حسّان بن ثابت كان يواكب الأحداث، ويرى إليها من منظور الرؤية الإسلاميّة السائدة آنذاك، وكان يجسّد هذه الرؤية في شعره، غير أنّ القوى التي استولت على مقاليد الأمور وجدت في هذا الشعر وثيقةً تدينها، فعمدت إلى إخفائه، فحذفه كتّاب السلطان من ديوان الشاعر، ولم يشيروا إليه في كتبهم، لكنّ الحق لا يعدم أن يجد أنصاراً يعملون على إظهاره، فكان أن احتفظ هؤلاء بنماذج من هذا الشعر المعاصر للأحداث، وبخاصّة ليوم الغدير، وهذا ما يجعله شهادة دامغةً لا يمكن إنكارها.

* * *

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، بيروت: دار التعارف، ٦/ ٦٢٢.

(٣)
قيس بن سعد الأنصاري

١ ـ شريف قومه وصحابيٌّ جليل

قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الخزرجيّ، الأنصاري. يقول الشيخ الأميني: «هو ذلك الصحابيّ العظيم، كان يُعَدُّ من أشراف العرب، وأمرائها، ودهاتها، وفرسانها، وأجوادها، وخطبائها، وزهّادها، وفضلائها. «وكان والده أحد النقباء الاثني عشر الذين ضمنوا لرسول الله إسلام قومهم»[1].

وتفيد كتب التاريخ أن بيته حاز الشرف والمجد في الجاهلية وفي الإسلام وكان شريف قومه غير مدافع هو وأبوه وجدّه، ويتكرر في تلك الكتب وصفه بـ «سيد الخزرج وابن سيدهم أبي ثابت، الأنصاري الخزرجي الساعدي، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه»[2].

٢ ـ تميُّزه الخَلْقي

كان قيس بن سعد رجلاً ضخماً، جسيماً إذا ركب الحمار خطَّت رجلاه في الأرض. ويروى أن قيصر بعث إلى معاوية: إبعث إليّ سراويل أطول رجل من العرب، فقال لقيس بن سعد: ما أظنّنا إلا قد احتجنا إلى سراويلك، فقام فتنحّى، وجاء فألقاها، فقال: ألا ذهبت إلى منزلك، ثم بعثت بها؟ فقال:

أردتُ بها كي يعلم النّاسُ أنّها سراويلُ قيس، والوفُودُ شُهُودُ

---

(١) الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، مصدر سابق، ص ١١٦ و١١٧.

(٢) راجع: كتاب سليم بن قيس، ص ٢ ٧٧٨، ح٢٦. والكامل في اللغة والأدب للمبرد، ١/ ٤١٩، ورجال الكشي، ١/ ٣٢٧، رقم ١٧٧، والاستيعاب، القسم الثالث /١٢٨٩ رقم ٢١٣٤ وأسد الغابة، ٤/ ٤٢٥ رقم ٤٣٤٨، والبداية والنهاية ٨/ ١٠٧ حوادث سنة ٥٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ١٠٢، وفي حاشية الكتاب الأخير ثبت بأسماء المصادر التي تترجم له.

وأن لا يقولوا: غاب قيسٌ وهذه سراويلُ عاديٌ نَمَتْه ثمودُ
وإنّي من الحيِّ اليمانيِّ سيِّدٌ وما النّاسُ إلاّ سيِّدٌ ومَسُودُ
فَكِذْهم بمثلي إن مثلي عليهم شديدٌ وخلقي في الرِّجال مَديدُ[١]

وجاء في رواية أخرى أن قيصر بعث بعلج من علوج الرّوم، طويل، جسيم معجباً بكمال خلقته، وامتداد قامته، فعلم معاوية أنه ليس لمطاولته ومقاومته إلاّ قيس بن سعد بن عبادة الخ. . وتضيف هذه الرواية البيت التالي إلى ما ذكرناه:

وبزَّ جميعَ الناس أصلي ومنصبي وجسمٌ به أعلو الرِّجال مديد[٢]

٣ ـ مضربُ المَثل في الجود

كان قيس جواداً يضرب به المثل في الجود، ومن الروايات التي تفيد ذلك نذكر[٣]: كان قيس في سريّة فيها أبو بكر وعمر، فكان يستدين ويطعم الناس، فقال أبو بكر وعمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه، فمشيا في الناس، فلمّا سمع سعد قام خلف النبيِّ، فقال: من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطّاب يبخّلان عليَّ ابني.

وقال جابر: خرجنا في بعثٍ كان عليهم قيس بن سعد، ونحرَ لهم تسع ركائب، فلمّا قدموا على رسول الله، ذكروا له من أمر قيس، فقال: «إنّ الجودَ من شيمة أهل ذلك البيت».

وروى المبرّد، في كامله، أنَّ عجوزاً شكت إلى قيس أن ليس في بيتها جرذ. فقال: ما أحسن ما سألت! أمّا والله لأُكثرنَّ جرذان بيتك. فملأ بيتها طعاماً وودكاً وإداماً. وأن أباه توفّي وزوجته حامل، فلمّا وضعت، وقد كان سعد (رضي الله عنه) قسم ماله في حين خروجه من المدينة بين أولاده، فكلّم أبو بكر

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. ٣/ ١٠٣ و١١٢، نقلاً عن تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ١٤/ ٢٢٦ و٢٣٢.
(٢) الغدير، مصدر سابق، ٢/ ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٧ ـ ١٤١.

وعمر في ذلك قيساً، وسألاه أن ينقض ما صنع سعد من تلك القسمة. فقال: نصيبي للمولود ولا أُغيّر ما صنع أبي ولا أنقضه.

روى عبدالله بن المبارك، عن جويرية، قال: كتب معاوية إلى مروان: أن اشتر دار كثير بن الصَّلت منه فأبى عليه، فكتب معاوية إلى مروان: أن خذه بالمال الذي عليه، فإن جاء به وإلاّ بع عليه داره. فأرسل إليه مروان فأخبره. قال: إنّي أؤجِّلك ثلاثاً، فإن جئت بالمال وإلاّ بعت عليك دارك. قال: فجمعها إلاّ ثلاثين ألفاً. فقال: مَن لي بها؟ ثمَّ ذكر قيس بن سعد، فأتاه، فطلبها منه، فأقرضه، فجاء بها إلى مروان، فلمّا رآه قد جاء بها ردّها إليه وردَّ عليه داره، فردَّ كثير الثلاثين ألفاً على قيس، فأبى أن يقبلها.

ومن مشهور أخبار قيس: أنّه كان له مال كثير ديوناً على الناس، فمرض واستبطأ عوّاده، فقيل له: إنّهم يستحيون من أجل دَينك. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من العيادة. فأمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو في حلٍّ، فأتاه الناس حتى هدموا درجةً كانوا يصعدون عليها إليه، وفي لفظ: فما أمسى حتى كُسِرت عتبة بابه من كثرة العوّاد.

وكان العرب يعدّونه واحداً من ثلاثة هم أكرم أهل زمانهم، وهم: عبدالله بن جعفر، وقيس بن سعد، وعرابة الأوسيّ.

٤ ـ وفي الحَزْم وسداد الرَّأي

ويعدُّ قيس بن سعد في الطبقة العليا من أصحاب الرأي الرَّاجح، ويتحدّث المؤرّخون عنه بوصفه من أعظم دهاة العرب، وقالوا: دهاة العرب حين ثارت الحروب بين الإمام عليٍّ عليه السلام والخارجين عليه خمسة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وقيس بن سعد، والمغيرة بن شعبة، وعبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وكان قيس وابن بديل مع الإمام علي عليه السلام، وقد تميَّزا من الآخرين بالالتزام الدّيني، وكان قيس يعرف إمكاناته، فيروى أنه كان يقول: «لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المكر

والخديعة في النار، لكنت من أمكر هذه الأمّة»، و «لولا الإسلام لمكرت مكراً لا تطيقه العرب»[١].

ومن الأحداث التي تؤكد دهاءه المتقيِّد بالدين، وإعماله الرأي بما يوافق رضا الله سبحانه وتعالى، نذكر ما يأتي:

ـ روى الشيخ الطوسي في أماليه، في حديث طويل، فقال: قال مالك الأشتر للإمام علي عليه السلام: دعني، يا أمير المؤمنين أوقع بهؤلاء الذين يتخلّفون عنك. فقال له: «كفّ عنّي»[٢].

فانصرف الأشتر وهو مغضب! ثمّ إنَّ قيس بن سعد لقي مالكاً في نفرٍ من المهاجرين والأنصار، فقال: يا مالك كلّما ضاق صدرك بشيء أخرجته، وكلّما استبطأت أمراً استعجلته، إنَّ أدب الصبر التسليم، وأدب العجلة الأناة، وإنَّ شرّ القول ما ضاهى العيب، وشرّ الرأي ما ضاهى التهمة، فإذا ابتليت فاسأل، وإذا أُمرت فأطع، ولا تسأل قبل البلاء، ولا تكلّف قبل أن ينزل الأمر، فإنَّ في أنفسنا ما في نفسك، فلا تشقَّ على صاحبك.

ولمّا بويع أمير المؤمنين بلغه أنّ معاوية قد وقف من إظهار البيعة له، وقال: إن أقرّني على الشام وأعمالي التي ولآنيها عثمان بايعته. فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين، فقال له: يا أمير المؤمنين إنَّ معاوية من قد عرفت، وقد ولآه الشام من كان قبلك، فولّه أنت كيما تتّسق عُرى الأمور، ثمّ اعزله إن بدا لك.

فقال أمير المؤمنين: «أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟» قال: لا. قال: «لا يسألني الله عزّ وجلّ عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبداً، ﴿وما كنت متَّخذ المضلّين عضداً﴾ [الكهف: ٥١]، لكن ابعث إليه وأدعوه إلى ما في يدي من الحقّ، فإن أجاب فرجلٌ من

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٠ ـ ١٢٣، نقلاً عن أسد الغابة والدرجات الرفيعة. سير أعلام النبلاء، ص ١٠٧.

(٢) أمالي الطوسي، ص ١٧، ح ١٥١٨.

المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن أبى حاكمته إلى الله». فولّى المغيرة وهو يقول: فحاكمه إذاً، فحاكمه إذاً، وأنشأ يقول:

نصحتُ عليّاً في ابن حربٍ نصيحةً فردَّ فما منّي لهُ الدَّهرَ ثانيهْ
ولم يقبلِ النصحَ الذي جئتهُ بهِ وكانت له تلك النصيحةُ كافيهْ
وقالوا له: ما أخلصَ النُّصحَ كلّهُ فقلت له: إنَّ النصيحة غاليهْ

فقام قيس بن سعد فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ المغيرة أشار عليك بأمرٍ لم يُرد الله به، فقدّم فيه رِجلاً وأخّر فيه أخرى؛ فإن كان لك الغلبة تقرَّب إليك بالنصيحة، وإن كانت لمعاوية تقرَّب إليه بالمشورة. ثمّ أنشأ يقول:

يكاد ومن أرسى ثبيراً مكانَهُ مُغيرةُ أن يقوى عليك معاويهْ
وكنتَ بحمدِ اللهِ فينا موفَّقاً وتلك التي أرآكها غير كافيهْ
فسبحانَ من علاّ السماء مكانَها وأرضاً دحاها فاستقرّت كما هيهْ

- حسن تدبيره أمر مصر، ومقدرته على حفظها، وعجز معاوية وعمرو بن العاص عن مكايدته، والتفصيل في هذا الأمر يأتي في موضعه من هذا البحث.

٥ - وفي الفروسيّة - مواقفه في العهدين: النبويّ والعلوي

وكان قيس بن سعد فارساً يتّصف بصفات الفارس المسلم من إيمان، وتقى، وشجاعة، ونجدة، وشهامة. . ، ويتحدَّث الشيخ الأميني عن مواقفه[(١)] في العهدين: النبويّ والعلوي فيقول: «أمّا مواقفه، على العهد النبويِّ، فتجد نبأها العظيم في صحائف بدر، وفتح [مكة]، وحُنين، وأُحد، وخيبر، والنضير، والأحزاب، وهو يعدُّ مواقفه هذه كلّها في شعره، ويقول:

إنّنا إنّنا الذين إذا الفتـ ـح شهدنا وخيبراً وحُنينا
بعد بدرٍ وتلك قاصمةُ الظهـ ـرِ وأُحدٍ وبالنضيرِ ثَنَيْنَا

(١) الغدير، ص ١٢٤ - ١٤٢.

وقال سيّدنا صاحب الدرجات الرفيعة: إنّه شهد مع النبيّ المشاهد كلّها، وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله، أخذ النبي ﷺ يوم الفتح الراية من أبيه سعد ودفعها إليه. وقال الخطيب في تاريخه: إنّه حمل لواء رسول الله في بعض مغازيه. وفي تاريخَي الطبري وابن الأثير: إنّه كان صاحب راية الأنصار مع رسول الله ﷺ وكان من ذوي الرأي والبأس. وفي الاستيعاب: إنّه كان حامل راية النبيّ في فتح مكّة؛ إذْ نزعها من أبيه، وأرسل عليّاً عليه السلام أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس، ففعل.

وأمّا مواقفه على العهد العلويّ: فكان يحضّ أمير المؤمنين على قتال معاوية، ويحثّه على محاربة مناوئيه ويقول: يا أمير المؤمنين ما على الأرض أحدٌ أحبُّ إلينا أن يقيم فينا منك؛ لأنّك نجمنا الذي نهتدي به، ومفزعنا الذي نصير إليه، وإن فقدناك لَتَظلمَنَّ أرضنا وسماؤنا، ولكن والله لو خلّيتَ معاوية للمكر ليرومَنَّ مصر، وليُفسدَنَّ اليمن، وليطمعنَّ في العراق، ومعه قومٌ يمانيّون قد أُشربوا قتل عثمان، وقد اكتفوا بالظنِّ عن العلم، وبالشكِّ عن اليقين، وبالهوى عن الخير، فسر بأهل الحجاز وأهل العراق ثمّ ارمه بأمرٍ يضيق فيه خناقه، ويقصّر له من نفسه.

فقال: «أحسنت، والله، يا قيس وأجملت».

فأرسله عليٌّ عليه السلام مع ولده الحسن الزكيِّ وعمّار بن ياسر إلى الكوفة، ودعوة أهلها إلى نصرته، فخطب الحسن عليه السلام هناك وعمّار، وبعدهما قام قيس، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيّها الناس، إنَّ هذا الأمر لو استقبلنا به الشورى، لكان عليٌّ أحقَّ الناس به، في سابقته، وهجرته، وعلمه، وكان قتل من أبى ذلك حلالاً، وكيف، والحجّة قامت على طلحة والزبير، وقد بايعاه وخلعاه حسداً؟

فقام خطباؤهم، وأسرعوا إلى الردِّ بالإجابة، فقال النجاشي:

رَضِينا بِقَسْمِ اللهِ إذ كانَ قَسْمُنا عليّاً وأبناءَ النبيِّ محمدِ

وقلنـا لـه: أهلاً وسهلاً ومرحباً — نُقبِّـل يـديـهِ مـن هـوىً وتـودّدِ
فمرنا بما ترضى نُجِبْكَ إلى الرضا — بصُـمٍّ العـوالـي والصفيـحِ المهنَّـدِ
وتسويـدِ مـن سوّدتَ غيرَ مدافع — وإن كـان مـن سـوّدتَ غيـرَ مسـوَّدِ
فـإن نـلتَ ما تهوى فذاك نريدُهُ — وإن تَخْـطَ مـا تهـوى فغيـر تعمّـدِ

وقال قيس بن سعد حين أجاب أهل الكوفة:

جزى الله أهلَ الكوفةِ اليوم نصرةً — أجابوا ولم يأبَوا بخذلانِ من خذلْ
وقـالـوا: عليٌّ خيرُ حافٍ وناعلٍ — رضينا به من ناقضي العهد من بدلْ
همـا أبـرزا زوج النبـيِّ تعمّـداً — يسوق بها الحادي المنيخ على جملْ
فمـا هكـذا كـانـت وَصـاةُ نبيِّكـمْ — وما هكذا الإنصافُ أعظمْ بذا المَثَلْ
فهل بعد هذا من مقالٍ لقائلٍ — ألا قبّـحَ اللهُ الأمـانـي والعلـلْ

هذا لفظ شيخ الطائفة في أمالي ولده، ورواه شيخنا المفيد في النصرة لسيِّد العترة، ونسب الأبيات الداليّة إلى قيس بن سعد بتغيير وزيادة، وهذا نصُّها:

رَضِينـا بِقَسْـمِ اللهِ إذ كـان قَسْمُنـا — عليّـاً وأبنـاءَ النبـيِّ محمَّـدِ
وقلنا لهم: أهلاً وسهلاً ومرحباً — نمـدُّ يـدينـا مـن هـوىً وتـودُّدِ
فما للزبيرِ الناقضِ العهدِ حرمةٌ — ولا لأخيـه طلحـةَ اليـوم مـن يـدِ
أتاكم سليلُ المصطفى ووصيُّهُ — وأنتـم بحمـدِ اللهِ عـارٍ مـن الهَـدِّ
فمن قائم يُرجى بخيل إلى الوغى — وصُـمٍّ العـوالـي والصفيـحِ المُهنَّـدِ
يسـوَّد مـن أدنـاه غيـرَ مـدافـع — وإن كـان مـا نقضيـه غيـرَ مسـوَّدِ
فإن يأتِ ما نهوى فذاك نريدُهُ — وإن يخـطَ مـا نهـوى فغيـر تعمّـدِ

وكـان يسيـر فـي تـلـك المـواقـف بكلِّ عظمة وجلال بهيئة فخمة، ترهب القلوب، وترعب الفوارس، وترعد الفرائص.

قال المنذر بن الجارود يصف مواكب المجاهدين مع أمير المؤمنين وقد رآهم في الزاوية (موضع قرب البصرة): ثمَّ مرَّ بنا فارسٌ على فرس أشقر، عليه ثياب بيض، وقلنسوة بيضاء، وعمامة صفراء، متنكِّبٌ قوساً، متقلّدٌ سيفاً، تخطُّ

رجلاه في الأرض، في ألف من الناس، الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض، معه راية صفراء، قلت: مَن هذا؟ قيل: هذا قيس بن سعد بن عبادة في الأنصار وأبنائهم، وغيرهم من قحطان.

ولمّا أراد أمير المؤمنين المسير إلى أهل الشام، دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«أمّا بعد: فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحقّ؛ مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدوّنا وعدوّكم، فأشيروا علينا برأيكم».

فقام قيس بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين انكمش (أسرع) بنا إلى عدوّنا، ولا تُعَرِّج (تتوقف)، فوالله لجهادهم أحبُّ إليّ من جهاد الترك والروم لادّهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمّد ﷺ من المهاجرين والأنصار، والتابعين بالإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه، أو ضربوه، أو حرموه، أو سيّروه، وفيؤنا لهم في أنفسهم حلالٌ، ونحن لهم فيما يزعمون قطينٌ. قال: يعني رقيق.

قال صعصعة بن صوحان: لمّا عقد عليّ بن أبي طالب الألوية لأجل حرب صفّين، أخرج لواء رسول الله ﷺ ولم يُرَ ذلك اللواء منذُ قبض رسول الله، فعقده عليٌّ، ودعا قيس بن سعد بن عبادة فدفعه إليه، واجتمعت الأنصار وأهل بدر، فلمّا نظروا إلى لواء رسول الله ﷺ بكوا، فأنشأ قيس بن سعد يقول:

هذا اللواءُ الذي كنّا نَحُفُّ بهِ ... مع النبيِّ وجبريلُ لنا مددُ
ما ضرَّ من كانتِ الأنصارُ عيبتَهُ ... أن لا يكونَ له من غيرِهم أحدُ
قومٌ إذا حاربوا طالتْ أكفُّهمُ ... بالمشرفيّةِ حتى يُفتحَ البلدُ

ولمّا تعاظمت الأمور على معاوية، دعا عمرو بن العاص، وبُسر بن أرطاة، وعبيدالله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقال لهم: إنّه قد غمّني رجال من أصحاب عليٍّ منهم: سعيد بن قيس في همدان، والأشتر في قومه، والمرقال ـ هاشم بن عتبة ـ، وعديّ بن حاتم، وقيس بن سعد في

الأنصار، وقد وقتكم يمانيّتكم بأنفسها، حتى لقد استحييتُ لكم وأنتم عُددتم من قريش، وقد أردت أن يعلم الناس أنّكم أهل غنى، وقد عبّأت لكلّ رجل منهم رجلاً منكم، فاجعلوا ذلك إليّ. فقالوا: ذلك إليك قال: فأنا أكفيكم سعيد بن قيس وقومه غداً. وأنت يا عمرو لأعور بني زهرة ـ المرقال ـ، وأنت يا بُسر لقيس بن سعد، وأنت يا عبيدالله للأشتر النخعي، وأنت يا عبد الرحمن بن خالد لأعور طيّ ـ يعني عديّ بن حاتم ـ، ثمّ ليردّ كلّ رجل منكم عن حماة الخيل. فجعلها نوائب في خمسة أيّام، لكلّ رجل منهم يوماً.

وإنَّ بُسر بن أرطاة غدا في اليوم الثالث في حماة الخيل، فلقي قيس بن سعد في كماة الأنصار، فاشتدّت الحرب بينهما، وبرز قيس كأنّه فنيق مقرم[1] وهو يقول:

أنا ابن سعد زانه عُباده ... والخزرجيّون رجالٌ ساده

ليس فراري بالوغى بِعاده ... إنَّ الفرار للفتى قلاده

يا ربِّ أنت لقّني الشهادة ... والقتل خيرٌ من عِناق غاده

حتى متى تُثنى ليَ الوساده

فطعن خيل بُسر، وبرز له بعد مليٍّ. وجعل يطعن بُسر قيساً، فيضربه قيس بالسيف فيردّه على عقبيه، ورجع القوم جميعاً ولقيس الفضل.

وروى نصر في وقعة صفين: أنّ معاوية دعا النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، ومسلمة بن مخلّد الأنصاري ولم يكن معه من الأنصار غيرهما، فقال: يا هذان لقد غمّني ما لقيت من الأوس والخزرج، صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال، حتى والله جبّنوا أصحابي: الشجاع والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلاّ قالوا: قتلته الأنصار، أما والله لألقينّهم بحدّي وحديدي، ولأعبّئنَّ لكلّ فارس منهم فارساً ينشب في حلقه، ثمّ

---

(١) فنيق: الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب لكرامته. أقرم الفحل: تُرك عن الركوب والعمل للفحلة.

لأرْمِيَنّهـم بـأعـدادهم من قريش رجالاً لم يغذُهـم التمر والطُفيشل[١]. يقولون: نحن الأنصار، قد والله آووا ونصروا ولكن أفسدوا حقّهم بباطلهم!

فغضب النعمان، فقال: يا معاوية لا تلومنَّ الأنصار بسرعتهم في الحرب، فـإنّهم كـذلك كـانوا في الجاهليّة، فأمّا دعاؤهم إلى النزال فقد رأيتهم مع رسول الله ﷺ، وأمّا لقاؤك إيّاهم في أعدادهم من قريش، فقد علمتَ ما لَقِيَتْ قريش منهـم، فـإن أحببت أن ترى فيهم مثل ذلك آنفاً، فافعل، وأمّا التمر والطُفيشل: فإنَّ التمر كان لنا فلمّا أن ذقتموه شاركتمونا فيه، وأمّا الطُفيشل: فكان لليهود فلمّا أكلناه غلبناهم عليه كما غلبت قريشٌ على سَخينة[٢].

وانتهى الكلام إلى الأنصار، فجمع قيس بن سعد الأنصاري الأنصار، ثمّ قام خطيباً فيهم، فقال: إنَّ معاوية قد قال ما بلغكم وأجاب عنكم صاحبكم، فلعمري لئن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه بالأمس، وإن وتَرْتموه في الإسلام لـقد وَتَرْتموه في الشرك، وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه، فجدّوا اليوم جدّاً تنسونه به ما كان أمس، وجدّوا غداً جدّاً تنسونه به ما كان اليوم، وأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبرئيل وعن يساره ميكائيل، والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب، وأمّا التمر فإنّا لم نغرسه ولكن غَلَبنا عليه من غرسه، وأمّا الطُفيشل فلو كان طعا نا لَسُمّينا به كما سُمّيت قريش: السخينة. ثمّ قال قيس بن سعد في ذلك:

يا ابن هندٍ دع التوثّبَ في الحر ... بِ إذا نحـنُ فـي البـلادِ نـأينـا
نحـن مـن قـد رأيـتَ فـادنُ إذا ... شئتَ بمن شئتَ في العَجاجِ إلينا
إن برَزْنا بالجمع نلقَكَ في الجمـ ... ـعِ وإن شئـتَ محضـةً أسـرَيْنـا
فالْقَنا في اللفيفِ نَلْقَكَ في الخز ... رجِ تـدعـو فـي حـربنـا أبَـوَينـا
أيَّ هـذيـن مـا أردتَ فَخُـذْهُ ... ليـس منّـا وليـس منـك الهُـوينـا

(١) الطفيشل كسُميدع: نوع من المرق.
(٢) سخينة: طعام يتّخذ من دقيق وسمن.

ثمّ لا يُنزعُ العجاجةُ حتى ... تنجلي حربُنا لنا أو علينا
ليتَ ما تطلبُ الغَداةَ أتانا ... أنعمَ الله بالشهادةِ عَيْنا
إنّنا إنّنا الذينَ إذا الفتـ ... ـحَ شَهِدْنا وخيبراً وحُنينا
بعد بدرٍ وتلك قاصمةُ الظّهرِ ... وأُحدٍ وبالنضيرِ ثنينا
يومَ الأحزابِ فيه قد علم النا ... سُ شُفينا من قبلكمْ واشتفينا

فلمّا بلغ معاوية شعره، دعا عمرو بن العاص، فقال: ما ترى في شتم الأنصار؟ قال: أرى أن توعد ولا تشتم، ما عسى أن تقول لهم؟ إذا أردت ذمّهم، ذُمّ أبدانهم ولا تذمَّ أحسابهم.

قال معاوية: إنَّ خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كلَّ يوم خطيباً وهو والله يريد أن يفنينا غداً إن لم يحبسه عنّا حابس الفيل، فما الرأي؟ قال: الرأي التوكّل والصبر.

فأرسل معاوية إلى رجال من الأنصار فعاتبهم، منهم: عقبة بن عمرو، وأبو مسعود، والبراء بن عازب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وخزيمة بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعمرو بن عمرو، والحجّاج بن غُزيّة. وكانوا هؤلاء يُلقون في تلك الحرب، فبعث معاوية بقوله: لتأتوا قيس بن سعد. فمشوا بأجمعهم إلى قيس، فقالوا: إنَّ معاوية لا يريد شتمنا فكُفَّ عن شتمه. فقال: إنَّ مثلي لا يَشْتُمْ، ولكنّي لا أكفّ عن حربه حتى ألقى الله.

وتحرّكت الخيل غُدوةً، فظنَّ قيس بن سعد أنَّ فيها معاوية، فحمل على رجل يشبهه فقنّعه بالسيف، فإذا غير معاوية، وحمل الثانية على آخر يشبهه أيضاً فضربه، ثمَّ انصرف وهو يقول:

قولوا لهذا الشاتمي معاويه ... إنْ كلُّ ما أوعدتَ ريحٌ هاويه
خوّفتنا أكْلُبَ قومٍ عاويه ... إليَّ يا ابن الخاطئين الماضيه
تُرقِلُ إرقالَ العجوزِ الخاويه ... في أثرِ الساري ليالي الشاتيه

فقال معاوية: يا أهل الشام، إذا لقيتم هذا الرجل فأخبروه بمساويه.

فلمّا تحاجز الفريقان شتمه معاوية شتماً قبيحاً وشتم الأنصار، فغضب النعمانُ ومَسلمة على معاوية، فأرضاهما بعدما همّا أن ينصرفا إلى قومهما.

ثمّ إنَّ معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السلم، فخرج النعمان حتى وقف بين الصفّين فقال: يا قيس أنا النعمان بن بشير. فقال قيس: هيه يا ابن بشير، فما حاجتك؟

فقال النعمان: يا قيس إنّه قد أنصفكم من دعاكم إلى ما رضي لنفسه، ألستم معشر الأنصار تعلمون أنّكم أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار؟ وقتلتم أنصاره يوم الجمل؟ وأقحمتم خيولكم على أهل الشام بصفّين؟ فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم عليّاً لكان واحدة بواحدة، ولكنّكم خذلتم حقّاً ونصرتم باطلاً، ثمّ لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أعلمتم في الحرب، ودعوتم إلى البراز، ثمّ لم ينزل بعليٍّ أمرٌ قط إلاّ هوّنتم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر، وقد أخذت الحرب منّا ومنكم ما قد رأيتم، فاتّقوا الله في البقيّة.

فضحك قيس ثمّ قال: ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذه المقالة، إنّه لا ينصح أخاه من غشّ نفسه، وأنت والله الغاشُّ الضالُّ المضلُّ.

أمّا ذكرك عثمان، فإن كانت الأخبار تكفيك فخذ منّي واحدة، قتل عثمان من لستَ خيراً منه، وخذله من هو خير منك. أمّا أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث. وأمّا معاوية فوالله لو اجتمعت عليه العرب لقاتلته الأنصار.

وأمّا قولك: إنّا لسنا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنّا مع رسول الله، نتّقي السيوف بوجوهنا والرماح بنحورنا، حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون، ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلاّ طليقاً أو أعرابياً أو يمانياً مستدرجاً بغرور؟ انظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسانٍ الذين رضي الله عنهم؟ ثمّ انظر هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبك؟ ولستما والله ببدريّينِ ولا أُحديّينِ ولا لكما سابقةٌ في الإسلام، ولا آيةٌ في القرآن؟ ولعمري لئن شغبت علينا لقد شغب علينا أبوك. ثمّ قال قيس في ذلك:

والراقصاتِ بكلِّ أشعثَ أغبَرٍ ... خُوصِ العيونِ تحثُّها الركبانُ
ما ابنُ المخلّدِ ناسياً أسيافنا ... عمّن نحاربُه ولا النعمانُ
تركا العيانَ وفي العيانِ كفايةٌ ... لو كان ينفعُ صاحبيه عيانُ

ثمّ إنَّ علياً عليه السلام دعا قيس بن سعد فأثنى عليه خيراً وسوّده على الأنصار.

وخرج قيس في النهروان إلى الخوارج، فقال لهم: عباد الله، أخرجوا إلينا طَلِبَتَنا منكم، وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعودوا بنا إلى قتال عدوِّنا وعدوِّكم، فإنّكم ركبتم عظيماً من الأمر، تشهدون علينا بالشرك، والشرك ظلمٌ عظيم، تسفكون دماء المسلمين، وتعدّونهم مشركين.

فقال له عبدالله بن شجرة السلمي: إنَّ الحقَّ قد أضاء لنا؛ فلسنا متابعيكم أو تأتونا بمثل عمر. فقال قيس: ما نعلمه فينا غير صاحبنا فهل تعلمونه فيكم؟ قالوا: لا. قال: نشدتكم الله في أنفسكم أن تهلكوها، فإنّي لا أرى الفتنة إلاّ وقد غلبتْ عليكم.

٦ ـ موقفه في عهد الإمام الحسن عليه السلام

أمّا موقفه بعد العهدين، فكان مع الإمام السبط المجتبى عليه السلام، ولمّا وجّه عسكره إلى قتال أهل الشام دعا عليه السلام عبيدالله بن العبّاس بن عبد المطّلب، فقال له:

«يا ابن عمّ، إنّي باعث إليك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء مضر، الرجل منهم يريد الكتيبة، فَسِرْ بهم، وألن لهم جانبك، وابسطْ لهم وجهك، وافرِشْ لهم جناحك، وأَدْنِهِمْ في مجلسك؛ فإنّهم بقيّة ثقات أمير المؤمنين، وسِر بهم على شطِّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات حتى تسير بمسكن، ثمّ امض حتى تستقبل بهم معاوية، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك، فإنّي على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كلَّ يوم، وشاور هذين ـ يعني: قيس بن سعد وسعيد بن قيس ـ وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، فإن فعل فقاتله، وإن

أُصبتَ فقيس بن سعد، وإن أُصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس، فسار عبيدالله . . .».

فأمّا معاوية فإنّه وافى حتى نزل قرية يقال لها: الحيوضة ـ بمسكن ـ وأقبل عبيدالله بن عبّاس حتى نزل بإزائه، فلمّا كان من غدٍ وجّه معاوية بخيل إلى عبيدالله في من معه، فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم، فلمّا كان الليل أرسل معاوية إلى عبيدالله بن عبّاس أنّ الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلّم الأمر إليّ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلاّ دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم، أعجّل لك في هذا الوقت نصفها، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر.

فأقبل عبيدالله إليه ليلاً فدخل عسكر معاوية، فوفى له بما وعده، وأصبح الناس ينتظرون عبيدالله أن يخرج حتى أصبحوا، فطلبوه فلم يجدوه، فصلّى بهم قيس بن سعد بن عبادة، ثمّ خطبهم فثبّتهم، وذكر عبيدالله فنال منه، ثمّ أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدوّ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له: انهض بنا إلى عدوّنا على اسم الله.

وفي الاستيعاب، عن عروة، قال: كان قيس مع الحسن بن عليٍّ على مقدّمته، ومعه خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعدما مات عليٌّ وتبايعوا على الموت، فلمّا دخل الحسن في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، وقال لأصحابه: ما شئتم، إن شئتم جالدت بكم حتى يموت الأعجل منّا، وإن شئتم أخذت لكم أماناً؟ فقالوا: خُذ لنا أماناً! فأخذ لهم أنَّ لهم كذا وكذا، وأن لا يعاقَبوا بشيء، وأنّه رجلٌ منهم، ولم يأخذ لنفسه خاصّة شيئاً. ثمّ ارتحل نحو المدينة ومضى بأصحابه.

٧ ـ أمير جهاد بالسّيف والخطاب والعبادة

وكما كان قيس بن سعد في مقدمة أمراء السيف كان، أيضاً، في مقدمة أمراء الكلام؛ خطيباً وشاعراً، وقد مرّ بنا أن الإمام علياً قال له: «أحسنت والله يا

قيس وأجملت»، وأن معاوية بن أبي سفيان قال لقومه في صفين: «إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً، وهو والله يريد أن يفنينا غداً إن لم يحبسه عنّا حابس الفيل».

وكان جهاده بالسّيف واللسان من أجل إعلاء كلمة الحقّ، وبعد أن حالت الأحداث دون ذلك لزم داره في المدينة المنوّرة بقية حياته مقبلاً على العبادة حتى أدركه أجله المحتوم، فتوفي في آخر سنة من خلافة معاوية، في سنة ستين أو تسع وخمسين للهجرة. ويقول الشيخ الأميني:

وأوفى كلمة في زهده وعبادته، ما قاله المسعودي في مروج الذهب، قال: كان قيس بن سعد من الزهد، والديانة، والميل إلى عليٍّ، بالموضع العظيم، وبلغ من خوفه لله وطاعته إيّاه، أنّه كان يصلّي، فلمّا أهوى للسجود، إذا في موضع سجوده ثعبانٌ عظيم مطرق، فمال على الثعبان برأسه، وسجد إلى جانبه، فتطوّق الثعبان برقبته، فلم يقصر من صلاته، ولا نقص منها شيئاً حتى فرغ، ثمّ أخذ الثعبان فرمى به.

وكان ذلك الخشوع والإقبال إلى الله في العبادة وإفراغ القلب بكلّه إلى الصلاة من وصايا والده الطاهر له، قال: يا بنيّ أوصيك بوصيّة فاحفظها، فإذا أنت ضيّعتَها فأنت لغيرها من الأمر أضيع، إذا توضّأت فأَتِمَّ الوضوء، ثمّ صلِّ صلاة امرىء مودِّع يرى أنّه لا يعود، وأظهرِ اليأس من الناس فإنّه غنى، وإيّاك وطلب الحوائج إليهم؛ فإنّه فقر حاضر، وإيّاك وكلّ شيء تعتذر منه.

وكان من دعائه، كما في الدرجات الرفيعة، وتاريخ الخطيب وغيرهما، قوله: «اللّهمّ ارزقني حمداً ومجداً، فإنّه لا حمدَ إلاّ بفعالٍ، ولا مجدَ إلاّ بمال. اللّهمّ وسّع عليَّ، فإنّ القليل لا يسعني ولا أسعه». وفي البداية والنهاية: كان قيس يقول: «اللّهمّ ارزقني مالاً وفعالاً، فإنّه لا تصلح الفعال إلاّ بالمال»[1].

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٤ و١٤٥.

٨ ـ علمه: تلميذ الرسول ﷺ وتلميذُ وصيّه

كان قيس بن سعد فتىً حين هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة المنوَّرة، فدفعه أبوه إلى النبيِّ ﷺ ليخدمه، وقد بقي في موقعه هذا يخدم المصطفى، ويتعلم منه إلى أن لبَّى نداء ربّه. وليس من شكٍّ في أنّ ملازمة هذا الفتى العاقل، الحازم، المتشوّق للمعرفة لصاحب الرسالة قد أكسبته من العلم والتربية ما يحتاج إليه الإنسان المسلم الكامل. ومما يدلّ على هذا التعلُّم أن قيساً يقول: مرّ بي النبي ﷺ وقد صلَّيت، وقال: ألا أدلُّك إلى بابٍ من أبواب الجنَّة؟» قلت: نعم. قال: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله»[(١)].

وبعد وفاة النبي ﷺ وقف إلى جانب الإمام عليٍّ عليه السلام، فسمع منه، وشهد مواقفه، وأخذ منه علمي الكتاب والسنّة، ويروى أن مناظرة جرت بينه وبين معاوية، فاحتجّ بكلٍّ آية نزلت في الإمام عليٍّ عليه السلام وبكل حديث ورد في فضله، فقال معاوية: يا ابن سعد، عمّن أخذت هذا، وعمّن رويته؟ وعمن سمعته؟ أبوك أخبرك بذلك وعنه أخذته؟ فقال قيس: سمعته وأخذته ممن هو خير من أبي، وأعظم حقّاً من أبي. قال معاوية: من؟ قال: عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عالم هذه الأمّة وصدّيقها[(٢)].

٩ ـ إمارته

يتحدث الشيخ الأميني عن إمارة قيس، فيقول[(٣)]:

كان قيس، في العهد النبويِّ، من النبيِّ ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، يلي ما يلي من أموره. وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله ﷺ في بعض الغزوات، واستعمله على الصَّدقة، وكان من ذوي الرأي من الناس، وبعده ولاّه أمير المؤمنين عليه السلام مصر، وكان أميرها الطاهر.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٦، نقلاً عن أسد الغابة، ٤/ ٤٢٥، رقم ٤٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٣) راجع: المصدر نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٩.

كان قيس من شيعة عليٍّ عليه السلام ومناصحيه، بعثه عليٌّ أميراً على مصر في صفر سنة ٣٦هـ، وقال له: «سر إلى مصر فقد ولَّيتُكَها، واخرج إلى ظاهر المدينة، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك، حتى تأتي مصر ومعك جند، فإنَّ ذلك أرعب لعدوِّك، وأعزُّ لوليّك، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن، واشدد على المريب، وارفق بالعامّة والخاصّة، فإنَّ الرفق يُمْنٌ».

فقال قيس: رحمك الله يا أمير المؤمنين، قد فهمتُ ما ذكرتَ، فأمّا الجند فإنّي أدَعُهُ لك، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثتهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدّة، ولكنّي أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي، وأمّا ما أوصيتني به من الرفق والإحسان، فالله تعالى هو المستعان على ذلك.

فخرج قيس في سبعة نفرٍ من أهله، حتى دخل مصر مستهل ربيع الأوّل، فصعد المنبر، فجلس عليه خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد للهِ الذي جاء بالحقِّ، وأمات الباطل، وكبت الظالمين. أيّها الناس، إنّا بايعنا خير من نعلم بعد نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنّة رسوله، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم.

فقام الناس فبايعوا، واستقامت مصر وأعمالها لقيس، وبعث عليها عمّاله، إلاّ أنّ قريةً منها يقال لها: «خربتا» قد أعظم أهلها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة يقال له: يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس: إنّا لا نأتيك، فابعث عمّالك، فالأرض أرضك، ولكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ووثب محمد بن مسلمة بن مخلّد بن صامت الأنصاري، فنعى عثمان، ودعا إلى الطلب بدمه، فأرسل إليه قيس: ويحك أعليَّ تثب؟ والله ما أحبُّ أنَّ لي ملك الشام ومصر وأنّي قتلتك! فَاحْقِنْ دَمَكَ. فأرسل إليه مسلمة: إنّي كافٌّ عنك ما دمت أنت والي مصر. وكان قيس له حزمٌ ورأيٌ.

خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى الجمل وقيس على مصر، ورجع من البصرة إلى الكوفة وهو بمكانه، ووليها أربعة أشهر وخمسة أيّام، دخلها كما مرَّ

في مستهلّ ربيع الأوّل، وصرف منها لخمس خلون من رجب، كما في الخطط للمقريزي، وكما في الاستيعاب وغيره: أنّه شهد الجمل الواقع في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ في غير محلّه. نعم؛ يظهر من التاريخ شهوده في مقدّمات الجمل.

وولاّه عليٌّ أمير المؤمنين آذربيجان كما في تاريخ اليعقوبي، وكتب إليه وهو عليها:

أمّا بعد: فأقبل على خراجك بالحقّ، وأحسن إلى جندك بالإنصاف، وعلّم من قِبلك ممّا علّمك الله، ثمّ إنّ عبدالله بن شبيل الأحمسي سألني الكتاب إليك فيه بوصايتك به خيراً، فقد رأيته وادعاً متواضعاً، فألن حجابك، وافتح بابك، واعمد إلى الحقّ، فإنّ من وافق الحقّ ما يحبو أسرّه، ﴿ولا تتّبع الهوى فيُضلَّكَ عن سبيلِ اللهِ إنّ الّذين يَضلُّون عن سبيلِ اللهِ لَهُم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحِسَاب﴾ [سورة ص، ٢٦].

قال غياث: وَلمّا أجمع عليٌّ على قتال معاوية، كتب أيضاً إلى قيس:

«أمّا بعد، فاستعمل عبدالله بن شبيل الأحمسي خليفةً لك وأقبل إليّ؛ فإنّ المسلمين قد أجمع ملؤهم وانقادت جماعتهم، فعجّل الإقبال، فأنا سأحضرنّ إلى المحلّين عند غرّة الهلال إن شاء الله، وما تأخّري إلاّ لك، قضى الله لنا ولك بالإحسان في أمرنا كلّه».

وروى الطبري في تاريخه (٦/ ٩١)، وابن كثير في تاريخه[1] (٨/ ١٤) عن الزهري، أنّه قال: جعل عليٌّ عليه السلام قيس بن سعد على مقدّمته من أهل العراق إلى قِبل آذربيجان وعلى أرضها، وشرطة الخميس التي ابتدعتها العرب وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً على الموت.

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٤ ـ ١٦٦، نقلاً عن الطبري، ٥/ ٢٢٨ حوادث سنة ٣٦هـ. الكامل لابن الأثير، ٣/ ١٠٧ حوادث سنة ٣٦هـ، وابن أبي الحديد في شرح النهج، ٢/ ٢٣، خطبة ٦٧، نقلاً عن كتاب الغارات لابراهيم الثقفي المتوفى ٢٨٣هـ، ص ١٣١.

ويوضّح الشيخ الأميني ملابسات عزل قيس عن مصر، ومواقفه من معاوية، فيقول: لمّا قرب يوم صفّين، خاف معاوية على نفسه أن يأتيه عليّ بأهل العراق، وقيس بأهل مصر، فيقع بينهما، ففكّر في استدراج قيس واختداعه، فكتب إليه:

«أمّا بعد: فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثَرَة رأيتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو في شتمه رجلاً، أو تسييره أحداً، أو في استعماله الفتيان من أهله، فقد عَلِمْتُمْ أنَّ دمه لم يحلَّ لكم بذلك، فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم شيئاً إدّاً، فتب يا قيسُ إلى ربِّك إن كنتَ من المُجْلبين على عثمان إن كانت التوبة من قتل المؤمن تغني شيئاً.

فأمّا صاحبك؛ فإنّا استيقنّا أنّه الذي أغرى الناس، وحَملَهم حتى قتلوه، وأنّه لم يسْلَم من دمه عظيم قومك، فإن استطعتَ أن تكون ممّن يطلب بدم عثمان، فبايعنا على عليّ في أمرنا، ولك سلطان العِراقَيْن إن أنا ظفرتُ ما بقيت، ولمن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني غير هذا ما تحبّ».

فكتب إليه قيس:

«أمّا بعد: فقد وصل إليّ كتابك، وفهمتُ الذي ذكرتَ من أمر عثمان، وذلك أمرٌ لم أُقاربه، وذكرتَ أنَّ صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان، ودسّهم إليه حتى قتلوه، وهذا أمرٌ لم أطّلِع عليه، وذكرتَ لي أنّ عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان، فلعمري إنَّ أولى الناس كان في أمره عشيرتي. وأمّا ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدم عثمان، وما عرضته عليَّ، فقد فهمتُه، وهذا أمر لي فيه نظر وفكر، وليس هذا ممّا يُعجل إلى مثله، وأنا كافّ عنك، وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه، حتى ترى ونرى».

فكتب إليه معاوية:

«أمّا بعد: فقد قرأتُ كتابكَ، فلم أركَ تدنو فأعدّك سِلماً، ولم أرك تتباعد فأعدّك حرباً، أراك كحبل الجزور، وليس مثلي يُصانَعُ بالخداع، ولا

يخدعُ بالمكائد، ومعه عدد الرجال، وبيده أعنّة الخيل، فإن قبلتَ الذي عرضتُ عليك فلك ما أعطيتُك، وإن أنت لم تفعل، ملأتُ عليك خيلاً ورجلاً، والسلام».

فكتب إليه قيس:

«أمّا بعد: فالعجب من استسقاطك رأيي والطمع في أن تسومني ـ لا أبا لغيرك ـ الخروج عن طاعة أولى الناس بالأمر، وأقوَلهم للحقّ، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله وسيلةً، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقوَلهم للزور، وأضلّهم سبيلاً، وأبعدهم من رسول الله وسيلة، ولديك قوم ضالّون مضلّون، طاغوت من طواغيت إبليس. وأمّا قولك: إنّك تملأ عليَّ مصر خيلاً ورجلاً، فلئن لم أُشغلك عن ذلك حتى يكون منك، إنّك لذو جدّ، والسلام».

وفي لفظ الطبري: «فوالله إن لم أُشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهمَّ إليك، إنّك لذو جدّ».

فلما أيس معاوية منه كتب إليه[1]:

«أمّا بعد: فإنك يهوديّ ابن يهوديّ، إن ظفر أحبّ الفريقين إليك عَزَلَك، واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلَكَ ونكّل بك، وكان أبوك وتر قوسَه، ورمى غير غرضه، فأكثر الحزّ، وأخطأ المِفْصَل، فخذله قومه، وأدركه يومه، ثمّ مات طريداً بحوران. والسلام».

فكتب إليه قيس:

«أمّا بعد: فإنّما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الإسلام كرهاً، وخرجت منه طوعاً، لم يَقْدُمْ إيمانك، ولم يحدُثْ نفاقك، وقد كان أبي وتر قوسه، ورمى

(١) من هنا نقلاً عن الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/ ٦٨، ويحيل الشيخ الأميني إلى كامل المبرد، ١/ ٣٠٩، البيان والتبيين، ٢/ ٦٨، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٦٣، عيون الأخبار لابن قتيبة، ٢/ ٢٠٣، مروج الذهب ٢/ ٦٢، من كتب الخوارزمي، ص ١٧٣. التاج في أخلاق الملوك، ص ١١٤.

غـرضـه، وشغـب عليـه مـن لم يبلغ كعبه، ولـم يشقّ غباره، ونحن أنصار الدين الذي خرجتَ منه، وأعداء الدين الذي دخلتَ فيه. والسلام».

وقال الجاحظ[1]، في كتاب التاج، كتب قيس إلى معاوية:

«يـا وثـن ابـن وثـن، تـكتب إلـيّ تـدعوني إلى مفارقة عليٍّ بن أبي طالب والـدخـول فـي طـاعتـك، وتخوّفني بتفرّق أصحـابـه عنه، وإقبال الناس عليك وإجفالهم إليك، فوالله الذي لا إله غيره، لو لم يبقَ له غيري، ولم يبقَ لي غيره، ما سالمتك أبـداً وأنت حـربـه، ولا دخلت في طاعتك وأنت عدوّه، ولا اخترت عدوَّ الله على وليّه، ولا حزب الشيطان على حزب الله. والسلام».

كتاب مفتعل

فلمّـا أيـس معاويـة مـن قيس أن يتابعه على أمره، شقَّ عليه ذلك، وثقل عليه مكانه، لما كان يعرف من حزمه وبأسه، ولم تنجح حيلة فيه تكاده من قِبل عليّ، فقـال لأهـل الشـام: إنَّ قيسـاً قد تابعكم فادعوا الله له ولا تسبّوه، ولا تـدعـوا إلـى غـزوه، فإنّـه لنا شيعة، قد تأتينا كتبه ونصيحته سرّاً، ألا ترون ما يفعل بإخوانـكم الـذين عنـده من أهل «خربتا» يجري عليهم عطاياهم وأرزاقهم ويحسن إليهم.

واختلق كتاباً ونسبه إلى قيس، فقرأه على أهل الشام وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم. للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد: سلامٌ عليك، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد:

فـإنّـي لمّـا نظـرت لنـفسي وديـني فلم أرَ يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرَّماً برّاً تقيّاً، فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا، ألا وإنّـي قـد ألـقيت إليكم بالسلم، وإنّي أجبتك إلى قتال قتلة عثمان رضي الله عنه

(١) التاج في أخلاق الملوك، ص ١١٤.

إمام الهدى المظلوم، فعوِّل عليَّ فيما أحببت من الأموال والرجال، أُعجِّل عليك. والسلام»[1].

وافتعال الأحاديث المزوَّرة سياسة اتَّبعها معاوية، فكان يهب الأموال الوفيرة لواضعي تلك الأحاديث، فقد بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم ليروي أنّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٠٧] نزل في ابن ملجم أشقى مراد. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. نزل في عليّ أمير المؤمنين. فلم يقبل، فبذل له مئتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمئة ألف درهم فقبل، وله من نظائر هذا شيءٌ كثير.

فليس من البِدع اختلاقه على قيس، وهو يفتعل على سيِّده النبيِّ الأطهر ما لم يقله، وعلى أمير المؤمنين ما لم يكن.

١٠ ـ الصلح بين قيس ومعاوية

أمّر أفراد شرطة الخميس قيس بن سعد على أنفسهم (وكان يعرف بصاحب شرطة الخميس كما في رجال الكشّي)[2] وتعاهد هو معهم على قتال معاوية، حتى يشترط لشيعة عليّ ولمن كان اتّبعه على أموالهم ودمائهم، وما أصابوا في الفتنة، فأرسل معاوية إلى قيس يقول: على طاعة من تُقاتل، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟ فأبى قيس أن يلين له، حتّى أرسل إليه معاوية بسجلّ قد ختم عليه في أسفله، وقال: اكتب في هذا ما شئت فهو لك. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: لا تعطه هذا وقاتله.

---

(١) راجع تاريخ الطبري، ٥/ ٢٢٩، حوادث سنة ٣٦، كامل ابن الأثير، ٣/ ١١٧، حوادث سنة ٣٦، شرح ابن أبي الحديد، ٢/ ٢٤، خطبة ٦٧.

(٢) رجال الكشي، ١/ ٣٢٦، رقم ١٧٧.

فقال معاوية: على رسلك فإنّا لا نخلص إلى قتلهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك؟! فإنّي والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بُدّاً.

فلمّا بعث إليه معاوية ذلك السجلّ، اشترط قيس له ولشيعة عليّ أمير المؤمنين عليه السلام الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل في سجلّه ذلك مالاً، وأعطاه معاوية ما سأل، ودخل قيس ومن معه في طاعته[1].

قال أبو الفرج: فأرسل معاوية إليه يدعوه إلى البيعة، فلمّا أرادوا إدخاله إليه، قال: إنّي حلفت أن لا ألقاه إلاّ بيني وبينه الرمح أو السيف. فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينهما ليبرَّ يمينه، فلمّا دخل قيس ليبايع، وقد بايع الحسن عليه السلام فأقبل على الحسن عليه السلام، فقال: أفي حلٍّ أنا من بيعتك؟ فقال: «نعم». فأُلقي له كرسيٌّ، وجلس معاوية على سرير والحسن معه، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم. ووضع يده على فخذه ولم يمدّها إلى معاوية، فجاء معاوية من سريره، وأكبَّ على قيس حتى مسح يده، وما رفع إليه قيس يده[2].

١١ ـ مواقفه بعد الصلح

دخل قيس بن سعد بعد وقوع الصلح في جماعةٍ من الأنصار على معاوية، فقال لهم معاوية: يا معشر الأنصار بم تطلبون ما قِبلي؟ فوالله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً عليَّ، ولَفَلَلْتم حدِّي يوم صفِّين، حتى رأيت المنايا تلظّى في أسنّتكم، وهجوتموني في أسلافي بأشدّ من وقع الأسنّة، حتّى إذا أقام الله ما حاولتم ميله، قلتم: ارعَ فينا وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله. هيهات يأبى الحقين العِذْرة[3].

(١) تاريخ الطبري، ٦/ ٩٤، حوادث سنة ٤١. كامل ابن الأثير، ٣/ ١٦٣، حوادث سنة ٤١هـ.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٧٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ٤/ ١٧، كتاب ٣١.
(٣) يأبى الحقين العذرة: مثل يضرب للكاذب الّذي يعتذر ولا عذر له.

فقال قيس: نطلب ما قِبلك بالإسلام الكافي به الله لا بما نَمَتْ به إليك الأحزاب، وأمّا عداوتنا لك فلو شئتَ كففتَها عنك، وأمّا هجاؤُنا إيّاك فقول يزول باطله ويثبت حقّه، وأمّا استقامة الأمر فعلى كُرهٍ كان منّا، وأمّا فَلّنا حدّك يوم صفّين، فإنّا كنّا مع رجلٍ نرى طاعة الله طاعته، وأمّا وصيّة رسول الله بنا، فمن آمن به رعاها بعده، وأمّا قولك: يأبى الحقين العِذْرة، فليس دون الله يد تحجزك منّا يا معاوية، فدونك أمرك يا معاوية، فإنّما مثلك كما قال الشاعر:

يـا لـكِ مـن قُبّـرةٍ بمَعمـرِ ... خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفري

فقال معاوية يموّه[1]: ارفعوا حوائجكم.

روى التابعيُّ الكبير أبو صادق سليم بن قيس الهلالي في كتابه[2]، قال:

قدم معاوية حاجّاً في أيّام خلافته بعدما مات الحسن بن عليّ عليه السلام، فاستقبله أهل المدينة، فنظر فإذا الذين استقبلوه معظمهم من قريش، فالتفت معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة، فقال: ما فعلت الأنصار، وما بالها ما تستقبلني؟ فقيل: إنّهم محتاجون ليس لهم دواب. فقال معاوية: فأين نواضحهم؟

فقال قيس بن سعد: أفنوها يوم بدر وأُحد وما بعدهما من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله حين ضربوك وأباك على الإسلام، حتى ظهر أمر الله وأنتم كارهون.

فقال معاوية: اللّهمّ اغفر. فقال قيس: أما إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ستـرون بعدي أثرة». فقال معاوية: فما أمركم به؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نلقاه. قال: فاصبروا حتى تَلْقوه.

ثمّ قال: يا معاوية تعيِّرنا بنواضحنا؟ والله لقد لقيناكم عليها يوم بدر وأنتم جاهدون على إطفاء نور الله، وأن تكون كلمة الشيطان هي العليا؛ ثمَّ دخلتَ أنت وأبوك كرهاً في الإسلام الذي ضربناكم عليه.

(١) العقد الفريد، ٢/ ١٢١، مروج اللهب ٢/ ٦٣، الامتاع والمؤانسة، ٣/ ١٧٠.
(٢) كتاب سليم بن قيس، ٢/ ٧٧٧، ح٢٦.

فقال معاوية: كأنّك تمنّ علينا بنصرتكم إيّانا، فللّه ولقريش بذلك المنّ والطول. ألستم تمنّون علينا يا معشر الأنصار بنصرتكم رسول الله؟ وهو من قريش وهو ابن عمّنا ومنّا، فلنا المنّ والطَّول أن جعلكم الله أنصارنا وأتباعنا فهداكم بنا.

فقال قيس: إنَّ الله بعث محمّداً ﷺ رحمةً للعالمين، فبعثه إلى الناس كافّة، وإلى الجنّ، والإنس، والأحمر، والأسود، والأبيض، اختاره لنبوّته، واختصّه برسالته، فكان أوّل من صدّقه وآمن به ابن عمّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأبو طالب يذبُّ عنه ويمنعه، ويحول بين كفّار قريش وبين أن يردعوه أو يؤذوه، وأمره أن يبلِّغ رسالة ربِّه، فلم يزل ممنوعاً من الضيم والأذى حتّى مات عمّه أبو طالب، وأمر ابنه بموازرته، فوازره ونصره، وجعل نفسه دونه في كلِّ شديدة، وكلِّ ضيق، وكلِّ خوف، واختصَّ الله بذلك عليّاً عليه السلام من بين قريش، وأكرمه من بين جميع العرب والعجم، فجمع رسول الله ﷺ جميع بني عبد المطّلب، فيهم أبو طالب وأبو لهب، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، فدعاهم رسول الله ﷺ وخادمه عليّ عليه السلام ورسول الله ﷺ في حجر عمِّه أبي طالب، فقال: «أيّكم ينتدب أن يكون أخي، ووزيري، ووصيّي، وخليفتي في أمّتي، ووليّ كلِّ مؤمن بعدي؟».

فسكت القوم حتى أعادها ثلاثاً، فقال عليٌّ عليه السلام: «أنا يا رسول الله صلّى الله عليك» فوضع رأسه في حجره، وتفل في فيه، وقال: «اللّهمّ املأ جوفه علماً وفهماً وحكماً». ثمّ قال لأبي طالب: «يا أبا طالب اسمع الآن لابنك وأطع، فقد جعله الله من نبيِّه بمنزلة هارون من موسى» وآخى ﷺ بين عليّ وبين نفسه. فلم يدع قيس شيئاً من مناقبه إلاّ ذكره واحتجَّ به.

وقال: منهم: جعفر بن أبي طالب الطيّار في الجنّة بجناحين، اختصّه الله بذلك من بين الناس، ومنهم: حمزة سيِّد الشهداء، ومنهم: فاطمة سيِّدة نساء أهل الجنّة. فإذا وضعتَ من قريش رسول الله ﷺ وأهل بيته وعترته الطيِّبين،

فنحن ـ والله ـ خيرٌ منكم يا معشر قريش، وأحبّ إلى الله ورسوله وإلى أهل بيته منكم، لقد قُبض رسول الله فاجتمعت الأنصار إلى أبي، ثمّ قالوا: نبايع سعداً، فجاءت قريش فخاصمونا بحجّة عليّ وأهل بيته، وخاصمونا بحقّه وقرابته، فما يعدو قريشاً أن يكونوا ظلموا الأنصار وظلموا آل محمد، ولعمري ما لأحدٍ من الأنصار ولا لقريش ولا لأحدٍ من العرب والعجم في الخلافة حقٌّ مع عليّ بن أبي طالب وولده من بعده.

فغضب معاوية، وقال: يابن سعد عمّن أخذت هذا؟ وعمّن رويته؟ وعمّن سمعته؟ أبوك أخبرك بذلك وعنه أخذته؟

فقال قيس: سمعته وأخذته ممّن هو خير من أبي، وأعظم عليَّ حقّاً من أبي. قال: مَن؟ قال: عليُّ بن أبي طالب، عالم هذه الأمّة، وصدّيقها الذي أنزل الله فيه: ﴿قُلْ كفى بالله شَهيداً بَيْني وبَيْنكُم وَمَنْ عِندَهُ عِلمُ الكِتاب﴾ [الرعد: ٤٣] ـ فلم يدع آية نزلت في عليّ إلاّ ذكرها.

قال معاوية: فإنّ صدّيقها أبو بكر، وفاروقها عمر، والذي عنده علم الكتاب عبدالله بن سلام.

قال قيس: أحقّ هذه الأسماء وأولى بها الذي أنزل الله فيه: ﴿أفَمَنْ كان على بَيِّنةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتلُوهُ شَاهدٌ مِنهُ﴾ [هود، ١٧] والذي نصبه رسول الله ﷺ بغدير خُمّ فقال: «من كنت مولاه أولى به من نفسه، فعليٌّ أولى به من نفسه» وقال في غزوة تبوك: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي».

غديريّة قيس

وفي حديث غدير خمّ. أنشد قيس بن سعد، أبياتاً، بين يدي أمير المؤمنين في صفّين، وهي:

قلتُ لمّا بغى العدوُّ علينا — حسبُنا ربُّنا ونِعْمَ الوكيلُ
حسبُنا ربُّنا الذي فتحَ البصـ — ـرةَ بالأمسِ والحديثُ طويلُ

وعلـــيٌّ إمـــامنــا وإمــامٌ لســوانــا أتــى بــه التنــزيــلُ
يـومَ قـال النبـيُّ مـن كنـتُ مـولا هُ فهــذا مــولاهُ خطــبٌ جليــلُ
إنَّ مـا قـالـه النبـيُّ علـى الأمّـةِ حتــمٌ مــا فيــه قــالٌ وقيــلُ

رواها شيخنا المفيد معلّمُ الأمّة المتوفّى (٤١٣هـ/ ١٠٢٢م) في الفصول المختارة (٢/ ٨٧)، وقـال بعـد ذكـرها: إنّ هذه الأشعار مع تضمّنها الاعتراف بإمامة أمير المؤمنين، فهي دلائل على ثبوت سلف الشيعة وإبطال عناد المعتزلة في إنكارهم ذلك.

وذكـرهـا فـي رسـالتـه فـي معنى المولى، المطبوع ضمن مصنّفات الشيخ المفيد: ٨/ ٢٠. وقال فيها: قصيدة قيس التي لا يشكُّ أحدٌ من أهل النقل فيها، والعلـم بـها مـن قولـه كالعلم بنصرته لأمير المؤمنين وحربه أهل البصرة وصفّين معه، وهي التي أوّلها:

قلــتُ لمّــا بغــى العــدوُّ علينــا حسبُنــا ربُّنــا ونعــمَ الــوكيــلُ

فشهـد هكـذا شهادةً قطعيّةً بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام من جهة خبر يوم الغدير، صرّح بأنّ القول فيه يوجب رئاسته على الكلّ، وإمامته عليهم.

ورواها سيّدنا الشريف الـرضيُّ المتوفّى (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) في خصائص الأئمّـة، ص ٤٢، خصائـص أميـر المؤمنين: ص ٧، وقال: اتّفق حملة الأخبار على نقل شعر قيس وهو ينشده بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام بعد رجوعهم من البصرة، في قصيدته التي أوّلها:

قلــتُ لمّــا بغــى العــدوُّ علينــا حسبُنــا ربُّنــا ونعــمَ الــوكيــلُ

وهـذان الشـاعـران ـ قيـس وحسّـان ـ صحـابيّـان، شهـدا بـالإمـامـة لأمير المؤمنين، شهادة من حضر المشهد، وعرف المصدر والمورد.

وأخرجها العَلَم الحجّة الشيخ عبيدالله السـدابـادي في المقنع في الإمامة، ص ١٣٣ ـ ١٣٦ ـ المـوجـود عنـدنـا ـ فـقال: قـالـوا: ومن الدليل على أنّ أمير

المؤمنين هـو الإمـام المنصـوص عليـه، قول قيس بن سعد بن عبادة، وهذا من خيـار الصحـابـة يشهـد لـه بـالإمامـة، وأنّه منصوصٌ عليه، وأنّه خولف، وقال الكميت بن زيد: يصدِّق قول قيس بن سعد وحسّان بن ثابت . . .

ورواهـا العـلاّمـة الكـراجكـي المتـوفّـى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. في كنز الفـوائـد: ٢/ ٩٨. فقال: إنّه ممّا حُفظ عن قـيس بن سعد بن عبادة، وإنّه كان يقوله بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام بصفّين ومعه الراية.

وأخرجها أبو المظفَّر سبط ابن الجوزي الحنفي المتوفّى ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. في تذكرة الخواص (ص ٢٠) فقال: إنَّ قيساً أنشدها بين يدي عليٍّ بصفّين.

ورواها سيِّدنا هبة الله الموسوي في المجموع الرائق ـ الموجود عندنا ـ والمفسِّر الكبير الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره (٢/ ١٩٣)، وشيخ السرَويّ الآتي شيخنا الشهيـد الفتّال في روضة الواعظين (ص ٩٠)، وسيِّدنا القاضي نور الله المـرعشـيّ الشهيـد ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م في مجالس المؤمنين (ص ١٠١)، والعلاّمة المجلسي المتوفّى ١١١١هـ/١٦٩٩م، في البحار (٩/ ٢٤٥)، والسيِّد علي خان المتوفّـى ١١٢٠هـ/١٧٠٨م، في الدرجات الرفيعة ـ الموجود عندنا ـ فـي ذكـر وقعـة صفّيـن، وشيخنـا صـاحـب الحـدائـق البحـرانـي المتـوفّـى ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م، فـي كشكـولـه (٢/ ٣١٨). وجمـع آخـر مـن متأخِّري أعلام الطائفة.

* * *

(٤)

عمرو بن العاص

(٥٠ ق.هـ - ٤٣هـ/٥٧٤م - ٦٦٤م)

عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعَيد بن سهم. . القرشي. يكنّى بأبي محمَّد أو بأبي عبدالله. كان يعدّ أحد دهاة العرب الخمسة، وهم، إضافة إليه، معاوية بن أبي سفيان وقيس بن سعد والمغيرة بن شعبة وعبدالله بن بديل، وقد استخدم دهاءه في إثارة الفتن، فقيل فيه: «منه بدأت الفتن وإليه تعود»[١]، وكان يعرف بـ «الأبتر» و «الدّعي»، وفي ما يأتي بيان لذلك.

يُنسب إلى الشّانىء الأبتر

يُنسب عمرو إلى العاص بن وائل السهميّ، والعاص هذا هو «الشّانئ الأبتر»، المقصود في الآية الكريمة: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر/ ٣٠]، كما يرى أكثر المفسِّرين والعلماء[٢].

ويرى بعض المفسِّرين أنَّ عدداً من المشركين، وأشهرهم العاص بن وائل وأبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط، كانوا يشنأون، يبغضون، رسول الله ﷺ، ويلهجون بذلك، غير أن العاص كان أشدهم عداوةً وأكثرهم إلحاحاً على القول، فإن كانت الآية تشملهم جميعاً، فإنَّها تخصُّه هو بالخطاب.

---

(١) العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسُّنَّة والأدب، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، قم: مركز الغدير. . ، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ٢/ ١٨١.

(٢) نفسه، ٢/ ١٨١، ويحيل الشيخ الأميني إلى الطبقات لابن سعد، ١/ ١٣٣، والمعارف لابن قتيبة ص ٢٨٥، وتاريخ ابن عساكر، ١٣/ ٤٩٣.

وقد قال الرّازي، في تفسيره: رُوي أن العاص بن وائل كان يقول: «إن محمَّداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره، واسترحتم منه»، وكان قد مات ابنه عبدالله من السَّيدة خديجة[١].

وروى التابعي الكبير سليم بن قيس الهلالي، في كتابه، أن الآية نزلت في عمرو بن العاص نفسه، لأنّه كان أحد شانئي رسول الله ﷺ، وقد قال لمّا مات ولده ابراهيم: «إن محمَّداً قد صار أبتر لا عقب له»[٢].

ويجد الباحث رواياتٍ تفيد ذلك، ومنها:

أن الإمام عليّاً عليه السلام ذكَّر عمرواً، في أبيات له، بصفته هذه، فقال:

إن يقرنوا وصيَّه والأبترا ... شاني الرّسول واللّعين الأخزرا

وخاطبه، في كتابٍ له، بقوله: «من عبدالله أمير المؤمنين إلى الأبتر ابن الأبتر عمرو بن العاص، شانئ محمد وآل محمد في الجاهليّة والإسلام».

ـ أن الإمام الحسن عليه السلام قال له؛ بمحضر من معاوية: «... ثم قام أبوك فقال: أنا شانئ محمد الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل»[٣].

ـ أن عمار بن ياسر خاطبه بصفته هذه، فقال له، لمَّا التقيا في صفين: «... أيُّها الأبتر، ألست تعلم أنَّ رسول الله قال لعلي: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه»؟..»[٤].

ـ أن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب خاطبه، وفي مجلس معاوية، بصفتيه المعروفتين: الدّعي والأبتر. فقد روى الحافظ ابن عساكر، في تاريخ الشام، أن عمرو بن العاص قال لعبدالله بن جعفر الطيار، ذي الجناحين في مجلس معاوية،

---

(١) الرّازي، التفسير الكبير، ٣٢/ ١٣٢ و١٣٣.
(٢) كتاب سليم بن قيس، ٢/ ٧٣٧، ح٢٢.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ٦/ ٢٩١، خطبة ٨٣، نقلاً عن كتاب المفاخرات للزبير بن بكار، وذكره سبط ابن الجوزي في التذكرة، ص ٢٠١.
(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٣٣٧، شرح ابن أبي الحديد، ٨/ ٢١، خطبة ١٢٤.

يا ابن جعفر ـ يريد تصغيره ـ فقال له: «لئن نسبتني إلى جعفر فلست بدعيٍّ ولا أبتر، ثم ولَّى وهو يقول:

تعرَّضْتَ قرن الشَّمس وقت ظهيرةٍ ... لتَسْتُرَ منه ضوءه بظلامكا
كفرت اختياراً ثمّ آمنت خيفةً ... وبُغضُك إيَّانا شهيدٌ بذلكا[1]

ويقول الشيخ الأميني: «تعرِّفنا الآية الكريمة المذكورة أنَّ كل معزوٍّ إلى العاص من الولد، من ذكر أو أنثى، من المترجم له أو غيره ليسوا لرشدة»[2].

يُعدُّ من الأدعياء

تجمع الرّوايات[3] التي تترجم لعمرو بن العاص على أنّه من الأدعياء، أبناء البغايا. ويمكن أن نقدِّم خلاصة ما تضمَّنته هذه الروايات في ما يأتي:

كانت ليلى أم عمرو بن العاص أشهر بغيٍّ بمكّة وأرخصهن أجرة، فلُقِّبت بالنابغة لشهرتها. وهي أَمَةٌ حبشيَّة لرجلٍ من عَنَزَة، سُبِيَتْ، فاشتراها عبدالله بن جذعان التَّيمي بمكَّة، فعملت بغيّاً، وكانت من ذوات الرَّايات المعروفات، تنصب رايتها وتستقبل الزَّبائن هي وبنات لها. وقد وقع عليها العاص بن وائل، في الجاهلية، وآخرون من قريش منهم أبو لهب وأميّة بن خلف وهشام بن

(١) الحافظ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٩/٦٦، وفي مختصر تاريخ دمشق، ١٢/٧٨.
(٢) الغدير، م.س.، ص ١٨٢.
(٣) ذكرت ذلك أروى بنت عبد المطَّلب لما وفدت على معاوية، العقد الفريد لابن عبد ربّه، ١/٢٢٥، وروض المناظر، ١/٢٢٩، حوادث سنة ٦٠، بلاغات النساء، ص ٤٣، ثمرات الأوراق، ١/١٥٢، دائرة المعارف لفريد وجدي، ١/٢١٥، جمهرة الخطب، ٢/٣٨٢، رقم ٣٧٠. وخاطبه به الإمام الحسن عليه السلام، في حديث المهاجاة الطويلة الواقعة بينه وبين عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة في مجلس معاوية، شرح ابن أبي الحديد، ٦/٢٩١، خطبة ٨٣. وذكر ذلك الكلبي أبو منذر هشام (المتوفى سنة ٢٠٤هـ، ٢٠٦هـ)، تذكرة سبط ابن الجوزي، ص ٢٠٥، وذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢٠٩هـ، ٢١١هـ)، شرح ابن أبي الحديد، ٦/٢٨٥، خطبة ٨٣، وذكره الزمخشري في ربيع الأبرار، ٣/٥٤٨ و٢/١٩.

المغيرة وأبو سفيان بن حرب، في طهر واحد، فولدت عمرواً، فاختصم القوم جميعاً فيه، كل يزعم أنّه ابنه. ثمَّ إنّه أضرب عنه ثلاثة وأكب عليه اثنان: العاص بن وائل، وأبو سفيان بن حرب. فقال أبو سفيان: أنا، والله، وضعته في حِرِ أمّه. فقال العاص: ليس هو كما تقول، هو ابني، فحكَّما أمَّه فيه، فقالت: للعاص. فقيل لها بعد ذلك: ما حملك على ما صنعت، وأبو سفيان أشرف من العاص؟ فقالت: إن العاص كان ينفق على بناتي، ولو ألحقته بأبي سفيان، وهو كما تعلمون شحيح، لم ينفق عليّ العاص شيئاً، وخِفْت الضّيعة.

وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت لعمرو بن العاص، إذ هجاه ردّاً على هجائه رسول الله ﷺ:

أبوك أبو سفيان لا شكّ قد بدَتْ ... لنا فيكَ منهُ بيِّناتُ الدلائلِ
فـفاخِر به إمّا فَخَرْتَ ولا تكنْ ... تفاخرُ بالعاص الهجين ابن وائلِ
وإنَّ التي في ذاك يا عمرو حُكِّمتْ ... فقالت، رجاءً عندَ ذاكَ لنائلِ:
من العاص عمروٌ، تُخبرُ الناس كلّما ... تجمّعتِ الأقوامُ عند المحافلِ

وكان النّاس يعرفون هذه الحقيقة، ويتندّرون بها، ومن الروايات ذات الدّلالة أن رجلاً جُعل له ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمّه؛ فأتاه بمصر، وكان والياً عليها، فقال: أردت أن أعرف أمَّ الأمير؟ فقال عمرو: نعم، كانت امرأة من عنزة، ثم من بني جلّان، تُسمّى ليلى، وتُلقّب «النابغة». إذهب وخذ ما جُعل لك[1].

ما كان عمرو يستطيع إنكار هذه الحقيقة، وقد وجد أنَّ أفضل سبيل لمواجهة الناس هو الاعتراف بها كأنّها أمر عاديّ، فلعله بذلك يكفّ ألسنة الناس عنه، ويظهر بمظهر الدّاهية الحليم.

---

(١) المبرد، الكامل، ٢/ ٨٣، ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/ ٢٨٤، ابن عبد البر، الاستيعاب، القسم الثالث، ١١٨٤ رقم ١٩٣١، ابن أبي الحديد، شرح النهج، ٦/ ٢٨٤، خطبة ٨٣.

يكيد للإسلام والمسلمين

جاء، في سيرة رسول الله ﷺ: «فلما رأت قريش أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة... ائتمروا بينهم أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشي، فيردهم عليهم... فبعثوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثمَّ بعثوهما إليه فيهم».

استمع النجاشي إلى قول رسوليّ قريش وإلى ردّ جعفر بن أبي طالب عليهما، فقرّر ألاّ يُسْلم المسلمين، فقال عمرو بن العاص، بعد أن خرج من المجلس، لعبدالله بن ربيعة: والله لآتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبدالله: لا نفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. فقال عمرو: والله لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. وفي الغد لم تفلح مكيدته، وردَّ النجاشي هدايا قريش، بعد أن قال للمسلمين: «من سبكم غرم. ما أحبُّ أن لي دبراً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم (دبر بلغة الحبشة: جبل)»[1].

ولم يكتف عمرو بن العاص بالكيد للمسلمين، فمكر بأحد أصحابه، فيروى «أنَّ قريشاً بعثت، مع ابن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، عمارة بن الوليد بن المغيرة الذي عرضته قريش على أبي طالب ليأخذه، ويدفع إليهم محمَّداً ليقتلوه، وكان وسيماً. والظاهر أن إرسالهم إيَّاه مع عمرو كان في المرة الأخرى، ويروى أن عمرواً سافر بامرأته، فلما ركبوا البحر وكان عمارة قد هوى امرأة عمرو وهويته، فعزما على دفع عمرو في البحر، فدفعاه فسقط فيه ثم سبح، ونادى أصحاب السَّفينة فأخذوه ورفعوه إلى السفينة وأضمرها عمرو في نفسه، ولم يبدها لعمارة، فلما أتيا أرض الحبشة مكر به عمرو في حديث طويل ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني»، ويذكره صاحب السيرة الحلبية فيقول: فلما أتيا أرض الحبشة مكر عمرو بعمارة فقال له: «أنت رجل جميل والنساء يحببن

(١) السيرة النبويّة لابن هشام، تحقيق مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: المكتبة العلميّة، الجزء الأول، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٧.

الجمال، فتعرَّض لزوجة النجاشي لعلها أن تشفع لنا عنده، ففعل عمارة ذلك، وتكرَّر تردُّده عليها حتى أهدت إليه من عطرها، فلما رأى عمرو ذلك أتى النجاشي وأخبره. فعاقب ملك الحبشة الرجل الوسيم عقاباً جعله مسلوب العقل، فلحق بالوحوش في الجبال إلى أن مات على تلك الحال[١].

يهجو رسول الله ﷺ

كان عمرو بن العاص يقول الشِّعر، ويروى أنه نظم في هجاء رسول الله ﷺ، سبعين بيتاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة».

كان المسلمون يعرفون حقيقة ابن العاص، ويواجهونه بها في المجالس، وما كان بقادرٍ على إنكارها، ومن الأحداث الدالة ما يرويه الزبير بن بكار في كتاب «المفاخرات»، فقد اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط وعتبة بن أبي سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، فقالوا له: إن الحسن قد أحيا أباه وذكره وقال فصُدِّق، وأمر فأُطيع، وخفقت له النعال. وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا.. قال معاوية: فما تريدون؟

قالوا: ابعث إليه فليَحْضُرْ لنسبَّه ونسبَّ أباه..

تردَّد معاوية، وأصرُّوا، فبعث إليه، فجاء، وتحدَّثوا، وتكلم عمرو بن العاص، وأَطال، فأجابه الإمام الحسن عليه السلام، مقرِّراً حقيقته المعروفة من المسلمين، فقال له:

«وقاتلتَ رسول الله ﷺ في جميع المشاهد، وهجوتَه وآذيتَه بمكّة، وكِدْتَه كَيْدَكَ كلّه، وكنت من أشدِّ الناس له تكذيباً وعداوةً، ثمَّ خرجتَ تريد

---

(١) نفسه، ص ٣٣٣، هامش ٣. والسيرة الحلبية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١/ ٣٤٠ و٣٤١.

النجاشيَّ مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكّة، فلمّا أخطأكَ ما رجوتَ، ورجعك الله خائباً، وأكذَبَك واشياً. جعلتَ حسدَكَ على صاحبك عمارة بن الوليد، فوشيتَ به إلى النجاشي، حسداً لما ارتكب من حليلته، ففضحكَ الله وفضحَ صاحبك، فأنت عدوُّ بني هاشم في الجاهليّة والإسلام، ثمّ إنّك تعلم، وكلُّ هؤلاء الرهط يعلمون: أنّك هجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسولُ الله: اللّهمّ إنّي لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللّهمّ العنه بكلِّ حرف ألف لعنة. فعليك إذاً من الله ما لا يُحصى من اللعن..

ويحك يا ابن العاص ألست القائل في بني هاشم لمّا خرجت من مكّة إلى النجاشي:

تقول ابنتي: أين هذا الرحيلُ؟ ... وما السيرُ منّي بمُسْتَنكَرِ
فقلتُ: ذَرِيني فإنّي امرؤٌ ... أريد النجاشيّ في جعفرِ
لأكْوِيَهُ عندَهُ كَيَّةً ... أُقيم بها نخوةَ الأصعرِ
وشانىءُ أحمد من بينهم ... وأقْولُهمْ فيه بالمُنكرِ
وأجري إلى عتبةَ جاهداً ... ولو كان كالذهبِ الأحمرِ
ولا أنثني عن بني هاشمٍ ... وما أسطعتُ في الغَيْبِ والمَحضرِ
فإن قَبِلَ العَتبَ منّي له ... وإلاّ لويتُ له مِشفري»[1]

استسلم في انتظار وجود الأعوان

قاتل عمرو بن العاص الإسلام والمسلمين، كما رأينا في الحبشة، ويروى أنّه قال في معركة «أُحد» قصيدة، وصف فيها الحرب، ودوره فيها، وانتهى إلى القول إنه كان يسير إلى «كبش» القوم، أي إلى رسول الله ﷺ:

... ففدىً لهم أمّي غدا ... ة الرّوع إذ يمشون قطوا

(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص ٢٠٠، وشرح ابن أبي الحديد، ٦/ ٢٩١، خطبة ٨٣، جمهرة خطب العرب، ٢/ ٢٧، رقم ١٨. لوى الحبل: فتله. لوت الناقة بذنبها وألوت: حركته. المشفر: الشدّة والمنعة.

سيــــراً إلــــى كبــــش الكتيــ ـــبــة إذ جلتــه الشمــــس جلـــوا

وكثـر شعر القرشيين في هذه المعركة، فأجابهم شعراء المسلمين، ومنهم كعب بن مالك الذي قال في مطلع إحدى قصائده:

أبلغ قـريشاً، وخيرُ القول أصدقه والصِّدق عند ذوي الألباب مقبول
أن قـد قتلنـا بقتـلانـا سـراتكـم أهل اللواء ففيمَ يكثر القيل. . . ؟[1]

وبقي على عداوته للإسلام وكيده له إلى أن أيقن أنَّ الإسلام على وشك أن يحقِّـق نصـره الحـاسم، فاغتنم الفرصة، وقدم في هدنة الحديبية وأسلم، ويقول الشيخ الأميني في ذلك:

«إنَّ الذي حدانا إليه يقين لا يخالجه شكّ، بعد الأخذ بمجامع ما يؤثر عن الرَّجل في شؤونه وأطواره، أنّه لم يعتنق الدين اعتناقاً، وإنّما انتحله انتحالاً وهو فـي الحبشـة، نـزل بهـا مع عمارة بن الوليد لاغتيال جعفر وأصحابه رُسل النبيِّ الأعظم، تنتهي إليه الأنباء عن أمر الرسالة، ويبلغه التقدّم والنشور له، وسمع من النجاشي قوله: أتسـألنـي أن أعطيـك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ فقال: أيّها الملك أكذلك هو؟ فقال: ويحك يا عمرو أطعني واتّبعه، فـإنّـه والله لعلـى الحقّ، وليظهرنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

فَرَاقَهُ التزلّفُ إلى صاحب الرسالة بالتسليم له، فلم ينكفئ إلى الحجاز إلاّ طمعـاً في رتبة، أو وقوفاً على لُماظة من العيش، أو فِرَقاً من البطش الإلهي بالسلطـة النبويـة. فنحن لا نعرفه في غضون هاتيك المُدَد التي كان يداهن فيها المسلميـن ويصـانعهم إبقاءً لحياته، واستدراراً لمعاشه، إلاّ كما نعرفه يوم كان يـهجـو رسول الله ﷺ بقصيدة ذات سبعين بيتاً، فلعنه ﷺ عدد أبياته.

(١) سيـرة ابـن هشـام، بيـروت: المكتبة العلمية، ٣/ ١٤٧. كبش الكتيبة: رئيسها. جلته: أبرزته. الألباب: العقول. سراة القوم: خيارهم. القيل: القول.

وهو كما قال أمير المؤمنين: «متى ما كان للفاسقين وليّاً، وللمسلمين عدوّاً؟! وهل يشبه إلاّ أمّه التي دفعت به». وكان كما يأتي عن أمير المؤمنين، من قوله: «والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر، فلمّا وجدوا أعواناً، رجعوا إلى عداوتهم منّا».

قال ابن أبي الحديد، في الشرح: قال شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله: قول عمرو بن العاص لمعاوية ـ لمّا قال له معاوية: يا أبا عبدالله إنّي لأكره لك أن تتحدّث العرب عنك إنّك إنّما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا ـ: دعنا عنك. كنايةٌ عن الإلحاد بل تصريحٌ به، أي: دع هذا الكلام لا أصل له، فإنَّ اعتقاد الآخرة وإنّها لا تُباع بعرض الدنيا من الخرافات، وما زال عمرو بن العاص ملحداً ما تردّد قطُّ في الإلحاد والزندقة.

وقال: قال شيخنا أبو عبدالله: أوّل من قال بالإرجاء المحض معاوية وعمرو بن العاص، كانا يزعمان أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال: حاربت من تعلم. وارتكبت ما تعلم! فقال: وثقت بقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر/ ٥٣] (١).

حقيقة ابن العاص بعد إسلامه

وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وآله حقيقة عمرو بن العاص، بعد إسلامه، ومن الروايات التي تفيد ذلك نذكر: دخل زيد بن أرقم على معاوية، فإذا عمرو بن العاص جالسٌ معه على السرير، فلما رأى ذلك زيد، جاء حتى رمى بنفسه بينهما، فقال له عمرو بن العاص: أما وجدت لك مجلساً إلاّ أن تقطع بيني وبين أمير المؤمنين؟!

(١) الغدير، ٢/ ١٨٩ و١٩٠، نقلاً عن سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٨٩، وتذكرة خواص الأمة، ص ٩٧، والسيرة الحلبية، ٣/ ٢٠، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ٢/ ٦٥ و٦/ ٣٢١ و٣٢٥ خطبة ٨٣ و٧/ ٥٨، خطبة ٩٢.

فقال زيد: إن رسول الله ﷺ غزا غزوةً، وأنتما معه فرآكما مجتمعين، فنظر إليكما نظراً شديداً، ثم رآكما في اليوم الثاني واليوم الثالث، كل ذلك يديم النظر إليكما، فقال في اليوم الثالث: «إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ففرِّقوا بينهما، فإنهما لن يجتمعا على خيرٍ». كذا أخرجه ابن مزاحم في كتاب صفين. ورواه ابن عبد البر، في العقد الفريد، عن عبادة بن الصامت، وفيه: إنه ﷺ قاله في غزوة تبوك، ولفظه: «إذا رأيتموهما اجتمعا ففرِّقوا بينهما، فإنَّهما لا يجتمعان على خير»[(١)].

وكان عمرو بن العاص يذكر أنه شارك في الغزوات، وأنَّ رسول الله ﷺ عقد له لواءً، وفي بيان ذلك يذكر ابن مزاحم أن عمرو بن العاص رفع في صفِّين شقّ خميصة (كساء أسود مربَّع له علمان)، في رأس رمح، فقال ناسٌ: هذا لواء عقده له رسول الله ﷺ، فلم يزالوا كذلك حتى بلغ الخبر علياً، فقال: «هل تدرون ما أمر هذا اللواء؟ إنَّ عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله ﷺ هذه الشّقّة، فقال: «من يأخذها بما فيها؟ فقال عمرو: وما فيها، يا رسول الله؟

قال: فيها أن لا تقاتل به مسلماً، ولا تقرِّبه من كافر. فأخذها، فقد والله قرَّبه من المشركين، وقاتل به اليوم المسلمين. والذي فلق الجنة وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر، فلما وجدوا أعواناً رجعوا إلى عداوتهم منّا، إلا أنهم لم يدعوا الصلاة»[(٢)].

يكسر الخراج فيُعزل، فيمكر بصاحبه

ولم تلبث الأيّام أن بيّنت حقيقة عمرو بن العاص واضحةً، فقد أُعطيت له الفرصة ليشارك في الفتح، وفي الولاية، فولاّه عمر بن الخطاب فلسطين، ثم مصر، ثم نزعه عثمان بن عفان عن خراج مصر. ويقول الطبري في ذلك: «نزع

(١) وقعة صفين لابن مزاحم، ص ٢١٨، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ٤/ ١٤٥.
(٢) نفسه، ص ٢١٥.

عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عبدالله بن سعد على الخراج، فتباغيا، فكتب عبدالله بن سعد إلى عثمان يقول: إن عمراً كسر الخراج، وكتب عمرو إن عبدالله كسر عليّ حيلة الحرب، فكتب عثمان إلى عمرو: انصرف، وولى عبدالله بن سعد الخراج والجند، فقدم عمرو مغضباً، فدخل على عثمان وعليه جبّة يمانية محشوّة قطناً، فقال عثمان: ما حشو جبّتك؟ قال: عمرو. قال عثمان: قد علمت أن حشوها عمرو، ولم أرد هذا، إنما سألت أقطن هو أم غيره؟»[1].

يفيد هذا الخبر أن الخراج هو محور الصّراع، وقد عُزل عمرو عنه لأنّه كسره، ثم أشار عثمان إلى أن جبة عمرو محشوّة بشيءٍ آخر فسأل عنه، فتجاهله ابن العاص تجاهل العارف.

ويروى، في سبب عزله عن مصر، أن عمرو بن العاص ادّعى، في أثناء ولايته على مصر، على أهل الاسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذي كان عاهدهم، فعمد إليها فحارب أهلها وافتتحها وقتل المقاتلة وسبى الذرية، فنقم ذلك عليه عثمان، ولم يصح عنده نقضهم العهد فأمر بردّ السّبي الذين سبوا من القرى إلى مواضعهم.

وعمل عمر بن العاص، في ما بعد، على تأليب الناس على عثمان مستخدماً وسائله في المكر، فكان يأتي علياً مرّة فيؤلّبه على عثمان، ويأتي الزبير مرة وطلحة مرة أخرى فيُؤلّبهما على عثمان، ويعترض الحاجّ فيخبرهم بما أحدث عثمان.

ولمّا قصد الثوّار إلى المدينة، أخرج لهم عثمان عليّاً، فكلّمهم فرجعوا عنه، وخطب عثمان الناس، فقال: إنَّ هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: منشورات الأعلمي، ٣/ ٣١٤ و٣١٥. وانظر الغدير، ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

إمـامـهم أمـرٌ، فلمّـا تيقّنـوا أنّـه بـاطـلٌ ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم. فناداه عمـرو بن العـاص مـن ناحية المسجد: اتّـق الله يا عثمان، فإنّك قد ركبت نهابير وركبناها معك، فتب إلى الله نتب، فناداه عثمان فقال: وإنّك هناك يا ابن النابغة، قَمَلت والله جبّتك منذ تركتك من العمل. وفي لفظ البلاذري في الأنساب: يا ابن النابغة وإنّك ممّن تُؤلّب عليَّ الطغام، لأنّي عزلتك عن مصر.

فلمّـا كـان حصـر عثمـان الأوّل، خـرج عمرو من المدينة حتى انتهى إلى أرضٍ لـه بـفلسطيـن يقـال لهـا السبع، فنزل بها، وكان يقول: أنا أبو عبدالله إذا حككـت قـرحـةً نـكأتهـا، والله إن كنت لألقى الراعي فأحرِّضه عليه. وفي لفظ البلاذري: وجعل يحرِّض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم.

فبينمـا هـو بقصره بفلسطين، إذ مرَّ به راكب من المدينة، فسأله عمرو عن عثمـان، فقـال: تـركتـه محصـوراً. قـال عمـرو: أنا أبو عبدالله قد يضرط العير والمكواة في النّار، فلمّا بلغه مقتل عثمان، قـال عمرو: أنا أبو عبدالله، قتلته وأنا بـوادي السبـاع، من يلي هذا الأمر من بعده؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيباً، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلاّ سيستنظف الحقّ، وهو أكره من يليه إليّ[1].

وراح ابـن العـاص يـفكّر في ما ينبغي عليه فعله، وقلّب الأمور، ثم انتهى إلى قرارٍ لم يُمله وعده لرسول الله ﷺ عندما أخذ منه اللواء، ونترك للطبري أن يروي، في أحداث سنة ٣٦هـ، نقلاً عن الواقدي، ما فكر فيه الرجل وما فعله في ما بعد.

يبيع دينه بدنياه

لمّا بلغ عمراً قتل عثمان، قال: أنا عبدالله قتلته وأنا بوادي السباع من يلي هذا الأمر من بعده؟ إن يَلِه طلحة فهو فتى العرب سيْباً، وإن يَلِه ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنظف الحق، وهو أكره من يليه إليّ.

(١) نفسه، ٣/٥٥٩. نهابير: جمع نُهبورة، المهلَكة سيستنظف الحق: سيأخذه كلّه.

قــال: فبلغــه أنَّ علياً قـد بـويـع لـه فـاشتـد عليه، وتربَّص أياماً ينظر ما يصنـع النـاس، فبلغـه مسيـر طلحـة والـزبير وعائشة، وقال: أستأني وأنظر ما يصنعـون، فـأتـاه الخبـر أن طلحـة والزبير قد قتلا، فارتُجَّ عليه أمره، فقال له قـائـل: إن معـاويـة بـالشـام لا يـريد أن يبايع لعليّ، فلو قاربت معاوية، فكان معـاويـة أحبّ إليـه مـن عليّ بـن أبي طالب. وقيل له: إن معاوية يعظِّم شأن قتـل عثمـان بـن عفـان ويحـرِّض عـلـى الطلـب بدمه، فقال عمرو: ادعوا لي محمـداً وعبـدالله (وهمـا ابنـاه) فـدُعيـا لـه، فقـال: قـد كـان مـا قـد بلغـكما من قتل عثمان وبيعة الناس لعليّ وما يرصد معاوية من مخالفة عليّ، وقال: ما تـريـان، أمـا علـي فلا خير عنده وهو رجل يُدِلُّ بسابقته، وهو غير مشركي في شيء من أمره.

فقـال عبـدالله بن عمرو: توفي النبي ﷺ، وهو عنك راض، وتوفي أبو بكر، وهو عنك راض، وتوفي عمر وهو عنك راض، أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه.

وقال محمد بن عمرو: أنت ناب من أنياب العرب لا أرى أن يجتمع هذا الأمر، وليس لك فيه صوت ولا ذكر.

قـال عمـرو: أمـا أنـت يـا عبدالله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديـني. أمـا أنت يـا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي وأشرّ لي في آخرتي.

ثم خرج عمرو بن العاص، ومعه ابناه، حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان. فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو. فقال ابنا عمرو لعمرو: ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إلى قولك انصرف إلى غيره، فدخل عمرو علـى معـاويـة فقـال: والله لعجب لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عنـي، أمـا والله إن قـاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها

حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا، فصالحه معاوية وعطف عليه»[1].

وقد خاطبه الإمام الحسن عليه السلام، في مجلس معاوية، المذكور آنفاً، بقوله:

وأمّا ما ذكرت من أمر عثمان، فأنت سعّرت عليه الدنيا ناراً، ثمَّ لحقتَ بفلسطين، فلمّا أتاك قتله قلت: أنا أبو عبدالله إذا نكأتُ ـ أي: قشرت ـ قرحةً أدميتها. ثمّ حبستَ نفسك إلى معاوية، وبعتَ دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بغض، ولا نعاتبك على وُدّ، وبالله ما نصرتَ عثمان حيّاً، ولا غضبت له مقتولاً.

ويقول الطَّبري: إنَّ «عمرو بن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب على أن له مصر طعمة ما بقي»[2].

ويتقصَّى الشيخ الأميني الرّوايات[3] التي تتحدث عن الاتفاق الذي تمَّ بين عمرو بن العاص ومعاوية، فيقول: إن ابن العاص خاطب ابنيه بعد أن استشارهما فقال: «أمّا أنت يا عبدالله، فأمَرتَني بما هو خيرٌ لي في ديني، وأمّا أنت يا محمد فأمرتني بما هو خيرٌ لي في دنياي، وأنا ناظرٌ فيه. فلمّا جنّه الليل رفع صوته وأهله ينظرون إليه:

تطاولَ ليلي للهمومِ الطوارقِ وخوفِ التي تجلو وجوهَ العوائقِ
وإنَّ ابنَ هندٍ سائلي أنْ أزورَهُ وتلك التي فيها بناتُ البوائقِ
أتاه جريرٌ من عليٍّ بخُطَّةٍ أمرّت عليه العيش ذات مضائقِ
فإن نالَ منّي ما يُؤمِّلُ ردّهُ وإن لم يَنَلْهُ ذَلَّ ذُلَّ المطابِقِ
فوالله ما أدري وما كنتُ هكذا أكونُ ومهما قادني فهو سائقي

(١) نفسه، ٣/٥٥٩ و٥٦٠.
(٢) نفسه، ٤/٧٤.
(٣) راجع الغدير، م.س.، ٢/٢١٠، نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ٢/٦٣، خطبة ٢٦، وقعة صفين، ص ٣٤ ـ ٤٠، تاريخ اليعقوبي، ٢/١٨٤ ـ ١٨٦.

أُخــادعُــهُ إنَّ الخــداعَ دنيّــةٌ ... أم أعطيـهِ مـن نفسـي نصيحـةَ وامـقِ
أم أقعُدُ في بيتي وفي ذاكَ راحةٌ ... لشيخٍ يخافُ الموتَ في كلِّ شارقِ
وقـد قـال عبدُالله قـولاً تعلّقـتْ ... به النفسُ إن لم تقتطعني عوائقي
وخـالفَـهُ فيـهِ أخـوه محمـد ... وإنّـي لَصَلْـبُ العـود عنـد الحقـائـقِ

فقـال عبـدالله: رحـل الشيـخ. وفـي لفظ اليعقوبي: بال الشيخ على عقبيه وباع دينه بدنياه.

فلمّـا أصبـح دعـا عمـرو غـلامه وردان وكان داهياً مارداً، فقال: ارحل يا وردان، ثمّ قال: حطَّ يا وردان، ثمّ قال: ارحل يا وردان، حطَّ يا وردان!

فقـال لـه وردان: خلطـت أبـا عبـدالله! أمـا إنّـك إن شئتَ أنبأتك بما فـي نـفسـك. قـال: هـات ويحـك، قـال: اعتـركـت الـدنيـا والآخـرة على قـلبك، فقلـتَ: علـيٌّ معـه الآخـرة فـي غيـر دنيـا، وفـي الآخرة عـوض من الـدنيـا. ومعـاويـة معـه الدنيا بغير آخرة، وليس في الدنيا عوض من الآخرة، فأنت واقفٌ بينهما.

قـال: فـإنّك والله مـا أخطـأت، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. قال: الآن لمّا شهدت العرب مسيري إلى معاوية، فارتحل وهو يقول:

يـا قـاتـلَ اللهُ وردانـاً وفطنَتـهُ ... أبدى لَعَمْرُكَ ما في النفسِ وردانُ
لمّا تعرّضتِ الدنيا عرضتُ لها ... بحرص نفسي وفي الأطباع إدهانُ
نفسٌ تَعِفُّ وأخرى الحرصُ يقلبُها ... والمـرء يـأكـلُ تِبنـاً وهـو غَـرثـانُ
أمّـا علـيٌّ فـديـنٌ ليـس يَشـرَكُـهُ ... دنيـا وذاك لـه دنيـاً وسلطـانُ
فاخترتُ من طمعي دنياً على بصرٍ ... ومـا معـي بـالـذي أختـار بـرهـانُ
إنّـي لأعـرفُ مـا فيهـا وأُبصـرُهُ ... وفـيَّ أيضـاً لمـا أهـواهُ ألـوانُ
لكنَّ نفسي تُحبُّ العيشَ في شَرَفٍ ... وليـس يـرضـى بـذُلِّ العيش إنسـانُ
عمـروٌ لعمـرُ أبيـه غيـرُ مُشتبـهٍ ... والمـرءُ يعطـسُ والـوَسنـان وسنـانُ

فسار حتى قدم على معاوية، وعرف حاجة معاوية إليه، فباعده من نفسه، وكايد كلٌّ واحد منهما صاحبه.

فلمّا دخل عليه قال: يا أبا عبدالله طَرَقَتْنا في ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس فيها وِرْدٌ ولا صدرٌ. قال: وما ذاك؟ قال: ذاك أنّ محمد بن أبي حذيفة قد كسر سجن مصر، فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين. ومنها أنّ قيصر زحف بجماعة الروم إليّ ليتغلّب على الشام. ومنها: أنّ علياً نزل الكوفة متهيّئاً للمسير إلينا.

قال: ليس كلّ ما ذكرت عظيماً، أمّا ابن أبي حذيفة، فما يتعاظمك من رجل خرج في أشباهه، أن تبعث إليه خيلاً تقتله أو تأتيك به، وإن فاتك لا يضرُّك.

وأمّا قيصر: فاهدِ له من وصفاء الروم ووصائفها، وآنية الذهب والفضّة، وسله الموادعة، فإنّه إليها سريع.

وأمّا عليٌّ: فلا والله يا معاوية! ما تسوّي العرب بينك وبينه في شيءٍ من الأشياء، إنَّ له في الحرب لَحَظّاً ما هو لأحدٍ من قريش، وإنّه لصاحب ما هو فيه إلاّ أن تظلمه.

وفي رواية أخرى: قال معاوية: يا أبا عبدالله إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربّه، وقتل الخليفة، وأظهر الفتنة، وفرّق الجماعة، وقطع الرحم.

قال عمرو: إلى مَن؟ قال: إلى جهاد عليّ.

فقال عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعليٌّ بِعكمي بعير، ما لَكَ هِجْرَتُه، ولا سابقته، ولا صحبته، ولا جهاده، ولا فقهه، ولا علمه، والله إنَّ له مع ذلك حدّاً وحدوداً، وحظّاً وحظوةً، وبلاءً من الله حسناً، فما تجعل لي إن شايعتك على حربه؟ وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر. قال: حكمك. قال: مصر طعمة. فتلكّأ عليه.

وفي حديثٍ، قال له معاوية: إنّي أكره لك أن يتحدّث العرب عنك، إنّك إنّما دخلتَ في هذا الأمر لغرض الدنيا. قال: دعني عنك. قال معاوية: إنّي لو شئت أن أُمنّيك وأخدعك لفعلتُ. قال عمرو: لا لعمر الله ما مثلي يُخدع، لأنا أكيس من ذلك.

قال له معاوية: أُدنُ منّي براسك أُسارّك. قال: فدنا منه عمرو يسارّه، فعضّ معاوية أُذنه، وقال: هذه خدعة، هل ترى في البيت أحداً غيري وغيرك؟ فأنشأ عمرو يقول:

معاويَ لا أُعطيك ديني ولم أنَلْ ... بذلك دنيا فانظُرَنْ كيف تصنعُ
فإن تُعطني مصراً فأرْبِحْ بصفقةٍ ... أخذتَ بها شيخاً يَضُرُّ وينفعُ
وما الدينُ والدنيا سواءٌ وإنّني ... لآخذ ما تُعطي وراسي مقنَّعُ
ولكنّني أُغضي الجفون وإنّني ... لأخدَعُ نفسي والمخادع يُخدَعُ
وأُعطيك أمراً فيه للمُلك قوّةٌ ... وإنّي به إن زلّتِ النعلُ أصرعُ
وتمنعني مصراً وليست برغبةٍ ... وإنّي بذا الممنوعِ قِدماً لَمُولَعُ

قال: أبا عبدالله، ألم تعلم أنّ مصر مثل العراق؟ قال: بلى. ولكنّها إنّما تكون لي إذا كانت لك، وإنّما تكون لك إذا غلبتَ علياً على العراق، وقد كان أهلها بعثوا بطاعتهم إلى عليٍّ.

قال: فدخل عتبة بن أبي سفيان، فقال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عَمْراً بمصر إن هي صفت لك؟ ليتك لا تُغْلَبُ على الشام. فقال معاوية: يا عتبة بت عندنا الليلة.

فلمّا جُنَّ على عتبة الليل، رفع صوته ليُسمع معاوية، وقال:

أيّها المانع سيفاً لم يُهزّ ... إنّما مِلْتَ على خزٍّ وقزّ
إنّما أنت خروفٌ ماثلٌ ... بين ضَرْعَينِ وصوفٍ لم يُجزْ
اعطِ عَمْراً إنَّ عَمْراً تاركٌ ... دينَهُ اليوم لدنيا لم تُحَزْ
يا لك الخيرُ فَخُذْ من دَرّهِ ... شَخْبَهُ الأولى وابعِدْ ما غرزْ

واسحبِ الذَّيلَ ويادر فُوقَها وانتهزها إنَّ عمراً يُنتهز
أعطه مصراً وزده مثلها إنّما مصرُ لِمنْ عَزَّ فَبَزْ
واتْرِكِ الحِرْصَ عليها ضَلّةً واشبُبِ النارَ لمقرور يَكِزْ
إنَّ مصراً لعليٍّ أو لنا يُغلَبُ اليومَ عليها من عَجَزْ

فلمّا سمع معاوية قول عتبة، أرسل إلى عمرو فأعطاه مصر، فقال له عمرو: لي الله عليك بذلك شاهدٌ؟. قال له معاوية: نعم لك الله عليَّ بذلك، لئن فتح الله علينا الكوفة. قال عمرو: واللهُ على ما نقُولُ وكيل.

فخرج عمرو من عنده، فقال له ابناه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر. قالا: وما مصر في ملك العرب. قال: لا أشبع الله بطونكما إن لم يشبعكما مصر.

وكتب معاوية على أن لا ينقُضَ شرطٌ طاعةً. وكتب عمرو على أن لا ينقض طاعةٌ شرطاً. فكايد كلٌّ واحد منهما صاحبه.

بدء كيده، وكشف حقيقته

وبدأ عمرو بن العاص كيده، فكان يذكر الإمام علياً عليه السلام في المجالس وينتقص منه، ويروي عدد من الرواة أنه ذكر الإمام علياً عليه السلام فقال في ما قاله: «فيه دعابة»، فبلغ الإمام عليه السلام قوله، فقال فيه:

«زعم ابن النابغة أنّي تلعابة، تمراحة، ذو دُعابة، أعافس، وأمارس. هيهات يمنع من العِفاس والمِراس، ذكر الموت وخوف البعث والحساب، ومن كان له قلب، ففي هذا من هذا له واعظ وزاجر، أما وشرُّ القول الكذب، إنّه لَيَعِدُ فيُخلف، ويحدِّث فيكذب، فإذا كان يوم البأس، فإنّه زاجر وآمر، ما لم تأخذِ السيوفُ بهام الرجال، فإذا كان ذاك، فأعظمُ مكيدتهِ في نفسه، أن يمنح القومَ استه»[1].

(١) الغدير، ص ١٩١ ـ ١٩٣، نقلاً عن أبي حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ٣/ ١٨٣، وجاء في=

وكتب الإمام علي عليه السلام إليه يبيّن حقيقته المعروفة، وما صار إليه هو وصاحبه، فوافق «شنّ طبقة»، كما جاء في المثل السائر:

«من عبدالله عليّ أمير المؤمنين إلى الأبتر ابن الأبتر، عمرو بن العاص بن وائل، شانئ محمد وآل محمد في الجاهليّة والإسلام. سلام على من اتّبع الهدى.

أمّا بعد: فإنّك تركتَ مروءتَك لامرئ فاسق مهتوك سترُهُ، يَشينُ الكريمَ بمجلسه، ويسفّهُ الحليمَ بخَلْطَتِهِ، فصار قلبُكَ لقلبه تَبَعاً، كما قيل: وافق شنٌّ طبقة، فسلَبكَ دينَكَ، وأمانتك، ودنياك، وآخرتَك، وكان علمُ الله بالغاً فيك، فصرتَ كالذئب يتبعُ الضرغام إذا ما الليل دجا، أو أتى الصبح، يلتمسُ فاضلَ سؤرِه، وحوايا فريستِهِ، ولكن لا نجاةَ من القدر، ولو بالحقِّ أخذت لأدركتَ ما رجوتَ، وقد رشدَ من كانَ الحقُّ قائده، فإن يمكّنِ اللهُ منك ومن ابن آكلةِ الأكباد، ألحقتُكما بمن قتلَه الله من ظَلَمَة قريشٍ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن تُعجزا وتبقيا بعدي، فالله حسبكما، وكفى بانتقامه انتقاماً، وبعقابه عقاباً. والسلام»[1].

وكتب ابن العاص إلى عبدالله بن عباس كتاباً يتحدَّث فيه عن الصِّراع الدّائر، ويسوِّغ موقفه، فأجابه ابن عباس بكتاب جاء فيه:

«أمّا بعد: فإنّي لا أعلم رجلاً من العرب أقلَّ حياءً منك، إنّه مال بك معاوية إلى الهوى، وبعته دينك بالثمن اليسير، ثمّ خبطت بالناس في عَشْوةٍ طمعاً في الملك، فلمّا لم ترَ شيئاً، أعظمتَ الدنيا إعظام أهل الذنوب، وأظهرتَ فيها نزاهة أهل الورع، لا تريد بذلك إلاّ تمهيد الحرب وكسر أهل الدين، فإن كنتَ تريد الله بذلك فدعْ مصر، وارجع إلى بيتك، فإنَّ هذه الحرب ليس فيها معاوية

= مصادر أخرى مع اختلاف بسيط يذكر صاحب الغدير منها: أمالي الطوسي ص ١٣١، ح٢٠٨، نهج البلاغة، ص ١١٥، خطبة ٨٤. العِفاس: الفساد. المِراس: العبث واللعب.

(١) نفسه، ٢/ ١٩٤، وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد صورة أخرى للكتاب، ١٦/ ١٦٣.

كعليّ، بدأها عليٌّ بالحقّ، وانتهى فيها إلى العُذْرِ، وبدأها معاوية بالبغي، وانتهى فيهـا إلى السَّرَف، ولـيس أهل العراق فيها كأهل الشام، بايع أهل العراق عليّاً وهـو خيـرٌ منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خيرٌ منه، ولستُ أنا وأنت فيها بسـواء، أردتُ الله، وأردتَ أنـت مصـر، وقد عرفت الشيء الذي باعدك منّي، وأعـرفُ الشـيء الـذي قرّبك من معاويـة، فإن تُرد شرّاً لا نسبقك به، وإن تُرد خيراً لا تسبقنا إليه.

ثمّ دعا الفضل بن عبّاس فقال له: يا ابن أمّ أجب عمراً، فقال الفضل:

يا عمرو حسبُكَ من خدعٍ ووسواسِ	فاذهبْ فليس لداءِ الجهل من آسِ
إلاّ تـواتـر طعـنٍ فـي نَحـورِكُـمُ	يُشجي النفوسَ ويشفي نخوةَ الراسِ
هذا الدَّواءُ الذي يشفي جماعَتكمْ	حتـى تطيعـوا عليّـاً وابـن عبّـاسِ
أمّـــا علـــيٌّ فـــإنَّ الله فضّلَـــهُ	بفضلٍ ذي شرفٍ عالٍ على الناسِ
إن تعقِلوا الحربَ نعقْلها مخيّسةً	أو تبعثـوهـا فـإنّـا غيـرُ أنكـاسِ
قد كان منّا ومنكم في عجاجتِها	مـا لا يُـردّ وكـلٌّ عُـرضـةُ البـاسِ
قتلى العراقِ بقتلى الشامِ ذاهبةٌ	هـذا بهـذا ومـا بـالحـقّ مـن بـاسِ
لا باركَ اللهُ في مصرٍ لقد جلبتْ	شـرّاً وحظُّـك منهـا حسـوةُ الكـاسِ
يا عمرو إنَّكَ عارٍ من مغانمِها	والراقصاتِ ومن يوم الجزا كاسي(١)

ويبـدو أنَّ صفقـة ابـن العـاص ومعـاويـة انتشـرت، ولقيـت الاستنكـار والاستهجان من المسلمين الأتقياء، وتذكر الروايات ما يفيد ذلك، ومن الأمثلة البالغة الدلالة الرواية التالية:

«كان لعمرو بن العاص، ابن أخ أريب من بني سهم جاءه من مصر، فقال له: ألا تخبرني، يا عمرو، بأي رأي تعيش في قريش؟ أعطيت دينك، وتمنيت

(١) نفسه، ٢/ ٢٠٤ و٢٠٥، والإمامة والسياسة، ١/ ٩٩، وقعة صفين، ص ٤١٢، شرح نهج البلاغة، ٨/ ٦٤، خطبة ١٢٤. وذكر ابن مزاحم، في كتابه وقعة صفين أبياتاً قالها ابن عباس يصف فيها عمرو بن العاص بكل شائن، وقعة صفين، ص ٥٥٠.

دنيا غيرك، أترى أهل مصر، وهم قتلة عثمان، يدفعونها إلى معاوية وعلي حيّ؟ وتراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدَّمه في الكتاب؟

فقال عمرو: يا ابن أخي إن الأمر لله دون علي ومعاوية. فأنشد الفتى قصيدة، نذكر منها:

.. ألا يا عمرو ما أحرزت مصراً — وما ملت الغداة إلى الرَّشاد
وبعت الدِّين بالدنيا خساراً — فأنت بذاك من شرِّ العباد
... ألا تعرف أبا حسن علياً — وما نالت يداه من الأعادي
عدلت به معاوية بن حربٍ — فيا بُعد البياض من السَّواد..

فقال عمرو: يا ابن أخي، لو كنت مع علي وسعني بيتي، ولكني الآن مع معاوية. فقال له الفتى: إنَّك إن لم ترد معاوية لم يردك، ولكنك تريد دنياه، ويريد دينك.

لم يقتنع عمرو، فالتحق الفتى بجيش الإمام علي عليه السلام فسرَّ به[1].

عمرو يحرِّض النَّاس، في صفِّين، على القتال

وقف عمرو بن العاص، في صفِّين، إلى جانب معاوية، وكان يحرِّض الناس على القتال، وهو يعي تمام الوعي أنه يموِّه الحقائق. وهذا يسقط حجَّة من يسوِّغ عمله بالاجتهاد في الرَّأي، ذلك أنه كان يدرك أن ما يقوم به سيورده النَّار. ومن الروايات التي تفيد ذلك نذكر:

«قال أبو جعفر وزيد بن الحسن: طلب معاوية إلى عمرو بن العاص يوم صفِّين أن يسوِّي صفوف أهل الشام، فقال له عمرو: على أنَّ لي حكمي إن قتل الله ابن أبي طالب، واستوسقت لك البلاد؟ فقال: أليس حكمك في مصر؟ قال: وهل مصر تكون عوضاً عن الجنّة؟ وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار الذي لا

(١) الإمامة والسياسة ١/٨٨، وقعة صفين، ٤١ ـ ٤٤، شرح نهج البلاغة، ٢/٦٨، خطبة ٢٦. وفيه أن الفتى هو ابن عم عمرو بن العاص.

يُفَتّر عنهم وهم فيه مبلسون؟ فقال معاوية: إنَّ لك حكمك أبا عبدالله إن قتل ابن أبي طالب، رويداً لا يسمع أهل الشام كلامك. فقال لهم عمرو: يا معشر أهل الشام سوّوا صفوفكم، أعيروا ربّكم جماجمكم، واستعينوا بالله إلهكم، وجاهدوا عدوَّ الله وعدوّكم، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف/١٢٨]»(١).

ويعلق الشيخ الأميني على هذه الرواية فيقول:

«هذه أكبر كلمة تدلُّ على ضؤولة الرجل في دينه، لأنّها تنمُّ عن عرفانه بحقّ أمير المؤمنين عليه السلام ومغبّة أمر من ناواه، ومع ذلك فهو يحرِّض الناس على قتاله، ويموّه عليهم، وهي تردُّ قول من يبرِّر عمله باجتهاده أو بعدله»(٢).

تضليل عمرو، وكشف عمَّار لطبيعة القتالِ في صفِّين

وسعى ابن العاص، إضافة إلى التحريض على القتال، إلى التّضليل، فعمد إلى الاتصال بأصحاب الإمام علي عليه السلام، ليحبط من عزائمهم، ويكرِّههم بالقتال، ويدعو إلى رأي كان يُبيّته، ثم تبيَّن هذا الرأي في ما بعد، وهو الدعوة، إلى التحكيم. وكان من الأصحاب الذين خاطبهم الصحابي الجليل عمار بن ياسر (رض). ومن الروايات التي تورِدها كتب التاريخ، في هذا الصدد، نذكر:

اجتمع عمّار بن ياسر مع عمرو بن العاص في المعسكر يوم صفين، فنزل عمار والذين معه فاحتبوا بحمائل سيوفهم، فتشهّد عمرو بن العاص ـ يعني قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله ـ. فقال عمّار: اسكت فقد تركتها في حياة محمد ومن بعده، ونحن أحقُّ بها منك، فإن شئت كانت خصومة فيدفع حقّنا باطلك، وإن شئت كانت خطبة، فنحن أعلم بفصل الخطاب منك، وإن شئت أخبرتك بكلمة

(١) وقعة صفين، ص ٢٣٧، وشرح نهج البلاغة، ٥/ ١٨٩، خطبة ٦٥.
(٢) الغدير، ٢/ ٢٢٠.

تفصل بيننا وبينك، وتكفرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسك، ولا تستطيع أن تكذّبني.

قال عمرو: يا أبا اليقظان، ليس لهذا جئت، إنّما جئت لأنّي رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم، أُذكِّرك الله إلاّ كففتَ سلاحهم، وحقنت دماءهم، وحرَّضت على ذلك، فعلام تقاتلنا؟! أولسنا نعبُدُ إلهاً واحداً؟ ونصلّي قبلتكم؟ وندعو دعوتكم؟ ونقرأ كتابكم؟ ونؤمن برسولكم؟

قال عمّار: الحمد لله الذي أخرجها من فيك، إنّها لي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والنبيّ، والكتاب، من دونك ودون أصحابك، الحمد للهِ الذي قرّرك لنا بذلك دونك ودون أصحابك، وجعلك ضالاً مضلاًّ، لا تعلم هادٍ أنت أم ضالّ، وجعلك أعمى، وسأخبرك على ما قاتلتك عليه أنت وأصحابك؛ أمرني رسول الله أن أقاتل الناكثين، وقد فعلتُ، وأمرني أن أقاتل القاسطين، فأنتم هم، وأمّا المارقون، فما أدري أدركهم أم لا؟

أيّها الأبتر ألستَ تعلم أنّ رسول الله قال لعليّ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه؟»، وأنا مولى الله ورسوله وعليّ من بعده، وليس لك مولى.

قال له عمرو: لِمَ تشتمني يا أبا اليقظان! ولست أشتمك؟ قال عمّار: وبِمَ تشتمني؟ أتستطيع أن تقول: إنّي عصيت الله ورسوله يوماً قطّ. قال له عمرو: إنَّ فيك لمسبّاتٍ سوى ذلك. قال عمّار: إنَّ الكريم مَن أكرمه الله، كنتُ وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقوّاني الله، وفقيراً فأغناني الله. قال له عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم باب كلّ سوء. قال عمرو: فعليٌّ قتله. قال عمّار: بل الله ربُّ عليّ قتله.

وروى نصر في كتابه في حديث: فلمّا دنا عمّار بن ياسر رضي الله عنه بصفّين من عمرو بن العاص، قال: يا عمرو بعتَ دينك بمصر، تبّاً لك، وطالما بغيتَ الإسلام عوجاً.

وزاد ابن الجوزي أن عماراً قال: «والله ما قصدك وقصد عدو الله ابن عدو الله بالتعلُّل بدم عثمان إلاَّ الدنيا»[(١)].

وأتى أبو نوح الحميري الكلاعي يذكُر ابن العاص بمكانة عمار بن ياسر. فقال له: إني لأرى عليك سيما أبي تراب. فقال أبو نوح: عليٌّ سيما محمد ﷺ وأصحابه، وعليك سيما أبي جهل وسيما فرعون[(٢)].

يصون حياته بذلَّة

يتحدَّث المؤرّخون عن دهاء عمرو بن العاص ومكره وتدبيره الحيل، وإن تحدّثوا عن مواقفه في الحرب ذكروا موقفين مشهورين في صفِّين دفع بهما ابن العاص الرَّدى بمذلَّة. كما جاء في شعر أبي فراس الحمداني.

ولا ضير في دفع الرَّدى بمذلَّة   كما ردَّها يوماً بسوأته عمرو

وفي تفصيل الموقف الأول يقول البيهقي، في المحاسن والمساوئ: قال عمرو بن العاص لابنه عبدالله يوم صفين: تبيَّن لي هل ترى عليَّ بن أبي طالب؟ قال عبدالله: فنظرت إليه فرأيته، فقلت: يا أبه ها هو ذاك على بغلة شهباء، عليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء. قال: فاسترجع وقال: والله ما هذا بيوم ذات السلاسل ولا بيوم اليرموك ولا بيوم أجنادين، وددت أن بيني وبين موقفي بعد المشرقين[(٣)].

يرى عمرو أن موقفه في صفِّين مختلف عن مواقفه في معارك الفتح، إذ إنه يقف في هذه المعركة في الصَّف المناوئ للإسلام، وقد مرّ بنا أنه كان يدرك ذلك، وقد اختار موقفه واعياً حقيقته وأبعاده، غير أنَّه وقد رأى أمير المؤمنين

(١) وقعة صفين، ص ٣٢٠ و٣٣٧، وشرح نهج البلاغة، ٨/ ٢١، خطبة ١٢٤، تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص ٩٢.

(٢) وقعة صفين، ص ٣٣٤، وشرح نهج البلاغة، ٨/ ١٨، خطبة ١٢٤.

(٣) البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ٥٤.

عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، امتلكه الرعب وأحبَّ أن يكون بينه وبين موقفه بعد المشرقين، وذلك لأن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يضعه في مواجهة قوة ذات وجهين، أولهما: قوة الحق الذي خرج عليه يقاتله، وثانيهما: قوة الشجاعة التي لا يستطيع حيالها أمراً سوى الهرب إلى المذلّة، فسقط في هوتها، وبقي ينقلب فيها، إذ إن الإمام يأبى لسيفه أن ينال من شانئه وهو في هذه الحال.

ونترك للمؤرّخين أن يرووا ما حدث لابن العاص في تلك المواجهة، كان عمرو بن العاص عدوّاً للحرث بن النَّضر الخثعمي، وكان من أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تهيَّبته فرسان الشام، وملأ قلوبهم شجاعةً، وامتنع كلٌّ منهم من الإقدام عليه، وكان عمرو ما جلس مجلساً إلاّ ذكر فيه الحرث بن النضر الخثعميّ وعابه، فقال الحرث:

ليس عمروٌ بتاركٍ ذكره الحربَ	مدى الدهر أو يلاقي عليّا
واضعَ السَّيفِ فوقَ مَنْكِبِهِ الأيـ	ـمنِ لا يحسِبُ الفوارسَ شيّا
ليت عمراً يلقاهُ في حومةِ النَقْـ	ـعِ وقد أمستِ السيوفُ عِصِيّا
فالقَهُ إن أردت مَكرُمة الدهر	أو الموتَ كلّ ذاك عليّا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله لَيَلْقَيَنَّ علياً ولو مات ألف موتة، فلمّا اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه، فتقدّم عليٌّ وهو مخترطٌ سيفاً، معتقلٌ رمحاً، فلمّا رَهَقَه هَمَزَ فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسِهِ إلى الأرض شاغراً برجليه، كاشفاً عورته، فانصرف عنه عليٌّ لافتاً وجهه مستدبراً له، فعدَّ الناس ذلك من مكارم عليٍّ وسؤدده، وضرب بها المثل[1].

ـ وقال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: «ذكروا أنَّ عمراً قال لمعاوية: أتجبن عن عليٍّ وتتّهمني في نصيحتي إليك؟ والله لأُبارِزَنَّ علياً ولو متُّ ألف موتة

(١) وقعة صفين، ص ٤٢٣، وشرح نهج البلاغة، ٦/ ٣١٣، خطبة ٨٣.

في أوّل لقائه، فبارزه عمرو فطعنه عليٌّ فصرعه، فاتّقاه بعورته، فانصرف عنه عليٌّ وولّى بوجهه دونه، وكان عليّ رضي الله عنه لم ينظر قطُّ إلى عورة أحد حياءً وتكرّماً وتنزّهاً عمّا لا يحلُّ ولا يجلُّ بمثله ـ كرّم الله وجهه»(١).

ـ اجتمع عند معاوية في بعض ليالي صفّين عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم، وعبدالله بن عامر، وابن طلحة الطلحات الخزاعي، فقال عتبة: إنَّ أمرنا وأمر عليٍّ بن أبي طالب لعجيب، ما فينا إلاّ موتورٌ مجتاحٌ، أمّا أنا فقتل جدّي عتبة بن ربيعة، وأخي حنظلة، وشرك في دم عمّي شيبة يوم بدر، وأمّا أنت يا وليد فقتل أباك صبراً، وأمّا أنت يا ابن عامر فصرع أباك وسلب عمّك، وأمّا أنت يا ابن طلحة فقتل أباك يوم الجمل، وأيتم إخوتك، وأمّا أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

وأفلتهنَّ علباءَ جريضاً … ولو أدركته صفر الوطاب(٢)

فقال معاوية: هذا الإقرار، فأيَّ غُيُر غيّرت؟ قال مروان: وأيَّ غُيُر تريد؟ قال: أريد أن تشجُروه بالرماح. قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذياً أو هازئاً، وما أرانا إلا ثقلنا عليك، وأنشد ابن عقبة أبياتاً منها:

أتغرينا بحيَّة بطن وادٍ … إذا نهشت فليس لها طبيب
دعا للقاه في الهيجا لاقٍ … فأخطأ نفسه الأجل القريب
سوى عمرو وقته خصيتاه … نجا ولقلبه منه وجيب

فغضب عمرو، وقال: إن كان الوليد صادقاً فليلق عليّاً، أو فليقف حيث يسمع صوته، وقال في ذلك:

---

(١) الإمامة والسياسة، ١/ ٩٥، وراجع: مروج الذهب، ٢/ ٤٠٥.

(٢) البيت لامرىء القيس، أفلته: خلصه وأطلقه. أفلت: تخلّص. علباء من علب اللحم: تغيّرت رائحته بعد اشتداده. الجريض: المشرف على الهلاك. الصَفَر ـ بالحركات الثلاث ـ: الخالي. الوطب: سقاء اللبن، والجمع وطاب. قوله: صفر الوطاب: مثل يضرب لمن مات أو قتل. مجمع الأمثال: ٢/ ٢٢٢، رقم ٢١٠٩.

... وعيّرني الوليد لقاء ليثٍ إذا مـا زار هـابتـه الأسـودُ
لقيـتُ ولسـت أجهلُـهُ عليّـاً وقـد بلَّـت مـن العَلَـقِ اللُّبـودُ
فـأطعنُـهُ ويطعنُنـي خـلاسـاً ومـاذا بعـد طعنتـهِ أُريـدُ
فـرُمها أنت يـا ابـن أبـي مُعَيْطٍ وأنـت الفـارسُ البطـلُ النَّجيـدُ
وأقسـم لـو سمعـت نـدا علـيٍّ لطـارَ القلـبُ وانتفـخ الـوريـدُ
ولـو لاقيتَـهُ شُقَّـتْ جيـوبٌ عليـكَ ولُطِّمـتْ فيـك الخـدودُ

وفـي روايـة سبـط ابـن الجـوزي: ثمَّ التفت الوليد إلى عمرو بن العاص، وقال: إن لم تصدِّقوني فسلوا. أراد تبكيت عمرو.

قـال هشـام بـن محمـد: ومعنـى هذا الكلام: أنَّ عليّاً خرج يوماً من أيام صفِّيـن، فـرأى عمـرو بـن العـاص فـي جانب العسكر ولم يعرفه، فطعنه فوقع، فبدت عورته، فاستـقبل عليّـاً فأعرض عنـه، ثمَّ عرفه فقال: «يا ابن النابغة، أنت طليق دبرك أيّام عمرك»، وكان قد تكرّر منه هذا الفعل(1).

وتتكرر الروايات في ذكر هذه الحادثة التي غدا ابن العاص بسببها مادة هزءٍ وتندّر(2).

وفـي تـفصيـل الموقف الثاني يروى أن معاوية دعا يوماً بصفّين مروان بن الحـكـم، فقـال: إنَّ الأشتـر قد غمّني وأقلقني، فاخرج بهذه الخيل في يحصب والكلاعيِّين، فـالقـه، فقـاتـل بـهـا. فقال مروان: أُدع لها عمراً فإنَّه شعارك دون دثـارك. قـال: وأنـت نـفسي دون وريدي. قال: لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء، أو ألحقته بي في الحرمـان، ولـكنّك أعطيته ما في يدك، ومنيّته ما في يد

(1) وقعة صفين، ص ٤١٧ و٤١٨، شرح نهج البلاغة، ٦/ ٣١٤ و٣١٥، خطبة ٨٣، تذكرة سبط ابن الجوزي، ص ٨٩ و٩٠.

(2) راجع للمزيد: وقعة صفين، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨ و٤٣٢ و٤٧٣، شرح نهج البلاغة ٦/ ٣١٧، خطبة ٨٣، ٨/ ٦٠ و٦١، خطبة ١٢٤، البداية والنهاية لابن كثير، ٧/ ٢٩٢، حوادث سنة ٣٧هـ، عيون الأخبار لابن قتيبة، ١/ ١٦٩، المحاسن والمساوىء للبيهقي، ص ٥٣.

غيـرك، فـإن غَلبتَ طاب له المقام، وإن غُلبتَ خفَّ عليه الهرب. فقال معاوية: سيُغني الله عنك. قال: أمّا إلى اليوم فلم يغنِ.

فدعا معاوية عمراً وأمره بالخروج إلى الأشتر. فقال: أما إنّي لا أقول لك مـا قـال مروان. قال: فكيف تقول، وقد قدّمتك وأخّرته، وأدخلتك وأخرجته؟ قـال: أمـا والله إن كـنـتَ فعلتَ لقد قدّمتني كافياً، وأدخلتني ناصحاً، وقد أكثر القوم عليك فـي أمـر مصر وإن كان لا يرضيهم إلاّ أخذها فخذها. ثمَّ قام فخرج في تلك الخيل، فلقيه الأشتر أمام القوم وهو يقول:

يا ليت شعري كيف لي بعمرِو ... ذاك الـــذي أوجبــتُ فيــه نَــذري
ذاك الـــذي أطلبُـــهُ بـــوِتْـــرِي ... ذاك الـــذي فيـــه شفـــاءُ صـــدري
ذاك الـــذي إن ألقَـــهُ بعُمـــري ... تغلـــي بـــه عنـــد اللقـــاءِ قِـــدري
أجعلـــه فيـــه طعـــام النســـر ... أو لا فـــربّـــي عـــاذري بعـــذري

فلمـا سمـع عمرو هذا الرجز وعرف أنّه الأشتر، فشل وجبن، واستحيا أن يرجع، وأقبل نحو الصوت، وقال:

يا ليت شعري كيف لي بمالكِ ... كـــم جـــاهـــلٍ خيّبتُـــه وحـــاركِ
وفـــارسٍ قتلتُـــهُ وفـــاتـــكِ ... ومُقـــدمٍ آبَ بـــوجـــهِ حـــالـــكِ
ما زلت دهري عرضة المهالكِ

فغشيـه الأشتر بالرمح فزاغ عنه عمرو فلم يصنع الرمح شيئاً، ولوى عمرو عنـان فـرسـه، وجعل يده على وجهه، وجعل يرجع راكضاً نحو عسكره، فنادى غلامٌ من يحصب: يا عمرو عليك العفا ما هبّت الصبا[1]!

يشير برفع المصاحف خديعةً

بـدا واضحـاً لمعـاويـة وابـن العـاص أنَّ هزيمتهما وشيكة، فانصرفا إلى المكيدة، فاتَّصلت رسلهمـا بـرجـالٍ من أنصـار الإمـام علي عليه السلام. وقد مرَّ بنا

(١) وقعة صفين، ص ٤٤٠، شرح نهج البلاغة، ٨/ ٨٠، خطبة ١٢٤.

حـديث ابن العاص إلى عمار بن ياسر(رض)، لكنَّ مثل هذا الحديث وجد آذاناً صـاغيـة عنـد أنـاس ما كانت لهم صفات أبي اليقظان، مثل أولئك القرّاء السذّج والأشعث بـن قـيس وأمثاله الذين توصّلوا، على ما يبدو، مع المعسكر المعادي إلى صيغـة عامَّة يمكن أن ترضي العدوّين اللدودين (من صاروا خوارج في ما بعد وابن الأشعث وأمثاله) فأيدوها غير مدركين أنها خديعة دبَّرها ابن العاص. يروي الطبري في تفصيل ذلك فيقول:

فـلمـا رأى عمـرو بـن العـاص أن أمر أهل العراق قد اشتدَّ وخاف في ذلك الهلاك، قـال لمعـاويـة: هل لك فـي أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يـزيدهم إلا فرقةً؟ قال: نعم. قال: نرفع المصاحف، ثم نقول ما فيها حكم بيننا وبينكم، فـإن أبـى بعضهـم أن يقبلهـا وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فرقة تقع بينهم. وإن قـالوا: بلـى نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجلٍ أو إلى حينٍ.

فرفعوا المصاحـف بـالـرِّماح وقالوا: هذا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم، مَن لثغور أهل الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟

فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا: نجيب إلى كتاب الله عزّ وجلّ وننيب إليه.

عرف الإمام علي عليه السلام حقيقة ما يحدث، فقال:

عبادَ الله امضوا على حقِّكم وصدقكم، قتال عدوِّكم، فإن معاوية وعمرو ابن العاص وابن أبي معيـط وحبـيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليـسوا بـأصحـاب ديـن ولا قـرآن، أنـا أعـرف بـهم منكـم، قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهـم رجـالاً، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال، ويحكـم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة.

فقالوا له: ما يسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله.

فقال لهم: فإني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب، فإنهم قد عصوا الله عز وجل في ما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه.

فقال له مسعر بن فدكى التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم السنبسي، في عصابة معهما من القرّاء، الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا عليّ أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه، وإلاّ ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان[1].

ويروي ابن مزاحم في «وقعة صفين» الحادثة، فيقول: «لمّا رفع أهل الشام المصاحف على الرماح يوم صفّين، يدعون إلى حكم القرآن، قال عليٌّ عليه السلام:

«عباد الله: أنا أحقُّ من أجاب إلى كتاب الله، ولكنّ معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي مُعيط، وحبيب بن مَسلَمة، وابن أبي سَرْح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنّي أعْرَفُ بهم منكم، صَحِبتُهمْ أطفالاً، وصَحِبتهم رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال، وشرَّ رجال، إنّها كلمة حقّ يراد بها الباطل، إنّهم والله ما رفعوها، إنّهم يعرفونها ولا يعملون بها، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ومكيدة»[2].

ويثبّت صاحبه عند التحكيم

وخاطب الإمام علي عليه السلام المصرِّين على قبول التحكيم من أصحابه، فقال لهم: «فاحفظوا عني نهيي إيّاكم واحفظوا مقالتكم لي. أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم»، فأصرّوا على موقفهم. ثم أصرُّوا على أن يكون أبو موسى الأشعري ممثلهم في التحكيم، مقابل ابن العاص. وأبو موسى هذا لم يكن من مؤيِّدي الإمام علي، وقد قال صراحة أثناء التداول مع ابن العاص: «لو كنت معطيه [الأمر] أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب»، وكان يريد أن يعطيه عبدالله بن عمر، فأبىٰ ابن العاص، وأراد أن يعطيه معاوية أو

(١) تاريخ الطبري، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ٤/ ٣٤.
(٢) وقعة صفين، ص ٤٨٩.

ابنه هو عبدالله، فأبى أبـو مـوسى، وانتهى تداولهما إلى رأي مفاده خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبُّوا، وهذا رأي أبـي مـوسـى الحقيقـي، فوافقه عليه عمرو في الظَّاهر، وبيَّت أمراً تبيَّن عند إعلان الحكـم؛ إذ قـدَّم زميلـه فأعلن هذا الحكم، فأقره على خلع صاحبه وثبَّت صاحبه هو، وبذلك تتمثل خديعة ابن العاص المشهورة(١).

الإمام علي يبيِّن حقيقة الحَكَمين

انتهـى أمـر الحَكَميـن، فخـرجـت الخوارج، وهرب أبو موسى إلى مكَّة، وعـاد ابـن العاص إلى معاوية يسلِّم عليه بالخلافة، وردَّ الإمام علي عليه السلام ابن عبَّاس إلى البصرة، وقام في الكـوفـة خطيبـاً، يبيِّن حقيقة الحَكَمين، ويدعو إلى استئناف الجهاد، فقال بعد حمد الله:

«أمّا بعد: فإنَّ معصية الناصح الشفيق، العالم المجرِّب، تُورِثُ الحسرة، وتُعقِبُ الندامة، وقد كنت أَمَرتُكُم في هذه الحكومة أمري، ونحلتُ لكم مخزون رأيي، لو كـان يُطـاع لقصير أمر، فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضنَّ الزَّنْدُ بقدحه، فكنت أنا وإيّاكم كما قال أخو هوازن:

أمـرتكُـمُ أمـري بمنعـرج اللِّـوى فلم تستبينوا النصحَ إلاّ ضحى الغدِ

ألا إنَّ هـذيـن الـرَّجليـن عمـرو بـن العـاص وأبا موسى الأشعري اللذين اخترتموهما حَكَمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحيَيا ما أمات القرآن، وأماتا ما أحيا القرآن، واتّبع كلّ واحد منهما هواه بغير هدىً من الله، فَحَكَما بغير حجّة بيِّنة، ولا سُنَّةٍ ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يَرشُد، فبرئ الله منهما ورسولُه وصالحُ المؤمنين، واستعِدّوا وتأهّبوا للمسير إلى الشام»(٢).

(١) راجع: تاريخ الطبري، ٤/ ٣٥ ـ ٥١.
(٢) الإمامة والسياسة، ١/ ١٢٣، مروج الذهب، ٢/ ٤٢١، نهج البلاغة، ص ٧٩ خطبة ٣٥، الكامل=

تحريف التاريخ

ويلاحظ الشيخ الأميني أن ابن كثير ذكر هذه الخطبة في تاريخه، غير أنه بترها، وتوقف عند بيت الشعر، وأضاف: «ثم تكلم في ما فعله الحكمان فردَّ عليهما ما حكما به وأنَّبهما، وقال ما فيه حطّ عليهما»، وعلق الشيخ الأميني على ذلك، فقال: «ولما لم يعجبه ذكر أهل العبث والفساد بما هم عليه، أو لم يره صادراً من أهله في محله، أو لم يرض أن تطلع الأمة الإسلامية على حقيقة عمرو بن العاص بتر الخطبة»(١).

الحقيقة ساطعة لكل ذي إيمان ونظر

وإن يكن بعض المؤرِّخين لا يرضون أن تطَّلع الأمة الإسلامية على حقيقة ابن العاص فيبترون خطبة هنا وحديثاً هناك، فإنهم لا يستطيعون إخفاء الحقيقة، فقد كانت واضحة لكلٍّ ذي إيمان ونظر والروايات في ذلك كثيرة، نذكر بعضها على سبيل المثال:

أ ـ عبدالله بن عبّاس وعمرو بن العاص

١ ـ حجَّ عمرو بن العاص، وقام بالموسم، فأطرى معاوية وبني أميّة وتناول بني هاشم، ثمَّ ذكر مشاهده بصفّين، فقال ابن عبّاس: يا عمرو، إنَّك بعتَ دينك من معاوية، فأعطيته ما في يدك ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلمّا صارت مصر في يدك تتبّعك فيها بالعزل والتنقّص، حتى لو أنَّ نفسك في يدك لألقيتها إليه، وذكرت يومك مع أبي موسى فلا أراك فخرت إلاّ بالغدر، ولا منّيت إلاّ بالفجور والغشّ، وذكرت مشاهدك بصفّين فوالله ما ثَقُلَتْ

= في التاريخ ٢١/ ٤٠٠، حوادث سنة ٣٧، البداية والنهاية ٧/ ٣١٧، حوادث سنة ٣٧. «لو كان يطاع لقصير أمر» مثل يضرب عندما لا يطاع أمر مصيب. وبيت الشعر لدريد بن الصمّة.

(١) الغدير، ٢/ ١٩٦ و١٩٧.

علينا وطأتُـكَ، ولقد كشفتَ فيها عورتك، ولا نكَتنا فيها حربك، ولقد كنت فيها طـويـل اللسـان، قصير السنان، آخر الحرب إذا أقبلت، وأوّلها إذا أدبرت، لك يـدان: يـدٌ لا تبسطهـا إلى خير، ويدٌ لا تقبضها من شرّ، ووجهان: وجهٌ مؤنسٌ ووجـهٌ موحشٌ، ولعمري إنَّ من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ أن يطول حزنه على ما بـاع واشتـرى، لـك بيـانٌ وفيك خطل، ولك رأيٌ وفيك نكد، ولك قدرٌ وفيك حسد، فأصغر عيب فيك أعظم عيب غيرك.

فقال عمرو: أما والله مـا فـي قريش أحدٌ أثقل وطأةً عليَّ منك، ولا لأحدٍ من قريش قدر عندي مثل قدرك[١].

٢ ـ روى المدائني، قال: وفد عبدالله بن عبّاس على معاوية مرّة وعنده ابنه يـزيـد، وزيـاد بـن سميّة، وعتبة بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وعمرو بن العاص، والمغيـرة بن شعبة، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن أمّ الحكم، فقال عمـرو بن العاص: هذا والله، يا أمير المؤمنين، نجوم أوّل الشرّ وأُفول آخر الخيـر، وفـي حسمـه قطـع مـادّتـه، فبادره بالحملة، وانتهز منه الفرصة، واردع بالتنكيل به غيره، وشرِّد به من خلفه.

فقال ابـن عبّـاس: يـا ابن النابغة، ضلَّ والله عقلك، وسفه حلمك، ونطق الشيطـانُ علـى لسـانـك، هلاّ تولّيت ذلك بنفسك يوم صفّين حين دُعيت نَزالِ، وتـكافـح الأبطال، وكثر الجراح، وتقصّفت الرماح، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصـاولاً، فانكفأ نحوك بالسيف حاملاً، فلمّا رأيت الكواثر من الموت، أعددت حيلـة السلامـة قبل لقائه، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه، فمنحته رجاء النجاة عـورتـك، وكشفـت لـه خـوف بـأسه سوأتك، حَذَراً أنْ يصطلمك بسطوته، أو يـلتـهمَـك بحملتـه ثـمَّ أشـرتَ علـى معاويـة كالنّاصح له بمبارزته، وحسّنت له التعرّض لمكافحته، رجاء أن تكتفي مؤونتـه، وتعدم صورته، فعلِمَ غِلَّ صدرك، ومـا انحنـت عليه من النفاق أضلعك، وعـرف مقرَّ سهمك في غرضِك، فاكفف

(١) البيان والتبيين، ٢/٢٠٦، والعقد الفريد ٣/ ٢٠٤، وشرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٤٧، خطبة ٣٥.

غـربَ لسـانـك، واقمـع عوراء لـفظك، فإنّك بين أسدٍ خادر، وبحر زاخر، إن تبرّزت للأسد افترسك، وإن عُمت في البحر قمسك ـ أي: غمسك وأغرقك[1].

ب ـ أبو الأسود الدؤلي وعمرو بن العاص

قـدم أبو الأسود الدؤلي على معاوية بعد مقتل عليّ عليه السلام، وقد استقامت لمعاوية البلاد، فأدنى مجلسه، وأعظم جائزته، فحسده عمرو بن العاص، فقدم على معاوية، فاستأذن عليه في غير وقت الإذن، فأذن له، فقال له معاوية: يا أبا عبدالله مـا أعجلـك قبـل وقـت الإذن؟ فقـال: يا أمير المؤمنين، أتيتك لأمرٍ قد أوجعنـي وأرّقـني وغاظني، وهو من بعد ذلك نصيحةٌ لأمير المؤمنين. قال: وما ذاك يا عمـرو. قـال: يا أمير المؤمنين إنَّ أبا الأسود رجلٌ مفوّهٌ، له عقلٌ وأدبٌ، مـن مثلـه للكـلام يُـذكر؟ وقد أذاع بمصرك من الذكر لعليّ والبغض لعدوِّه، وقد خشيـت عليـك أن يُترى [يُتـراخـى] في ذلك حتى يُؤخذ بعنقك، وقد رأيت أن ترسل إليـه، وتـرهبـه، وترعبه، وتَسبره، وتَخبره، فإنّك من مسألته على إحدى خِبرتين، إمّا أن يبدي لك صفحته فتعرف مقالته، وإمّا أن يستقبلك فيقول ما ليس مـن رأيـه، فيحتمل ذلك عنه فيكون لك في ذلك عاقبة صلاح إن شاء الله تعالى. فقال له معاوية: إنّي امرؤٌ ـ والله ـ لـقلّما تركت رأياً لرأي امرىءٍ قطُّ إلاّ كنت فيه بيـن أن أرى مـا أكـره وبـين بيـن. فقال عمرو: أنا صاحبك يوم رفع المصاحف بصفّين، وقد عرفت رأيي، ولست أرى خلافي وما آلوك خيراً، فأرسل إليه، ولا تفرش مهاد العجز فتتّخذه وطيئاً.

فأرسل معاوية إلى أبي الأسـود، فجـاء حتى دخل عليه فكان ثالثاً، فرحّب بـه معـاويـة، وقـال: يـا أبـا الأسـود خلـوتُ أنا وعمرو فتناجزنا [فاختلفنا] في أصحـاب محمـد صلى الله عليه وآله، وقد أحببت أن أكون من رأيك على يقين. قال: سل يا أمير المؤمنين عمّا بدا لك.

(١) شرح نهج البلاغة، ٦/ ٢٩٨، خطبة ٨٣.

فقال: يا أبا الأسود، أيّهم كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقال: أشدّهم حبّاً لرسول الله ﷺ وأوقاهم له بنفسه.

فنظر معاوية إلى عمرو وحرّك رأسه، ثمّ تمادى في مسألته، فقال: يا أبا الأسود، فأيّهم كان أفضلهم عندك؟ قال: أتقاهم لربّه وأشدُّهم خوفاً لدينه.

فاغتاظ معاوية على عمرو، ثمّ قال: يا أبا الأسود، فأيّهم كان أعلم؟ قال: أقولهم للصواب وأفصلهم للخطاب. قال: يا أبا الأسود، فأيّهم كان أشجع؟ قال: أعظمهم بلاءً، وأحسنهم عناءً وأصبرهم على اللقاء. قال: فأيّهم كان أوثق عنده؟ قال: من أوصى إليه في ما بعده. قال: فأيّهم كان للنبيِّ صديقاً؟ قال: أوّلهم به تصديقاً.

فأقبل معاوية على عمرو، وقال: لا جزاك الله خيراً، هل تستطيع أن تردَّ ممّا قال شيئاً؟

فقال أبو الأسود: إنّي قد عرفت من أين أُتيت، فهل تأذن لي فيه؟ فقال: نعم؛ فقل ما بدا لك. فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ هذا الذي ترى هجا رسول الله ﷺ بأبيات من الشعر، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إنّي لا أحسن أن أقول الشعر، فالعن عمراً بكلِّ بيت لعنة»، أفتراه بعد هذا نائلاً فلاحاً؟ أو مدركاً رباحاً؟ وأيم الله إنَّ امرأً لم يُعرف إلاّ بسهم أُجيل عليه فجال، فحقيقٌ أن يكون كليل اللسان، ضعيف الجنان، مستشعراً للاستكانة، مقارناً للذلِّ والمهانة، غير ولوج في ما بين الرجال، ولا ناظرٍ في تسطير المقال، إن قالت الرجال أصغى، وإن قامت الكرام أقعى [جلس على استه]، متعيّصٌ لدينه لعظيم دينه، غير ناظر في أُبهة الكرام ولا منازع لهم، ثمّ لم يزل في دجّة ظلماء مع قلّة حياء، يعامل الناس بالمكر والخداع، والمكر والخداع في النار...[1].

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ٨/٦٠٦، وفي مختصر تاريخ دمشق، ١١/ ٢٢١.

وفاته

توفي ليلة الفطر سنة ٤٣ للهجرة، على ما هو الأصحُّ عند المؤرِّخين، وقيل غير ذلك. وعاش نحو تسعين سنة، وقال العجلي: عاش تسعاً وتسعين سنة. قال اليعقوبي في تاريخه: لمّا حضرت عمراً الوفاة قال لابنه: لودَّ أبوك أنّه كان مات في غزاة ذات السلاسل؛ إنّي قد دخلت في أمور لا أدري ما حجّتي عند الله فيها. ثمَّ نظر إلى ماله فرأى كثرته، فقال: يا ليته كان بعراً، يا ليتني متُّ قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عَمِي عليَّ رشدي حتى حضرني أجلي، كأنّي بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي[١].

غديريَّة عمرو بن العاص، أو القصيدة الجلجليَّة

تولَّى عمرو بن العاص مصر، واستولى على نصيبه من الصَّفقة التي أبرمها مع معاوية. وكان يدرك حقيقة ما قام به، فقد مرَّ بنا قوله حين حضرته الوفاة: «أصلحت لمعاوية دينه وأفسدت ديني».

وكان معاوية يرى ما «ينعم» به ابن العاص من أطايب «الدنيا»، فيغبطه على ذلك، ويذكِّره بما درَّت عليه صفقتهما. ومما يروى في هذا الصَّدد، أنه كتب إليه بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام، مقارناً من منظوره إلى الأمور بين بلّ المرادي سيفه من الإمام عليه السلام وبين مناغاته للنساء البيض:

نجَوْتَ، وقد بلَّ المرادي سيفه ... من ابن أبي شيخ الأباطح طالب
وأنت تناغي، كل يومٍ وليلة، ... بمصرك، بيضاً كالظِّباء الشوازب[٢]

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢٢٢. وراجع للمزيد: الاستيعاب، القسم الثالث، ١١٨٩ رقم ١٣٩١.
(٢) تاريخ مدينة دمشق، ٧/٣٧٦، وتهذيب تاريخ دمشق، ٦/١٨٣، في ترجمة سفيان بن عبد شمس. الشّوازب: المضمّرات.

وكـان معـاويـة يـريد لابن العاص أن يكون واليه على مصر لا صاحباً لها، فـراح يطـالبـه بخـراجها ويلحّ في ذلك، وكان ابن العاص يعتقد أنه يلي بلاداً هي نصيبه من صفقةٍ مكلفة، فكان لا يلبّي الطلب، ولعلَّه كان يفكِّر في أن يورثها لأبنـائـه، وأرّقـه مصيـر أبنـائـه، فـقال لهم، وهو ينظر إلى الثروة الضخمة التي جمعهـا، حيـن حضـرتـه الـوفـاة: «كـأنـي بمعـاويـة قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي».

وقـد ألحَّ معاوية في طلب الخراج، وكتب إلى ابن العاص: «إنه قد تردَّد كتابي إليك بطلب خراج مصر، وأنت تمتنع وتدافع ولم تسيِّره، فسيِّره إليّ قولاً واحداً وطلباً جازماً، والسلام».

فـكتب إليـه هذا، وقد أدرك حقيقة ما انتهى إليه أمره، جواباً ضمّنه قصيدة نظمها، وأُطلق عليها اسم «الجلجليّة» لما في آخرها: «وفي عنقي عَلَقُ الجلجل» يكشف فيها الحقائق، فلما قرأها معاوية لم يتعرَّض له بعد ذلك.

والقصيدة، كما أوردها، الشيخ الأميني هي:

معـاويــة الحــال لا تجهــلِ ... وعــن سُبُــلِ الحَــقِّ لا تعــدِلِ
نسيــتَ احتيــالــيَ فــي جِلّــقٍ ... علــى أهلِهــا يــوم لُبْـسِ الحُلِـي
وقــد أقبلــوا زُمَــراً يُهْــرَعــونَ ... مهــاليــعَ كــالبقــرِ الجُفَّــلِ
وقـولـي لهـم إنَّ فـرضَ الصـلاةِ ... بغيــرِ وجــودِكَ لــمْ تُقبــلِ
فَـوَلَّـوا ولـم يعبـأوا بـالصـلاةِ ... ورمــت النِّفــار إلــى القسْطَــلِ
ولَمّــا عصيــتَ إمــام الهــدى ... وفــي جيشِــهِ كــلُّ مُستفحــلِ
أَبــالْبقــر البُكْــمِ أهــلِ الشــآمَ ... لأهــلِ التقــى والحجــا أبتلــي؟
فقلــت: نعــم قــم فــإنّــي أرى ... قتــالَ المُفضَّــل بــالأفضــلِ
فبـي حــاربـوا سيِّـدَ الأوصيـاء ... بقــولــي دمٌ طُــلَّ مِــن نعثــلِ
وكـدتُ لهـمْ أنْ أقـامـوا الرمـاحَ ... عليهـا المصـاحـفُ فـي القَسْطَـلِ
وعلّمتُهــمْ كشــفَ ســوآتِهــم ... لــردِّ الغَضَنفَــرَةِ المُقبــلِ

فَقــامَ البغــاةُ علــى حيــدرٍ ... وكفّــوا عــن المِشعَــلِ المصطلــي
نسيــتَ محــاورةَ الأشعــريِّ ... ونحــنُ علــى دَوْمَــةِ الجَنْــدَلِ
أليــنُ فيطمــعُ فــي جــانبــي ... وسهمــيَ قــد خــاضَ فــي المَقْتَــلِ
خلعــتُ الخــلافــةَ مــن حيــدرٍ ... كخَلــعِ النعــالِ مــن الأرجــلِ
وألبستُهــا فيــك بعــد الإيــاس ... كَلُبــس الخــواتيــمِ بــالأنمُــلِ
ورقّيتُــكَ المنبــرَ المُشْمَخِــرَّ ... بــلا حــدِّ سيــفٍ ولا مُنصِــلِ
ولــو لــم تكــن أنــت مــن أهلِــهِ ... وربِّ المقــام ولــم تكْمُــلِ
وسيّــرتُ جيــشَ نفــاقِ العــراقِ ... كَسَيْــرِ الجَنــوبِ مــع الشَّمــأَلِ
وسيّــرتُ ذِكــرَك فــي الخــافقيــنِ ... كَسَيــرِ الحَميــر مــع المحمــلِ
وجهلُــكَ بــي يــا ابــنَ آكلــةِ الــ ... ـكبــودِ لأعظَــمُ مــا أبتلــي
فلــولا مــوازرتــي لــم تُطَــعْ ... ولــولا وجــوديَ لــمْ تُقبَــلِ
ولــولايَ كنــتَ كَمِثْــلِ النســاءِ ... تعــافُ الخــروجَ مــن المنــزلِ
نصرناك من جَهْلِنا يا ابن هندٍ ... علــى النبــأ الأعظــمِ الأفضــلِ
وحيــث رفعنــاكَ فــوقَ الــرؤوسِ ... نَــزَلْنــا إلــى أسفــلِ الأسفَــلِ
وكــمْ قــد سَمِعْنا مــن المصطفى ... وَصــايــا مُخصّصــةً فــي علــي
وفــي يــوم خُــمٍّ رقــى منبــراً ... يُبلّــغُ والــركــبُ لــم يــرحــلِ
وفــي كفِّــهِ كفُّــهُ معلنــاً ... يُنــادي بــأمــرِ العــزيــزِ العلــي:
ألســتُ بكــم منكــمُ فــي النفــوسِ ... بــأولــى؟ فقــالــوا: بلــى فــافعــلِ
فــأنْحَلــهُ إمــرَةَ المــؤمنيــنَ ... مــن اللهِ مُستخلــفِ المُنجِــلِ
وقــال: فمــن كنــتُ مــولــىً لَــهُ ... فهــذا لــه اليــومَ نعــمَ الــولــي
فــوالِ مُــواليــهِ يــا ذا الجــلا ... لِ وعــادِ مُعــادي أخــي المُــرْسَــلِ
ولا تَنْقضُــوا العهــدَ مــن عِترتــي ... فقــاطِعُهُــمْ بــيَ لــم يُــوصِــلِ
فَبَخْبَــخَ شيخُــكَ لَمّــا رأى ... عُــرى عَقْــدِ حيــدر لــم تُخلَــلِ
فقــالَ: وليُّكُــم فــاحفظــوهُ ... فَمَــدْخَلُــهُ فيكــمُ مَــدْخَلــي
وإنّــا ومــا كــان مــن فعلِنــا ... لفــي النّــارِ فــي الــدركِ الأسفــلِ

وما دَمُ عثمانَ مُنْجٍ لنا ... من اللهِ في الموقفِ المُخجِلِ
وإنَّ عليّاً غداً خصمُنا ... ويعتزُّ باللهِ والمُرسَلِ
يُحاسِبُنا عن أمورٍ جَرَتْ ... ونحنُ عن الحقِّ في مَعْزِلِ
فما عُذرُنا يومَ كشفِ الغطا ... لكَ الويلُ منه غداً ثمّ لي
ألا يا ابنَ هندٍ أبعتَ الجِنانَ ... بعهدٍ عهدتَ ولم تُوفِ لي
وأخسرتَ أُخراكَ كيما تنالَ ... يَسيرَ الحُطامِ من الأجزلِ
وأصبحتَ بالناسِ حتى استقام ... لكَ الملكُ من مِلكٍ محولِ
وكنتَ كمُقتنصٍ في الشراكِ ... تذودُ الظِّماءَ عن المنهلِ
كأنّكَ أُنسيتَ ليلَ الهريرِ ... بصفّينَ مَعْ هولِها المُهْولِ
وقد بتَّ تذرقُ ذَرقَ النعامِ ... حذاراً من البطلِ المُقبلِ
وحينَ أزاحَ جيوشَ الضّلالِ ... وافاكَ كالأسدِ المُبسلِ
وقد ضاقَ منكَ عليكَ الخناقُ ... وصارَ بكَ الرحبُ كالفلفلِ
وقولك: يا عمرو، أين المفرُّ ... من الفارسِ القَسْوَرِ المُسبلِ!؟
عسى حيلةٌ منكَ عن ثنيهِ ... فإنَّ فؤاديَ في عسعلِ
وشاطرتني كلَّ ما يستقيمُ ... من المُلْكِ دهرَكَ لم يكملِ
فقمتُ على عَجْلَتي رافعاً ... وأكشِفُ عن سوأتي أذيُلي
فستَّرَ عن وجهِهِ وانثنى ... حياءً وروعُكَ لم يعقلِ
وأنتَ لخوفِكَ من بأسِهِ ... هناكَ مُلِئتَ من الأفكلِ
ولَمّا ملكتَ حُماةَ الأنام ... ونالتْ عصاكَ يدَ الأوّلِ
منحتَ لِغيريَ وزنَ الجبالِ ... ولم تُعْطِني زِنةَ الخردلِ
وأنحَلْتَ مصراً لعبدِ الملك ... وأنتَ عن الغيِّ لم تَعدِلِ
وإن كنتَ تطمعُ فيها فقدْ ... تخلّى القَطا من يَدِ الأجدلِ
وإن لم تسامِحْ إلى ردِّها ... فإنّي لحَوبِكمُ مُصطلي
بِخَيلٍ جيادٍ وشُمِّ الأُنوفِ ... وبالمُرهَفاتِ وبالذبّلِ
وأكشفُ عنكَ حجابَ الغرورِ ... وأوقظُ نائمةَ الأثكلِ

فإنَّك من إمرةِ المؤمنينَ ودعوى الخلافةِ في مَعْزِلِ
ومالك فيها ولا ذرّةٌ ولا لجدُودك بالأوّل
فإن كانَ بينكما نِسْبةٌ فأينَ الحُسامُ من المِنجلِ
وأين الحصى من نجوم السما وأين معاويةٌ من علي
فإن كنتَ فيها بلغتَ المُنى ففي عُنقي عَلَقُ الجلجلِ[1]

* * *

(١) جلّق: دمشق. أهرع: أسرع. الهلع: الخوف الشديد. الجفل: السَّرد. القسطل: الغبار الكثيف. طلَّ الدم: هُدر ولم يثأر له. الفلفل: القرب بين الخطوات. الأفكل: الرعدة من الخوف. راجع: الغدير، م.س.، ٢/ ١٧٣ ـ ١٧٨، يقول الشيخ الأميني: توجد نسختان من هذه القصيدة في مجموعتين في المكتبة الخديوية بمصر، كما في فهرسها المطبوع سنة ١٣٠٧هـ، (٤/ ٣١٤). وروى جملة منها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ١٠/ ٥٦، خطبة ١٧٨. وقال: رأيتها بخط أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ. وروى قسماً منها، علاوة على مناسبة نظمها، الإسحاقي في لطائف أخبار الدول، ص ٦١. وذكر الشيخ محمد الأزهري، في شرح مغني اللبيب، ١/ ٨٢، ما رواه الإسحاقي، وحذف قوله:

وحيث تركنا أعالي النفوس نزلنا إلى أسفل الأرجل

وذكر منها ثلاثة عشر بيتاً ابن شهرآشوب في مناقب آل أبي طالب، ٣/ ٢١٦. وأخذ منها السيد الجزائري، في الأنوار النعمانية، ١/ ١٢١ عشرين بيتاً. وذكرها برمتها الزنوزي في الروضة الثانية من رياض الجنّة، وقال: هذه القصيدة تسمّى الجلجلية لما في آخرها: وفي عنقي عَلَقُ الجلجل. وخمسها الشيخ عباس الزيوري البغدادي، وضمنها ديوانه المخطوط والمصحح بقلمه. ويوجد التخميس في إحدى نسختي المكتبة الخديوية بمصر.

(٥)
محمد بن عبدالله الحميري

يروي شيخ الإسلام الحموئي[١] أنَّ مجموعةً من الشعراء اجتمعوا في مجلس معاوية بن أبي سفيان، وكان عمرو بن العاص حاضراً ذلك المجلس. فطلب معاوية من الشعراء أن يقولوا شعراً في حقِّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، «فقام الطرمَّاح وتكلَّم في عليٍّ ووقع فيه»، وفعل هشام المرادي الفعل نفسه، فنهض محمد بن عبدالله الحميري، وأنشد قصيدةً مطلعها «بحقِّ محمَّد قولوا بحقٍّ»، فبهت الحضور، وقال معاوية للرَّجل: «أنت أصدقهم قولاً».

يقول الشيخ عبد الحسين الأميني: «محمد بن عبدالله الحميري، زميل عمرو بن العاص، أحسبه ابن القاضي عبدالله بن محمّد الحميري»[٢]، وقد قلَّد معاوية هذا القاضي ديوان الخاتم، بعد أن اتَّخذه ـ أي ديوان الخاتم ـ في حكاية معروفة مفادها أنه كتب لزياد بن أبيه، عامله على العراق، أن يعطي عمر بن الزبير مئة ألف درهم، ففضَّ عمر الكتاب، وجعل المبلغ مئتي ألف درهم، فلما رفع زياد حسابه اكتشف معاوية الأمر، وكتب إلى زياد يأمره بتحصيل المئة ألف المضافة من عمر، واتخذ ديوان الخاتم، وقلّده عبدالله بن محمد الحميري، وكان قاضياً.

ويقول العلاَّمة الأميني: «ويحتمل قويّاً أن يكون صاحب الشعر هو القاضي عبدالله نفسه، ووقع الاشتباه بتقديم الوالد على الولد»[٣].

---

(١) شيخ الإسلام الحموئي، فرائد السمطين، ٢/ ٣٧٥، ح ١٠٥.
(٢) الشيخ عبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ٢/ ٢٦١.
(٣) نفسه، ٢/ ٢٦٢.

يبدأ الحميري خطابه بالطَّلب من متلقِّيه أن يقولوا الحقَّ، مقسماً بحق محمّد، مقرِّراً أن الكذب من شيم اللئام، . . . وبعد أن يهيِّئ متلقِّيه لسماع قول الحقّ على المستويين: الديني للمسلم التقي، والقِيَمي لغير التَّقي، يتساءل: أليس علي هو أفضل خلق الله وأشرفهم بعد محمد؟ وهذا السُّؤال يخرج عن معنى طلب المعرفة إلى استهجان موقف من ينكر معرفة حقيقة واضحة جليَّة، تتمثل في أن ولايته هي الإيمان حقّاً، وطاعة ربنا فيها، وقد آتاه الله سبحانه وتعالى علماً وتقىً، فهو الإمام العادل الذي لا تزكو صلاة بغير ولايته. ولهذا فالشاعر يبرأ ممَّن تناسوا نصَّه في يوم غدير خمٍّ، المنزَّل من لدن الباري، وممَّن أخّروه، وكان هو المقدَّم في المقام.

أنشد الشاعر محمد بن عبدالله الحميري في مجلس معاوية قصيدته هذه، ولم يستطع أحد أن ينقض بيتاً منها:

بحقِّ محمدٍ، قولوا بحقٍّ ... فإنَّ الإفكَ من شِيَمِ اللِّئامِ
أبَعْدَ مُحَمَّدٍ، بأبي وأمّي، ... رسولِ الله ذي الشَّرف التّهامي
أليسَ عليٌّ أفضلَ خَلْقِ ربِّي ... وأشرفَ عند تَحْصِيل الأنام!؟
ولايتُهُ هي الإيمانُ حقّاً ... فذَرْني من أباطيلِ الكلامِ
وطاعةُ ربِّنا فيها، وفيها ... شفاءٌ للقلوبِ مِنَ السّقامِ
عليٌّ إمامُنا، بأبي وأمّي، ... أبو الحسنِ المطهَّرُ من حرامِ
إمامُ هدىً أتاهُ الله عِلماً ... به عُرِفَ الحلالُ من الحرامِ
لو انّي قَتَلْتُ النَّفسَ حُبّاً ... له ما كان فيها من أثامِ
يحِلُّ النارَ قومٌ أبغضوهُ ... وإن صلّوا وصاموا ألفَ عامِ
ولا، واللهِ، لا تزكوا صلاةٌ ... بغير ولايةِ العدلِ الإمامِ
أميرَ المؤمنين بك اعتمادي ... وبالغُرِّ الميامينِ اعتصامي
فهذا القولُ لي دينٌ، وهذا ... إلى لقياكَ، يا ربّي، كلامي
برئت من الذي عادى عليّاً ... وحاربه من أولادِ الطّغامِ

تَنَاسوا نَصْبَهُ، في يوم خمٍّ، من الباري، ومن خير الأنامِ
برغم الأنفِ من يشنأ كلامي عليٌّ فضلُهُ كالبحر طامي
وأَبرأُ من أُناسٍ أخّروهُ وكان هو المقدَّمَ بالمقام
عليٌّ هَزَم الأبْطال لمَّا رأوا في كفِّه بَرْقَ الحسام[1]

* * *

(1) راجع للمزيد: نفسه، ٢/٢٥٩ و٢٦٠. شيخ الإسلام الحموئي. فرائد السمطين، ١/٣٧٥، الباب ٦٨، ح ٣٠٥. عماد الدين أبو جعفر محمد بن أبي القاسم بن محمد الطبري الآملي، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، ١/١٠ و١١. الميرزا عبدالله أفندي، رياض العلماء وحياض الفضلاء، ٤/٥٩. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٤.

شعراء القرن الثاني الهجري

(٦)
الكميت بن زيد الأسدي (٦٠ ـ ١٢٦هـ)

شاعرٌ خطيبٌ، داعية...

ولد الكميت بن زيد الأسدي، في الكوفة، أيَّام مقتل الإمام الحسين عليه السلام سنة ستّين للهجرة[١]. ونشأ في مناخ كربلاء، فكأنما رضع مع الحليب تفاصيل هذه المأساة، إذ إن قومه بني أسد هم الذين دفنوا جثث الشهداء، وكانوا في صفّ المعارضين لبني أميَّة، شأنهم في ذلك شأن معظم قبائل العراق، وبخاصَّة القبائل التي كانت تقطن الكوفة، فقد عرفت هذه المدينة بوصفها موطن معارضة السلطان القائم الذي كان لا ينفكُّ يسومها اضطهاداً وظلماً، فكان الكميت لسانها الناطق بخطابها، وقد أتيح له أن ينهض بهذه المهمّة خير نهوض، وذلك لأنه كان كما تذكر كتب تاريخ الأدب شاعراً مقدَّماً، وخطيباً مصقعاً، وعالماً بلغات العرب خبيراً بأيّامها، عالماً بأنسابها، ومحدِّثاً يروي الحديث ويفسِّره، وراوية بلغ من شأنه في ذلك أن أفحم حمَّاداً الرواية وأعجزه عندما تذاكر وإيّاه أشعار العرب وأيّامها[٢]. وقال الشيخ المفيد، في رسالته في معنى المولى: «الكميت ممّن استُشهد بشعره في كتاب الله، وأجمع أهل العلم على فصاحته ومعرفته باللغة، ورئاسته في النظم، وجلالته في العرب، حيث يقول:

ويوم الدَّوح دَوحِ غديرِ خمٍّ   أبان له الولاية لو أُطيعا

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، بيروت: دار الثقافة، ١٦/ ٣٥٩.
(٢) نفسه، ٣٢٨ و٣٢٩.

أوجب له الإمامة بخبر الغدير، ووصفه بالرئاسة من جهة المولى، وليس يجوز على الكميت مع جلالته في اللغة والعربيّة وضع عبارة على معنىً لم توضع عليه قطُّ في اللغة، ولا استعملها قبله أحدٌ من أهل العربيّة، ولا عرفها بشيء كما وصف أحدٌ منهم، لأنّه لو جاز عليه جاز على غيره ممّن هو مثله وفوقه ودونه، حتى تفسد اللغة بأسرها، ولا يكون لنا طريقٌ إلى معرفة لغة العرب على الحقيقة، وينغلق الباب في ذلك»[1].

وقال بعضهم: كان في الكميت عشر خصال لم تكن في شاعر: كان خطيب بني أسد، حافظ القرآن العظيم، ثبت الجنان، كاتباً حسن الخط، نسّابة جدلاً، ناظر في التشيع وأجاد، رامياً لم يكن في بني أسد أرمى منه، فارساً شجاعاً، سخيّاً ديّناً[2].

وكان الكميت، علاوة على ما امتلكه من قدرات، إنساناً تقياً فاضلاً، يصادق من يجده أهلاً للصداقة وإن كان مختلفاً عنه، كما فعل مع الطرمّاح، ويخلص لصديقه، ويقف إلى جانبه في وقت الشدّة، كما فعل مع أبان بن الوليد البجلي، إذ دمعت عيناه عندما رآه مكبّلاً بالحديد، وطلب من الوالي أن يجعل جائزته له، ليخرجه مما هو فيه.

وكان إذا أخطأ يعترف بخطئه، ويندم ويستغفر الله، كما فعل بعدما هجا نساء بني كلب[3].

كان الكميت، الشاعر الخطيب العالم، داعيةً من دعاة الشيعة، نظم نظريتهم في السياسة والحكم في قصائد طويلة مجوّدة. تعرف باسم «الهاشميّات»، وهي تمثّل نماذج للتجديد الشعري المنبثق من تجربةٍ حياتية معيشة، وقد عرف عنه ذلك، فقال أبو الفرج الأصفهاني: وكان الكميت «معروفاً

(١) رسالة في معنى المولى، مطبوعة ضمن مصنفات الشيخ المفيد: ٨/ ١٨.
(٢) البغدادي، خزانة الأدب، ١/ ١٤٤ وشرح شواهد المغني، ١/ ٣٨، رقم٦.
(٣) الأغاني، م.س.، ص ٣٢٨ و٣٥٨ ـ ٣٦٠.

بالتشيُّع لبني هاشم، مشهوراً بذلك، وقصائده الهاشميات من جيِّد شعره ومختاره»[1].

وقال المرزباني في معجم الشعراء: «مذهب الكميت في التشيّع ومدح أهل البيت في أيام بني أمية مشهور، ومن قوله فيهم:

فقل لبني أميَّة حيث حلّوا ... وإن خفت المهنَّد والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركُمُ أجيعا[2]

وجاء في غير رواية أن الناس في الكوفة كان يقولون: من لم يرو:

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ... ولا لعباً منّي وذو الشَّيب يلعب

«فليس بهاشمي...»، أو «فليس بشيعي»[3]. وهذا البيت هو مطلع إحدى الهاشميّات، والمقصود: من لم يرو هذه الهاشميّة.

الهاشميّات

والهاشميات قصائد طويلة مجوَّدة أنشدها الكميت في مدح أهل البيت، بني هاشم وإظهار حقِّهم، وتقدر بخمسمئة وثمانية وسبعين بيتاً، كما نصَّ صاحب الحدائق الورديّة، غير أن يد النشر غير الأمينة على ودائع العلم عاثت في طبعها فنقّصت منها قدراً لا يستهان به، علاوة على أن قسماً كبيراً منها قد فقد خلال سيرورتها على أيدي الرواة.

والهاشميات المشروحة بقلم الأستاذ محمد محمود الرافعي المصري سبع قصائد = ٤٥٨ بيتاً ترد على هذا الترتيب:

- من لقلبٍ مُتيَّمٍ مُستهام ... غيرَ ما صبوةٍ ولا أحلام

(١) نفسه، ص ٣٢٨.
(٢) المرزباني، معجم الشعراء، ص ٢٣٩.
(٣) الشيخ عبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، قم: مركز الغدير للدراسات الإسلامية: ٢/ ٢٧٩ و٢٨٠.

ـ طربتُ، وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً منّي وذو الشَّيب يلعبُ
ـ أنّى ومن أين آبك الطَّربُ من حيث لا صبوةٌ ولا ريبُ
ـ الا هل عمٍ في رأيه متأمِّلُ وهل مدبر بعد الإساءةِ مقبلُ
ـ طربت وهل بك من مطرب ولم تتصاب ولم تلعب
ـ نفى عن عينك الأرق الهجوعا وهمّ يمتري منها الدموعا
ـ سلِ الهموم لقلب غير متبولِ ولا رهينٍ لدى بيضاء عطبول
ـ أهوى عليّاً أمير المؤمنين، ولا أرضى بشتم أبي بكر ولا عمراً

ويُجمعُ مؤرِّخو الأدب ورواته على أن الكميت من خيرة شعراء الدولة الأموية، وكان عالماً بلغات العرب وأيامهم ومن خير شعره وأفضله الهاشميات[1].

واتَّخذت الهاشميات موقعاً مرموقاً في تاريخ الشعر العربي إلى جانب روائعه العظام. فقال الثعالبي في ثمار القلوب: عهدي بالخوارزمي يقول: من روى حوليّات زهير واعتذارات النابغة وأهاجي الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير والفرزدق وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية ومراثي أبي تمام ومدائح البحتري وتشبيهات ابن المعتز وروضيات الصنوبري ولطائف كشاجم وقلائد المتنبي ولم يتخرج في الشعر، فلا أشبَّ الله تعالى قرنه.

خمَّس الهاشميات غير واحدٍ من الشعراء، منهم: الشيخ ملا عباس الزيوري البغدادي، والعلامة الشيخ محمد السماوي والسيد محمد صادق آل صدر الدين الكاظمي، وشرحها الأستاذ محمد محمود الرافعي المصري، والأستاذ محمد شاكر خيّاط النابلسي.

شعره ومكانته الشّعريّة

وكان مبلغ شعره، حين مات، خمسة آلاف ومئتين وتسعة وثمانين بيتاً على ما في الأغاني والمعاهد، أو أكثر من خمسة آلاف قصيدة كما في كشف

(١) نفسه، ص ٢٧٠.

الظنـون، نـقلاً عن عيون الأخبار لابن شاكر. وقد جمع شعره الأصمعي وزاد فيه ابـن السكّيت، ورواه جمـاعـة، عن أبي محمد عبدالله بن يحيى المعروف بابن كناسة الأسدي (المتوفّى ٢٠٧)، ورواه ابن كناسة، عن الجزّي، وأبي الموصل، وأبي صدقة الأسديَّين، وألّف كتاباً أسماه سرقات الكميت من القرآن وغيره.

ورواه ابن السكّيـت عن أستاذه نصران، وقال نصران: قرأت شعر الكميت علـى أبـي حفـص عمـر بـن بـكيـر، وعمل شعره السكّري أبو سعيد الحسن بن الحسين (المتوفّى ٢٧٥)، كما في فهرست ابن النديم وصاحب شعره محمد بن أنس، كما في تاريخ ابن عساكر.

وحكى ياقوت في معجم الأدباء عن ابن النجّار، عن أبي عبدالله أحمد بن الحسن الكوفي النسّابة، أنّه قال: قال ابن عبدة النسّاب: ما عرف النسّاب أنساب العـرب علـى حقيقـة حتـى قـال الكميت النزاريّات فأظهر بها علماً كثيراً، ولقد نظـرت فـي شعـره فمـا رأيـت أحداً أعلم منه بالعرب وأيّامها، فلمّا سمعت هذا جمعت شعره، فكـان عـونـي على التصنيف لأيّام العرب[1]. غير أن معظم هذا الشعر فُقد ولم يبق منه إلا القليل ومنه ما وصل إلينا من الهاشميات.

ويبـدو أن الكميـت بدأ حياته الشعرية بقول الهاشميّات، وكان يقصد إلى التجويد، وإلى إثارة المتلقّي ودفعه إلى التّساؤل وطلب المعرفة فيقدِّم لقصيدته بمقـدِّمـة مشـوقـة يخالـف فيها تقليد البدء بالطللية فيأتي بالجديد الجيد. يروي صاحب الأغاني: لمّا قال الكميت بن زيد الشعر، كان أوّل ما قال الهاشميّات فسترها، ثمَّ أتى الفرزدق بن غالب، فقال له: يا أبا فراس إنَّك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي: فقال له: صدقت أنت ابن أخي، فما حاجتك؟ قال: نفث على لساني فقلت شعراً، فأحببتُ أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره، وكنت أولى من ستره عليَّ.

---

(١) نفسه، ص ٢٨٧.

فقال له الفرزدق: أمّا عقلك فحسنٌ، وإنّي لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ما قلت، فأنشده:

ـ طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ

قال: فقال لي: فيمَ تطرب يا ابن أخي؟ فقال:

ـ ولا لعباً منّي، وذو الشيب يلعبُ

فقال: بلى يا ابن أخي، فالعب فإنّك في أوان اللعب. فقال:

ولم يُلهِني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرّبني بنانٌ مخضَّبُ

فقال: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

ولا السّانحاتُ البارحاتُ عشيّةً أمرَّ سليمُ القرنِ أم مرّ أعضَبُ

فقال: أجل لا تتطيّر. فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بني حوّاء والخيرُ يُطلبُ

فقال: ومَن هؤلاء ويحك؟ قال:

إلى النّفر البِيْضِ الذين بحبِّهم إلى الله في ما نابني أتقرّبُ

قال: أرحني ويحك من هؤلاء؟ قال:

بني هاشم رهطِ النبيِّ فإنّني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضت لهم منّي جناحي مودّةً إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحبُ
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا محبّاً على أنّي أُذمُّ وأُغضبُ
وأُرمى وأرمي بالعداوة أهلها وإنّي لأوذَى فيهمُ وأؤنّبُ

فقال له الفرزدق: يا ابن أخي، أذع ثمّ أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقي[1].

تفيد هذه الرّواية أن الهاشميات هي أوّل ما قال من الشّعر، وكان في أوان «اللّعب» كما ذكر الفرزدق، وقد أثار انتباه هذا الشاعر الكبير وشوقه إلى معرفة

(١) الأغاني، م.س.، ص ٣٤٩ ـ ٣٥١.

مـن يطـرب إليهـم الشاعر الشّاب، وانتزع منه حكماً بأنه «أشعر من مضى وأشعر من بقي».

وتـفيـد روايـات أخرى أنه بقي ينظم هذا النوع من الشِّعر إلى أواخر أيامه، فقصيدته التي يقول فيها:

فيا ربّ هل إلاّ بك النصر يُبتغى　　ويـا ربُّ هـل إلاّ عليـك المعـوَّل

يـرثـي فيـهـا زيـد بـن علـي وابنه الحسين بن زيد، ما يعني أنه نظمها بعد استشهادهما، فـي ولاية يوسف بن عمرو الثقفي، وهذا يفيد أنَّ قربه من بني أميّة كـان أمـراً طـارئـاً، ولم يدم طويلاً، وأن استشهاده في مجلس الوالي يوسف بن عمـرو كـان أمـراً مدبّراً بسبب استمراره في ولائه لآل البيت عليهم السلام، على الرغم من حالة الطوارئ التي أعلنها الوالي الأموي في العراق بعد ثورة زيد بن علي.

بـلـغ الكميـت، بشعـره، هـذه المكانـة لأنه، أولاً، كان يصدر عن تجربة شخصيّة وجديّة عقليّة قوامها إيمان عميق، فكان شعره ذوب ذاته، وثانياً، كان قـد تفـرّغ للقضيّـة التـي التـزمهـا، فلم يمض في درب الشعراء محترفي المديح والهجاء، وإنما مضى فـي طـريـق الدعوة، عاملاً على تحصيل رزقه من عمله، وهو التعليم. جاء في الأغاني: «عن خلف الأحمر أنّه رأى الكميت يعلّم الصِّبيان في مسجـدٍ بـالكـوفة»[1]. والتعليم، علاوة على كونه عملاً، فهو سبيل من سبل إيصـال الـدعوة، ولعل الكميت اختاره لهذين الأمرين، وثالثاً، كان يسعى إلى الإجادة، فيروى عنه قوله: «إذا قلت أحببت أن أحسن»، ولعلّه بهذا السعي إلى التجويد كان يفرض على الرّواة أن يرووا شعره ويتداولوه ويتدبّره، وبخاصّة أنه كان يستجيب لبعض شروطهم مثل تضمين شعره ما كان يبحث عنه علماء ذلك العصر من «غريب»، فضلاً عن أنه أخّر موضع الطلليّة إلى نهاية القصيدة، فكأنه يحـثُّ بـذلـك الباحث عن النسيب والغريب على قراءة القصيدة كاملة حتى يصل إلى بغيتـه، وهـذا نوع من التشويق كان يجيده الكميت، وسوف نتبيّن نماذج منه

(١) نفسه، ص ٣٢٨.

في ما يأتي. ورابعاً، كان يخاطب، في شعره وجدان المتلقّي وعقله، وتمثّل ذلك خصائص شعريّة تؤثر وجدانياً من نحوٍ أوّل، وتقنع عقلياً من نحوٍ ثانٍ، وقد أثرت هذه الخصائص في تطوّر الشعر العربي في ما بعد، ما جعل الكميت الحافز الحقّ للتطوّر الشعري الذي عرفه العصر العباسي في ما بعد، وإن يكن الكميت حافز ثورة سياسية اجتماعيّة، فقد كان أيضاً حافز ثورة شعرية.

تميُّزه ثمرة تراث آل البيت

والكميت، في إنتاجه المتميِّز هذا، ثمرة تطوّر التراث الآخر المقصيّ من دائرة اهتمام مؤرِّخي السلطان والإنتاج الثقافي الرسميّ. فهو يندرج في سياق تاريخي تعود بداياته إلى الإمام علي بن أبي طالب، ثم استمرَّ إلى أن أوتي لذي موهبة فذّة مثل الكميت أن ينبغ ويفرض نفسه على أرباب الثقافة السائدة، فظنوا أنّه أوّل من فعل ذلك، وقالوا في ذلك الكثير. فقال الجاحظ: ما فتح للشّيعة الحِجاج إلاّ الكميت بقوله:

. . . فإنْ هي لم تصلح لحيٍّ سواهُمُ　　فإنَّ ذوي القربى أحقُّ وأوجبُ
يقولون: لم يورِثْ، ولولا تراثُهُ　　لقد شركَتْ فيها بَكيلٌ وأرحبُ. . .

«وذكر كلام الجاحظ الشيخُ المفيد، كما في الفصول المختارة، ولعلَّ الجاحظ لم يقف على مواقف احتجاج الشيعة بهذه الحجّة نفسها وغيرها، المتكثرة منذ عهدهم المتقادم المتّصل بالعهد النبويّ. أو أنّه يرمي بكلمته إلى إنكار سلف الشيعة في الصدر الأوّل، لكن فضحه تاريخهم المجيد، والمأثورات في فضلهم عن صاحب الرسالة وهلمَّ جرّا، وإنّك تجد الاحتجاج بما ذكر وغيره في كثيرٍ من شعر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وفي كلماتهم المنثورة، قبل أن تنعقد نطفة الكميت، كخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، وعبدالله بن عبّاس، والفضل بن عبّاس، وعمّار بن ياسر، وأبي ذرّ الغفاري، وقيس بن سعد الأنصاري، وربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب، وعبدالله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، وزفر بن زيد بن حذيفة، والنجاشي بن الحرث بن

كعب، وجرير بن عبدالله البجلي، وعبد الرحمن بن حنبل حليف بني جُمع، وآخرين كثيرين.

وقد فتح لهم هذا الباب بمصراعيه أمير المؤمنين عليّ (صلوات الله عليه) في كتبه وخطبه الطافحة بذلك، المبثوثة في طيّات الكتب ومعاجم الخطب والرسائل».

قال شيخنا المفيد، كما في الفصول: «إنّما نظم الكميت معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام في منثور كلامه في الحجّة على معاوية، فلم يزل آل محمد عليهم السلام بعد أمير المؤمنين يحتجّون بذلك، ومتكلّمو الشيعة قبل الكميت وفي زمانه وبعده، وذلك موجودٌ في الأخبار المأثورة والروايات المشهورة، ومن بلغ إلى الحدِّ الذي بلغه الجاحظ في البهت سقط كلامه»[1].

والروايات التي تؤكِّد انتماء الكميت إلى مدرسة آل البيت، وطبيعة تجربته التي يصدر عنها كثيرة، نذكر في ما يأتي بعضها، ونشير إلى بعضها الآخر:

قال البغدادي في خزانة الأدب: حكى صاعد مولى الكميت قال: دخلت مع الكميت على عليّ بن الحسين عليه السلام فقال: إنّي قد مدحتك بما أرجو أن يكون لي وسيلةً عند رسول الله صلى الله عليه وآله ثمَّ أنشده قصيدته التي أوّلها:

مــن لقلــبٍ مُتيَّــمٍ مُستهــامِ غيــر مــا صَبــوةٍ ولا أحــلامِ

فلمّا أتى على آخرها، قال له: «ثوابك نعجز عنه، ولكن ما عجزنا عنه فإنَّ الله لا يعجز عن مكافأتك، اللّهمّ اغفر للكميت». ثمَّ قسّط له على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم، وقال له: «خُذ يا أبا المستهلّ» فقال له: لو وصلتني بدانق لكان شرفاً لي، ولكن إن أحببتَ أن تحسن إليَّ فادفع إليَّ بعض ثيابك التي تلي جسدك أتبرّك بها. فقام فنزع ثيابه ودفعها إليه كلّها، ثمّ قال: «اللّهمّ إنّ الكميت جادَ في آل رسولك وذريّة نبيّك بنفسه حين ضنَّ الناس، وأظهر ما كتمه

(١) الغدير، م.س.، ص ٢٨٠ و٢٨١.

غيره من الحقّ، فَأَحيِه سعيداً، وأَمِتْه شهيداً، وأره الجزاء عاجلاً، وأجزل له جزيل المثوبة آجلاً، فإنّا قد عجزنا عن مكافأته». قال الكميت: ما زلت أعرف بركة دعائه.

وروى أبو الفرج في الأغاني بالإسناد عن أبي بكر الحضرمي، قال: استأذنت للكميت على أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام في أيّام التشريق بمنى، فأذن له، فقال له الكميت: جعلت فداك إنّي قلت فيكم شعراً أحبُّ أن أُنشدَكَهُ.

فقال: «يا كميت اذكر الله في هذه الأيّام المعلومات، وفي هذه الأيّام المعدودات». فأعاد عليه الكميت القول، فرقّ له أبو جعفر عليه السلام فقال: «هات». فأنشده قصيدته حتى بلغ:

يُصيبُ به الرامون عن قوسِ غيرهِمْ ... فيا آخرٌ أسدى له الغيَّ أوّلُ

فرفع أبو جعفر عليه السلام يديه إلى السماء وقال: «اللهمَّ اغفر للكميت».

وعن محمد بن سهل ـ صاحب الكميت ـ قال: دخلت مع الكميت على أبي عبدالله الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقال له: جعلت فداك ألا أنشدك؟

قال: «إنّها أيّامٌ عظامٌ». قال: إنّها فيكم. قال: «هات». وبعث أبو عبدالله عليه السلام إلى بعض أهله فقرب، فأنشده فكثر البكاء، حتى أتى على هذا البيت:

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ... فيا آخرٌ أسدى له الغيَّ أوّلُ

فرفع أبو عبدالله عليه السلام يديه، فقال: «اللهمَّ اغفر للكميت ما قدّم وما أخّر، وما أسرَّ وما أعلن، وأعطه حتى يرضى».

ورواه البغدادي في خزانة الأدب وفيه بعد قوله: فكثر البكاء وارتفعت الأصوات، فلمّا مرَّ على قوله في الحسين عليه السلام:

كأنَّ حسيناً والبهاليلُ حولَهُ ... لأسيافهم ما يختلي المتبتّلُ
وغاب نبيُّ الله عنهم وفقده ... على الناس رزءٌ ما هناك مُجلّلُ
فلم أرَ مخذولاً لأجلِ مصيبةٍ ... وأوجب منه نصرةً حين يخذلُ

فرفع جعفر الصادق عليه السلام يديه وقال: «اللهمّ اغفر للكميت ما قدّم وأخّر، وما أسرّ وأعلن، وأعطه حتى يرضى». ثمّ أعطاه ألف دينار وكسوة، فقال له الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا ولو أردتها لأتيتُ من هي في يديه، ولكنّني أحببتكم للآخرة، فأمّا الثياب التي أصابت أجسادكم فإنّي أقبلها لبركتها، وأمّا المال فلا أقبله[1]. ويتكرر مثل هذه الروايات في غير مصدر[2]، ما يفيد، علاوة على ما سبق، أن الكميت كان على صلةٍ بأئمة عصره: علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر ابن محمد عليهم السلام، ينشدهم هاشمياته، بعد أن ينتهي من نظمها، معلناً ولاءه لهم، وكانوا يقدِّرون صنيعه، ويدعون له، معربين عن إعجابهم بشعره، ناقدين له في بعض الأحيان، كما فعل الإمام جعفر الصادق عندما أنشده الكميت:

أخلص الله في هواي فما أغر ... ق نزعاً وما تطيش سهامي

فقال أبو عبدالله: «لا تقل هكذا، ولكن قل: قد أغرق نزعاً، فقال الكميت: يا مولاي، أنت أشعر مني بهذا المعنى».

شعرٌ يسهم في تكوين الوجدان الشعبي

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: إن الكميت «جاد بنفسه حين ضنّ الناس... وأظهر ما كتمه غيره من الحقّ...»، فواجه بطش السلطان.. وقد مثّل هذا الشاعر وشعره ظاهرةً فريدةً بلغ من شدّة تأثيرها أن تسرَّبت إلى أعماق الوجدان الشَّعبي، وأسهمت في تكوينه، فصار الكميت وشعره مادّة أحلام - منامات الكثيرين، يرونه في أبهى صورة، يدعو النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام له، ويباركون صنيعه. وهذا يدلّ على رؤية الناس الحقيقية إلى هذه الظاهرة، فهم يستمدّون منها قوّة تمكّنهم من مواجهة طغيان السلطان وجوره.

وهذه الأحلام - المنامات كثيرة، نذكر في ما يأتي بعض ما يروى منها:

(١) نفسه، ص ٢٧٧ و٢٨١ - ٢٨٣.
(٢) راجع: نفسه، ص ٢٧٤ - ٢٧٧.

ـ قال الكميت: رأيت في النوم، وأنا مختفٍ رسول الله ﷺ فقال: ممَّ خوفك؟ قلت: يا رسول الله، من بني أميّة وأنشدته:

ألم ترني من حبِّ آل محمَّدٍ أروح وأغدو خائفاً أترقَّبُ

فقال: إظهر، فإنَّ الله قد أمَّنك في الدّنيا والآخرة[1].

ـ قال الكميت: رأيت أمير المؤمنين، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في المنام، فقال: أنشدني قصيدتك العينيّة، فأنشدته حتى انتهيت إلى قولي فيها:

ويَوْم الدَّوحِ دَوْحِ غدير خمٍّ أبان له الولاية لو أُطِيْعَا

فقال ـ صلوات الله عليه ـ: صدقت، ثم أنشد عليه السلام:

ولم أرَ مثل ذاك اليوم يوماً ولم أرَ مثلَه حقّاً أُضِيْعا

ويروى، في موضع آخر، أن هناد بن السَّري رأى المنام نفسه. ويروى أن ابن الكميت رأى النبي ﷺ في النوم، فطلب منه أن ينشده قصيدة أبيه العينيَّة، فأنشده إيَّاها فلما وصل إلى هذا البيت: «ولم أر. . .» بكى بكاءً شديداً، وقال: صدق أبوك رحمه الله، إي والله لم أر مثله حقّاً أضيعا. ويروى أن نصر بن مزاحم المنقري رأى، في المنام، النبي ﷺ وبين يديه الكميت ينشده:

من لقلبٍ متيَّمٍ مستهام غير ما صبوةٍ ولا أحلام

والنبي ﷺ يقول: جزاك الله خيراً، ويثني عليه.

ويروى أن سعد الأسدي رأى رسول الله ﷺ في المنام، واستنشده قصيدة الكميت:

فما لي إلاّ آل أحمد شيعة وما لي إلاّ مشعب الحقِّ مشعب

فقال له: إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام، وقل له: قد غفر الله لك بهذه القصيدة.

(١) نفسه، ص ٢٨٠.

ويروى أن دعبلاً الخزاعي رأى النبي ﷺ في النوم، فقال له: مالك وللكميت بن زيد؟ قال: يا رسول الله، ما بيني وبينه إلا كما بين الشعراء، فقال: لا تفعل أليس هو القائل:

فلا زلت فيهم حيث يتَّهمونني ... ولا زلت في أشياعكم أتقلَّبُ

فإن الله قد غفر له بهذا البيت.

بلغ الكميت هذه المنزلة في وجدان النَّاس، فصار من يتحرَّج من رواية الشعر يروي شعره، وفي الرواية التالية ما يفيد أن مشكلة رواية الشعر حُلَّت من طريق المنام، ما يعني أنها مشكلة دخلت إلى أعماق الذات، ووجدت حلَّها بالموقع الذي يحتله هذا الشاعر في التاريخ الإسلامي والدور الذي أدَّاه. والرواية المعنية هي:

روى الكشّي في رجاله، بإسناده عن أبي المسيح عبدالله بن مروان الجواني قال: كان عندنا رجلٌ من عباد الله الصالحين، وكان راوية شعر الكميت - يعني الهاشميّات - وكان يُسمع ذلك منه، وكان عالماً بها، فتركه خمساً وعشرين سنة لا يستحلُّ روايته وإنشاده، ثمَّ عاد فيه، فقيل له: ألم تكن زهدت فيها وتركتها؟ فقال: نعم، ولكنّي رأيت رؤيا دعتني إلى العود لها. فقيل له: وما رأيت؟ قال: رأيت كأنَّ القيامة قد قامت، وكأنّما أنا في المحشر، فدفعت إليَّ مجلّة.

قال أبو محمد: فقلت لأبي المسيح: وما المجلّة؟ قال: الصحيفة. قال: نشرتها فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. أسماء من يدخل الجنّة من محبِّي عليّ بن أبي طالب. قال: فنظرت في السطر الأوّل فإذا أسماء قوم لم أعرفهم، ونظرت في السطر الثاني فإذا هو كذلك، ونظرت في السطر الثالث والرابع، فإذا فيها: والكميت بن زيد الأسدي. قال: فذلك دعاني إلى العود فيه[1].

---

(١) راجع: نفسه، ٢٦٨ ـ ٢٧٠ و٢٧٤ و٢٧٨ و٢٧٩.

الشّاعر الدّاعية

أدّى نشاط الكميت السّياسي، وإنتاجه الشعري بخاصّة، إلى أن يأمر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك واليه على العراق خالد بن عبدالله القسري بقتله. . . ، وتُروى في تفاصيل صدور هذا الأمر، والتطوّرات التي تلته، روايات شتّى، يمكن للباحث أن يخلص منها إلى جملة نتائج نعرضها بإيجاز في ما يأتي:

بلغ الصّراع القبلي: القيسي ـ اليمني أوجه في هذه الآونة، وكان والي العراق خالد بن عبدالله القسري يمنيّاً، وكانت لديه طموحات، ولعلّه، لهذا السّبب، غضّ النظر عن نشاط المعارضة ما دام هذا النشاط يخدم طموحاته، غير أنّه عندما لمس خطر هذا النشاط بادر إلى قمعه بقسوة، وبخاصّة في خراسان، حيث دار صراع عسكري بين أخيه أسد من جهة والثوّار من جهة ثانية، علاوة على تنكيله هو بأنصارهم في العراق، ما منعهم من نجدة إخوانهم في خراسان.

وإذ لمس أقطاب المعارضة في العراق خطر خالد بادروا إلى تحذير الخليفة في دمشق منه، وهم بذلك يوقعون بين طرفي السلطة، ويتخلّصون من بطش هذا الوالي ذي الطّموح القبليّ، وتتاح لهم فرصة الإعداد للثّورة والقيام بها بعد أن يضعف الصراع بين الخليفة وواليه السلطة. وهذا ما حدث في ما بعد، إذ كانت القبائل اليمنيّة التي انفضّت عن الأمويين بعد خلع خالد والتنكيل به وبأنصاره هي القبائل التي انضمّت إلى جيوش الدعوة الهاشمية.

ومن الروايات التي تتحدّث عن هذا التحذير وعمّا آل إليه الأمر، في ما يتعلّق بالكميت، نذكر ما يرويه أبو الفرج الأصفهاني: «كان هشام بن عبد الملك قد اتّهم خالد بن عبدالله، وكان يُقال: إنّه يريد خلعك، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعرٌ، فدخل بها على هشام فقرئت عليه:

تألّقَ برقٌ عندنا وتقابَلَتْ ... أثافٍ لِقدْرِ الحَربِ أخشى اقتبالها
فدونَك قِدرَ الحربِ وهي مُقِرَّةٌ ... لكفّيك واجعل دون قِدرٍ جعالها
ولن تنتهي أو يبلغَ الأمرُ حدّهُ ... فنَلْها برِسْلٍ قبل أن لا تنالها

فتجشَمَ منها ما جَشَمْتَ مِنَ التي ... بسوراء هرّت نحو حالكَ حالها
تلافَ أمورَ الناس قبل تفاقُمٍ ... بعَقدَةِ حَزْمٍ لا يُخاف انحلالها
فما أبرمَ الأقوامُ يوماً لحيلةٍ ... من الأمر إلاّ قلّدوك احتيالها
وقد تُخبِرُ الحربُ العوانُ بسرّها ... وإن لم يَبُحْ مَن لا يريدُ سؤالها

فأمر هشام بأن يجتمع له من بحضرته من الرُّواة فَجُمِعوا، فأمر بالأبيات فقرِئت عليهم، فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنّه كلام الكميت بن زيد الأسدي. فقال هشام: نعم، هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبدالله.

ثمّ كتب إلى خالد يخبره، وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذٍ بواسط، فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: إنّ هذا يمدح بني هاشم ويهجو بني أميّة، فأتوني من شعر هذا بشيء، فأُتي بقصيدته اللاميّة التي أوّلها:

ألا هل عمٍ في رأيهِ متأمِّلُ ... وهل مدبرٌ بعد الإساءة مقبلُ

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام، يقول: هذا شعر الكميت، فإن كان قد صدق في هذا فقد صدق في ذاك. فلمّا قرئت على هشام اغتاظ، فلمّا سمع قوله:

فيا ساسةً هاتوا لنا من جوابكم ... ففيكم لعمري ذو أفانين مقولُ

اشتدّ غيظه. وفي رواية أخرى، أن خالداً روّى جارية حسناء، أو ثلاثين جارية، شعر الكميت، واحتال في إيصالها أو إيصالهن لهشام، فغنته أو غنّينه الشعر، فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه، ويضرب عنقه، ويهدم داره، ويصلبه على ترابها. فلمّا قرأ خالد الكتاب كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلّص الكميت، فقال: كتب إليّ أمير المؤمنين وإنّي لأكره أن أستفسد عشيرته، وسمّاه، فعرف عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد (وفي رواية أخرى أبان بن الوليد، وكان صديقاً للكميت) ما أراد، فأخرج غلاماً له

مولّداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعلّه أن يتخلّص من الحبس فأنت حرٌّ لوجه الله، والبغلة لك، ولك عليَّ بعد ذلك إكرامك والإحسان إليك.

فركب البغلة، فسار بقيّة يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبّحها، فدخل الحبس متنكّراً، فخبّر الكميت بالقصّة، فأرسل إلى امرأته، وهي ابنة عمّه، يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفّان، ففعلت. فقال: ألبسيني لبسة النساء، ففعلت. ثمّ قالت له: أقبل فأقبل، وأدبر فأدبر، فقالت: ما أدري إلاّ يبساً في منكبيك، اذهب في حفظ الله. فمرَّ بالسجّان فظنَّ أنّه المرأة فلم يعرض له، فنجا وأنشأ يقول:

خرجت خروجَ القِدحِ قِدحِ ابن مقبلِ ... على الرغم من تلك النوابح والمُشْلي
عليَّ ثيابُ الغانياتِ وتحتَها ... عزيمةُ أمرٍ أشبهت سَلَّةَ النصْلِ

وورد كتاب خالد إلى والي الكوفة يأمره فيه بما كتب به إليه هشام، فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فَيُنفِذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت (السجن)، فكلّمتهم المرأة وخبّرتهم أنّها في البيت، وأنَّ الكميت قد خرج. فكتب بذلك إلى خالد فأجابه: حرّة كريمة افتدت ابن عمّها بنفسها. وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبي بالشام، فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول:

فما وجدت بنات بني نزار ... حلائل... أسودينا وأحمرينا

فهاج الكميت ذلك حتى قال:

ألاحيّيت عنّا يا مدينا ... وهل ناسٌ تقول مسلّمينا

وهي ثلاثمائة بيت.

ويروى: لما أنشد هشام بن عبد الملك قول الكميت:

فبهم صرت للبعيد ابن عمٍّ ... واتّهمت القريب أيَّ اتّهام
مبدياً صفحتي على الموقف المعـ ... ـلم بالله قوّتي واعتصامي

قال : استقتل المرائي[1] .

وهذا يفيد أن خالداً القسري عمد إلى تحريض الخليفة على الكميت والجماعة التي ينتمي إليها، مستخدماً غير وسيلة إلى إيصال الشِّعر إليه، وقد أفلح في ذلك، وأصدر الخليفة أمره بقتل الشاعر، غير أن الوالي، وكان يبيِّت أمراً، لم يشأ استفساد عشيرة الكميت، فأتاح له أن يفرّ من السِّجن ويختفي مدَّة طويلة وكأنما أدرك الشاعر وجماعته، خلال مدّة الاختفاء، ما يرمي إليه الوالي، فقرروا إفساد الأمر عليه، ولهذا سعى الشاعر إلى نيل عفو هشام، بعد أن استجاز الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام أن يمدح بني أمية صوناً لدمه فأجاز له. يروي أبو الفرج بإسناده عن ورد بن زيد أخي الكميت قال :

أرسلني الكميت إلى أبي جعفر عليه السلام فقلت له: إنَّ الكميت أرسلني إليك، وقد صنع بنفسه ما صنع، فتأذن له أن يمدح بني أميّة؟

قال: نعم. هو في حلٍّ، فليقل ما شاء، فنظم قصيدته الرائية التي يقول فيها :

فالآن صرتُ إلى أميّـ ـــة والأمور إلى المصائر

ودخل على أبي جعفر عليه السلام فقال له: «يا كميت أنت القائل :

فالآن صرتُ إلى أميّـ ـــة والأمور إلى المصائر؟»

قال: نعم. قد قلت، ولا والله ما أردت به إلاّ الدنيا، ولقد عرفت فضلكم، قال : «أمّا إن قلت ذلك، إنَّ التقيّة لَتَحِلّ».

وروى الكشّي في رجاله، بإسناده عن درست بن أبي منصور، قال: كنت عند أبي الحسن موسى عليه السلام (لعله أبو عبدالله الصادق عليه السلام) وعنده الكميت بن زيد، فقال للكميت: «أنت الذي تقول :

فالآن صرتُ إلى أميّـ ـــة والأمورُ إلى المصائر»

(١) نفسه، ص ٢٧٨ و٢٩٢.

قال: قد قلت ذلك فوالله ما رجعت عن إيماني، وإنّي لكم لمُوالٍ، ولعدوِّكم لقالٍ، ولكنّي قلته على التقيّة. قال: أما لئن قلت ذلك، إنَّ التقيّة تجوز..»[1].

مديح الأمويِّين: «كلام ارتجلته»

مدح الكميت الأمويِّين في سياق تاريخيٍّ اقتضى أن يفعل ذلك، كما مرّ بنا، ثمَّ عاد يمضي في نهجه الذي التزمه فرثى، في إحدى هاشمياته، زيد بن علي وابنه حسين. ومدحه الأمويين كان أمراً عارضاً وصفه هو بقوله: «إنما هو كلام ارتجلته». وقد جاء في الروايات ما يفيد ذلك كله. تفصِّل الروايات في حصول الكميت على الأمان، وفي دخوله مجلس هشام وإنشاده الشعر، وتضيف: «... ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً، فحشدت له المضريّة بالهدايا، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم»، وكتب إلى خالد بأمانه، وأمان أهل بيته، وأنه لا سلطان له عليهم، قال: «وجمعت له بنو أميّة في ما بينها مالاً كثيراً، ولم يجمع من قصيدته تلك، يومئذٍ، إلاّ ما حفظه الناس منها فأُلِّف، وسُئِل عنها، فقال: ما أحفظ منها شيئاً، إنما هو كلام ارتجلته»[2].

قصيدته «المذهَّبة» في سياق الصراع القبلي

تروي كتب الأدب وتاريخه قصيدة مطوّلة تُسمّى «المذهَّبة»، يبلغ عدو أبياتها حوالى ثلاثمئة بيت للكميت هجا بها القبائل اليمنيّة، وأُخذ عليه أنّه أثار بهذه القصيدة العصبيّة القبليّة. والحقيقة أن العصبيّة القبليّة كانت مُثارة، وكان الصِّراع القبليّ على أشده في العصر الأموي، وكانت سياسة الأمويين تقوم على تأجيج نار هذا الصراع، فمعاوية هو صاحب القول المعروف: «ردّوا القوم إلى

(١) نفسه، ص ٢٩٢ و٢٩٣. ويلفت الشيخ الأميني النظر إلى أن الإمام المذكور في حديث الكشّي هو أبو عبدالله الصّادق عليه السلام ويقول: «ولا يتم ما فيه من أبي الحسن موسى عليه السلام؛ إذ الكميت توفي بلا اختلاف أجده سنة ١٢٦هـ قبل ولادة أبي الحسن موسى عليه السلام بستتين أو ثلاث...» راجع: ص ٢٩٣ و٢٩٤.

(٢) نفسه، ص ٢٩٨ ـ ٣٠١.

أنسابهم»، ولطالما حرَّض هو وخلفاؤه على الانقسام القبلي، وليست النقائض، وهـي قصائد هجائية طويلة شغلت أناس ذلك العصر وملأت دنياهم، سوى دليل بسيط على ذلك.

والكميت، عنـدمـا نـظم قصيدته الهجائية هذه، إنما دُفع إلى ذلك دفعاً، فردّ، كما مر بنـا، على حكيم بن عياش الأعور الكلبي الذي نال منه ومن زوجته عندما هرب من السِّجن.

وحكيم هذا هـو أحد الشعراء المنقطعين إلى مدح بني أمية في دمشق، ثمّ انتقل إلى الكوفة، وكان لا ينفكُّ عن هجاء الهاشميين والعلويِّين، ومن ذلك قوله:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلةٍ ... ولم نر مهدياً على الجذع يُصلب
وقستـم بعثمـان عليـاً سفـاهـةً ... وعثمـان خيـر مـن علـيٍّ وأطيـبُ

ويذكر أبو الفرج سبب هجاء الكميت أهل اليمن فيقول:

«إنَّ سبـب هجـاء الـكميت أهـل اليمـن أن شـاعـراً من أهل الشام يقال له حكيـم بـن عيَّـاش الكلبـي كـان يهجـو علـيّ بـن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم جميعـاً، وكـان منقطعاً إلى بني أمية، فانْتَدَبَ له الكميتُ فهجاه وسبَّه، فأجابه، ولجّ الهجاء بينهما. وكان الكميت يخاف أن ينضح في شعره عن عليّ عليه السلام لِما وقع بينه وبين هشام، وكان يُظْهِر أنَّ هجاءه إياه في العصبية التي بين بني عدنان وقحطان، فكان ولد إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس وولد علقمة بن وائل الحضـرمـي يروون شعر الكلبي، فهجا أهل اليمن جميعاً إلاّ هذين فإنه قال في آل علقمة:

ولـولا آلُ علقمـةَ اجْتَـدَعْنـا ... بقـايـا مـن أنُـوفِ مُصَلَّمِينـا

وقال في إسماعيل:

فـإنَّ لإسمـاعيـل حقّـا وإننـا ... له شاعبو الصَّدْعِ المُقارِبِ للشَّعبِ

وكانت لآل علقمـة عنـده يَـدٌ، لأن علقمـة آواه ليلةَ خرج إلى الشام، وأمّ إسماعيل من بني أسد، فكفَّ عنهما لذلك.

قال الطلحيّ: قال أبو سلمة: حدثني محمد بن سهل قال: قال الكَلْبِيُّ:

مـا سَرَّنـي أنَّ أُمّـي من بني أسد　　وأنَّ رَبــيَ نجّــانــي مــن النــارِ
وأنهـمْ زوَّجـونـي مـن بنـاتِهِـمُ　　وأن لــي كــلَّ يــومٍ ألــفَ دينــارِ

فأجابه الكميت:

يـا كـلبُ مـالكَ أُمٌّ من بني أسد　　معـروفـةٌ فـاحتـرِقْ يـا كلْـبُ بـالنـارِ
لكنَّ أمَّكَ من قومٍ شَنِئتَ بهمْ　　قـد قنَّعـوكَ قِنـاعَ الخِـزْيِ والعـارِ

قال فقال له الكلبي:

لن يبرح اللؤمُ هذا الحَيَّ من أسد　　حتـى يُفَـرَّقَ بيـن السَّبْـتِ والأحـدِ

قال محمد بن أنس: حدثني المستهلُّ بن الكميت قال: قلت لأبي: يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت:

ألاَ يـــا سَلْـــمَ يـــا تِـــربـــي　　أفـــي أسمـــاءَ مـــن تِـــرْبِ

وغمـزتَ عليـه فيها، ففخرت ببني أمية وأنت تشهد عليهم بالكفر، فهلاَّ فخرت بعليّ وبني هاشم الذين تَتَوَلأهم؟ فقال: يا بنيّ، أنت تعلم انقطاع الكلبيّ إلـى بنـي أمية، وهم أعداء عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلو ذكرتُ علِيّاً لترك ذكري وأقبل على هجائه فأكون قد عـرَّضْتُ علياً له، ولا أجد له ناصراً من بني أمية، ففخرتُ عليه ببني أمية وقـلـت: إن نَقَضَها عليٌّ قتلوه، وإن أمسك عن ذكرهم قتلتُه غمًّا وغلبتُه. فكان كما قال، أمسك الكلبيُّ عن جوابه فغُلِّب عليه وأفحم الكلبيّ(١).

تفيد هذه الرواية، أولاً، أن الكميت لم يبدأ الهجاء، وإنه إنما كان يردّ على حكيـم بـن عيـاش، الشـاعـر المنقطـع إلـى بنـي أميـة، غير المنفكّ عن هجاء العلويين، والإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ بخاصَّة، وثانياً، أن الكميت نظم قصيدته «المذهَّبة» بعد عودته من دمشق، أي بعد استفحال الصراع القبلي، بدليل

(١) نفسه، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

استثنائه بني علقمة لأنهم آووه على أثر هروبه من السجن، وثالثاً، أن اتخاذ ردّه المنحى القبلي كان من نحو أول بسبب ملابسات سياسية، ومن نحوٍ ثانٍ لأنه يريد إفحام خصمه الذي لا يجرؤ على النَّيل من الأمويِّين، أي أن سياق الصِّراع السياسي القبلي اقتضى ذلك، علاوة على أن الكميت، وهو الشاعر التقي، ندم على تورّطه في هذا الهجاء، فيروي ابنه المستهل ما يفيد ذلك عندما يقول: حضرت أبي عند الموت، وهو يجود بنفسه، وأغمي عليه، ثمَّ أفاق ففتح عينيه، ثم قال: اللهم آل محمد، اللهم آل محمد، اللهم آل محمد. ثم قال: يا بني، وددت أني لم أكن هجوت نساء بني كلب بهذا البيت، وهو: «مع العُضْرُوط والعُسْفاء أَلْقَوا/ برادعهنّ غير محصَّنينا»، فعممتهن قذفاً بالفجور، والله ما خرجت ليلاً قطّ إلا خشيت أن أرمى بنجوم السماء لذلك[1].

القمع الدَّموي واستشهاد الكميت

أدَّى الصِّراع السِّياسي إلى أن يُعزل خالد القسري من ولاية العراق، ويُولَّى مكانه يوسف بن عمرو الثقفي، فيتَّبع هذا سياسة القمع الدَّموي، فيقتل زيد بن علي وابنه حسين وعدداً كبيراً من أنصارهما، وينكِّل بالآخرين، وينتظر فرصةً لينال من الكميت، شاعر آل البيت الذي رثى زيداً وأنصاره، وتأتي الفرصة سريعة، فيستشهد الشاعر في مجلس الوالي، وتروي كتب تاريخ الأدب حادثة استشهاده في خلافة مروان بن محمد، سنة ١٢٦ هـ، كما يأتي:

وكان سبب موته ما حكاه حجر بن عبد الجبّار قال: خرجت الجعفريّة على خالد القسري، وهو يخطب على المنبر ولا يعلم بهم، فخرجوا في التبابين ينادون: لبّيك جعفر، لبّيك جعفر، وعرف خالد خبرهم وهو يخطب، فدهش بهم، فلم يعلم ما يقول فزعاً، فقال: أطعموني ماءً! ثمَّ خرج الناس إليهم فأُخذوا، فجعل يجيء بهم إلى المسجد، ويُؤخذ طنٌّ قصب فيُطلى بالنفط، ويُقال للرجل

---

(١) نفسه، ص ٣٠٧.

منهم: احتضنه. ويُضرب حتى يفعل. ثمّ يحرق، فحرقهم جميعاً، فلمّا عزل خالدٌ عن العراق ووليه يوسف بن عمر، دخل عليه الكميت، فأنشده قوله فيه:

خرجت لهم تمشي البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضبَّبُ
وما خالدٌ يستطعم الماء فاغراً بعدلك والداعي إلى الموت ينعبُ

قال: والجند قيامٌ على رأس يوسف بن عمر ـ وهم ثمانية ـ فتعصّبوا لخالد، فوضعوا نعال سيوفهم في بطن الكميت، فوجؤوه بها وقالوا: أتنشد الأمير ولم تستأمره؟ فلم يزل ينزف الدم حتى مات. وكان يردّد، وهو يجود بنفسه: اللَّهم آل محمَّد، اللَّهم آل محمّد، اللهم آل محمّد..[1].

وهكذا أتيحت له الشهادة ببركة دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قال له: «اللهم إن الكميت جاد في آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حين ضنّ الناس، وأظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيداً، وأمته شهيداً، وأره الجزاء عاجلاً وأجزل له المثوبة آجلاً...»[2].

يوم الغدير في شعر الكميت

يمثّل يوم «غدير خمّ»، وهو اليوم الذي أبان فيه النبيّ صلى الله عليه وآله الولاية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، محوراً مركزياً في خطاب الكميت الشعري، وهو يستند، في هاشمياته، إلى ما دار في ذلك اليوم ليؤكد حقّ الإمام علي عليه السلام في الخلافة، ويقرِّر أن الرِّجال، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، تبايعوها، وبغوا على الإمام وعلى الأمّة الإسلاميّة، فأضاعوا أمر قائدهم وأمورهم..

وفي ما يأتي نقرأ نموذجين من شعر الكميت يتحدَّث في كل منهما عن يوم الغدير، في سياق قصيدة كاملة تنطق بخطابه المؤثر وجدانياً المقنع عقلياً، البليغ شعرياً:

(١) نفسه، ص ٣٠٦ و٣٠٧، والأغاني، م.س.، ٣٤٣.
(٢) نفسه، ص ٢٧٧.

□ . . . نفى عن عينكَ الأرقُ الهجوعا ... وهــمٌّ يمتــري منهــا الـدّمــوعــا
دخيــلٌ فـي الفـؤادِ يهيـجُ سُقمـاً ... وحـزنـاً كـان مـن جَـذَلٍ منـوعـا
وتـوكـافُ الـدُّمـوعِ على اكتئابٍ ... أحـلَّ الـدهـر مـوجَعَـهُ الضلـوعـا
تـرقـرق أسحمـاً دَرَراً وسكبـاً ... يشبّـه سحّهـا غـربـاً هَمـوعـا
لفقـدانِ الخضـارمِ مـن قـريـشٍ ... وخيـرِ الشـافعيـن معـاً شفيعـا
لدى الرحمن يصدعُ بالمثاني ... وكـان لـه أبـو حسـنٍ قَـريعـا
حَطـوطـاً فـي مسـرّتـه ومـولـى ... إلـى مـرضـاة خـالقِـهِ سـريعـا
وأصفـاه النبـيُّ علـى اختيـارٍ ... بمـا أعيـا الـرفـوض لـه المـذيعـا
ويـوم الـدوحِ دَوحِ غـديـرِ خـمٍّ ... أبـان لـه الـولايـةَ لـو أُطيعـا
ولكـنَّ الـرجـالَ تبـايعـوهـا ... فلـم أرَ مثلهـا خَطَـراً مبيعـا
فلـم أبلـغْ بهـا لعنـاً ولكـنْ ... أسـاءَ بـذاك أوّلُهـم صنيعـا
فصـار بـذاك أقـربَهـم لعـدلٍ ... إلـى جـورٍ وأحفظهـم مضيعـا
أضـاعـوا أمرَ قـائِـدهـم فضلّـوا ... وأقـومهـم لـدى الحـدثـانِ ريعـا
تنـاسَـوا حقّـه وبَغَـوا عليـه ... بـلا تِـرةٍ وكـان لهـم قـريعـا
فقـلِ لبنـي أميّـة حيـثُ حَلُّـوا ... وإن خفـتَ المُهنّـد والقطيعـا
ألا أُفٌّ لـدهـرٍ كنـتُ فيـه ... هـدانـا طـائعـاً لكـمُ مُطيعـا
أجـاع الله مـن أشبعتمـوهُ ... وأشبـع مـن بجـوركُـمُ أُجيعـا
ويلعـنُ فَـذَّ أمّتـه جهـاراً ... إذا سـاسَ البـريّـة والخليعـا
بمـرضـيِّ السيـاسـةِ هـاشمـيٌّ ... يكـون حَيـاً لأمّتـه ربيعـا
وليثـاً فـي المشـاهـد غيـر نكْـسٍ ... لتقـويـمِ البـريّـةِ مستطيعـا
يُقيـم أمـورهـا ويـذبُّ عنهـا ... ويتـرك جـدبَهـا أبـداً مَـريعـا . . .(١)

---

(١) نفسه، ص ٢٦٥ و٢٦٦.

يمتري الدّموعا: يجعل العين تذرف الدمع. جذل: فرح. توكاف الدمع: ذرفه. رقرقت العين: أجرت دمعها. الاسحم: السحاب. يقال: اسحمت السما: صبّت ماءها. السحّ: الصبّ، الغرب: الدّلو العظيمة. الهموع: السيّال القريع: السيّد، الرئيس.

□ عليٌّ أميرُ المؤمنينَ وحقُّهُ ... من اللهِ مفروضٌ على كلِّ مسلمِ
وأنَّ رسولَ اللهِ أوصى بحقِّهِ ... وأشركه في كلِّ حقٍّ مقسَّمِ
وزوّجهُ صدّيقةً لم يكنْ لها ... مُعادلةٌ غيرُ البتولة مريمِ
وردّم أبوابَ الذين بنى لهمْ ... بيوتاً سوى أبوابه لم يُرَدَّمِ
وأوجبَ يوماً بالغدير ولايةً ... على كلِّ برٍّ من فصيحٍ وأعجمِ[1]

* * *

(١) نفسه، ص ٢٨٦.

(٧)
السَّيِّد الحميري، إسماعيل بن محمد
(١٠٥ ـ ١٧٣هـ)

شيء من سيرته وصفاته

تذكر كتب تاريخ الأدب أنَّ «السَّيِّد» لقبٌ عُرف به إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة (مفرِّغ)، أو ابن مفرِّغ، الحميري، ويكنّى بأبي هاشم. ويزيد بن ربيعة هذا هو الشاعر المشهور الذي هجا زياد ابن أبيه وبنيه ونفاهم عن آل حرب، وحبسه عبيدالله بن زياد لذلك وعذّبه[١]. وينسبه المرزباني إلى يزيد بن وداع، ويقول: إن أمَّه هي ابنة يزيد بن ربيعة... الشاعر المعروف، وقال في كتاب «أخبار الحميري»: «أمه من «حُدَّان»، تزوج بها أبوه لأنه كان نازلاً فيهم، وأمُّه هذه المرأة بنت يزيد بن ربيعة بن مفرِّغ الحميري، الشاعر المعروف، وليس ليزيد بن مفرِّغ عقب من ولد ذكر، ولقد غلط الأصمعي في نسبة السيِّد إلى يزيد بن مفرِّغ من جهة أبيه لأنّه جدُّه من جهة أمّه»[٢]. لكنَّ السيِّد نفسه ينسب نفسه إلى حمير حين يقول في قصيدة:

إنـي امـرؤٌ حِمْيـريٌّ حين تَنْسبني ... جدِّي رعينٌ، وأخوالي ذَوُوَ يَزَنِ[٣]

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، بيروت: دار الثقافة، ٧/ ٢٢٤.

(٢) الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية: ٢/ ٣٣٢، حُدَّان: إحدى محال البصرة القديمة.

(٣) راجع: الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٥٥. وجاء فيه:

إن تسألينـي بقومـي تسألـي رجلاً ... في ذروة العزِّ من أحياء ذي يمن
حولـي بهـا ذو كـلاع فـي منازلهـا ... وذو رعين وهمدان وذو يزن

ذو رعين: أحد ملوك اليمن الأول. ذو الكلاع: من سادة اليمن. ذو يزن: ملك من ملوك حمير. همدان: همدان بن مالك بن زيد... تنسب إليه قبيلة همدان.

وأيّاً يكن الأمر فالسيِّد، سواء انتسب إلى ابن مفرِّغ من جهة أبيه أم من جهة أمّه، فإنه ينتمي إلى شاعرٍ كبير جريء ذي موقف انتقادي، هجا زياداً وبنيه من دون أن يرهبه بطشهم، ولعلَّه كان لهذا الانتماء دور في تكوين شخصيَّته على مستويَيْ الملكة الشعريّة، واتخاذ الموقف المستقلّ النّقدي.

ولد السيِّد الحميري سنة ١٠٥هـ في عُمان. ونشأ في البصرة في حضانة والديه الإباضيَّين (الإباضية: أصحاب عبدالله بن إباض، وهي فرقة من الخوارج). ثم غادر البصرة إلى الكوفة، وأخذ فيها الحديث عن الأعمش (وهو سليمان بن مهران، مولى بني كامل الكوفي الإمام. كان ثقة عالماً فاضلاً)، وعاش متردّداً بين المدينتين، إلى أن أقام في أواخر حياته، في بغداد، وتوفي فيها، في محلَّة الرميلة، سنة ١٧٣هـ، في خلافة هارون الرشيد.

كان السيِّد الحميري أسمر، تامَّ القامة، أشنب، ذا وفرةٍ، جميل الوجه، رحيب الجبهة، عريض ما بين السالفتين، حسن الألفاظ، جميل الخطاب، إذا تحدَّث في مجلس قومٍ أعطى كلَّ رجلٍ في المجلس نصيبه من حديثه(١).

شيعيٌّ من أبويين خارجيَّين

نشأ السيِّد في حضانة أبوين خارجيَّين، إباضيَّين، غير أنه كان يمتلك، منذ يفاعته، قدرة على تحصيل المعرفة والفهم والتمييز، واتخاذ الموقف، فاختار الولاء لآل البيت، وقال في تلك القصيدة التي عرَّف فيها بنفسه:

... ثم الولاء الذي أرجو النجاة به   يوم القيامة للهادي أبي الحسن(٢)

ويروي أبو الفرج الأصفهاني عن إسماعيل بن الساحر، راوية السيِّد، «أنَّ أبوَي السيِّد كانا إباضيَّين، وكان منزلهما بالبصرة في غرفة بني ضبّة، وكان السيِّد يقول: طالما سُبَّ أمير المؤمنين في هذه الغرفة، فإذا سئل عن التشيُّع من أين

(١) نفسه، ٧/ ٢٦٧ و٢٦٨ و٢٢٦، الغدير، م.س.، ٢/ ٣٨٤ و٣٨٥.
(٢) نفسه، ٧/ ٢٥٥ و٢٥٦.

وقع له، قال: غاصت عليّ الرحمة غوصاً». وتضيف رواية أخرى: «... فاستنقذتني».

وروي عن السيِّد أن أبويه لمّا علما بمذهبه همّا بقتله، فأتى عقبةَ بن مسلم الهُنائي، فأخبره بذلك، فأجاره وبوّأه منزلاً وهبه له، فكان فيه حتى ماتا، فورثهما[1].

ويبدو، من قراءة الأخبار المرويّة عن علاقته بأبويه، أنّه ضاق، وهو صبيٌّ بمثابرتهما على شتم الإمام علي عليه السلام، وعمل على معرفة حقائق الأمور، ولما حصَّل تلك المعرفة اختار مذهبه، وأخذ يناقش أبويه، لعلَّه يصل وإيّاهما إلى تفاهم ما، واقترح عليهما، في آخر الأمر بأن يحفظ كلٌّ طرف حقَّ الآخر. يتجنَّبان ذكر أمير المؤمنين بسوء إذا حضر، ويحفظ حقَّهما الأبوي فلا يقابلهما بقول أو فعل، كرهاً منه لعقوقهما، لكنَّهما تماديا في موقفهما، فاضطر إلى حسم الأمر ومفارقتهما، والروايات التي تفيد ذلك كثيرة نذكر منها:

□ شكا السيِّد أنَّ أمّه كانت توقظه بالليل وتقول: إنّي أخاف أن تموت على مذهبك فتدخل النار؛ فقد لَهِجتَ بعليٍّ وولده فلا دنيا ولا آخرة. وقال: لقد نغّصَتْ عليَّ مطعمي ومشربي، فتركت الدخول إليها، وقلت أنشد قصيدة منها:

إلى أهل بيتٍ ما لِمنْ كان مؤمناً ... من الناسِ عنهمْ في الولايةِ مذهبُ
وكم من شقيقٍ لامني في هَواهمُ ... وعاذلةٍ هبّتْ بليلٍ تؤنِّبُ
تقول، ولم تقصد، وتعتب ضلّةً ... وآفةُ أخلاقِ النساءِ التعتّبُ
وفارقت جيراناً وأهلَ مودّةٍ ... ومن أنت منه حينَ تدعى وتُنسبُ
فأنت غريبٌ فيهمُ متباعدٌ ... كأنّك ممّا يتّقونكَ أجربُ
تَعيبُهمُ في دينهمْ وهُمُ بما ... تدينُ به أزرى عليك وأعيبُ
فقلتُ: دعيني لن أُحبِّر مِدحةً ... لغيرهمُ ما حجَّ للهِ اركبُ

(١) نفسه، ٧/ ٢٢٥.

أَتَنْهَيْنَني عن حبِّ آل محمدٍ ... وحبُّهـمُ ممّـا بـه أتقـرَّبُ
وحبّهـمُ مثـلُ الصـلاة وإنّـه ... على الناس من بعد الصلاة لأوجبُ

□ قـالت العبّاسـة بنت السيِّد: قال لي أبي: كنت وأنا صبيٌّ أسمع أَبَويَّ يَثلبانِ أمير المؤمنين عليه السلام فأَخرجُ عنهما وأبقى جائعاً، وأُوثر ذلك على الرجوع إليهمـا، فـأبيت فـي المسـاجـد جـائـعاً لحبّي فراقهما وبغضي إيّاهما، حتى إذا أَجهدني الجوع رجعـتُ فـأكلتُ ثـمَّ خـرجتُ، فلمّا كبُرتُ قليلاً وعقلت وبدأت أقول الشعر قلت لأبويَّ: إنَّ لي عليكما حقّاً يصغُر عند حقِّكما عليَّ، فجنِّباني إذا حضرتُكما ذِكر أمير المؤمنين عليه السلام بسوء، فإنَّ ذلك يزعجني وأَكرهُ عقوقكما بمقابلتكما، فتماديا في غيِّهما فانتقلت عنهما، وكتبت إليهما شعراً وهو: (محمد المنادى في البيت الأول هو والده).

خفْ، يا محمدُ، فالقَ الإصباحِ ... وأَزل فسـاد الـديـن بـالإصـلاحِ
أَتسـبُّ صنـوَ محمـدٍ ووصيَّـهُ ... تـرجـو بـذلـك فـوزة الإنجـاحِ؟
هيهـات قـد بَعُـدا عليـك وقـرّبـا ... منـك العـذاب وقـابـضَ الأرواحِ
أوصـى النبـيُّ لـه بخيـرِ وصيـّةٍ ... يـومَ الغـديـرِ بِـأَبيَنِ الإفصـاحِ...

فتواعدني بالقتل، فأتيت الأمير عُقبة بن سَلْم فأخبرته خبري، فقال لي: لا تـقربْهمـا، وأعـدَّ لـي منزلاً أمرَ لي فيه بما أحتاج إليه، وأجرى عليَّ جراية تَفْضُل على مؤونتي.

وتـفاقـم الأمـر، فسمـع أبويه يسبّان الإمام عليّاً عليه السلام بعد صلاة الفجر، فقال:

لعـن اللهُ والـديَّ جميعـاً ... ثـمَّ أصـلاهمـا عـذابَ الجحيـمِ
حَكمـا غَـدوةً كمـا صلّيـا الفجـ ... ـرَ بِلَعْـنِ الـوصـيِّ بـابِ العلـومِ
لعنا خيرَ من مشى فوق ظهر الـ ... أرضِ أو طـافَ مُحـرِمـاً بـالحَطيـمِ
كَفَـرا عنـد شَتْـمِ آل رسـول الـ ... ـلّـهِ نسـلِ المُهـذَّبِ المعصـومِ
والـوصـيُّ الـذي بـه تثبـتُ الأر ... ضُ، ولـولاه دُكـدِكَـتْ كـالـرَّميـمِ

وكـذا آلُـهُ أولـو العلـمِ والفهـ ـــمِ هـداةٌ إلـى الصـراط القـويـمِ
خلفـاء الإلـه فـي الخَلْـقِ بـالعـد ل وبـالقسـط عنـد ظُلْـم الظلـوم
صلـوات الإلـه تتـرى عليهـمْ مُقـرنـات بـالـرَّحـب والتسليـم(١)

اختار السيِّد مذهبه، وفارق أبويه، بعد أن تعذَّر الوصول معهما إلى تفاهم يقضي، على الأقلّ، بأن يقرّا بحقِّه في الاختلاف، وقد تحدَّث عن اختياره المبكر غير مرة، فقال، على سبيل المثال، للخليفة العباسيّ لمَّا شكَّك قاضي البصرة سوّار بن عبدالله العنبري في ولائه، متحدثاً عن هذا الولاء: «والله. . . ، ما وجدت أبوي عليه فافتتنت بهما، وما زلت مشهوراً بموالاتكم في أيام عدوكم»(٢).

وقد كان إيمانه عميقاً ملك عليه كيانه، فنذر نفسه وشعره لنصرة محمد ﷺ وآله عليهم السلام، فمما يروى أنه غادر مجلساً خاض فيه أصحابه في ذكر الزرع والنخل ساعة، وقال:

إنِّـي لأكـره أن أُطيـل بمجلـسٍ لا ذكـر فيـه لفضـل آل محمّـد(٣)

كيسانيٌّ، ثمَّ إماميّ

كان السَّيد الحميري، في أوَّل أمره، كَيْسَانيّاً، يقول بإمامة محمد بن علي ابن أبي طالب، المعروف بمحمّد بن الحنفيّة، ولمّا التقى الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام بمكة أيام الحج، وناظره رجع عن ذلك، واستغفر الله، ودان بالإمامة.

ويتحدث السيِّد محسن الأمين عن ذلك بشيءٍ من التفصيل(٤)، فيقول:

«الكيسانية هم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية، وأنه المهدي المنتظر، وإنه حيٌّ في جبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه، وعنده عينان يجريان بماء

(١) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٣٤ـ٣٣٦.
(٢) الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٥٢ و٢٥٣.
(٣) نفسه، ٧/ ٢٥٧.
(٤) راجع: السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، بيروت: دار التعارف، المجلد الثالث، ص٤٠٩ـ٤١١.

وعسل، وإنه يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهم منسوبون إلى كيسان وهو لقب المختار بن عبيدالله الثقفي الذي دعا إلى محمد بن الحنفية وطلب بثأر الحسين عليه السلام وقيل: إن كيسان اسم صاحب شرطة المختار، ويكنّى بأبي عمرة، وقيل إن كيسان هو مولى أمير المؤمنين، وهو الذي حمل المختار على الطلب بدم الحسين عليه السلام السِّبط، ودلَّ على قتلته، وكان صاحب سرّه، والغالب على أمره[1].

ويضيف السيد الأمين فيقول: وكان السيد الحميري يرى، في أول أمره، رأي الكيسانية وفي ذلك يقول:

ألا قُلْ للوصي: فَدتْك نفسي ... أَطَلْتَ بذلك الجبل المُقَاما
أضرَّ بمعشرٍ والوك منا ... وسمّوك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طُرّاً ... مقامكِ عنهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ... ولا وارت له أرضٌ عظاما
لقد أوفى بمورق شعب رضوى ... تُرَاجِعه الملائكةُ الكلاما

وفي الأغاني[2]، بسنده عن أبي داود سليمان بن سفيان المعروف بالمسترق راوية السيد الحميري، أنه حضر يوماً وقد ناظر السيد محمد بن علي بن النعمان، المعروف بشيطان الطاق، في الإمامة، فغلبه محمد في دفع ابن الحنفية عن الإمامة، فقال السيد:

ألا، يا أيّها الجَدِلُ، المعنيّ ... لنا، ما نحن وَيْحَك والعناءُ!
أتُبْصِرُ ما تقول، وأنت كهلٌ ... تُراك عليك من ورع رِداءُ
ألا إنَّ الأئمّة من قريشٍ ... ولاةُ الحقِّ أربعةٌ سَوَاءُ

(١) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٥٠، هامش ـ ١.

(٢) راجع: الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٣٨ و٢٣٩. ألثَّ المطر الثاثاً: دام أياماً. ارتجز الرَّعد: تتابع صوته. الـرّواء: الكثير المروي. العزالى: جمع عزلاء، وهي مصب الماء من القربة، يشبه تدفق المطر بتدافعه من مصب القربة.

عليّ والثلاثةُ من بنيه ... هُمُ أسْبَاطُهُ والأوصياءُ
... فسِبْط سِبْطُ إيمانٍ وحلم ... وسبطٌ غيَّبته كربلاءُ
سَقَى جَدَثاً تضمَّنَهُ مُلِثّ ... هُتُوفُ الرَّعد مرتَجزٌ رَواءُ
تَظَلُّ مُظِلَّةٌ منها عَزالٍ ... عليه، وتغتدي أخرى مِلاءُ
وسبطٌ لا يذوق الموتَ حتى ... يقودَ الخيلَ يقدمها اللواءُ
من البيتِ المحجَّب في سراةٍ ... شُراةٍ لفَّ بينهم الإخاءُ
عصائبُ ليس دون أغرَّ أجلى ... بمكة قائمٍ لهم انتهاء

وكان السيِّد إذا سئل عن مذهبه أنشد:

سميّ نبيِّنا لم يبق منهم ... سواه، فعنده حصل الرَّجاءُ
تغيّب غيبةً من غير موت ... ولا قتلٍ، وسار به القضاء...
كأنّا بابن خولة عن قريب ... وربُّ العرش يفعل ما يشاءُ

وقال المرزباني، في النبذة المختارة من تلخيص أخبار شعراء الشيعة: كان السيد، رحمه الله، يرى رأي الكيسانية في محمد بن الحنفية، وهو القائل من أبيات: «وما ذاق ابن خولة طعم موت»، وذكر الأبيات الثلاثة المتقدمة، وقال إنّه تاب بعد ذلك، وقال:

تجَعْفرتُ باسم الله، والله أكبر ... وأيْقَنْتُ أنَّ الله يعفو ويغفر
ودنتُ بدين غير ما كنت دائناً ... به، ونهاني سيِّدُ الناس جعفر

والأبيات مشهورة، وتمامها، كما في المناقب وغيرها:

فقلتُ: فهبني قد تهوَّدْتُ برهةً ... وإلاّ فديني دينُ من يتنصَّر
فإنّي إلى الرحمن من ذاك تائبٌ ... وإنّي قد أسلمتُ، والله أكبر
فلستُ بعاد ما حييت وراجعاً ... إلى ما عليه كنتُ أخفي وأضمر
ولا قائلاً قولاً بكيسان بعدها ... وإن عاب جُهَّال معاباً وأكثروا
ولكنه مما مضى لسبيله ... على أحسن الحالات يُقْفى ويؤثر

قال المرزباني: وقال السيد: كان أبو بجير، وهو عبدالله بن النجاشي بن غنيم بن سمعان بن سماك الأسدي والي الأهواز للمنصور، يرى رأي الإمامية وكنت أرى رأي الكيسانية، فكان يعيبني ويناظرني، ولما رجعت إلى مذهب الإمامية، اجتمعت به فأخذ يناظرني على ما كنت عليه فعرفته أني رجعت وأنشدته:

أيا راكباً نَحْوَ المدينة جَسْرةً ... عُذافِرةً يطوي بها كلَّ سَبْسَبِ
إذا ما هَدَاكَ الله عايَنْت جعفراً ... فقل لأمينِ الله وابن المهذَّب:
إليكَ رَدَدْتُ الأمر غير مخالف ... وفِئْتُ إلى الرحمن من كلِّ مذهب
سوى ما تراه، يا ابن بنت محمد ... فإن به عقدي وزلفى تقربي
وما كان قولي في ابن خولة مطنباً ... معاندة مني لنسل المطيب
ولكن رَوَيْنا عن وصيّ محمدٍ ... وما كان في ما قال بالمتكذّب
بأنّ ولي الأمر يفقد لا يُرى ... سنين كفعل الخائفِ المترقّب
ويمكثُ حيناً ثم يُشرقُ شخصه ... مضيئاً بنور العدل إشراقَ كوكب
فلما رأوا أنّ ابن خولة غائبٌ ... صَرَفْنا إليه قَولَنا لم نكْذِب
فإذ قلت: لا، فالقول قولك ما على ... رضاك بدين الحقِّ من متعتب
وأشهد ربّي أنَّ قولك حُجَّةٌ ... على الخلقِ طُرّاً من مطيع ومذنب
بأنَّ ولي الأمر أوّلُ قائم ... سيظهر أخرى الدهر بعد ترقّب
بذاك أدين الله سرّاً وجهرة ... ولست، وإن عوتبت، فيه بمعتب[1]

قال: فسجد أبو بجير، وقال: الحمد لله الذي لم يذهب بك باطلاً، ثم أمر لي بمال جزيل ورقيق وكراع. قال: ومما روي في رجوعه قوله:

صحَّ قولي بالإمامة ... وتعجَّلت السَّلامه
وأزال الله عني ... إذ تجعفرت الملامه

(١) راجع: نفسه، ٧/ ٢٢٥ و٢٢٦. الجَسْرة: العظيمة من الإبل. العذافرة: الشديدة منها. الشَّنب: البياض والبريق والتحديد في الأسنان. الوفرة: ما جاوز شحمة الأذنين من الشعر.

قلــت مــن بعــد حسيــن بعلــي ذي العــلامــه
أصبـــح السجـــاد للـ إســلام والــديــن دعــامــه
قــد أرانــي الله أمــراً أســأل الله تمــامــه
كــي ألاقيــه بــه فــي وقــت أهــوال القيــامــه

وفي إرشاد المفيد أن السيد إسماعيل بن محمد الحميري رجع عن مذهب الكيسانية لمّا بلغه إنكار أبي عبدالله، الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله ودعاؤه إلى القول بنظام الإمامة، وقال يمدحه، وذكر الأبيات.

قال: وفي هذا الشعر دليل على رجوع السيد عن مذهب الكيسانية وقوله بإمامة الصادق عليه السلام.

في الأغاني[1]، بسنده عن مسعود بن بشر، أن جماعة تذاكروا أمر السيد وأنه رجع عن مذهبه في ابن الحنفية، وقال بإمامة جعفر بن محمد، فقال إسماعيل بن الساحر راويته: والله ما رجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة له قيلت بعده، وآخر عهدي به قبل موته بثلاث، وقد سمع رجلاً يروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: سيولد لك بعدي ولد وقد نحلته اسمي وكنيتي، فقال في ذلك، وهي آخر قصيدة قالها:

أشَـاقَتْـكَ المنـازلُ بَعْـدَ هنـدِ وتِـربَيْهـا وذَاتِ الـدَّلِّ دَعْـدِ
ألَـمْ يَبْلغْـك والأنبـاءُ تَنمـي مَقَـالُ مُحَمَّـد فـي مـا يُـؤدِّي
إلـى ذي علمـه الهـادي علـي وخَـوْلـةُ خـادِمٌ فـي البيـت تَـرْدِي
ألـم تـر أنّ خـولـة سوف تـأتـي بـواري الزَّنـد صافـي الخِيْـم نَجْـد
يَفُـوزُ بكنيتـي واسمـي لأنـي نحلتُهُمَـاهُ، والمهـدي بعـدي
يُغَيَّـبُ عنهـم حتـى يقـولـوا تضمَّنَـه بطيبـة بطـنُ لَحْـدِ
سنينَ وأشهراً أو يُرَى برَضْوى بشِعْـبٍ بيـن أنمـار وأسـد...

(١) راجع، تفصيل في هذه الأخبار، نفسه، ٧/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

إلى أن قال: وكان يذهب مذهب الكيسانية، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية، وله في ذلك شعر كثير، وقد روى بعض من لم تصح روايته أنه رجع عن مذهبه وقال بمذهب الإمامية، وله في ذلك:

تَجَعْفَرْتُ باسم الله، والله أكبر ۞ وأيقَنْتُ أنَّ الله يعفو ويغفر

وما وجدنا ذلك في رواية محصل، ولا شعره أيضاً من هذا الجنس ولا في هذا المذهب، لأن هذا شعر ضعيف يتبيَّن التوليد فيه، وشعره في قصائده الكيسانية مباين لهذا جزالة ومتانة وله رونق ومعنى ليسا لما يذكر عنه في غيره. وروي في الأغاني عن أبي داود سليمان بن سفيان المعروف بالمسترق، راوية السيد الحميري، قال: ما مضى والله إلا على مذهب الكيسانية، وهذه القصائد التي يقولها الناس مثل: تجعفرت باسم الله والله أكبر. تجعفر باسم الله في من تجعفرا، وقوله:

أيا راكباً نحو المدينة جسرة ۞ عذافرة يهوي بها كل سبسب

إذا ما هداك الله لاقيت جعفراً ۞ فقل يا أمين الله وابن المهذب

لغلام للسيد يقال له قاسم الخياط، قالها ونحلها السيد وجازت على كثير من الناس ممن لم يعرف خبرها بمحل قاسم منه وخدمته إياه. ويقول السيِّد الأمين في الردّ على ذلك: «الروايات متكثرة في رجوعه وترحّم الصادق عليه، فلا يلتفت إلى ما ذكر، ودعوى أن شعره في الكيسانية أقوى وأمتن من شعره المنسوب إليه في رجوعه غير مسلمة، فإن شعره تغلب عليه السهولة والسلاسة ممَّا قد يظن أنه ركة وضعف. ويأتي في أخباره مع سوار القاضي تصريح سوار بأنه كان كيسانياً، فصار إمامياً واعتراف السيد بذلك.

ويقول الشيخ الأميني: «ولعبدالله بن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦هـ) وشيخ الأمة الصدوق (المتوفى سنة ٣٨١هـ) والحافظ المرزباني (المتوفى ٣٨٤هـ)، وشيخنا المفيد (المتوفى ٤١٣هـ) وأبي عمرو الكشي والسروي (المتوفى سنة ٥٨٨هـ) والإربلي (المتوفى ٦٩٢هـ)، وغيرهم حول مذهبه كلمات ضافية».

ويعرض الشيخ الأميني ما قاله هؤلاء، وجميعه يفيد أن السيِّد كان يقول بالكيسانية، ثم، وبعد أن اتضح الحق له، بعد لقاء الإمام الصادق عليه السلام، دان بالإمامة[1]. وتفيد غير رواية أن الإمام الصادق عليه السلام أُنشد شعر السيِّد غير مرة فقال في إحداها: «رحمه الله، فما ذنبٌ على الله أن يغفره لآل علي، إن محب علي لا تزلُّ له قدم إلا تثبت له أخرى»، وقال في أخرى: «يلحق مثله التوبة، ولا يكبر على الله أن يغفر الذنوب لمحبنا ومادحنا». ويروى عن الإمام علي الرضا عليه السلام أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله في منامه، ورأى السيد ينشده عينيَّته التي يقول فيها:

قالوا له: لو شئت أعلمتنا إلى من الغاية والمفزع

وسمع النبي صلى الله عليه وآله يقول له: يا علي بن موسى، احفظ هذه القصيدة، ومر شيعتنا بحفظها، وأعلمهم أن من حفظها وأدمن قراءتها ضمنت له الجنة على الله تعالى[2].

افتراء القول بالتّناسخ والحلول...

مناقشة الدكتور طه حسين

وذكر الدكتور طه حسين، في كتابه: «تجديد ذكرى أبي العلاء»، «التناسخ»، وقال: «إنه معروف عند العرب منذ أواخر القرن الأول، والشِّيعة تدين به وببعض المذاهب التي تقرب منه كالحلول والرجعة، وليس بين أهل الأدب من يجهل ما كان من سخافات السيد الحميري وكُثيِّر في ذلك».

يناقش السيد الأمين هذا الرأي فيقول: «والعجيب من ابن آدم أنه يتكلم في كل شيء ممّا يعلم ومما لا يعلم، ويقوده التقليد إلى خبط عشواء. عرفنا تعصُّب المتعصِّبين على الشيعة من مُظهري النسك والدين ـ وهو منهم بريء ـ ممن لا يشبهون الدكتور في جميع أمورهم وحالاتهم لأمور ألفوها وعقائد تلقَّفوها من

(١) راجع: الغدير، م.س.، ٢/ ٣٥٠ـ ٣٦٠.
(٢) راجع في تفصيل هذه الأخبار: نفسه، ٢/٣١٨ و٣١٩ و٣٢٢.

دون تحقيق ولا تمحيص أو مشياً مع الأهواء. أما أن يصدر مثل ذلك من مثل الدكتور طه حسين، من البعيدين عن حالات أولئك كل البعد وليسوا من مسلكهم في خل ولا خمر، فهو أمر يحق أن يعجب منه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: هيهات لقد حن قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. متى سمع الدكتور طه حسين شيعياً، أو رأى في كتاب للشيعة، أو قرأ له قارئ في كتبهم، أن الشيعة تدين بالتناسخ أو بالحلول؟ بل متى رأى ذلك لعالم من أهل السنة منصف متحرٍ لحقائق الأمور؟ اللهم لا. ومن قال: نعم، فقد أبطل وأفتى، بلى يجوز أن يكون قرأ ذلك في كتاب بعض المتعصِّبين الذين لا يبالون أن يلصقوا بالشيعة كل نقص كذباً وزوراً. فالشيعة، في كل عصر وزمان، وفي كل قطر ومصر ومكان، تَبرأ إلى الله ممن يقول بالتناسخ أو الحلول وتكفّره وتعتبره خارجاً عن دين الإسلام. وإن تعجب فعجب أن يكون أمثال الدكتور طه حسين ممن يريد تحرِّي الحقيقة يلقي كلاماً لا نصيب له في الصدق، تقليداً لمن لا خلاق لهم، ويرسله إرسال المسلّمات. أما قوله: وليس بين أهل الأدب من يجهل ما كان من سخافات السيد الحميري وكثيِّر، فنقول: ليس بين أهل العقل، فضلاً عن أهل الأدب، من يجهل أن نسبة السخافة إلى السيد الحميري وكثيِّر من أسخف السخافات، فالسيد الحميري نادرة من نوادر الدهر في علمه وفضله وشعره...»[(1)].

وناقش الشيخ الأميني ما ذهب إليه طه حسين. فقال: «كنت لا أعجب لو كان هذا العزو المُختلف صادراً ممَّن تقدَّم طه حسين من بسطاء الأعصر الخرافيّة الذين قالوا وهم لا يشعرون، وجمعوا من غير تمييز، وألّفوا لا عن تنقيب، وعزوا من دون دراية. لكن عجبي من مثل هذا الذي يرى نفسه منقِّباً، ويحسبه فذّاً من أفذاذ هذا العصر الذهبيّ، عصر النور، عصر البحث والتنقيب الذي مُني بمثل هذا الدكتور وأمثاله من جمال مستنوقة يُسرّون حَسْواً في ارتغاء، يريدون أن يفخِّذوا أمّةً كبيرةً تُعدُّ بالملايين عن الأمّة الإسلاميّة بنسبة الإلحاد إليهم من تناسخ

(1) أعيان، م.س.، ص ٤١١ و٤١٢.

وحلـول، فيلعن هـؤلاء أولئـك لاعتقادهم بكفرهم، ويغضب أولئك على هؤلاء عندما يقفون على مثـل هـذا الإفـك الشائن، فيقع ما لا تحمد مغبّته من شقّ العصا وتفريق الكلمة، وذلك مُنية من قيّض طه حسين لمثل هذه المعرّة وأثابه عليها.

ألـم يسـائـل هـذا الرجل باحثٌ عن مصدر هاتين الفريَتين؟ هل قرأهما في كتاب من كتب الشيعة؟ أم سمعهما من شيعيّ؟ أو بلغه الخبر عن عالم من علماء الإماميّة؟ وهؤلاء الشيعة وكتبهم منذ العصور المتقادمة حتى اليوم تحكم بكفر من يقول بالتناسخ والحلول وتدين بالبراءة منه، فهلاّ راجع الدكتور هاتيك الكتب قبل أن يرمي لا عن سَدَد؟ نعم سبقه في نسبة التناسخ إلى السيّد، ابن حزم الأندلسي في الفِصَل. وأمّا القول بالرجعة فليس من سنخ القول بالتناسخ والحلول، وقد نطق بها الكتاب والسنّة، كما فُصِّل في طيّات الكتب الكلاميّة وتضمّنته التآليف التي أفردها أعلام الإماميّة فيها، وقد عرف من وقف على أخبار السيّد وشعره وحجاجه براءته من كلّ ما نبذه به من سخافة، إن لم يكن الدكتور ممّن يرى أنّ التهالك في موالاة أهل البيت ومودتهم ومدحهم والذبّ عنهم سخافة»[1].

يختار مذهبه عن بصيرةٍ، ويرتضي الآخر

كان السيّد الحميري على بصيرةٍ من أمره، وقد مرَّ بنا أنّه اختار مذهبه ولم يـرثـه، وعـانـى بسبب هـذا الاختيـار الكثير، فكاد أبواه يقتلانه، لكنّه مضى في سبيله، يعقل الأمور ويفهمها، ويناقش، ويقتنع إن اتّضح له الحق، كما فعل بعد أن التقى الإمـام جعفـر الصّـادق عليه السلام ويجادل الآخرين ببيّنات تدلُّ على ثقافة واسعـة وحسن تدبّر. علاوة على أنه كان، وعلى عكس ما يشاع عنه، مقبلاً على الحوار، مرتضياً الآخر، ويمكن للباحث في سيرته وشعره أن يجد نماذج كثيرة تؤيّد ما نذهب إليه، وفي ما يأتي بعض هذه النماذج نقدّمها على سبيل المثال:

---

(١) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢. جمال مستنوقة: مثل يضرب لمن يكون في حديث ثم ينتقل إلى غيره ويخلطه فيه. «يسرُّه حسوا في ارتغاء»: مثل يضرب لمن يريك أنه يعينك وإنما يجرُّ النفع إلى نفسه.

□ شهد السيِّد عند سوّار القاضي بشهادة، فقال له: ألست إسماعيل بن محمد الذي يُعرَفُ بالسيِّد؟ فقال: نعم. فقال له: كيف أَقدَمْتَ على الشهادة عندي، وأنا أعرف عداوتك للسَّلف؟ فقال السيِّد: قد أعاذني الله من عداوة أولياء الله، وإنّما هو شيء لزمني. ثمَّ نهض، فقال له: قم يا رافضيّ، فوالله ما شَهدتَ بحقّ. فخرج السيِّد رَحِمَهُ اللهُ وهو يقول:

أبـوك ابـن سـارق عَنْـزِ النبـيِّ وأنـت ابـن بنـت أبـي جَحْـدَرِ
ونحـن علـى رَغِمِـكَ الـرافضـو ن لأهـل الضـلالـة والمنكـرِ

ثمّ عمل شعراً وكتبه في رقعة وأَمَر من ألقاها في الرقاع بين يدي سَوّار.

قـال: فـأخذ الرقعة سوّار، فلما وقف عليها خرج إلى أبي جعفر المنصور وكان قد نزل الجسر الأكبر ليستعديَ على السيّد، فسبقه السيِّد إلى المنصور فأنشأ قصيدته التي يقول فيها:

يـا أميـنَ الله، يـا منـ ـصـورُ، يـا خَيـرَ الـوُلاةِ
إنّ سـوّارَ بـنَ عبـدِ اللّـ ـهِ مـن شـرّ القضـاةِ
نعثلـيٌّ جملـيٌّ لكـمُ غيـرُ مـواتِ
جـدّه سـارقُ عَنـزِ فجـرةً مـن فَجَـراتِ
لـرسـولِ الله والقـا ذِفُـهُ بـالمُنْكـراتِ
والـذي كـان يُنـادي مـن وراء الحُجُـراتِ:
يـا هنـاةُ اخـرج إلينـا إنّنـا أهـلُ هَنـاتِ
فـاكفنيـه لا كفـاهُ اللّـ ـهُ شـرَّ الطـارقـاتِ
سـنَّ فينـا سُنَنـاً كـا نـت مـواريـث الطّغـاة
فهجـونـاه ومـن يهجـو يُصِـب بـالفـاقـراتِ

قـال: فضحـك أبـو جعفـر المنصور، وقال: نصبتك قاضياً، فامدحه كما هجوته، فأنشد يقول:

آليـتُ لا أمـدح ذا نـائـل لـه سنـاء ولـه مفخـرُ. . .

وتروى أحداث كثيرة جرت بينه وبين سوّار منها أن سوّاراً سمعه ينشد المنصور، فقال: هذا.. يُعطيك بلسانه ما ليس في قلبه، والله إنَّ القوم الذين يدين بحبِّهم لغيرُكم، وإنّه لَيَنطوي في عداوتكم.

فقال السيِّد: والله إنَّه لكاذب وإنَّني في مديحكم لصادقٌ، ولكنَّه حمله الحسد إذ رآك على هذه الحال، وإنَّ انقطاعي ومودّتي لكم أهل البيت لعِرقٌ لي فيها عن أبويَّ، وإنَّ هذا وقومه لأعداؤكم في الجاهليّة والإسلام، وقد أنزل الله عز وجل على نبيِّه ـ عليه وآله السلام ـ في أهل بيت هذا ﴿إنَّ الّذين يُنادونَكَ من وراءِ الحُجُراتِ أكْثَرُهم لا يَعقِلون﴾ [سورة الحجرات/ ٤]. فقال المنصور: صدقت. فقال سوّار: يا أمير المؤمنين إنّه يقول بالرجعة، ويتناول الشيخين بالسبِّ والوقيعة فيهما. فقال السيّد: أمّا قوله: بأنّي أقول بالرجعة فإنَّ قولي في ذلك على ما قال الله تعالى: ﴿ويومَ نحشُرُ مِن كُلِّ أمّةٍ فوجاً ممّن يُكذِّبُ بآياتِنا فهم يوزَعون﴾ [النمل/ ٨٣]. وقد قال في موضع آخر: ﴿... وحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِر منهمْ أحداً﴾ [الكهف/ ٤٧]، فعلمت أنَّ هاهُنا حشرَين؛ أحدهما عامٌّ والآخر خاصٌّ. وقال سبحانه: ﴿ربَّنا أمَتَّنا اثنتينِ وأحْيَيْتَنا اثنتينِ فاعترَفْنا بذنُوبِنا فهل إلى خروجٍ من سبيل﴾ [غافر/ ١١]. وقال الله تعالى: ﴿فأماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَه﴾ [البقرة/ ٢٥٩]. وقال الله تعالى: ﴿ألم تَرَ إلى الّذين خَرجُوا مِن ديارِهم وهُمْ ألوفٌ حَذرَ الموتِ فقال لهم اللهُ موتوا ثُمَّ أحياهم﴾ [البقرة/ ٢٤٣].

فهذا كتاب الله عز وجل، وقد قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ المتكبِّرون في صُوَرِ الذرِّ يومَ القيامة»، وقال ﷺ: «لم يَجْرِ في بني إسرائيل شيءٌ إلاّ ويكون في أمّتي مثلُهُ حتى المسخُ والخَسْف والقذف»، وقال حذيفة: والله ما أبعد أن يمسخ الله كثيراً من هذه الأمّة قردةً وخنازير. فالرجعة التي نذهب إليها هي ما نطق به القرآن وجاءت به السنّة. وإنّني لأعتقد أنَّ الله تعالى يَرُدُّ هذا ـ يعني سوّاراً ـ إلى الدنيا كلباً أو قرداً أو خنزيراً أو ذرّةً، فإنّه والله متجبِّرٌ متكبِّرٌ كافرٌ.

قال: فضحك المنصور، وأنشد السيِّد يقول:

جـاثيـتُ سَـوّاراً أبـا شَمْلَـةٍ عنـد الإمـام الحـاكـم العـادلِ
فقـال قـولاً خطـأً كلّـه عنـد الـورى الحـافـي والنـاعـلِ .

قـال: فقال المنصـور: كُفَّ عنه. فقال السيِّد: يا أمير المؤمنين، البادي أظلم، يكُفّ عنّي حتى أكُفَّ عنه. فقال المنصور لسوّار: تكلّم بكلام فيه نصفةٌ، كُفَّ عنه حتى لا يهجوك.

وبلغ السيِّد أنَّ سوّاراً قد أعدَّ جماعة يشهدون عليه بسرقة ليقطعه، فشكاه إلى أبي جعفر، فدعا بسوّار، وقال له: قد عزلتك عن الحكم للسيِّد أو عليه، فما تعرَّض له بسوء حتى مات[1].

□ وقيـل: إنَّ السيِّـد حـجَّ أيام هشام بن عبد الملك فَلَقي الكميت فسلَّم عليه، وقال: أنت القائل:

ولا أقـولُ إذا لـم يُعطيـا فـدَكـاً بنـتَ الـرسـول ولا ميـراثـه كَفَـرا
الله يعلـمُ مـاذا يـأتيـانِ بـه يـومَ القيـامـة مـن عُـذرٍ إذا حضـرا

قال: نعم قلته تقيّة من بني أميّة، وفي مضمون قولي شهادةٌ عليهما أنّهما أخذا ما كان في يدها.

فقال السيِّد: لولا إقامة الحُجّة لوسِعَني السكوت، لقد ضَعُفتَ يا هذا عن الحقِّ. يقـول رسـول الله ﷺ: «فاطمـة بضعةٌ منّي يريبني ما رابها، وإنَّ الله يغضـب لغضبها ويرضى لرضاها»، فخالفت رسول الله ﷺ أقطَع فاطمة فَدَكاً فلم يحكما لها بذلك، والله تعالى يقول: ﴿يَرِثُني ويَرِثُ من آل يعقوب﴾. ويقول: ﴿وورِثَ سليمانُ داود﴾. وهم يجعلون سبب مصير الخلافة إليهم الصلاة وشهادة المرأة لأبيها؛ أنّ رسول الله ﷺ قال: «مروا فلاناً بالصلاة بالناس» فصُدِّقت

---

(١) راجع: الغدير، م.س.، ٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٩. قال الأستاذ العدوي في تعليقه على الأغاني: «نعثل، في الأصل، اسم رجل يهودي من أهل المدينة. وقيل نعثل رجل لحياني (طويل اللحية) من أهل مصر. كان يشبّه به عثمان (رض) إذا نيل منه». ينادي من وراء الحجرات: إشارة إلى نزول آية الحجرات في بني العنبر أجداد القاضي سوار. الفاقرة: الداهية الشديدة.

المرأة لأبيها ولا تصدّق فاطمة وعليٌّ والحسن والحسين وأمُّ أيمن في مثل فَدَك، وتُطالبُ مثل فاطمة بالبيِّنة على ما ادَّعت لأبيها، وتقول أنت مثل هذا القول.

وبعد: فما تقول في رجل حَلَف بالطلاق أنّ الذي طلبت فاطمة عليها السلام هو حقٌّ، وأنّ عليّاً والحسن والحسين وأمّ أيمن ما شهدوا إلاّ بحقّ، ما تقول في طلاقه؟ قال: ما عليه طلاق. قال: فإن حَلَف بالطلاق إنّهم قالوا غير الحقّ؟ قال: يقع الطلاق لأنّهم لم يقولوا إلاّ الحقّ. قال: فانظر في أمرك. فقال الكميت: أنا تائبٌ إلى الله ممّا قلت، وأنت يا أبا هاشم أعلم وأفقه منّا[1].

□ وهو ـ مع تضلّعه في علمَي الكتاب والسنّة ومعرفته بالحجج الدينيّة وبصيرته بمناهج الحِجَاج في المذهب وإقامة الحجّة على من يُضادُّه في المبدأ ـ كان له يدٌ غير قصيرة في التاريخ، وله كتاب تاريخ اليمن، ذكره له الصفدي في الوافي بالوفيات[2].

□ وفي شعره الطافح بمعاني الكتاب والسنّة شهادة صادقة على إحاطته بما فيها من مرامٍ وإشارات ونصوص وتصريحات. وكلّما ازدادت الفضيلة قوّةً والبرهان وضوحاً، وكانت الحجّة بالغة كان اعتناؤه بسرد القريض فيها أكثر كحديث الغدير والمنزلة والتطهير والراية والطير وأمثالها، ومنها: حديث العشيرة الوارد في قوله تعالى: ﴿وأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ في بدء الدعوة النبويّة، فقد أشار إليه في عدّة قصائد منها قوله:

بأبي أنت وأمّي ... يا أمير المؤمنينا
بأبي أنت وأُمّي ... وبرهطي أجمعينا
وبأهلي وبمالي ... وبناتي والبنينا
وفدتكَ النفسُ منّي ... يا إمامَ المتّقينا
وأمينَ الله والوا ... رثَ علم الأوّلينا

---

(١) نفسه، ٢/ ٣٩٠ و٣٩١.

(٢) نفسه.

ووصـــــيَّ المصطفـــــى أحمــدَ خيــرِ المــرسلينــا. . .

سيِّدُ الشُّعراء

يخصُّ آل محمد عليهم السلام بشعره

صـدر السيِّد في شعره عن إيمانه هذا، فخصَّ محمداً صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام بشعره، وكان يفخر بذلك، وخصوصاً بعدما سمَّاه الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام بسيِّـد الشعـراء. وكـان يـدرك أنـه مختلـف عـن محتـرفي المديح منهم. ومن الروايات التي تفيد ذلك نذكر:

رُوي أنَّ أبـا عبـدالله الإمـام الصـادق عليه السلام، لقـي السيِّـد بـن محمـد الحميري وقال: «سمّتك أمّك سيِّداً، وفِّقت في ذلك، وأنت سيّد الشعراء». ثمّ أنشد السيّد في ذلك:

ولقـد عجبـتُ لقـائـلٍ لـي مـرّةً عـلاّمــةٍ فَهِــمٍ مــن الفقهــاءِ
سمّاك قومك سيِّداً صدقوا به أنــت المــوفَّــقُ سيِّــدُ الشعــراءِ
مـا أنـت حيـن تَخُـصُّ آل محمـدٍ بـالمـدح منـك وشـاعـرٌ بسـواءِ
مَدَحَ الملوكَ ذوي الغنى لعطائِهِمْ والمـدحُ منـك لهـم بغيـر عَطـاءِ
فـابشـر فـإنَّـك فـائـزٌ فـي حُبِّهِـم لــو قــد وردتَ عليهــمُ بجــزاءِ
مـا يعـدِلُ الـدنيـا جميعـاً كلّهـا من حوض أحمدَ شربةً من ماءِ[1]

لم يمدح السيِّد الملوك والأمراء، ولم يهجُ إلاَّ مضطرّاً ووقف شعره على نصـره عقيـدتـه، وقـد سعـى إلـى جعل الشعراء يمضون في هذا الطريق. ومن الروايات التي تفيد ذلك نذكر:

وقف السيّد على بشَّار وهو يُنشد الشعر؛ فأقبل عليه وقال:

أيّهــا المــادحُ العبــادَ ليُعطـى إنّ لله مــــا بــــأيــــدي العبــــادِ

(١) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٣٣، أعيان، م.س.، ٤٠٦.

فـأسـأل اللهَ مـا طلبـتَ إليهـم　　　وأرْجُ نفـعَ المُنـزِّل العَـوّاد
لا تَقُلْ في الجَواد ما ليس فيه　　　وتُسمّي البخيـلَ بـاسـم الجَـواد

قـال بشّـار: مـن هـذا؟ فعرَّفَـه؛ فقال: لولا أن هذا الرجل قد شُغِل عنّا بمـدح بنـي هاشم لشغلنا، ولو شاركنا في مذهبنا لأتعبنا. ورُوي في هذا الخبر أنّ عِمران بن حطّان الشّارِي (الخارجي) خاطب الفرزدق بهذه المخاطبة وأجابه بهذا الجواب[1].

وقـد آلـى السيّـد على نفسه ألاّ يمدح إلاّ الغُرَّ من بني هاشم. ومما يدل علـى ذلـك نـذكـر: طلب منه الخليفة العباسي، أبو جعفر المنصور، أن يمدح القاضي سوّاراً بعد أن هجاه ليصلح بينهما، فقال:

إنّـي امـرؤٌ مـن حِميرٍ أسـرَتـي　　　بحيـث تحـوي سَـروهـا حِميـرُ
آليـتُ لا أمـدَح ذا نـائـلٍ　　　لـه سنـاءٌ ولـه مفخـرُ
إلاّ مِـن الغُـرِّ بنـي هـاشـمٍ　　　إنَّ لهـم عنـدي يـداً تُشكـرُ
إنَّ لهـم عنـدي يـداً شكـرهـا　　　حـقٌّ وإن أنكـرَهـا مُنْكـرُ
يـا أحمـدَ الخيـرِ الـذي إنّمـا　　　كـان علينـا رحمـةً تُنشـرُ
حمـزة والطيّـار فـي جَنّـةٍ　　　فحيـث مـا شـاء دعـا جعفـرُ
منهـم وهـادينـا الـذي نحـن مِـن　　　بعـد عَمـانـا فيـه نستبصـرُ
لمّـا دجـا الـديـنُ ورقَّ الهـدى　　　وجـارَ أهـلُ الأرض واستكبـروا
ذاك علـيُّ بـن أبـي طـالـبٍ　　　ذاك الـذي دانـتْ لـه خيبـرُ[2]

ولم يكن يريد سوى وجه الله، كما يقول:

أيـا ربُّ إنّـي لـم أُرِد بـالـذي بـه　　　مَدَحْتُ عليّاً غَيْرَ وَجْهِكَ فارْحَمِ

كـان السيّـد مقتنعاً أنه «سيِّد الشعراء»، ويعيد هذا اللقب إلى «علاّمة فهِم من الفقهاء»، وكان ينهج في الشِّعر منهجاً مختلفاً، فلا يمدح «ذا نائل، له سناء

(١) الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٣١.
(٢) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٦٦.

ولـه مفخـر»، ويخصّ محمداً ﷺ وآله بشعره، مجاهراً بذلك غير مقتصد أو متق أو متكلف، كما ذكر ابن شهرآشوب في معالم العلماء[١].

وقد جعله هذا يقتنع أنّه وريث امرئ القيس في مكانته الشعريّة، ولكن من اتجاه شعري مختلف، وكان اقتناعه بهذا الأمر راسخاً في أعماق وجدانه، لدرجة أن رأى فـي منـامـه أن قوله الشعر ووصوله فيه إلى تلك المكانة الرفيعة، إنما هو هبة من رسول الله ﷺ، ما أضفى على شعره قداسة الصدور والنهج. جاء في الأغاني أن السيّد قال: «رأيت النبيَّ ﷺ في النوم وكأنه في حديقةٍ سَبِخةٍ فيها نخـل طِـوالٌ، وإلى جانبها أرض كأنها الكافورُ ليس فيها شيء؛ فقال: أتَدْري لمن هذا النخل؟ قلت: لا يا رسول الله؛ قال: لامرئ القيس بن حُجْر، فاْقلَعْها واْغرِسها في هذه الأرض ففعلتُ. وأتيتُ ابنَ سِيرِينَ فقَصَصْتُ رؤيايَ عليه؛ فقال: أتقول الشعر؟ قلت: لا؛ قال: أما إنك ستقول شعراً مثلَ شعر اْمرئ القيس إلا أنّك تقوله في قوم بَرَرة أطهار. قال: فما اْنصرفتُ إلا وأنا أقول الشعر»[٢].

كـان السيِّـد الحميري، كما يقول أبو الفرج الأصفهاني، «شاعراً متقدِّماً مطبوعاً. ويقال: إن أكثـر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشَّار وأبو العتاهية والسيِّد، فإنَّه لا يُعلم أنَّ أحداً قدر على تحصيل شعر أحدٍ منهم أجمع»[٣].

وإن يكن الشعراء الآخرون قد قالوا الشعر في موضوعات شتى فإن السيِّد قد قال معظم شعره، كما مر بنا، في موضوع واحد هو مدح النبي ﷺ وآل البيت عليهم السلام. ويـروي صـاحب الأغانـي عن الموصلي أن عمه حدَّثه، فقال: «جمعت للسيِّد في بني هاشم ألفين وثـلاثمئة قصيدة، فخلت أني قد استوعبت شعـره، حتى جلس إلي يوماً رجل ذو أطمار رثة، فسمعني أنشد شيئاً من شعره، فأنشدني له ثلاث قصائد لـم تكن عندي، فقلت في نفسي: لو كان هذا يعلم ما

(١) أعيان، م.س.، ص ٤٠٦.
(٢) الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٣٢. السَّبخة: الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تنبت إلا بعض الشجر.
(٣) نفسه، ٧/ ٢٢٤ و٢٣١.

عندي كله، ثم أنشدني بعده ما ليس عندي لكان عجيباً، فكيف وهو لا يعلم وإنما أنشد ما حضره! وعرفت حينئذٍ أن شعره ليس مما يدرك ولا يمكن جمعه كلّه»[١].

وذكر ابن المعتز، في طبقات الشعراء، أنه رئي حمّالٌ في بغداد مثقل، فسُئل عن حمله، فقال: «ميميات السيِّد»[٢].

وعلى الرغم من جودة شعره وكثرته، فقد «تحومي شعره»، وهجره كثير من رواة الشعر «تخوّفاً وترقُّباً»، ويجد الباحث، الآن، نماذج من شعره متفرّقة في كتب تاريخ الأدب، وهذا شأن التراث الآخر في تاريخ الأدب العربي، وقد لاحظنا ذلك غير مرّة لدى حديثنا عن الشعراء الآخرين، وسوف نلاحظه لدى حديثنا عن الشعراء الآتي ذكرهم.

وبلغ من تقصّي السيِّد لفضائل الإمام علي عليه السلام أنه قال ذات مرة: «من أتاني بفضيلةٍ لعلي بن أبي طالب ما قلت فيها شعراً فله دينار» وفي رواية أخرى «فله فرسي»[٣]. وكان يأتي الأعمش، فيكتب عنه فضائل الإمام علي عليه السلام، ويخرج من عنده ويقول في تلك المعاني شعراً. ومن يقرأ ما بقي من شعر السيد يتبيّن أن هذا الشعر يكاد يكون تاريخاً شعرياً لمسار الإسلام منذ البعثة حتى أيامه، ولموقع الإمام علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام في هذا المسار[٤]، ويتخذ هذا الشعر منحىً سردياً سهلاً، يروي الحادثة، ويكشف دلالاتها، ونماذج ذلك كثيرة، نذكر منها:

□ قال في حديث الخفّ والعقاب:

ألا، يا قوم للعجب العجاب لخف أبي الحسين وللحُبَاب
أتى خُفّاً له وانساب فيه لِيَنْهَش رِجلَه منه بناب

---

(١) نفسه، ٧/ ٣١.
(٢) أعيان، م.س.، ص ٤٠٦.
(٣) الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٥٠.
(٤) راجع: نفسه، ٧/ ٢٤٩ـ ٢٥٢.

فخَرّ من السماء له عُقابٌ ... من العِقبان أَو شِبهُ العُقاب
طار به فحلّق ثم أهوى ... به للأرض من دون السّحاب
إلى جُحْرٍ له فانساب فيه ... بَعيدِ القَعرِ لم يُرتَجْ بباب
كريهُ الوجه أسودُ ذو بَصِيصٍ ... حديدُ النّاب أزرقُ ذو لُعاب
ودُوفِع عن أبي حسن عليٍّ ... نَقيعُ سِمامه بعد انسياب[1]

☐ وقال في حديث «نعم المطيّ مطيكما، ونعم الراكبان هما»:

أتى حسناً والحسينَ النبيُّ ... وقد جلسا حَجْرةً يلعبانِ
ففَدّاهما ثم حَيّاهما ... وكانا لديه بذاك المكانِ
فَراحَا وتحتَهما عاتِقاه ... فنعم المَطِيّةُ والراكبان
وليدان أمُّهما بَرّةٌ ... حَصانٌ مُطَهَّرةٌ للحَصان
وشيخُهما ابنُ أبي طالب ... فنِعْمَ الوَليدانِ والوالدان
خليليّ لا تُرجيا واعلما ... بأَن الهُدى غيرُ ما تزعُمَان
وأنَّ عمى الشكِّ بعد اليقين ... وضَعْفِ البصيرة بعد العيان
ضَلالٌ فلا تَلْجَجا فيهما ... فبئست لَعَمْرُ كما الخصلتان...[2]

☐ وقال في حديث الطائر المشويّ:

نُبِّئتُ أنَّ أبانا كان، عن أنسٍ، ... يروي حديثاً مُعْجباً عجبا
في طائرٍ جاء مشويّاً به بشرٌ ... يوماً، وكان رسولُ الله محتجبا
أدناه منه، فلما أن رآه دعا ... ربّاً قريباً لأهل الخير متَّجبا
أدْخِلْ إليّ أحبَّ الخلق كلِّهم ... طرّاً إليك، فأعطاه الذي طلبا
من ذا؟ فقال: علي، قال: إن له ... شأناً له اهتم منه اليوم محتجبا
فقال: لا تحجبن مني أبا حسن ... يوماً، وابصر في أسراره الغضبا...[3]

---

(١) نفسه، ٧/ ٢٤٩ و٢٥٠. الحباب: الحية.
(٢) نفسه، ٧/ ٢٥١. حَجْرة: ناحية.
(٣) أعيان، م.س.، ص ٤١٩.

□ وأشار إلى «حديث العشيرة»، الوارد في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ في بدء الدعوة النبويَّة، في قصائد كثيرة منها قوله:

بــأَبــي أنــت وأمِّــي ... يــا أميــر المــؤمنينــا
وفــدتــك النفــس منِّــي ... يــا إمــام المتَّقينــا
وأميــن الله والــوا ... رث علــم الأوَّلينــا
ووصــيّ المصطفــى ... أحمــد خيــر المــرسلينــا
ولــيَّ الحــوضِ والــذا ... ئــدَ عنــه المُحــدِثينــا
أنــت أولــى النــاس بــالنا ... سِ وخيــرُ النــاس دينــا
كنــتَ فــي الــدنيــا أخــاه ... يــوم يــدعــو الأقــربينــا
ليُجيبــوهُ إلــى اللّـ ... ـهِ فكــانــوا أربعينــا
بيــن عــمٍّ وابــن عــمٍّ ... حــولــه كــانــوا عــرينــا
فــورثــت العلــمَ منــه ... والكتــابَ المُستَبِينــا
طِبْــتَ كَهــلاً وغــلامــاً ... ورضيعــاً وجَنِينــا
ولــدى الميثــاق طينــاً ... يــوم كــان الخلــقُ طينــا
كنــت مــأمــونــاً وجيهــاً ... عنــد ذي العــرشِ مَكينــا
فــي حجــاب النــور حيّــاً ... طيِّبــاً للطــاهــرينــا

وقوله من قصيدة لم نقف على تمامها:

من فضلِهِ أنَّهُ قد كان أوّل من ... صلّى وآمن بالرحمنِ إذ كفروا
سنيــن سبعــاً وأيّــامــاً محــرّمــةً ... مع النبيِّ على خوفٍ وما شعروا
ويومَ قالَ له جبريلُ قد علموا ... أنذِرْ عشيرتَكَ الأدنَيْنَ إن بَصرُوا
فقامَ يدعوهمُ من دون أمّتهِ ... فما تخلّفَ عنهُ منهمُ بَشَرُ
فمنهم آكلٌ في مجلس جَذَعاً ... وشاربٌ مثل عُسٍّ، وهو مُختَصَرُ
فَصَدَّهم عن نواحي قَصْعةٍ شُبُعاً ... فيها من الحَبِّ صاعٌ فوقه الوَذَرُ
فقال: يا قوم، إنَّ الله أرسلني ... إليكمُ فأجيبوا الله وادَّكِروا

فأيُّكمْ يجتبي قولي ويؤمنُ بي ... أنِّـي نبـيٌّ رسـولٌ فـانبـرى غُـدَرُ
فـقـال: تبّـاً أتـدعـونـا لتَلفِتَنـا ... عن ديننا، ثمّ قام القومُ فاشتمروا...
من الذي قال منهم، وهو أحدثهم ... سناً، وخيرهم في الذكر إذ سُطروا
آمَنْـتُ بـالله قـد أُعطيـتَ نـافلـةً ... لـم يُعْطَهـا أحـدٌ جـنٌّ ولا بشَـرُ
وإنَّ مـا قلتَـه حـقٌّ، وإنَّهـمُ ... إن لم يجيبوا فقد خانوا وقد خسروا
ففـار قـدمـاً بهـا، واللهُ أكـرَمـه ... وكان سبّاق غايات إذا ابتدروا(١)

نظـم السَّيِّد أحداث التاريخ الإسلامي في قصائد كثيرة، تبدو لمن يقرأها مجتمعـة كـأنهـا سيـرة لحيـاة الإمـام علي عليه السلام وسجلٌ لمواقفه، ويمكن أن نقدّم، في ما يأتي، نماذج(٢) تفيد ما ذهبنا إليه:

□ محمـدٌ خيـرُ بنـي غـالـب ... وبعـده ابـن أبـي طـالـب
هـذا نبـيٌّ ووصـيٌّ لـه ... ويُغْـزَلُ العـالـم فـي جـانـب..
□ وَلَدَتْهُ، في حرم الإله، وأَمْنِه ... والبيـتِ؛ حيـث فنـاؤُه والمسجـدُ
بيضـاءُ طـاهـرةُ الثِّيـابِ كـريمـةٌ ... طابت، وطابَ وليدُها والمولدُ..
□أبـو حسـن غـلامٌ مـن قـريش ... أبَـرّهـم وأكـرمهـم نصـابـاً
دعـاهـم أحمـد لمـا أتَتْـه ... مـن الله النبـوّةُ فـاستجـابـا
فـأدَّبـه وعلَّمـه وأملـى ... عليـه الـوَحْـي يكتبُـه كتـابـاً
فـأحْصَـى كـل مـا أملـى عليـه ... وبيَّنـه لـه بـابـاً فبـابـا
□بُعِـثَ النبـيُّ فمـا تلبَّـث بعـده ... حتـى تحنَّـف غيـر يـوم واحـد
صلّـى وزكـا واستسـر بـدينـه ... مـن كـل عـم مشفـق أو والـد
حجـجاً يكـاتـم دينه، فـإذا خلا ... صلـى ومجَّـد ربـه بمحـامـد
صلى ابن تسع وارتدى في برجد ... ولـداتـه يسعـون بيـن بـراجـد
يرى النبيُّ، وخاف أن يُسطى به ... عنـد انقطـاع مـواثـق ومعـاهـد

(١) نفسه، ص ٤٢٣. الغدير، م.س.، ٢/ ٣٩١ و٣٩٢.
(٢) راجع: أعيان، م.س.، ص ٤١٨ ـ ٤٣٠. برجد: كساء.

وأتى النبي فبات فوق فراشه ... مُتَدثِّر بدثاره كالرَّاقد
□ وفي يومٍ جاء المشركون بجمعهم ... وعمرو بن عبد في الحديد مُقَنَّع
فجدله شِلواً صريعاً لوجهه ... رهيناً بقاع حوله الضَّبع يخمعُ
□ وفي ذاتِ السَّلاسل من سليم ... غداة أتاهم الموتُ المُبِيْرُ
وقد هَزَمُوا أبا حفصٍ عميرا ... وصاحبه مراراً فاستُطيروا..
فنادى هل بذي حسب براز ... وهل عند امرئ جرٌ نكيرُ
وصيٌّ محمدٍ وأمينُ غيب ... ونعم أخو الإمامة والوزير..
وليلةٍ خَرَجا فيها على وَجَلٍ ... وهم يَجُوبان دون الكَعْبَة الظّلما
حتى إذا انتهيا قال النبيُّ له: ... إنّا نحاولُ أن نَسْتَنْزِلَ الصَّنما
من فوقها، فاعلُ ظهري، ثم قام به ... خيرُ البريّة، ما استحيا وما احتَشَما
حتى إذا ما استوت رجلا أبي حسن ... أهوى به لقرار الأرْض فانحطما
ناداه أحمدُ أنْ تِبْ، يا عليُّ، لقد ... أحْسَنْتَ بارَكَ ربِّي فيك فاقتحما

هذه نماذج من شعر السيِّد تفيد ما ذهبنا إليه، ويمكن للقارئ أن يستكمل هذه السِّيرة إن استكمل قراءة شعره في مظانّه. وقد خصَّ «حديث غدير خم» بقصائد كثيرة سنثبتها في خاتمة هذا البحث، ولم يكن السيِّد مغالياً كما اتهم فقد قال، على سبيل المثال:

... قومٌ غدوا في علي لا أبالهم ... وجشموا أنفساً في حبه تعبا
قالوا: هو الله، جلَّ خالقنا ... من أن يكون ابن أم، أو يكون أبا
فمن أدار أمور الخلق بينهم ... إذ كان في المهد، أو في البطن محتجبا؟[1]

غزارة شعر السيِّد وجودته وتميّزه

كان السيِّد غزير الإنتاج الشعري، وقد اتصف شعره، على الرغم من ذلك بالجودة، فقال المرزباني: لم يسمع أن أحداً عمل شعراً جيداً وأكثر غير

(١) نفسه، ص ٤١٩.

السيد[١]، لأنه كان يصدر عن شاعر غدا نظم الشعر طبعاً له. ويروي أبو الفرج أن أحد الرواة أنشد في مجلس شعراً للفرزدق وجرير وذي الرمّة، ثم أنشد شعراً للسيِّد، فطرب الحضور «فجعلوا يمرّقون [يغنون] لإنشاده ويطربون... وقالوا: هو والله أحد المطبوعين، لا والله ما بقي في هذا الزمان مثله»[٢].

ويروي أبو الفرج أن العتبيّ قال: «ليس في عصرنا هذا أحسن مذهباً في شعره ولا أنقى ألفاظاً من السيد..». ثم قال بعد أن سمع لاميته التي يقول فيها:

... أقسم بالله وآلائه والمرء عمّا قال مسؤول
إن علي بن أبي طالب على التقى والبرّ مجبول

«أحسن والله ما شاء، هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب»[٣].

وقد اتصف شعر السيِّد بالسهولة النّافذة إلى القلب من دون وساطة، وكان يقصد إلى أن يقول شعراً يلذُّه السامع ويفهمه، فقد سئل غير مرة: مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ فقال: «لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من سمعه خير من أن أقول شيئاً متعقّداً تضلُّ فيه الأفهام»[٤].

وروي عن أبي عبيدة أنه قال: أشعر المحدثين السيِّد الحميري. وعن بشار أنه قال: لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا، ولو شاركنا في مذهبنا لأتعبنا[٥].

كان شعر السيِّد جيِّداً، مختلفاً عن الشعر السائد في بلاط السلطان، ويروى عن التوزي أنه قال: «لو أن شعراً يستحق أن لا ينشد إلا في المساجد

(١) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٤٠.
(٢) الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٣٣.
(٣) نفسه، ٧/ ٢٤٠ و٢٤١.
(٤) نفسه، ٧/ ٢٤١.
(٥) الغدير، م.س.، ٢/ ٣٤١ و٣٤٢.

لحسنه لـكان هذا، ولو خطب به خاطب على المنبر في يوم الجمعة لأتى حسناً ولحاز أجراً»[(١)].

وعلـى الرّغم من هذه الجودة على مستويي اللغة الشعرية والخطاب الذي تنطـق بـه، فـإنّ كثيـراً من رواة الشعر ومؤرِّخوه لم ينصفوه، فقال الأصمعي: «قبحـه الله مـا أسلكـه لطريق الفحول لولا مذهبه! ولولا ما في شعره ما قدَّمت عليـه أحـداً من طبقتـه»، وفـي روايـة أخرى: «لما تقدمه من طبقته أحد»[(٢)]. فـالسيـد يسلك طريق الفحول بخطى تـثيـر الإعجاب، غير أن «مذهبه» يحول، عنـد الأصمعـي وأمثـاله، دون تقديمه إلى الموقع الذي يستحقه، وهذه جناية التعصب المذهبي على الشعر والشعراء.

موقعه في المجتمع

كان للسيِّـد موقعـه في المجتمع، فقد قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «السيـد الحميـري، وهـو رأس الشيعـة وكـانت الشيعة من تعظيمها له تلقي له وسـادة بمسجـد الكوفـة»[(٣)]. ويذكر الشيخ الطوسي في حديثه عنه أن جعفر بن عفان الطائي قال له مرّة: يا أبا هاشم أنت الرأس ونحن الأذناب[(٤)]. وقد مرَّ بنا أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، أمر بأن لا يكون للقاضي سوار العنبري الذي كان يدبر له المكائد، سلطان عليه. وكان السيِّد يقدِّر مكانته هذه، فمما يروى عنه أنـه فـرّق «بدرتين» أعطاه إيَّاهما هارون الرشيد، فاكتفى هذا بأن قال بعـدمـا علـم بالأمر: أحسب أبا هاشم تورَّع عن قبول جوائزنا[(٥)]. ومما يروى عنه أيضاً أنه جلس يوماً إلى قوم، فجعل ينشدهم وهم يتحدّثون فقال:

لا يسمعـون إلـى قـولٍ أجـيء بـه ... وكيـف تستمـع الأنعـام للبشـر

(١) نفسه، ٢/ ٣٤١، الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٣٣.
(٢) نفسه، ٢/ ٣٤١.
(٣) نفسه، ٢/ ٣٣٦.
(٤) نفسه، ٢/ ٣٣٩.
(٥) الأغاني، م.س.، ٧/ ٢٦٧.

أقـول ما سكتـوا: إنسٌ، فإن نطقوا   قلت: الضفادع بين الماء والشجر[1]

ثم فـارقهم. وهذا هجاء لاذع، كان الشاعر يضطر إلى قوله في مثل هذه المـواقـف كمـا فعـل عنـدمـا عابه رجل في أحد المجالس فقال فيه، موضحاً موضع الخلاف:

وصَفْتُ لك الحوض يا ابنَ الحُصَين   علـى صفـةِ الحـارث الأعـورِ
فـإن تُسـقَ منـه غـداً شَـربـةً   تَفُـز مـن نصيبـك بـالأوفـرِ
فمـالـيَ ذنـبٌ سـوى أنّنـي   ذكـرتُ الـذي فـرَّ عـن خيبـرِ
فـأنكـرَ ذاك جليـسٌ لكـم   زنيـمٌ أخـو خُلُـقٍ أعـورِ
لحـانـي بحـبِّ إمـام الهـدى   وفـاروقِ أمّتنـا الأكبـرِ
سـأحلِـقُ لحيَتَـهُ إنّهـا   شهـودٌ علـى الـزور والمُنكَـرِ

فهجر مشايخ ذلك المجلس الرَّجل ولزموا محبّة السيِّد ومجالسته[2].

حديث الغدير في شعر السيِّد

رأى السيِّد الحميري إلى أحداث التاريخ الإسلامي، وجسَّد رؤيته قصائد يلـذّ بهـا السـامـع، وتنـفذ إلى الأفهام بسهولة ويسر، فتكشف الحقائق وتبينها جلية واضحة، ومن الأحداث التي تضمنتها هذه القصائد «حديث الغدير»، فقد تمثل هذا الحديث من غير قصيدة، أثبت الشيخ الأميني[3] منها ما يأتي:

□ يـا بـائـعَ الـديـن بـدنيـاهُ   ليـس بهـذا أَمَـرَ اللهُ
من أين أبغضتَ عليَّ الوصيَّ   وأحمـدٌ قـد كـان يـرضـاهُ
مـن الـذي أحمـدُ مـن بينهـم   يـوم غـديـر الخُـمِّ نـاداهُ
أقـامَـهُ مـن بيـن أصحـابِـه   وهـم حـوالَيـهِ فسمّـاهُ

(١) نفسه، ٧/٢٤٨.
(٢) نفسه، ٧/٢٤٦ و٢٤٧. الحارث الأعور: هو الحارث بن عبدالله بن كعب، من مقدمي أصحاب الإمام علي عليه السلام. مات في الكوفة سنة ٦٥هـ.
(٣) الغدير، م.س.، ٢/٣٠٩ـ٣١٧.

هــذا علــيٌّ بــن أبــي طــالــبٍ ... مــولــىً لمــن قــد كنــتُ مــولاهُ
فــوالِ مــن والاهُ يــا ذا العــلا ... وعــادِ مــن قــد كــان عــاداهُ
□ هلاّ وقفتَ على المكانِ المُعشِبِ ... بيـن الطُّـوَيْلـعِ فـاللّـوى مـن كَبْـكَبِ

ويقول فيها :

وبخُـمٍّ إذ قـال الإلـهُ بعـزمـهِ ... قـم يـا محمـدُ في البريّةِ فـاخطُبِ
وانصبْ أبا حسنٍ لقومك إنّه ... هــادٍ ومــا بلّغــتَ إنْ لــم تَنْصِــبِ
فـدعـاهُ ثـمَّ دعـاهُـمُ فـأقـامَـهُ ... لهُــمُ فبيــنَ مصــدِّقٍ ومكــذِّبِ
جعـل الـولايـةَ بعـده لمُهـذَّبٍ ... مــا كــان يجعلهــا لغيــرِ مهــذَّبِ
ولـه منـاقـبُ لا تُـرامُ متى يُرِدْ ... ســاعٍ تنــاول بعضهــا بتــذبــذبِ
إنّــا نَـديــن بحــبِّ آلِ محمــدٍ ... دينــاً ومــن يُحبِبهــمُ يستــوجــبِ
منّـا المـودّة والـولاء ومـن يُـرِدْ ... بــدلاً بــآل محمــدٍ لا يُحبــبِ
ومتى يَمُت يَرِدِ الجحيمَ ولا يَرِدْ ... حوضَ الرسولِ وإن يَرِدْهُ يُضرَبِ
ضربَ المُحاذِرِ أنْ تعرَّ ركابهُ ... بالسوط سالفـة البعير الأجربِ
وكأنَّ قلبي حين يَذكرُ أحمداً ... ووصيَّ أحمدٍ نيطَ من ذي مخلبِ
بذُرى القوادم من جَناح مصعَدٍ ... في الجوِّ أو بذُرى جناحِ مصوبِ
حتـى يكـادَ مـن النـزاع إليهمـا ... يَفري الحجابَ عن الضلوع القُلَّبِ
هبـةٌ ومـا يهـبِ الإلـه لعبـده ... يـزدد ومهمـا لا يَهـبْ لا يُـوهَـبِ
يمحـو ويُثبـتُ مـا يشـاءُ وعنـده ... علـمُ الكتـابِ وعلـمُ مـا لـم يُكتـبِ

هـذه القصيـدة تتألف من مئتين واثني عشر بيتاً وتسمّى بالمذهَّبة، شرحها سيِّد الطائفة الشريف المرتضى، علم الهدى، وطبعت بمصر (١٣١٣)، وقال في شرح قوله :

وانـصبْ أبـا حسـنٍ لـقومِكَ إنَّهُ ... هــادٍ ومــا بلّغــتَ إنْ لــم تَنصــبِ

هذا اللفظ ـ يعني النصب ـ لا يليق إلاّ بالإمامة والخلافة دون المحبّة والنصرة، وقوله : جعل الولاية بعده لمهذَّب صريحٌ في الإمامة ؛ لأنَّ الإمامة هي التي جُعلت له بعده، والمحبّة والنصرة حاصلتان في الحال وغير مختصّتين بعد الوفاة .

وشرحها أيضاً الحافظ النسّابة الأشرف ابن الأغرّ المعروف بتاج العُلى الحسيني (المتوفّى سنة ٦١٠ هـ)، و«محمّد» المنادى، في البيت الأول، هو والده.

□ خف، يا محمَّدُ، فالقَ الإصباح ... وأَزِل فساد الدينِ بالإصلاحِ
أتسُبُّ صِنْوَ محمدٍ ووصيّه ... ترجو بذاك الفوزَ بالإنجاحِ
هيهاتَ قد بعدا عليك وقرّبا ... منك العذابَ وقابضَ الأرواحِ
أوصى النبيُّ له بخيرِ وصيّةٍ ... يومَ الغديرِ بأبيَنِ الإفصاحِ
مَن كنتُ مولاهُ فهذا واعلموا ... مولاهُ قولَ إشاعةٍ وصُراحِ
قاضي الديونِ ومرشدٌ لكُمُ كما ... قد كنتُ أرشُد من هدىً وفلاحِ
أغويتَ أمّي وهي جِدُّ ضعيفةٍ ... فَجَرَت بقاعِ الغيِّ جَرْيَ جِماحِ
بالشتم للعَلَمِ الإمام ومن لهُ ... إرثُ النبيِّ بأوكدِ الإيضاحِ
إنّي أخافُ عليكما سَخَطَ الذي ... أرسى الجبالَ بسبسبٍ صَحْصَاحِ
أبويَّ فاتّقيا الإله وأَذْعِنا ... للحقِّ تعتصما بحبلِ نجاحِ

هذه الأبيات رواها المرزباني، كتبها السيد إلى والديه يدعوهما إلى التشيّع وولاء أمير المؤمنين، وينهاهما عن سبّه، وكانا إباضيّين.

□ إذا أنا لم أحفظ وَصَاةَ محمدٍ ... ولا عهده يومَ الغديرِ المؤكّدا
فإنّي كمن يشري الضلالة بالهدى ... تنصّر من بعد الهدى أو تهوّدا
ومالي وتيماً أو عَدِيّاً وإنّما ... أولو نعمتي في اللهِ من آلِ أحمدا
تتِمُّ صلاتي بالصلاةِ عليهمُ ... وليستْ صلاتي بعد أن أتشهّدا
بكاملةٍ إن لم أُصلِّ عليهمُ ... وأدعُ لهم ربّاً كريماً ممجَّدا
بذلتُ لهم وُدّي ونصحي ونصرتي ... مدى الدهر ما سُمّيتُ يا صاحِ سيّدا
وإنَّ امرأً يُلحي على صدقِ وِدِّهم ... أحقُّ وأولى فيهمُ أن يُفَنَّدا
فإن شئتَ فاختر عاجلَ الغمِّ ضلّةً ... وإلاّ فأمسِك كي تُصانَ وتُحمدا

□ قد أطلتم في العذلِ والتنقيدِ ... بهوى السيّد الإمامِ السديدِ

يقول فيها:

يـوم قـام النبـيُّ فـي ظـلِّ دَوحٍ ... والـورى فـي وَديقـةٍ صيخـودِ
رافعـاً كفّـه بيمنـى يـديـه ... بـائحـاً بـاسمـه بصـوتٍ مـديـدِ
أيُّهـا المسلمـون هـذا خليلـي ... ووزيـري ووارثـي وعقيـدي
وابنُ عمّي ألا فمن كنتُ مولاهُ ... فهـذا مـولاهُ فـارعَـوا عهـودي
وعلـيٌّ منّـي بمنـزل هـارونَ ... بـن عمـرانَ مـن أخيـه الـودودِ
□ أجـدَّ بـآل فـاطمـةَ البُكـورُ ... فـدمـعُ العيـنِ مُنْهَـلٌّ غـزيـرُ

يقول فيها:

لقـد سمعـوا مقـالتـهُ بخُـمٍّ ... غـداةَ يضمُّهـمُ وهـو الغـديـرُ
فمـن أولـى بكـمْ منكـمْ فقـالـوا ... مقـالـةَ واحـدٍ وهُـمُ الكثيـرُ
جميعـاً أنـت مـولانـا وأولـى ... بنـا منّـا وأنـت لنـا نـذيـرُ
فـإنَّ وليّكـم بعـدي علـيٌّ ... ومـولاكـم هـو الهـادي الـوزيـرُ
وزيري في الحياة وعند موتي ... ومـن بعـدي الخليفـةُ والأميـرُ
فـوالـى اللهُ مـن والاهُ منكـمْ ... وقـابلـه لـدى المـوتِ السـرورُ
وعـادى اللهُ مـن عـاداهُ منكـم ... وحـلَّ بـه لـدى المـوت الثبـورُ
□ ألا الحمـد لله حمـداً كثيـراً ... ولـيِّ المَحـامـدِ ربّـاً غفـورا
هـدانـي إليـه فـوحّـدتُـهُ ... وأخلصـتُ تـوحيـدَهُ المستنيـرا

ويقول فيها:

لـذلـك مـا اختـاره ربُّـهُ ... لخيـر الأنـام وَصيّـاً ظهيـرا
فقـام بخُـمٍّ بحيـثُ الغـديـرُ ... وحـطَّ الـرحـالَ وعـافَ المسيـرا
وقُـمَّ لـه الـدوحُ ثـمَّ ارتقـى ... علـى منبـرٍ كـان رحـلاً وكـورا
ونادى ضحىً باجتماع الحجيج ... فجـاءوا إليـه صغيـراً كبيـرا
فقـال وفـي كفِّـه حيـدرٌ ... يُليـحُ إليـه مُبينـاً مُشيـرا
ألا إنَّ مـن أنـا مـولـىً لـهُ ... فمـولاه هـذا قَضـاً لـن يجـورا
فهـل أنـا بلّغـتُ قـالـوا: نعـم ... فقـال: اشهـدوا غُيّبـاً أو حضـورا
يبلّـغ حـاضـرُكـمْ غـائبـاً ... وأُشهـد ربّـي السميـعَ البصيـرا

فقوموا بأمر مَليكِ السما ... يبايعُهُ كلٌّ عليه أميرا
فقاموا لبيعته صافقينَ ... أكفّاً فأوجس منهم نكيرا
فقال: إلهيَ والِ الوليَّ ... وعادِ العدوَّ له والكفورا
وكن خاذلاً للأُلى يخذلون ... وكن للأُلى ينصرون نصيرا
فكيف ترى دعوة المصطفى ... مجاباً بها أو هباءً نثيرا
أُحبّك يا ثانيَ المصطفى ... ومن أشهدَ الناسَ فيه الغديرا
وأشْهدُ أنَّ النبيَّ الأمينَ ... بلّغ فيك نداءً جهيرا
وأنَّ الذين تعادَوا عليك ... سيُصلَون ناراً وساءت مصيرا

□ قف بالديار وحَيِّهنَّ ديارا ... واسقِ الرسومَ المَدمعَ المِدرارا
كانت تحِلُّ بها النوارُ وزينبٌ ... فرعى إلهي زينباً ونَوارا
قل للذي عادى وصيَّ محمدٍ ... وأبان لي من لفظه إنكارا

يقول فيها:

من خاصفٌ نعلَ النبيِّ محمدٍ ... يُرضي بذاك الواحدَ الغفّارا
فيقول فيه معلناً خيرُ الورى ... جهراً وما ناجى به إسرارا
هذا وصيّي فيكمُ وخليفتي ... لا تجهلوهُ فترجعوا كفّارا
وله بيوم الدوحِ أعظمُ خطبةٍ ... أدّى بها وحيَ الإلهِ جَهارا

□ بلغ سوّار بن عبدالله العَنْبَريّ قاضي البصرة قول شاعرنا السيِّد الحميري في حديث الطائر المشويِّ المتفق عليه:

لمّا أتى بالخبرِ الأنبلِ ... في طائرٍ أُهدي إلى المرسَلِ
في خبرٍ جاء أبانٌ به ... عن أنسٍ في الزمن الأوّلِ
هذا وقيسُ الحَبْرُ يرويه عن ... سفينةٍ ذي القُلُب الحُوَّلِ
سفينةٌ يمكن من رشده ... وأَنسٌ خان ولم يَعدِلِ
في ردّه سيِّدَ كلِّ الورى ... مولاهمُ في المُحْكم المنزلِ
فصدّه ذو العرش عن رشده ... وشانه بالبَرَصِ الأنكلِ

فقال سوّار: ما يدع هذا أحداً من الصحابة إلاّ رماه بشعر يُظهر عواره، وأمر بحبسه، فاجتمع بنو هاشم والشيعة، وقالوا له: والله لئن لم تخرجه وإلاّ كسرنا الحبس وأخرجناه، أيمتدحك شاعرٌ فتثيبه ويمتدح أهل البيت شاعرٌ فتحبسه؟ فأطلقه على مضض، فقال يهجوه:

قولا لسوّارٍ أبي شملةٍ ... يا واحداً في النَوْك والعارِ
ما قلتُ في الطيرِ خلافَ الذي ... رويتَهُ أنت بآثارِ
وخبرُ المسجد إذ خصّه ... محلّلاً من عَرْصَة الدارِ
إن جُنُباً كان وإن طاهراً ... في كلِّ إعلانٍ وإسرارِ
وأخرج الباقين منه معاً ... بالوحي من إنزال جبّارِ
حَبَا عليّاً وحسيناً معاً ... والحسنَ الطُّهْرَ لأطهارِ
وفاطماً أهلَ الكساءِ الأُلى ... خُصّوا بإكرامٍ وإيثارِ
فمبغض الله يرى بغضَهمُ ... يصير للخزي وللنارِ
عليه من ذي العرش في فعلِهِ ... وسمٌ يراه العائبُ الزاري
وأنتَ يا سوّارُ رأسٌ لهمْ ... في كلِّ خزي طالب الثارِ
تعيبُ من آخاه خيرُ الورى ... من بين أطهارٍ وأخيارِ
وقال في خُمٍّ له معلناً ... ما لم يُلقّوه بإنكارِ
من كنت مولاهُ فهذا له ... مولىً فكونوا غير كفّارِ
فعوِّلوا بعدي عليه ولا ... تبغُوا سَراب المَهْمَهِ الجاري

وقال يهجو سوّار القاضي بعد موته:

يا من غدا حاملاً جُثمان سوّارِ ... من داره ظاعناً منها إلى النارِ
يا مبغضاً لأمير المؤمنين وقد ... قال النبيُّ له من دون إنكارِ
يومَ الغدير وكلُّ الناس قد حضروا ... من كنت مولاهُ في سرٍّ وإجهارِ
هذا أخي ووصيِّي في الأمور ومن ... يقوم فيكم مقامي عند تذكاري
يا ربِّ عادِ الذي عاداهُ من بشرٍ ... وأَصْلِهِ في جحيمٍ ذاتِ إسعارِ

وأنت لا شكَّ عاديتَ الإلهَ بهِ ... فيا جحيمُ ألا هُبِّي لِسوّارِ

□ لأمِّ عمروٍ باللوى مَرْبَعُ ... طامسةٌ أعلامُها بلقعُ
تروع عنها الطيرَ وحشيّةً ... والوحشُ من خِيفته تفزعُ
رُقشٌ يخافُ الموت من نفثها ... والسمُّ في أنيابها مُنتقَعُ
برسمِ دارٍ ما بها مؤنسٌ ... إلاّ صِلالٌ في الثرى وُقَّعُ
لمّا وقفتُ العيسَ في رسمِها ... والعينُ من عِرفانِه تدمعُ
ذكرتُ من قد كنتُ ألهو به ... فبِتُّ والقلبُ شجٍ موجعُ
كأنَّ بالنار لِما شَفَّني ... من حُبِّ أَروى كبدي تُلْذعُ
عجبتُ من قومٍ أتَوا أحمداً ... بخُطّةٍ ليس لها موضعُ
قالوا له لو شئتَ أعلَمْتَنا ... إلى منِ الغايةُ والمفزعُ
إذا تُوفِّيتَ وفارقتَنا ... وفيهمُ في المُلك من يطمعُ
فقال لو أعلَمْتُكُمْ مَفزَعاً ... كنتمْ عَسَيتُم فيه أنْ تصنعوا
صنيعَ أهل العِجْلِ إذ فارقوا ... هارونَ فالتّرك له أوسعُ
وفي الذي قال بيانٌ لمن ... كان إذا يعقلُ أو يسمعُ
ثمَّ أتتهُ بعد ذا عَزْمةٌ ... من ربِّه ليس لها مَدفعُ
بلّغ وإلاّ لم تكن مُبْلِغاً ... واللهُ منهم عاصمٌ يمنَعُ
فعندها قامَ النبيُّ الذي ... كان بما يؤمرُ به يَصدعُ
يخطِبُ مأموراً وفي كفِّهِ ... كفُّ عليٍّ ظاهرٌ تلمعُ
رافعها أكرم بكفٍّ الذي ... يرفع والكفُّ التي ترفعُ
يقول والأملاك من حوله ... والله فيهم شاهدٌ يسمعُ
من كنت مولاه فهذا له ... مولىً فلم يرضَوا ولم يقنعوا
فاتّهموهُ وحَنَتْ فيهمُ ... على خلاف الصادق الأضلعُ
وضلَّ قومٌ غاظهم فعلُهُ ... كأنّما آنافهم تُجدعُ
حتى إذا واروْهُ في لَحدِهِ ... وانصرفوا عن دفنه ضيّعوا
ما قال بالأمس وأوصى به ... واشتروا الضرَّ بما ينفعُ

(٨)
سفيان بن مُصعب العبدي الكوفي

اسمه ونسبه وولادته..

أبو محمد، سفيان بن مُصعب العبديّ الكوفيّ، ويعرف باسم الشاعر العبدي الكوفي. لا يقف الباحث على تاريخ ولادته أو وفاته، وإنما يمكن له أن يتبيَّن من القرائن أنّه كان معاصراً للسيِّد الحميري، المولود سنة ١٠٥هـ، المتوفى سنة ١٧٨هـ، ولأبي داود المسترق المولود سنة ١٦٠ أو ١٦١هـ والمتوفى سنة ٢٣٠ أو ٢٣١هـ، بدليل أنه اجتمع والأول عند الإمام الصادق وأن الثاني روى عنه، ويفيد أنه عاش ونبغ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

موضوعات شعره

الشاعر العبدي من شعراء أهل البيت الطاهر المتزلّفين إليهم بولائه وشعره، المقبولين عندهم لصدق نيّته وانقطاعه إليهم. نظم الشعر في مناقب الإمام عليّ، أمير المؤمنين عليه السلام الشهيرة، وأكثَر من مدحه ومدح ذريّته الأطيبين وأجاد، وتفجَّع على مصائبهم ورثاهم على ما انتابهم من المِحَن، ولم نَجِد له في غير آل رسول الله صلى الله عليه وآله شعراً.

ولاؤه لأهل البيت عليهم السلام

يفرد الحسين بن محمد بن علي الأزدي الكوفي، المجمع على ثقته وجلالته، مؤلّفاً في أخبار الشاعر العبدي الكوفي وشعره، يعدّه النجاشي في فهرسته من كتبه، وهذا ينبئ، كما يقول الشيخ الأميني، «عن إكبارهم محلّه في العلم والدِّين».

ومن الأخبار التي تفيد بمكانة هذا الشاعر عند آل البيت عليهم السلام نذكر:

استنشده الإمام جعفر بن محمّد الصادق (صلوات الله عليه) شعره كما في رواية ثقة الإسلام الشيخ الكُليني في روضة الكافي[1]، قال:

دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال: «قولوا لأمِّ فَروَة تجيْ فتسمع ما صُنِع بجدِّها». قال: فجاءت، فقعدت خلف الستر. ثمّ قال: أَنْشِدْنا. قال: فقلت:

فرْوَ جودي بدمعكِ المسكوبِ...

قال: فصاحت وصِخْنَ النساء. ويروى أن الإمام عليه السلام قال لأبي عمارة المنشد:

«يا عمارة أنشدني للعبديّ في الحسين عليه السلام». قال: فأنشدته، فبكى. ثمّ أنشدته، فبكى. ثمّ أنشدته، فبكى. قال: فوالله ما زِلتُ أنشِدُه ويبكي حتى سمعت البكاء من الدار[2].

وقد عدّه الشيخ الطوسي، في رجاله، من أصحاب الإمام جعفر ابن محمّد الصادق عليه السلام[3]، ولم تك صحبته مجرّد أُلفة معه، أو محض اختلاف إليه، أو أنّ عصراً واحداً يجمعهما فحسب لكنّه حظي بزُلفة عنده منبعثة عن صميم الوُدّ وخالص الولاء، وإيمان لا تشوبه أيُّ شائبة وقد بلغ من تقدير الإمام الصادق عليه السلام لشعره أن أمر شيعتَه بتعليم شعره أولادهم، وقال: «يا معشر الشيعة، علّموا أولادكم شعر العبديّ، فإنّه على دين الله»[4].

(١) الصّدوق: روضة الكافي، ٨/ ٢١٥، حديث ٢٦٣.
(٢) ابن قولويه: الكامل، ص: ١٠٥.
(٣) الطوسي: رجال الطّوسي، ص: ٢١٣، رقم ١٦٥.
(٤) الكشّي: رجال الكشي، ٢/ ٧٠٤، رقم ٧٤٨.

مكانته وتميُّز شعره

تفيد أخبار الشاعر العبدي أنَّه صار، نتيجةً لصحّة مذهبه وصدق ولائه وجميل شعره الملتزم، إلى «رتبة عظيمة من الدِّين يقصر دون شأوها الوصف بالثّقة».

ويَنِمُّ عن صدق لهجته، واستقامة طريقته في شعره، وسلامة معانيه عن أيِّ مغمز، أمر الإمام الصادق عليه السلام إيّاه بنظم ما تنوح به النساء في المآتم[(١)].

وكان يأخذ الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في مناقب العترة الطاهرة، فينظمه في الحال ثمّ يعرضه عليه. ومن الروايات التي تفيد ذلك في «مقتضب الأثر»[(٢)]، أن أبان بن عمر خَتَن آل ميثم قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه سفيان بن مصعب العبدي قال: جعلني الله فداك ما تقول في قوله تعالى ذكره: ﴿وعلى الأعرافِ رجالٌ يَعرفونَ كُلاًّ بسيماهم﴾ [الأعراف/ ٤٦].

قال: «هم الأوصياء من آل محمد الاثني عشر، لا يعرف الله إلاّ من عَرَفهم وعرفوه». قال: فما الأعراف جُعِلتُ فداك؟ قال: «كثائب من مِسْك، عليها رسول الله والأوصياء يعرفون كلاًّ بسيماهم». فقال سفيان: أفلا أقول في ذلك شيئاً؟ فقال من قصيدة:

أياربْعَهُمْ هل فيك لي اليومَ مَربَعُ ... وهل لليالٍ كنَّ لي فيك مرجعُ

يقول فيها:

وأنتم وُلاةُ الحَشْرِ والنَشْرِ والجَزا ... وأنتمْ ليوم المفزَعِ الهوْلِ مفزَعُ
وأنتم على الأعرافِ وهي كثائبٌ ... من المِسْكِ ريّاها بكمْ يَتَضوَّعُ
ثمانيةٌ بالعرش إذ يحملونَهُ ... ومن بعدهمْ في الأرضِ هادونَ أربَعُ[(٣)]

(١) رجال الكشّي، ٢/ ٢٥٤.
(٢) مقتضب الأثر، ص: ٤٨.
(٣) الأمين: أعيان الشيعة، ٧/ ٢٦٨. ترجمة (العبدي الكوفي).

إنَّ الـواقف على شعر العبديّ يتبيّن بسهولة ما يتميز به هذا الشعر من جودة وجـزالـة وسهـولـة وعـذوبـة وفخـامـة وحلاوة ومتانة، ويشهد بنبوغه في الشعر وتضلّعه في فنونه، ويعترف له بالتـقدُّم والبروز. وقد أثنى السيِّد الحميري، وهو كما نعلم سيّد الشعراء، عليه وقال: إنّه أشعر الناس من أهله في محلّه. روى أبو الفرج في الأغانـي، عن أبي داود المسترقّ سليمان بن سفيان: أنّ السيّد والعبديّ اجتمعا، فأنشد السيِّد:

إنّـي أديـنُ بمـا دانَ الـوصـيُّ بـهِ يـومَ الخُـرَيْبَـةِ[1] مـن قَتْـلِ المُحلّينـا
وبـالـذي دانَ يـومَ النَّهْـرَوانِ بـهِ وشـــاركَـــتْ كفَّـــه كفِّـــي بصفّينـــا

فقال لـه العبدي: «أخطأت؛ لو شاركت كفُّكَ كفَّه كنت مثله، ولكن قل: تـابعت كفَّـه كفِّي، لتكون تابعاً لا شريكاً. فكان السيِّد بعد ذلك يقول: أنا أشعر الناس إلاّ العبدي»[2].

والمتأمِّل في شعره يرى فيه ميِّزة تمثل موقفاً. تتمثّل هذه الميِّزة بتضمُّن هذا الشعر الكثير من الأحاديث؛ الأمر الذي يجعل صاحبه بين مقدَّمي رجال الحديث ومكثـري حمَلتـه، ويجده في الرعيل الأوّل من جامعي شتاته، وناظمي شوارده، ورواة نـوادره، وناشري طُرَفِه، ويَشهَدُ له بكثرة الدراية والرواية، ويُشاهِد همّته العاليـة وولعـه الشديد في بثّ الأخبار المأثورة في آل بيت النبي ﷺ وهذا هو المـوقـف الـذي يـريـد الشاعر أن يعلنه ويثبت صحّته بأدلّة موثوقة ينظمها شعراً جميلاً يقنع ويمتع. وسنقف على ذلك كلّه في ذكر نماذج شعره.

نماذج من شعره

١ ـ قصيدة: «إنّا روينا. . .».

إنّـا روينـا فـي الحـديـث خَبَـرا يعـرفُـهُ سـائـرُ مـن كـان روى

(١) الخُريبَة: موضع بالبصرة كانت به وقعة الجمل.
(٢) الأصفهاني: الأغاني، ٧/ ٢٦٤، أخبار السيّد الحميري.

إنَّ ابن خطّابٍ أتاهُ رجلٌ ... فقال: كم عِدَّة تطليقِ الإما؟
فقال: يا حيدرُ كم تطليقةً ... للأمَةِ اذكرهُ، فأومأ المرتضى
بإصْبعيه، فثنى الوجه إلى ... سائلهِ، قال: اثنتانِ، وانثنى
قال له: تعرف هذا؟ قال: لا ... قال له: هذا عليّ ذو العلا
وقد روى عِكْرمةٌ في خبرٍ ... ما شَكَّ فيه أحدٌ ولا امترى
مرَّ ابن عبّاسٍ على قوم وقد ... سبّوا عليّاً، فاسترَاعَ وبكى
وقال مغتاظاً لهم: أيُّكمُ ... سبَّ إلهَ الخَلقِ جلَّ وعلا؟
قالوا: معاذ اللهِ! قال: أيُّكمْ ... سبَّ رسول الله ظُلماً واجترا؟
قالوا: معاذ اللهِ! قال: أيُّكمْ ... سبَّ عليّاً خير من وَطى الحَصَى
قالوا: نعم قد كان ذا، فقال: قد ... سمعتُ واللهِ النبيَّ المجتبى
يقول: من سَبَّ علياً سبَّني ... وسبَّتي سبُّ الإله واكتفى
محمدٌ وصنوُهُ وابنتهُ ... وابناه خيرُ من تحفّى واحتذى
صلّى عليهم ربُّنا باري الورى ... ومُنْشئُ الخَلق على وجه الثرى
صفّاهُمُ الله تعالى وارتضى ... واختارهم من الأنام واجتبى
لولاهُمُ اللهُ ما رفَعَ السما ... ولا دحا الأرضَ ولا أنشا الورى
لا يقبلُ اللهُ لعبدٍ عَمَلاً ... حتى يُواليهم بإخلاص الولا
ولا تتِمُّ لامرئ صلاتهُ ... إلاّ بذكراهمْ ولا يزكو الدُّعا
لو لم يكونوا خير من وَطئَ الحصى ما قال جبريلُ لهم تحت العبا
هل أنا منكم شرفاً ثمّ علا ... يُفاخر الأملاك إذ قالوا بلى
لو أن عبداً لقي الله بأعـ ... ـمال جميع الخلق بِرّاً وتُقى
ولم يكن والى عليّاً حَبِطتْ ... أعمالُه وكُبَّ في نار لظى
وإنَّ جبريلَ الأمينَ قال لي ... عن مَلَكَيْهِ الكاتبينِ مذ دنا
إنّهما ما كتبا قطُّ على الـ ... ـطهرِ عليٍّ زلّةً ولا خَنَا[1]

(١) الأمين: أعيان الشيعة، ٧/ ٢٧٠.

ما تضمَّنته القصيدة من أحاديث

قوله:

إنّـا روينـا فـي الحـديـث خَبَـراً يعـرفُـهُ سـائـرُ مـن كـان روى. . .

أخرج الحافظ الدارقطني وابن عساكر[1] أنّ رجلين أتيا عمر بن الخطّاب، وسألاه عن طلاق الأمَة، فقام معهما فمشى حتى أتى حَلْقَةً في المسجد فيها رجلٌ أصلع، فقال: أيّها الأصلع ما ترى في طلاق الأمَة؟ فرفع رأسه إليه، ثمّ أومأ إليه بالسبّابة والوسطى، فقال لهما عمر: تطليقتان.

فقال أحدهما: سبحان الله، جئناك، وأنت أمير المؤمنين، فمشيتَ معنا حتى وقفت على هذا الرجل، فسألته فرضيتَ منه أن أومأ إليك. فقال لهما: تدريان من هذا؟ قالا: لا.

قال: هذا عليٌّ بن أبي طالب، أشهدُ على رسول الله ﷺ لَسَمِعْتُهُ وهو يقول: «إنَّ السماوات السبع والأرضين السبع لو وُضِعتا في كَفَّةٍ، ثُم وُضِعَ إيمانُ عليٍّ في كَفَّةٍ لرجحَ إيمان عليّ بن أبي طالب».

وفي لفظ الزمخشري: جئناك، وأنت الخليفة، فسألناك عن طلاقٍ فجئت إلى رجل فسألته، فوالله ما كلَّمك.

فقال له عمر: ويلَك أتدري من هذا؟

ونقله عن الحافظين (الدارقطني وابن عساكر) الكنجي في كفاية الطالب[2] وقال: هذا حسنٌ ثابتٌ. ورواه من طريق الزمخشري خطيب الحرمين الخوارزمي في المناقب[3]، والسيِّد عليّ الهمداني في مودّة القربى[4]. وحديث الميزان رواه

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٢/٢٩٦. وفي ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رقم ٨٧١.
(٢) كفاية الطالب: ص ٢٥٨، باب ٦٢.
(٣) ص ١٣٠، حديث ١٤٥.
(٤) المودّة السابعة.

عن عمر محبّ الدين الطبري في الرياض النضرة[1]، والصفوري في نزهة المجالس[2].

قوله:

وقد روى عكرمةٌ في خبرٍ ما شكَّ فيه أحدٌ ولا امترى . . .

أخرج أبو عبدالله الملاّ، في سيرته عن ابن عبّاس، أنّه مرّ بعدما كُفَّ بصره على قوم يسبّون عليّاً، فقال لقائده: ما سمعتَ هؤلاء يقولون؟ قال: سَبّوا علياً. قال: رُدّني إليهم. فردّه فقال: أيّكم السابُّ للهِ عز وجل؟ قالوا: سبحان الله! من سبَّ الله فقد أشرك. قال: فأيّكم السابّ لرسول الله؟ قالوا: سبحان الله! ومن سبَّ رسول الله فقد كفر. قال: أيّكم السابُّ عليَّ بن أبي طالب؟ قالوا: أمّا هذا فقد كان[3].

قال: فأنا أشهد بالله وأشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سبَّ عليّاً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبَّ الله عز وجل، ومن سبَّ الله كبّه الله على منخريه في النار». ثمّ ولّى عنهم، فقال لقائده: ما سمعتهم يقولون؟ قال: ما قالوا شيئاً. قال: فكيف رأيت وجوههم إذ قلتُ ما قلتُ؟ قال:

نظروا إليكَ بأعْيُنٍ مُحْمرَّةٍ نظرَ التيوس إلى شِفارِ الجازرِ

قال: زدني فداك أبوك. قال:

خزْرُ العيونِ نواكِسٌ أبصارُهمْ نظرَ الذليلِ إلى العزيزِ القاهرِ

قال: زدني فداك أبوك. قال: ما عندي غير هذا، قال: لكن عندي:

أحياؤهم عارٌ على أمواتِهمْ والميّتون فضيحةٌ للغابرِ

---

(١) ٣/ ١٨١.

(٢) ٢/ ٢٠٧.

(٣) وسيلة المتعبّدين: مجلّد ٥، القسم ٢، ص ١٧٦.

وأخرجه محبّ الدين الطبري[1]، والكنجي[2]، وشيخ الإسلام الحمّوئي[3]، وابن الصبّاغ المالكي[4].

قوله:

محمـــدٌ وصنـــوه وابنتـــه وابنـاه خيـرُ مـن تحفّـى واحتـذى

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لمّا خلق الله تعالى آدم أبا البشر ونفخ فيه من روحه التفت آدم يمنة العرش، فإذا في النور خمسةُ أشباح سُجّداً وركّعاً. قال آدم: هل خلقتَ أحداً من طينٍ قبلي؟ قال: لا يا آدم. قال: فمَن هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟

قال: هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك، هؤلاء خمسةٌ شَقَقْت لهم خمسة أسماء من أسمائي لولاهم ما خلقتُ الجنّة والنار، ولا العرش ولا الكرسيّ، ولا السماء ولا الأرض، ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجنّ، فأنا المحمود وهذا محمد، وأنا العالي وهذا عليّ، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين، آليت بعزّتي أن لا يأتيني أحدٌ بمثقال ذرّة من خردلٍ من بُغض أحدهم إلاّ أدخله ناري ولا أبالي، يا آدم هؤلاء صفوتي بهم أنجيهم وبهم أهلِكُهم، فإذا كان لك إليّ حاجة فبهؤلاء توسّل.

فقال النبيّ ﷺ: نحن سفينة النجاة من تعلّق بها نجا، ومن حادَ عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة، فليسأل بنا أهل البيت»[5].

---

(١) الرياض النضرة، ٣/ ١١٠.

(٢) كفاية الطالب: ص ٨٢ ـ ٨٤، باب ١٠.

(٣) فرائد السمطين، الباب السادس والخمسين، ١/ ٣٠٢.

(٤) الفصول المهمّة: ص ١٢٥.

(٥) فرائد السمطين: ١/ ٣٦، حديث (١). وانظر قريباً منه: الخطيب البغدادي: المناقب، ص ٣١٨، حديث ٣٢٠.

أمّا حديث السفينة فرواه الحاكم في المستدرك[1] عن أبي ذرّ وصحّحه بلفظ: «مَثَلُ أهلِ بيتي فيكم مَثَلُ سفينةِ نوح من ركِبها نجا ومن تخلّف عنها غرِق». وأشار إليه الإمام الشافعيّ بقوله:

ولمّا رأيتُ الناس قد ذَهَبَتْ بهمْ مذاهبهُمْ في أبْحُرِ الغيِّ والجَهلِ
ركِبتُ على اسم الله في سُفُنِ النجا وهم أهلُ بيت المصطفى خَاتَم الرسلِ
وأمْسكتُ حبلَ الله وهو ولاؤهم كما قد أُمِرنا بالتمسّكِ بالحبل[2]

قوله:

لا يقبلُ الله لعبدٍ عَمَلاً حتى يُواليهم بإخلاص الوَلا

عن ابن عبّاس في حديث عن النبيّ ﷺ: «لو أنّ رجلاً صَفَنَ[3] بين الركن والمقام فصلّى وصام، ثمّ لقي الله وهو مُبغضٌ لأهل بيت محمد دخل النار». أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين[4] وصحّحه الذهبي في تلخيصه.

قوله:

ولا يتمُّ لامرىءٍ صلاته إلاّ بذكراهم ولا يزكو الدعا

أشار إلى كون الصلاة عليهم مأموراً بها في الصلاة، وفي المقام أخبار كثيرة وكلمات ضافية توجد في طيّات كتب الفقه والتفسير والحديث.

ذكر ابن حجر قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ وملائكَتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبيِّ يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَليهِ وَسلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب/٥٦]. وروى جملة من الأخبار الصحيحة الواردة فيها، وأنَّ النبيّ ﷺ قرنَ الصلاة على آله بالصلاة عليه لمّا سُئل عن كيفيّة الصلاة والسلام عليه، ثمّ قال: وهذا دليل ظاهر على أنّ الأمر

(١) المستدرك على الصحيحين، ٣/ ١٦٣، حديث ٤٧٢٠.
(٢) رشفة الصّاوي، ص ٢٤.
(٣) صَفَنَ الرّجلُ: صَفّ قدميه.
(٤) المستدرك على الصحيحين، ٣/ ١٦١، حديث ٤٧١٢.

بـالصـلاة علـى أهـل بيته وبقيّة آله مراد من هذه الآية، وإلاّ لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيتـه وآلـه عَقِب نزولها ولم يُجابوا بما ذُكر، فلمّا أُجيبوا به دلّ على أنّ الصلاة عليهم من جملة المأمور به، وأنّه ﷺ أقامهم في ذلك مقام نفسه؛ لأنّ القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه ومنه تعظيمهم[1]، ومن ثمّ لمّا دخل من مرّ في الكساء قال: «اللهمّ إنّهم منّي وأنا منهم فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضـوانـك علـيّ وعليهم»[2]. وقضيّة استجابة هذا الدعاء: أنّ الله صلّى عليهم معه فحينئذٍ طلب من المؤمنين صلاتهم عليهم معه.

ويُروى: «لا تُصلّوا عليّ الصلاة البتراء». فقالوا: وما الصلاة البتراء؟

قال: «تـقولـون اللهمّ صلّ على محمد وتُمسِكون، بل قولوا: اللّهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد». ثمّ نقل عن الإمام الشافعي قوله:

يـا أهـلَ بيـتِ رسـول اللهِ حبُّكُـمُ ... فـرضٌ مـن الله فـي القـرآنِ أنـزلـهُ
كفـاكُـمُ مـن عظيـمِ القـدرِ أنكـمُ ... من لم يُصَلِّ عليكم لا صلاةَ له[3]

فقـال: فيُحتمـل لا صـلاة له صحيحةً فيكون موافقاً لقوله بوجوب الصلاة على الآل، ويُحتمل لا صلاة كاملة فيوافق أظهر قوليه.

وقال ابن حجر: أخرج الدارقطني والبيهقي حديث: «من صلّى صلاةً ولم يُصلّ فيها عليّ وعلى أهـل بيتي لم تُقبل منه». وكأنّ هذا الحديث هو مستند قول الشـافعـي رضـي الله عنـه: إنّ الـصلاة علـى الآل من واجبات الصلاة كالصلاة عليه ﷺ لكنّـه ضعيـفٌ؛ فمستنـده الأمـر فـي الحديث المتّفق عليه: «قولوا: اللّهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد». والأمر للوجوب حقيقة على الأصحّ[4].

---

(١) إبن حجر: الصواعق المحرقة، ص ١٤٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٤٥٥، حديث ٢٦٢٠٦.
(٣) نسبهـا للإمـام الشـافعـي الـزرقـانيُّ في شرح المواهب ٧/ ٧: وابن حجر في الصواعق المحرقة، ص ١٤٨.
(٤) ابن حجر: الصواعق المحرقة، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

وقال الرازي في التفسير الكبير: إنّ الدعاء للآل منصبٌ عظيمٌ؛ ولذلك جُعل هذا الدعاء خاتمة التشهُّد في الصلاة وقوله: اللّهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد. وهذا التعظيم لم يوجد في حقِّ غير الآل، فكلُّ ذلك يدلُّ على أنّ حُبَّ آل محمد واجبٌ.

وقال: أهل بيته ﷺ ساوَوْهُ في خمسة أشياء: في الصلاة عليه وعليهم في التشهد، وفي السلام، والطهارة، وفي تحريم الصدقة، وفي المحبّة[1].

وقال النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُم عليهِ أَجْراً إلاّ المودّةَ في القُرْبى﴾: كفى شرفاً لآل رسول الله ﷺ وفخراً خَتْمُ التشهد بذكرهم والصلاة عليهم في كلِّ صلاة[2].

وروى محبُّ الدين الطبري عن جابر رضي الله عنه أنّه كان يقول: لو صلّيت صلاةً لم أُصلِّ فيها على محمد وعلى آل محمد ما رأيت أنّها تُقبل[3].

وأخرج القاضي عيّاض عن ابن مسعود مرفوعاً: «من صلّى صلاةً لم يُصلِّ عليَّ فيها وعلى أهل بيتي لم تُقبلْ منه»[4].

وللقاضي الخفاجي الحنفي في شرح الشفا فوائد جمّة حول المسألة، وذكر مختصر ما صنّفه الإمام الخيصري في المسألة سمّاه زهر الرياض في ردّ ما شنّعه القاضي عيّاض.

وصور الصلوات المأثورة على النبيِّ وآله مذكورة في شفاء السقام لتقيِّ الدين السبكي[5]، وأورد جملةً منها الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، وأوّل لفظ ذكره عن بريد قال: قلنا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلّم عليك، فكيف

(١) الرازي: التفسير الكبير، ٢٧/١٦٦.
(٢) النيسابوري: غرائب القرآن، مجلد ١١، ج٢٥، ص ٣٥.
(٣) الطبري: ذخائر العقبى، ص ١٩.
(٤) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٢/١٤٧.
(٥) ص ٢٤١ ـ ٢٤٧.

نصلّي عليك؟ قال: «قولوا اللّهمّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وآل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ»[١].

قوله: ولا يزكو الدعا. إشارة إلى ما أخرجه الديلمي أنّه ﷺ قال: «الدعاء محجوبٌ حتى يُصلّى على محمد وأهل بيته. اللّهمّ صلِّ على محمد وآله»[٢]. ورواه عنه ابن حجر[٣].

وأخرج الطبراني في المعجم الأوسط عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «كلُّ دعاء محجوبٌ حتى يُصلّى على محمد وآل محمد». وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٠) وقال: رجاله ثقات[٤].

وأخرج البيهقي، وابن عساكر وغيرهما عن عليّ عليه السلام مرفوعاً ما معناه: الدعاء والصلاة معلّقٌ بين السماء والأرض لا يصعد إلى الله منه شيءٌ حتى يُصلّى عليه ﷺ وعلى آل محمد[٥].

قوله:

لولم يكونوا خيرَ من وطِيءَ الحصى   ما قال جبريلٌ لهمْ تحت العبا

أشار إلى ما ورد في لفظ بعض رواة حديث الكساء الصحيح المتواتر المتّفق عليه من: أنّه ﷺ أدرج معهم جبرئيل وميكائيل. ذكر ذلك الشبلنجي[٦].

قوله:

وإنّ جبريلَ الأمينَ قال لي   عن مَلَكيهِ الكاتبينِ مُذْ دَنا

---

(١) مجمّع الزوائد: ج١٠، ص ١٦٣.
(٢) الفردوس بمأثور الخطاب: ٣/ ٢٥٥، حديث ٤٧٥٤.
(٣) ابن حجر: الصواعق المحرقة، ص ١٤٨.
(٤) الطبراني: المعجم الأوسط، ١/ ٤٠٨، حديث ٧٢٥.
(٥) شُعب الإيمان: ٢/ ٢١٦، حديث ١٥٧٥، ١٥٧٦.
(٦) الشبلنجي: نور الأبصار، ص ٢٢٦، وانظر هامش نور الأبصار، ص ١٠٧.

أخرج الحافظ الخطيب البغدادي عن عمّار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ حافِظَي عليٍّ بن أبي طالب لَيفخران على سائر الحَفَظَة لكينونتهما مع عليٍّ بن أبي طالب؛ وذلك أنّهما لم يصعدا إلى الله تعالى بعمل يسخطه»[1].

٢ ـ قصيدة «آل النبي ﷺ».

آلُ النَّبــــيِّ مُحمَّـــــدِ ... أهــلُ الفَضَــائلِ والمَنَــاقـبْ
المُــرْشِـدُون مــن العَمـى ... والمنقــذون مــن اللــوازبْ[2]
الصَّــادقــون النَّــاطِقُــون ... السَّـابقـون إلـى الـرَّغـائـبْ
فَــوُلاهُــمُ فــرضٌ مــن الــر ... حمــنِ فــي القــرآنِ واجــبْ
وهــمُ الصِّــراط فمستقيــمٌ ... فــوقــه نــاجٍ ونــاكــبْ
صِــدّيقـــةٌ خُلِقَـت لصـدّ ... يـقٍ شـريـفٍ فـي المناسِـبْ
إختــارَه واختــارَهـــا ... طُهْـرَيـنِ مـن دَنَـس المعايـبْ
إسمــاهمــا قُــرِنــا علــى ... سَطْـرٍ بظِـلِّ العَـرشِ راتـبْ
كــان الإلـــهُ وليَّهـــا و ... أمينُــهُ جبــريــلُ خــاطــبْ
والمَهــرُ خُمــسُ الأرضِ مَــوْ ... هِبـةٌ تعـالـت فـي المـواهـبْ
ونهــابهــا مــن حِمْــلِ طــوبى ... طُيِّبَــتْ تلــك المنــاهــبْ[3]

ما تضمَّنته القصيدة من أحاديث

قوله: الصادقون: إشارةٌ إلى ما روي في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ ءَامنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة/١١٩] من طريق الحافظ أبي نعيم وابن مردويه وابن عساكر[4] وآخرين كثيرين عن جابر وابن عبّاس: أي كونوا مع عليٍّ بن أبي طالب.

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ١٤/٤٩.
(٢) اللوازب: الشدائد.
(٣) الأمين: أعيان الشيعة، ٧/ ٢٧٠.
(٤) تاريخ مدينة دمشق: ١٢/٣٠٧. وفي ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، رقم ١١٩.

قوله: *السابقون إلى الرغائب*. إشارةٌ إلى ما روي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة/ ١٠ ـ ١١] من أن هاتين الآيتين نزلتا في عليٍّ عليه السلام. أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس: أنّهما نزلتا في حزقيل مؤمن آلِ فرعون، وحبيب النجّار الذي ذُكِر في يس، وعليٍّ بن أبي طالب. وكلّ رجلٍ منهم سابق أمّته، وعليٌّ أفضلهم. وفي لفظ ابن أبي حاتم: يوشع بن نون بدل حزقيل.

وأخرج الديلمي[١] عن عائشة. والطبراني[٢]، وابن الضحّاك، والثعلبي، وابن مردويه، وابن المغازلي[٣]، عن ابن عبّاس: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «السُّبَّق ـ وفي لفظ: السُّبّاق ـ ثلاثة: السابق إلى موسى يوشع بن نون، وصاحب ياسين إلى عيسى، والسابق إلى محمد عليٌّ بن أبي طالب». وزاد الثعالبي في لفظه: «فهم الصدّيقون، وعليٌّ أفضلهم».

ورواه محبُّ الدين الطبري[٤] والهيثمي[٥] والكنجي بلفظ: «سُبّاق الأمم ثلاثةٌ، لم يُشْركوا بالله طرفة عين: عليٌّ بن أبي طالب، وصاحب ياسين، ومؤمن آل فرعون. فهم الصدّيقون، وعليٌّ أفضلهم». ثمّ قال: هذا سندٌ اعتمد عليه الدارقطني واحتجَّ به[٦].

ورواه باللفظ الأوّل الحافظ السيوطي في الدرّ المنثور[٧]، وابن حجر[٨]، وسبط ابن الجوزي[٩].

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب: ٢/ ٤٢١ حديث ٣٨٦٦.
(٢) المعجم الكبير: ١١/ ٧٧، حديث ١١١٥٢.
(٣) مناقب عليّ بن أبي طالب، ص ٣٢٠، حديث ٣٦٥.
(٤) الرّياض النضرة: ٣/ ٩٩.
(٥) مجمع الزوائد، ٩/ ١٠٢.
(٦) كفاية الطالب: ص ١٢٣، باب ٢٤.
(٧) ج٨، ص ٦.
(٨) الصواعق المحرقة، ص ١٢٥.
(٩) تذكرة الخواص: ص ١٧.

قوله :

فـولاهُـمُ فَـرْضٌ مـن الـر حمـنِ فـي القـرآن واجـبْ

أشار به إلى قوله تعالى: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى ومَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ [الشورى/ ٢٣]. توجد في الكتب والمعاجم أحاديث وكلمات ضافية حول الآية الشريفة لا يَسعُنا بسط المقال فيها، غير أنّا نقتصر بجملة منها:

أ ـ أخرج أحمد في المناقب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والواحدي، والثعلبي، وأبو نعيم، والبغوي في تفسيره، وابن المغازلي في المناقب بأسانيدهم عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتُك هؤلاء الذين وجبتْ علينا مودّتهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمة وابناهما»(١).

ب ـ قال جابر بن عبدالله:

جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ وقال: «يا محمد اعرض عليَّ الإسلام. فقال: تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. قال: تسألني عليه أجراً؟ قال: لا إلاّ المودّة في القربى. قال: قرابتي أو قرابتك؟ قال: قرابتي. قال: هات أُبايعك، فعلى مَن لا يحبُّك ولا يحبّ قرابتك لعنة الله. فقال النبيُّ ﷺ: آمين»(٢).

جـ ـ عن أبي الطفيل، قال: خطبنا الحسن بن عليِّ بن أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليه وذكر أمير المؤمنين علياً عليه السلام خاتم الأوصياء ووصيَّ الأنبياء وأمين الصدّيقين والشهداء، ثمّ قال:

---

(١) مناقب عليّ: ص ١٨٧، حديث ٢٦٣.
المعجم الكبير: ١١/ ٣٥١، حديث ١٢٢٥٩.
مناقب علي بن أبي طالب ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩، حديث ٣٥٢.

(٢) الحافظ الكنجي: كفاية الطالب، ص ٩٠، باب ١١.

«أيها الناس، لقد فارقكم رجلٌ ما سبقه الأوّلون ولا يدركه الآخرون. لقد كان رسول الله ﷺ يعطيه الراية فيقاتل جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فما يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد قبضه الله في الليلة التي قُبض فيها وصيُّ موسى وعُرج بروحه في الليلة التي عُرج فيها بروح عيسى بن مريم، وفي الليلة التي أنزل الله عز وجل فيها الفرقان، واللهِ ما تركَ ذهباً ولا فضّة، وما في بيت مالهِ إلاّ سبعمئة وخمسون درهماً فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادماً لأمّ كلثوم.

ثمّ قال: من عرَفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد. ثمّ تلا هذه الآية قول يوسف: ﴿واتّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إبراهيمَ وإسحقَ ويَعقُوبَ﴾ [يوسف/٣٨]. ثمّ أخذ في كتاب الله.

ثمّ قال: أنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، أنا ابن النبيِّ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا ابن الذي أُرسِل رحمةً للعالمين، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله عز وجل مودّتهم وولايتهم، فقال في ما أنزلَ على محمد: ﴿قُل لاَ أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾ . . .».

وفي لفظ الحافظ الزرندي: «وأنا من أهل البيت الذين كان جبريل عليه السلام ينزِلُ فينا ويصعَد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين افترضَ الله تعالى مودّتهم على كلِّ مسلم وأنزل الله فيهم: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُربَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لهُ فِيها حُسْناً﴾ واقتراف الحَسَنة مودّتُنا أهل البيت»[١].

د ـ ذكر ابن حجر أبياتاً شعرية للشيخ شمس الدين بن العربي، يقول فيها:

رأيتُ ولائي آلَ طه فريضةً ... على رغمِ أهل البُعد يورثني القُرْبا
فما طَلَبَ المبعوثُ أجراً على الهُدى ... بتبليغهِ إلاّ المودّةَ في القربى[٢]

(١) نظم درر السمطين، ص ١٤٨.
(٢) الصواعق المحرقة: ص ١٧٠.

وذكر ابن الصبّاغ المالكي لقائل هذه الأبيات :

همُ العروةُ الوثقى لمُعْتَصِمٍ بها | مناقبُهمْ جاءتْ بوحي وإنزالِ
مناقبُ في شورى وسورة هل أتى | وفي سورة الأحزاب يعرفها التالي
وهمْ آلُ بيتِ المصطفى فوِدادهُمْ | على الناسِ مفروضٌ بحكمٍ وإسجالِ[1]

وذكَرَ لآخر :

همُ القومُ من أصفاهمُ الوُدَّ مخلصاً | تمسّكَ في أُخراهُ بالسببِ الأقوى
هُمُ القومُ فاقوا العالمينَ مناقِباً | محاسنهمْ تُجلى وآثارُهم تُروى
موالاتهم فرضٌ وحُبُّهمُ هُدىً | وطاعتُهمْ وُدٌّ ووُدُّهمُ تقوى

وذكر الشبلنجي لأبي الحسن بن جبير هذه الأبيات :

أحبُّ النبيَّ المصطفى وابنَ عمِّهِ | عليّاً وسبطيه وفاطمة الزهرا
همُ أهلُ بيتٍ أذهبَ الرِّجسَ عنهُمُ | وأطلَعَهمْ أُفقُ الهدى أنجماً زُهرا
موالاتهم فرضٌ على كلِّ مسلمٍ | وحبُّهمُ أسنى الذخائر للأخرى
وما أنا للصحبِ الكرامِ بمُبغضٍ | فإنّي أرى البغضاءَ في حقِّهمْ كفرا[2]

قوله :

وهُمُ الصراط فمستقيمٌ | فوقه ناجٍ وناكبْ

أخرج الثعلبي في الكشف والبيان في قوله تعالى: ﴿**إهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**﴾ قال مسلم بن حيّان : سمعت أبا بريدة يقول : صراط محمد وآله[3].

وفي تفسير وكيع بن الجرّاح، عن سفيان الثوري، عن السدِّي، عن أسباط ومجاهد، عن عبدالله بن عبّاس في قوله تعالى: ﴿**إهْدِنا الصِراطَ المُسْتَقِيمَ**﴾ قال : قولوا معاشر العباد أرشدنا إلى حبِّ محمد وأهل بيته. وأخرج الحمّوئي

---

(١) الفصول المهمّة : ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) نور الأبصار : ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .
(٣) الكشف والبيان : الورقة ٩ سورة الحمد، آية ٦ .

بإسناده عن أصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وإنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ عن الصِّراطِ لناكبونَ﴾ [المؤمنون/ ٧٤] قال: «الصراط ولايتنا أهل البيت»(١).

وأخرج الخوارزمي في المناقب: الصراط صراطان: صراطٌ في الدنيا وصراطٌ في الآخرة. فأمّا صراط الدنيا فهو عليُّ بن أبي طالب، وأمّا صراط الآخرة فهو جسر جهنم. من عرف صراط الدنيا جاز على صراط الآخرة.

ويوضح معنى هذا الحديث ما أخرجه ابن عدي(٢) والديلمي كما في الصواعق المحرقة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أثبتُكمْ على الصراط أشدُّكم حبّاً لأهل بيتي ولأصحابي»(٣).

وأخرج شيخ الإسلام الحمّوئي بإسناده في فرائد السمطين(٤) في حديثٍ عن الإمام جعفر الصادق قوله: «نحن خيرةُ الله ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم إلى الله».

فهم الصراط إلى الله فمن تمسّك بهم فقد اتّخذ إلى ربّه سبيلاً، كما ورد فيما أخرجه أبو سعد بإسناده عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«أنا وأهل بيتي شجرةٌ في الجنّة وأغصانها في الدنيا، فمن تمسّك بنا اتّخذ إلى ربّه سبيلاً»(٥).

قوله: صِدِّيقةٌ خُلِقَتْ لِصدِّ ... يقٍ شَريفٍ في المناسب

يعني به فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله سمّاها به أبوها، في ما أخرجه أبو سعيد في شرف النبوّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لعليّ: «أوتيتَ ثلاثاً لم يُؤتَهنَّ أحدٌ

(١) فرائد السمطين: ٢/ ٥٢٣، باب ٤٨.
(٢) الكامل في ضعفاء الرّجال: ٦/ ٣٠٢، رقم ١٧٩١.
(٣) ص ١٨٧.
(٤) ٢/ ٢٥٤، حديث ٥٢٣ باب ٤٨.
(٥) شرف النبوّة: ص ٢٥١. وانظر: ذخائر العقبى: ص ١٦.

ولا أنا: أوتِيتَ صهراً مثلي ولم أُوتَ أنا مثلي. وأوتيتَ زوجة صدِّيقة مثل ابنتي ولم أوتَ مثلها زوجة. وأوتِيتَ الحسن والحسين من صلبك ولم أُوت من صلبي مثلهما، ولكنّكم منّي وأنا منكم»(١).

وعن عائشة أمِّ المؤمنين، قالت: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجةً من فاطمة إلاّ أن يكون الذي ولدها ﷺ(٢).

قوله: لصدّيق. . .

يعني به أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ وهو صدّيقُ هذه الأمّة وذلك لقبه الخاص. قال محبُّ الدين الطبري: إنّ رسول الله ﷺ سمّاه صدِّيقاً(٣).

قوله:

إسماهما قُرِنا على سَطْرٍ   بظلِّ العرش راتبْ

أشار إلى حديث كتابة أسماء فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها في ظلِّ العرش، وقد كتبت على باب الجنّة، كما أخرجه الخطيب البغدادي عن ابن عبّاس قال:

قال رسول الله ﷺ: «ليلة عُرِج بي إلى السماء رأيتُ على باب الجنّة مكتوباً لا إله إلاّ الله، محمدٌ رسول الله، عليٌّ حبيب الله، والحسن والحسين صَفْوةُ الله، فاطمةُ خِيرة الله، على مبغضيهم لعنة الله»(٤).

قوله:

كان الإلهُ وليَّها و   أمينُه جبريلُ خاطبْ

إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى هو زوَّج فاطمةَ علياً، وكان وليّ أمرها، وخطب فيه الأمين جبرئيل عليه السلام كما ورد عن جابر بن سَمُرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) الطبري: الرياض النضرة، ٣/ ١٥٢.
(٢) الأصفهاني: حلية الأولياء، ٢/ ٤٢. وانظر: الاستيعاب لابن عبد البر: ٤/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨.
(٣) الرياض النضرة، ٣/ ٩٤ ـ ٩٥.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: ١/ ٢٥٩. وانظر: الخوارزمي: المناقب، ص ٢٤٠.

«أيّها الناس، هذا عليٌّ بن أبي طالب، أنتم تزعمون أنّني أنا زوّجته ابنتي فاطمة، ولقد خطبَها إليَّ أشراف قريش فلم أُجِب، كلُّ ذلك أتوقّع الخبر من السماء حتى جاءني جبرئيل ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان، فقال: يا محمد، العليُّ الأعلى يقرأ عليك السلام، وقد جمع الروحانيّين والكرّوبيّين في وادٍ يُقال له: الأفيَح. تحت شجرة طُوبى، وزوّج فاطمة علياً، وأمرني فكنت الخاطب، والله تعالى الوليّ»[1].

وأخرج محبُّ الدين الطبري في الذخائر (ص ٣١) عن عليٍّ قال:

قال رسول الله ﷺ: «أتاني مَلَكٌ فقال: يا محمد، إنَّ الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك: إنّي قد زوّجت فاطمة ابنتك من عليٍّ بن أبي طالب في الملأ الأعلى فزوِّجها منه في الأرض».

وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بالإسناد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أصاب فاطمة بنت رسول الله ﷺ صبيح العُرس رِعْدة، فقال لها رسول الله ﷺ: يا فاطمة، إنّي زوّجتُكِ سيِّداً في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين.

يا فاطمة إنّي لمّا أردت أن أُملِكَكِ لعليٍّ أمر الله جبريل فقام في السماء الرابعة فصفَّ الملائكة صفوفاً ثمّ خطب عليهم جبريل فزوّجك من عليّ، ثمّ أمَرَ شجَر الجِنان فحملت الحُليَّ والحُلَل ثمّ أمرَها فنثرتْهُ على الملائكة، فمن أخذَ منهم يومئذٍ أكثر ممّا أخذ صاحبه أو أحسن افتخر به إلى يوم القيامة. قالت أمّ سلمة: فلقد كانت فاطمة تَفخَرُ على النساء حيث أوّل من خطب عليها جبريل»[2].

قوله:

والمهر خُمس الأرض مو　　هبةٌ تعالت في المواهبْ

(١) كفاية الطالب: ص ٣٠٠، باب ٧٩.

(٢) البغدادي: تاريخ بغداد، ٤/ ١٢٩.

أشار به إلى ما أخرجه شيخ الإسلام الحمّوئي في فرائد السمطين في الباب الثامن عشر عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعليٍّ: «يا عليُّ إنَّ الأرض لله يورِثُها من يشاءُ من عباده، وإنّه أوحى إليَّ أن أزوِّجكَ فاطمة على خمس الأرض، فهي صداقها، فمن مشى على الأرض وهو لكم مُبْغِضٌ فالأرض حرامٌ عليه أن يمشي عليها»[1].

قوله:

ونهابها من حِمْلِ طوبى ... طُيِّبت تلك المناهبْ

أشار إلى حديث النثار المرويّ عن بلال بن حمامة، قال: «طلع علينا رسول الله ﷺ ذات يوم متبسّماً ضاحكاً ووجهه مسرورٌ كدارةِ القمر، فقام إليه عبد الرحمن بن عوف، فقال: يا رسول الله ما هذا النور؟ قال: بِشارةٌ أتَتني من ربِّي في أخي وابن عمّي بأنّ الله زوّج عليّاً من فاطمة، وأمر رضوان خازن الجنان فهزَّ شجرة طوبى فحملتْ رِقاعاً ـ يعني صِكاكاً ـ بعدد محبّي أهل البيت، وأنشأ تحتها ملائكةً من نور ودفع إلى كلِّ ملك صِكاكاً، فإذا استوت القيامة بأهلها نادت الملائكة في الخلائق، فلا يبقى مُحِبٌّ لأهل البيت إلاّ دفعت له صكّاً فيه فكاكُهُ من النار، فصار أخي وابن عمّي وابنتي فُكّاك رقاب رجال ونساء أمّتي من النار»[2].

٣ ـ قصيدة «يا سادتي، يا بني علي».

يا سادتي يا بَني عليٍّ ... يا آلَ طه وآلَ صادِ
مَن ذا يُوازيكمُ وأنتمْ ... خلائفُ الله في البلادِ
أنتم نجومُ الهدى اللواتي ... يهدي بها اللهُ كلَّ هادِ
لولا هُداكمْ إذاً ضَلَلْنا ... والتبسَ الغيُّ بالرشادِ
لا زلتُ في حُبّكمْ أوالي ... عمري وفي بُغْضِكم أعادي

(١) فرائد السمطين: ١/ ٩٥، حديث ٦٤.

(٢) انظر: ابن حجر: أُسد الغابة: ١/ ٢٤٢، رقم ٤٩٢.
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤/ ٢١٠..
ابن حجر: الصواعق المحرقة، ١٧٣.

وما تـزوّدتُ غيـرَ حبِّـي إيّـاكـمُ وهـو خيـر زادِ
وذاك ذُخـري الـذي عليـهِ فـي عَـرْصَـةِ الحَشْـر اعتمـادي
وَلاكُـمُ والبـراءُ ممّـنْ يشنـأكُـمُ اعتقـادي

٤ ـ غديريّة العبدي ـ قصيدة «نادِ خير وصيٍّ».

يبدأ الشاعر هذه القصيدة بمقدّمة طلليّة مطلعها:

هل في سؤالِك رسمَ المنزلِ الخَرِبِ بُـرءٌ لـقلبـك من داءِ الهوى الـوَصِبِ
أمْ حَـرُّهُ يـوم وَشْـكِ البَيْنِ يُبْرِدُهُ ما اسْتَحْدَثَتْهُ النوى من دمعِكَ السَّـرِبِ

ويطيـل الشـاعـر في الوقوف على ديار الحبيبة وفي وصفها وتصوير حالته بعد بَيْنها:

ليس العجيب بأن لم يبقَ لي جَلَدٌ لكنْ بقائي وقد بانوا من العجبِ
شِبْتُ ابنَ عشرين عاماً والفراقُ لهُ سهمٌ متى ما يُصِبْ شملَ الفتى يَشِبِ

ثـم يخلـص إلـى بيان شوقه للغري وما فيه وما يضمّه، وينادي خير وصيٍّ صنو خير نبي:

ما هزّ عَطْفيَ من شوقٍ إلى وطني ولا اعترانيَ من وَجْدٍ ومن طَرَبِ
مثـل اشتيـاقـي مـن بُعْـدٍ ومُنتَـزحٍ إلـى الغـريِّ ومـا فيـهِ مـن الحَسَـبِ
أزكى ثرىً ضَمَّ أزكى العالمين فذا خيرُ الـرجـال وهـذا أشـرفُ التُّرُبِ
إن كان عن ناظري بالغَيْبِ محتجباً فـإنّـه عـن ضميـري غيـرُ محتجِـبِ
واجعـلْ شِعـارَكَ للهِ الخشـوعَ بـهِ ونـادِ خيـرَ وصـيٍّ صِنْـو خيـرِ نبـي
إسمع أبا حسنٍ إنَّ الأُلى عَدَلوا عن حُكمك انقلبوا عن شرِّ مُنقَلَبِ
ما بالُهمْ نكبوا نهجَ النجاة وقد وضَّحتَهُ واقتَفَوا نهجاً من العَطَبِ
ودافعوكَ عن الأمر الذي اعتلَقَتْ زِمـامَـهُ مـن قُـريـشٍ كَـفُّ مُغتصِبِ
ظلّت تُجاذبها حتى لقد خَرَمتْ خَشَاشها تَرِبَتْ من كفُّ مُجتذِبِ(١)

(١) خَرَمَ الخرزة: فَصَمها، شقّ وترة الأنف. الخشاشة: عود يجعل في أنف الجمل.

وكان بالأمس منها المُستقيل فَلِمْ ... أرادَها اليوم لو لم يأتِ بالكَذِبِ
وأنتَ توسِعُهُ صَبراً على مَضَضٍ ... والحِلْمُ أحسَنُ ما يأتي مع الغَضَبِ
حتى إذا الموتُ ناداهُ فأسْمَعَهُ ... والموتُ داعٍ متى يَدْعُ امرءاً يُجِبِ
حَبَا بها آخَراً فاعتاض محتقِباً (١) ... منه بأفظعِ محمولٍ ومحتقِبِ
وكان أوّل من أوصى ببيعته ... لك النبيُّ ولكن حال من كَثَبِ
حتى إذا ثالثٌ منهمْ تَقَمَّصَها ... وقد تبدَّلَ منها الجِدُّ باللعبِ
عادت كما بُدِئت شوهاءَ جاهلةً ... تَجُرُّ فيها ذِئابٌ أكْلَةَ الغَلَبِ
وكان عنها لهم في خُمّ مُزْدَجَرٌ ... لمّا رَقَى أحمدُ الهادي على قَتَبِ
وقال والناسُ من دانٍ إليه ومن ... ثاوٍ لديه ومن مُصْغٍ ومرْتَقِبِ
قُمْ يا عليُّ فإنّي قد أُمرتُ بأنْ ... أبلّغ الناس والتبليغُ أجدَرُ بي
إنّي نصبتُ علياً هادياً عَلَماً ... بعدي وإنَّ علياً خيرُ منتصَبِ
فبايعوك وكلٌّ باسطٌ يدَهُ ... إليك من فوق قلبٍ عنكَ مُنقَلِبِ
عافُوكَ لا مانعٌ طَولاً ولا حَصِرٌ ... قولاً ولا لَهِجٌ بالغِشِّ والرِّيَبِ
وكنتَ قُطْبَ رحى الإسلامِ دونَهمُ ... ولا تدور رحىً إلاّ على قُطُبِ
ولا تُماثِلُهمْ في الفضلِ مرتبةً ... ولا تُشابهُهُمْ في البيتِ والنَسَبِ
إن تلْحَظِ القِرْنَ والعَسَّالُ في يدِهِ ... يَظَلَّ مضطرباً في كفِّ مُضطرِبِ
وإن هَزَزْتَ قناةً ظَلْتَ تُورِدُها ... وريدَ ممتنعٍ في الرَوع مُجتنبِ
ولا تَسُلُّ حُساماً يومَ مَلحَمةٍ ... إلاّ وتحجُبُهُ في رأس محتجبِ
كيومِ خيبرَ إذ لمْ يمتنعْ زُفَرٌ ... عن اليهودِ بغير الفَرِّ والهرَبِ
فأغضبَ المصطفى إذ جرَّ رايتَهُ ... على الثرى ناكِصاً يهوي على العَقِبِ
فقال إنّي سأُعطيها غداً لفتىً ... يُحِبُّهُ اللهُ والمبعوثُ مُنْتَجَبِ
حتى غدوتَ بها جذلانَ تَحمِلُها ... تِلقاءَ أرعنَ من جَمْعِ العدى لَجِبِ
جَمٌّ الصلادمِ والبيضِ الصوارم وا ... لزرق اللهاذمِ والماذيّ واليَلَبِ

(١) اعتاض: أخذ بَدَلاً وخَلَفا. احتقب: أركبه وراءه.

فالأرضُ من لاحقيّاتٍ مُطَهَّمةٌ ... والمستظلُّ مَثارُ القَسْطَلِ الهَدِبِ
وعارَض الجيش من نقع بوارقه ... لمع الأسنَّةِ والهنديّة القُضُبِ
أقدمتَ تضربُ صبراً تحتَهُ فغدا ... يُصَوِّبُ مُزْناً ولو أحجمتَ لم يُصِبِ
غادرتَ فرسانَهُ من هاربٍ فَرِقٍ ... أو مُقعصٍ بدمِ الأوداج مُختضبِ
لك المناقب يعيا الحاسبون بها ... عَدّاً ويعجِزُ عنها كلُّ مُكتتِبِ
كرجعةِ الشمسِ إذ رُمتَ الصلاةَ وقد ... راحَتْ تَوارى عن الأبصارِ بالحُجُبِ
رُدَّتْ عليك كأنّ الشُّهْبَ ما اتّضَحَتْ ... لناظرٍ وكأنّ الشمسَ لم تَغِبِ
وفي براءةَ أنباءٌ عجائبُها ... لم تُطوَ عن نازحٍ يوماً ومُقتربِ
وليلةَ الغارِ لمّا بتَّ ممتلئاً ... أمْناً وغيرُك ملآنٌ من الرُّعُبِ
ما أنتَ إلاّ أخو الهادي وناصرُهُ ... ومُظهِرُ الحقِّ والمنعوتُ في الكُتُبِ
وزوجُ بَضعتِهِ الزهراءِ يَكنُفُها ... دون الورى وأبو أبنائه النُّجُبِ
من كلِّ مجتهدٍ في الله مُعْتضِدٍ ... بالله معتقدٍ لله مُحتسِبِ
هادينَ للرُّشدِ إن ليلُ الضّلالِ دَجا ... كانوا لطارقهم أهدى من الشُّهُبِ
لُقِّبتُ بالرفض لمّا إن منحتُهمُ ... وُدِّي وأحسنُ ما أُدعى به لقبي
صلاة ذي العرشِ تَتْرى كلَّ آونةٍ ... على ابن فاطمةَ الكشّافِ للكُرَبِ
وابنيه من هالكٍ بالسُّمِّ مُخْتَرَمٍ ... ومن معفّرِ خدٍّ في الثرى تَرِبِ
والعابدِ الزاهد السجّاد يتبعُهُ ... وباقر العلم داني غايةِ الطَّلَبِ
وجعفرٌ وابنه موسى ويتبعُهُ الـ ... ـبرُّ الرضا والجواد العابد الدئبُ
والعسكريَّينِ والمهديِّ قائمهمْ ... ذي الأمر لابس أثوابِ الهدى القُشُبِ
مَنْ يملأُ الأرضَ عدلاً بعدما مُلِئَتْ ... جوراً ويَقْمَعُ أهلَ الزَيْغِ والشَّغبِ
القائدُ البُهَمَ الشوسَ الكماة إلى ... حربِ الطغاة على قبِّ الكلا الشُّزُبِ
أهلُ الهدى لا أُناسٌ باع بائعُهُمْ ... دينَ المُهَيمنِ بالدنيا وبالرُّتَبِ
لو أنّ أضغانهم في النارِ كامنةٌ ... لأغْنَتِ النارَ عن مُذْكٍ ومحتطِبِ
يا صاحبَ الكوثر الرقراقِ زاخرةً ... ذُدِ النواصِبَ عن سَلسالِه العَذِبِ
قارعتُ منهم كُماةً في هواكَ بما ... جرَّدتُ من خاطرٍ أو مِقْوَلٍ ذَرِبِ

حتى لقد وَسَمَتْ كَلْماً جباهَهمُ ... خواطري بمُضاء الشعرِ والخُطَبِ
صَحِبْتُ حبّكَ والتقوى وقد كَثُرَتْ ... لـيَ الصحـابُ فـكانـا خيرَ مُصْطَحِبِ
فاستَجْلِ من خاطرِ العبديِّ آنسةً ... طابتْ ولَو جاوَزَتْكَ اليوم لم تَطِبِ
جاءتْ تَمايلُ في ثَوْبَيْ حَياً وهدىً ... إليـك حـاليـةً بـالفضـلِ والأدبِ
أتعَبتُ نفسيَ في مذْحِيكَ عارفةً ... بـأنّ راحتَهـا فـي ذلـك التَعَـبِ

٥ ـ أبيات من قصائد في مدح الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

□وكم غمرةٍ للموتِ في الله خاضَها ... ولُجّـةِ بحـرٍ فـي الحُكـوم أقـامهـا
وكـم ليلـةٍ ليـلاء لله قـامهـا ... وكم صبحةٍ مشجورةِ الحرِّ صامها
□أنت عين الإله والجَنْبُ من فـ ... ـرّط فيـه يصلـى لَظـىً مـذمـومـا
أنـتَ فُلْـكُ النجـاةِ فينـا ومـا زلـ ... ـتَ صِـراطاً إلى الهدى مستقيما
وعليك الورودُ تَسقى من الحو ... ض ومـن شئـت ينثنـي محـرومـا
وإليك الجواز تُدْخِلُ مَن شئتَ ... جِنـانـاً ومَـن تشـاءُ جحيمـا(١)

ما تضمَّنته الأبيات من أحاديث

قوله :

وعليك الورودُ تسقى من الحو ... ض ومـن شئـت ينثنـي محـرومـا

فيـه إيـعـازٌ إلـى أنَّ سقـايـة الحـوض (الكـوثـر) يوم القيامة بيد عليّ أمير المؤمنين، يسقي منه محبّيه ومواليه ويذود عنه المنافقين والكفّار، وورد في ذلك أحاديث في الصحاح والمسانيد، ونحن نذكر بعضها :

أ ـ أخرج الطبراني بإسناد رجال ثقات عن أبي سعيد الخدري، قال :

قال النبيُّ صلى الله عليه وآله : «يا عليُّ معك يوم القيامة عصا من عُصِيِّ الجنة تذود بها المنافقين عن الحوض»(٢).

(١) الأمين : أعيان الشيعة، ٧/ ٢٦٩.
(٢) الطبراني : المعجم الصغير، ٢/ ٨٩.

ب ـ أخرج الحاكم في المستدرك بإسناده، وصحّحه عن عليّ بن أبي طلحة، قال:

حَجَجْنا فمررنا على الحسن بن عليّ بالمدينة، ومعنا معاوية بن حُديج (بالتصغير) فقيل للحسن: إنّ هذا معاوية بن حُديج السابّ لعليّ. فقال: «عليّ به». فأُتي به. فقال: «أنت السابُّ لعليّ؟» فقال: ما فعلتُ.

فقال: «والله إن لَقِيته، وما أحسَبُك تلقاه يوم القيامة لَتجده قائماً على حوض رسول الله ﷺ يذود عنه رايات المنافقين، بيده عصاً من عوسج، حدّثنيه الصادق المصدوق ﷺ وقد خاب من افترى»(١).

وأخرجه الطبراني وفي لفظه: «لَتَجِدَنّه مُشَمِّراً حاسراً عن ذراعيه، يذود الكفّار والمنافقين عن حوض رسول الله ﷺ قول الصادق المصدوق محمد»(٢).

قوله:

وإليك الجواز تُدخل من شئت ... جِناناً ومَن تشاءُ جحيما

يشير الشاعر العبدي الكوفي في هذا البيت إلى معانٍ كثيرة نجد لها ما يؤكّدها في ما أخرجه القاضي عياض عن النبيِّ ﷺ أنه قال:

«معرفة آل محمد براءةٌ من النار، وحبُّ آل محمد جوازٌ على الصراط، والولاية لآل محمد أمانٌ من العذاب»(٣).

□ لأنتُمْ على الأعرافِ أعرفُ عارفٍ ... بسيما الذي يهواكمُ والذي يَشْنا

أئمّتُنا أنتمْ سنُدعى بِكمْ غداً ... إذا ما إلى ربِّ العبادِ مَعاً قُمْنا

بجدِّكُم خيرِ الورى وأبيكمُ ... هُدينا إلى سُبُلِ النجاةِ وأُنقذْنا

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٤٨، ح ٤٦٦٩.
(٢) الطبراني: المعجم الكبير، ٣/ ٩١، حديث ٢٧٥٨.
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/ ١٠٥.

ولـولاكـمُ لـم يَخْلُـقِ اللهُ خَلقَـهُ ... ولا لقَّـبَ الـدنيـا الغَـرورَ ولا كُنّـا
ومـن أجلكـم أنشـا الإلـهُ لخِلقِـهِ ... سماءً وأرضاً وابتلى الإنس والجِنّا
تَجِلُّونَ عن شِبْهٍ من الناس كلِّهمْ ... فشـأنكُـمُ أعلـى وقـدركُـمُ أسنـى
إذا مسَّنـا ضُـرٌّ دَعَـونـا إلَهنـا ... بمـوضعكـمْ منـهُ فيكشفُـه عنّـا
وإن دَهَمَتَنـا غُمّـةٌ أو مُلِمَّـةٌ ... جعلناكُمُ منها ومن غيرها حصنا
وإن ضامَنا دهرٌ فعُدنا بعزِّكمْ ... فيبعـد عنّـا الضيـم لمّـا بكـم عُـذنـا
وإن عارضتنا خِيفةٌ من ذنوبنا ... بَـراةٌ لنـا منهـا شفـاعتكـم أمنـا(١)

ما تضمَّنته الأبيات من أحاديث

البيـت الأوّل إشـارةٌ إلـى قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وعلى الأعرافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِمَاهُمْ﴾ [الأعراف/٤٦] وما ورد فيه.

أخـرج الحـاكم بـن الحذّاء الحسكاني، بإسناده عن أصبغ بن نباتة، قال: كـنت جـالسـاً عنـد علـيّ فأتاه ابن الكوّا فسأله عن قوله تعالى: ﴿وعلى الأَعْرَافِ رِجَـالٌ...﴾. فقـال: «ويحـك يـا ابـن الـكوّا نحن نوقَفُ يوم القيامة بين الجنّة والنـار، فمـن نَصَرَنـا عَرَفنـاه بسيماه فأدخلناه الجنّة، ومن أبغَضَنا عَرَفناه بسيماه فأدخلناه النار»(٢).

وأخـرج أبـو إسحاق الثعلبي في الكشف والبيان في الآية الشريفة عن ابن عبّاس أنّه قال: الأعراف موضعٌ عالٍ من الصراط، عليه العبّاس وحمزة وعليُّ بن أبـي طـالـب وجعفر ذو الجنـاحين، يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه(٣).

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة، ٧/٢٦٩.
(٢) شواهد التنزيل: ١/٢٦٣، ح ٢٥٦.
(٣) أبو إسحـاق: الكشـف والبيـان، الـورقـة ٢٠٦. وانـظـر: ابـن حجـر في الصواعق المحرقة، ص ١٦٩.
والشوكاني في فتح القدير: ٢/٢٠٨. والشافعي في مطالب السؤول، ص ١٧.

والبيت الثاني إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء/ ٧١]. وأئمّة الشيعة هم العترة الطاهرة يُدعَونَ بهم ويُحشَرون معهم، إذ «المرء ـ كما قال النبيُّ الأقدس ـ مع من أحبَّ»[١]. «ومن أحبَّ قوماً حُشِر معهم»[٢]. «ومن أحبَّ قوماً حَشَرَهُ الله في زُمرتهم»[٣].

* * *

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٨٣ ح٥٨١٦، سنن أبي داود: ٤/ ٣٣٣ ح٥١٢٧، سنن الترمذي: ٤/ ٥١٣ ح ٢٣٨٥، النسائي، وأحمد عن أنس، مسند أحمد: ٤/ ٥٦ ح ١٢٦٥٥، ابن مسعود: ١/ ٦٤٨ ح ٣٧١٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٤٢٦، ح ٨١٦١.

(٣) المعجم الكبير: ٣/ ١٩، ح ٢٥١٩.

(٩)
يحيى بن بلال العبدي الكوفي

عـاصـر سفيان بن معصب، من شعراء الشيعة، شاعر آخر شاركه في كنيته ولقبه وبيئة نشـأتـه ومذهبه، ألا وهو أبو محمد، يحيى بن بلال العبديُّ الكوفيُّ، فنذكره لكثرة وقوع الاشتباه بينهما وقلّة ذكره.

قال المرزباني[1] إنّه كوفيٌّ نزل همدان، وهو شاعرٌ محسنٌ يتشيّع، وله في الرشيد مدائح حسنة وهو القائل:

وللمَوتُ خيرٌ من حياةٍ زهيدةٍ ... ولَلْمنـعُ خيـرٌ مـن عطـاءٍ مُكَـدَّرِ
فعش مُثرياً أو مُكْدياً من عطيّةٍ ... تُمنّـى وإلاّ فـاسـألِ الله واصبـرِ

وله:

لعَمْري لَئِن جارت أميّة واعتَدَتْ ... لأَوّلُ مـن سَـنَّ الضـلالـةَ أجـوَرُ

وأنشـد العبـديُّ هـذا عبـدالله بـن علـيّ بن عبدالله بن العبّاس[2] بنهر أبي فُطْرُس[3] وله فيه خبر:

أمّـا الـدعـاةُ إلى الجِنان فهاشمٌ ... وبنـو أميّـةَ مـن دُعـاة النـارِ

---

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ص ٤٨٨.

(٢) أحد أعمام أبي العبّاس السفّاح، كان قائد الجيش العبّاسي الذي هزم مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة. طمح، بعد وفاة السفّاح، إلى الخلافة، فوجّه إليه المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني، فهزمه. كتب له المنصور أماناً، ويروى أنّه، بعد أن عاد إلى بغداد، أنزله المنصور في بيت أقيم أساسه على الملح. ولما أقام عبد الله فيه أجرى المنصور الماء على الأساس فانهدم البيت على من فيه، فقتل سنة ١٤٧هـ.

(٣) إسم نهر مدينة الرملة بفلسطين.

أأُميَّ مالَكِ من قرارٍ فالحقي بالجنِّ صاغرةً بأرضِ وَبارِ
فلئن رحلتِ لَتَرْحَلِنَّ ذميمةً وإذا أقمتِ بذلَّةٍ وصغارِ

وخبر العبديِّ هذا وإنشاده عبدالله العبّاسي الشعر المذكور ذكره جملة من مؤرّخي الأدب العرب(١).

فقال ابن قتيبة: ولمّا افتتح عبدالله الشام، وقتل مروان، قال لأبي عون ومن معه من أهل خراسان: إنَّ لي في بقيّة آل مروان تدبيراً فتأهّبوا يوم كذا وكذا في أكمل عدّة، ثمّ بعث إلى آل مروان في ذلك اليوم فجُمِعوا وأعلَمهم أنّه يفرض لهم في العطاء، فحضر منهم ثمانون رجلاً فصاروا إلى بابه ومعهم رجل من كلب قد ولَّدهم [ربّاهم]، ثمّ أُذِنَ لهم فدخلوا، فقال الآذن للكلبي: ممّن أنت؟ قال: من كَلب وقد وَلَّدْتُهم. قال: فانصرف ودعِ القوم، فأبى أن يفعل، وقال: إنِّي خالهم ومنهم.

فلمّا استقرَّ بهم المجلس خرج رسول عبد الله وقال بأعلى صوته: أين حمزة بن عبد المطّلب؟ ليدخل، فأيقن القوم بالهلكة. ثمّ خرج الثانية فنادى: أين الحسين بن عليّ؟ ليدخل. ثمّ خرج الثالثة فنادى: أين زيد بن عليّ بن الحسين؟ ثمّ خرج الرابعة فقال: أين يحيى بن زيد؟

ثمّ قيل: ائذنوا لهم، فدخلوا وفيهم الغَمْر بن يزيد، وكان له صديقاً فأومأ إليه: أن ارتفع فأجلسه معه على طنفسته، وقال للباقين: اجلسوا، وأهل خراسان قيامٌ بأيديهم العُمُد.

فقال: أين العبديّ؟ فقام وأخذ في قصيدته التي يقول لها:

أمّا الدعاة إلى الجِنانِ فهاشمٌ وبنو أميّة من دعاةِ النارِ

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ١/ ٢٠٧، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٣٥٥.
ابن رشيق: العمدة، ١/ ٦٣.

فلمّا أنشد أبياتاً منها، قال الغمر : يا ابن الزانية؟ فانقطع العبدي وأطرق عبدالله ساعة، ثمّ قال : أمض في نشيدك. فلمّا فرغ رمى إليه بصرّة فيها ثلاثمئة دينار، ثمّ تمثّل بقول القائل :

ولقد ساءني وساء سوايَ   قُربُهم من منابرٍ وكراسي
أنزلوها بحيثُ أنزلَها الله   بدارِ الهوانِ والإتعاسِ
لا تُقيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِثاراً   واقطعوا كلَّ نخلةٍ وغِراسِ
واذكروا مصرع الحسين وزيدٍ   وقتيلاً بجانبِ المهراسِ[1]

ثمّ قال لأهل خراسان : دهيد، فشُدِخوا بالعُمُد حتى سالت أدمغتهم، وقام الكلبي فقال : أيّها الأمير، أنا رجلٌ من كلب لستُ منهم، فقال :

ومُدْخِلٍ رأسَهُ لم يُدْنِهِ أحَدٌ   بين الفريقينِ حتى لزَّه القَرَنُ

ثمّ قال : دهيد. فشُدخ الكلبي معهم، ثمّ التفت إلى الغمر فقال : لا خير لك في الحياة بعدهم. قال : أجل. فقُتِل، ثمّ دعا ببراذع فألقاها عليهم وبسط عليها الأنطاع ودعا بغدائه فأكل فوقهم، وإنَّ أنين بعضهم لم يهدأ حتى فرغ. ثمّ قال : ما تهنّأت بطعام منذ عقلت مقتل الحسين إلاّ يومي هذا. وقام فأمر فجرّوا بأرجلهم، وأغنمَ أهل خراسان أموالهم ثمّ صُلبوا في بستانه.

وكان يأكل يوماً، فأمر بفتح باب من الرُّواق إلى البستان، فإذا رائحة الجِيَف تملأ الأنوف، فقيل له : لو أمرتَ أيّها الأمير بردِّ هذا الباب.

فقال : والله لرائحتُها أحبُّ إليَّ وأطيب من رائحة المسك. ثمّ قال :

حَسِبَتْ أميّةُ أن سترضى هاشمٌ   عنها ويذهب زيدُها وحسينُها
كلاّ وربِّ محمدٍ وإلهِهِ   حتى تُباحَ سُهُولُها وحُزُونُها
وتَذِلَّ ذُلَّ حليلةٍ لحليلِها   بالمَشْرَفيِّ وتُستردّ ديونُها

(١) المهراس : ماء بجبل أُحُد. ويعني بالقتيل : حمزة بن عبد المطّلب (رضوان الله عليه).

وقال اليعقوبي: وانصرف عبدالله بن عليّ إلى فلسطين، فلمّا صار بنهر أبي فُطْرُس بين فلسطين والأردن جمع إليه بني أميّة، ثمّ أمرهم أن يَغْدُوا عليه لأخذ الجوائز والعطايا، ثمّ جلس من غدٍ وأذِنَ لهم، فدخل عليه ثمانون رجلاً من بني أميّة، وقد أقام على رأس كلِّ رجل منهم رجلين بالعُمُد، وأطرق مليّاً، ثمّ قام العبديّ فأنشد قصيدته التي يقول فيها:

أمّا الدُّعاةُ إلى الجِنانِ فهاشمٌ ... وبنو أميّة من دعاةِ النارِ

وكان النعمان بن يزيد بن عبد الملك جالساً إلى جنب عبدالله بن عليّ، فقال له: كذبت يا ابن اللخناء. فقال له عبدالله بن عليّ: بل صدقتَ يا أبا محمد، فامضِ لقولك. ثمّ أقبل عليهم عبدالله بن عليّ، فذكر لهم قتل الحسين عليه السلام وأهل بيته، ثمّ صفق بيده فضرب القوم رؤوسهم بالعُمُد حتى أتوا عليهم، فناداه رجلٌ من أقصى القوم:

عَبْدُ شَمْسٍ أبوكَ وَهْوَ أبونا ... لا نُناديك من مكانٍ بعيدِ
فالقراباتُ بيننا واشجاتٌ ... مُحكَماتُ القُوى بِعَقْدٍ شديدِ

فقال: هيهات قطع ذلك قتل الحسين. ثمّ أمرَ بهم فسُحبوا فطرحت عليهم البسط وجلس عليها، ودعا بالطعام فأكل، فقال: يومٌ كيوم الحسين بن عليّ ولا سواء.

* * *

شعراء القرن الثالث الهجري

١٠ ـ أبو تمام الطائي حبيب بن أوس
١١ ـ دعبل الخزاعي
١٢ ـ أبو إسماعيل العلوي
١٣ ـ الوامق النصراني
١٤ ـ ابن الرومي
١٥ ـ الحمّاني الأفوه

(١٠)
أبو تمّام حبيب بن أوس الطّائي

اسمه ونسبه وولادته ووفاته

أبو تمّام حبيب بن أوس الطَّائي شاميُّ الأصل، وُلد سنة ١٩٠هـ، في قرية جاسم من قرى الجيدور من أعمال دمشق[١] على الأرجح. ويكثر الاختلاف في سنة ولادته، وكان الأصحّ أن يؤخذ بالمنقول عن ابنه تمام، إذ إن أهل البيت أدرى بما فيه، لكنّ اختلاف المؤرخين في المنقول عنه يسلب الثقة به، فمجموع الأقوال: إنّه وُلِد إمّا سنة ١٧٢ أو ١٨٨ أو ١٩٠ أو ١٩٢هـ. واختلف في سنة وفاته أيضاً، ومجموع الأقوال أنه توفي إما سنة ٢٢٨ أو ٢٢٩ أو ٢٣١ أو ٢٣٢هـ، والأرجح أنه توفي سنة ٢٣١هـ في الموصل، ولا تزال قبّته معمورة وقبره معروفاً حتى اليوم.

وكما اختلف المؤرِّخون في سنة ولادته وسنة وفاته اختلفوا في مكان ولادته وفي نسبه، فقد جاء في الأغاني في ما يتعلق بالأمر الأول: «مولده ومنشأه بناحية منبج بقرية يقال لها جاسم». ويعلّق السيد محسن الأمين على هذا القول، فيرى أنّ أحداً غير أبي الفرج «لم يذكر أن بناحية الجيدور ما يقال له منبج، وإنما منبج بناحية حلب، ولعله كان بناحية الجيدور ما اسمه منبج»[٢]. ويروى في ما يتعلق بالأمر الثاني أن أبا أبي تمام «كان نصرانياً من أهل جاسم يقال له ندوس[٣] العطَّار، فجعلوه أوساً، وقد لُفِّقت له نسبة إلى طيء». وفي دائرة المعارف

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٨/ ٢٤٨.
وانظر: الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٠٣.
(٢) أعيان الشيعة، دار التعارف، ٤/ ٣٩٠.
(٣) لهذا الاسم قراءات مختلفة: تدوس. تدرس. ندوس. ثدرس. ثادوس. ثيودرس.

الإسلامية أن أبا تمّام هو الذي بدّل اسم أبيه الذي كان نصرانياً [1]. ويناقش السيِّد محسن الأمين هذا الرّأي، ويتتبع الروايات وينتهي إلى رأي مفاده: «والظاهر أنَّ من قال ذلك قاله عداوةً، واشتهار كونه طائياً قد تجاوز الحدّ. . . ولو كانت نسبته إلى طيء باطلة لما سكت عنه أخصامه وحساده، فكانوا يظهرون للملأ بطلان نسبه. . . ، وأنساب العرب كانت في ذلك العصر محفوظة معلومة لا يمكن لأحدٍ أن يدعي نسباً كاذباً». وهو دائماً يفتخر بقبيلة طيء وبالانتساب إليها في مواضع كثيرة من شعره، كقوله:

□أبى قدرنا في الجود إلاّ نباهةً ... فليس لمالٍ عندنا أبداً قدر
جرى حاتم في حلبةٍ منه لو جرى ... بها القطر، قال الناس: أيهما القطر؟
□أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ... وسما فيهم، وهو كهل ويافع
مضوا وكأن المكرمات لديهم ... لكثرة ما أوصوا بهن شرائع
□سافِرْ بطَرْفك في أقصى مكارمنا ... إذ لم يكن لك في تأثيلها سفر
هل أورق المجد إلاّ في بني أدد ... أو أجتُنِي قط لولا طيء ثمر
لولا أحاديث أبقتها أوائلنا ... من السدى والندى لم يعرف السّمر
تُتْلى وصايا المعالي بين أظهرهم ... حتى لقد ظنّ قوم أنها سور [2]

صفاته

كان أبو تمّام[3] أسمر طويلاً مليح الحديث، فيه تمتمة يسيرة، وعرف بالظّرف وحسن الأخلاق وكرم النّفس، وكان في لسانه حبسة، وفي ذلك يقول ابن المعذل أو أبو العميثل:

يا نبيّ الله في الشّعـ ... ـر، ويا عيسى بن مريم

---

(١) خورشيد وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ١/ ٣٢٠.
(٢) أعيان الشيعة، م.س.، ٣٩٠ و٣٩١ و٣٩٣.
(٣) راجع، إضافةً إلى ما سبق ذكره من مصادر: أبو العباس أحمد بن علي النجاشي، رجال النجاشي، تحقيق محمد جواد النائيني، بيروت: دار الأضواء، ١/ ٣٣٥ و٣٣٦، ترجمة رقم ٣٦٥.

أنت من أشعر خلق اللّـ ـه، ما لم تتكلّم

وينسب إلى البحتري قوله: لو رأيت أبا تمام الطائي لرأيت أكمل الناس عقلاً وأدباً، وعلمت أن أقلّ شيء فيه شعره. وكان حادّ الذكاء سريع الحفظ منذ حداثته، ومن الأخبار التي تفيد ذلك نذكر: وقف على ورّاق عنده كتاب أراد شراءه، فلم يتّفقا على ثمنه، فأخذه ونظر فيه مليّاً، ثم ردّه وذهب، فناداه الورّاق، فقال: خذه بالثمن الذي أردت، فقال: لا حاجة لي فيه، فألحّ عليه بأخذه، فقال: خذ الكتاب واضبط، فأخذ يقرأ من أوّله حتى أنهاه، وإذا هو قد حفظه.

وقد قيل: إنّه كان يحفظ أربعة آلاف ديوان من الشعر غير ألف أرجوزة للعرب، غير المقطوعات والقصائد[١]، وفي معاهد التنصيص[٢] أنّه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقطوعات والقصائد. وفي التكملة أنّه أخمَلَ في زمانه خمسمئة شاعر كلُّهم مجيد.

نشأته:

نشأ أبو تمام في قرية جاسم التي ولد فيها، ثم غادرها فتىً في طلب الرِّزق والعلم، وقد ندرك أسباب مغادرته لها، وبوادر طموحه إن قرأنا بعض شعره، فهو يقول في قريته هذه:

بلد الفلاحة لو أتاها جرول أعني الحطيئة لاغتدى حرّاثا
تصدى بها الأفهام بعد صقالها وتعيد ذكران العقول أناثا

وحطَّ به الرحال في دمشق، حيث عمل في محل قزّاز في رواية، وفي محل حائك في رواية أخرى، ولعلّه عمل في المحلّين منتقلاً من أحدهما إلى الآخر. وتذكر بعض الروايات أنه غادر إلى دمشق بصحبة والده الذي كان يعمل عطّاراً فيها.

(١) الأعيان، م.س.، ٣٩١.
(٢) مرآة الجنان، ٢/ ١٠٢، وفيات سنة ٢٣١هـ.

كان أبو تمام، منذ حداثته، يختلف إلى مجالس العلم والأدب...، ويروى أنّه غادر دمشق إلى حمص؛ حيث التقى الشاعر المعروف «ديك الجن» الحمصي، وأفاد منه، ثم قصد مصر، وأقام فيها. وهذا يفيد أنه كان يعمل في حداثته، ليكسب رزقه ويحصِّل معرفةً، وقد وصف نفسه في حداثة أمره فقال:

وما لامرىءٍ من قائلٍ يوم عثرةٍ　　لعاً، وخَدِينَاه الحداثة والفقر

وفي مصر كان يسقي الماء في المسجد الجامع. ثمّ جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلّم منهم، وكان فطناً فهماً، يحبُّ الشعر، فلم يزل يعانيه حتى قاله وأجاد، وشاع ذكره، وسار شعره، وبلغ المعتصم خبره، فحمله إليه وهو بِسُرَّ مَن رأى، فعمل أبو تمام فيه قصائد عدَّة، وأجازه المعتصم وقدَّمه على شعراء زمنه. وقدم إلى بغداد، وتجوَّل في العراق وإيران، ورآه محمد بن قدامة بقزوين، فجالس فيها الأدباء وعاشر العلماء.

ثقافته الشعرية

شغف أبو تمام بالشعر، جمعاً واختياراً ونظماً، وشغل به طوال حياته، والأخبار عن مستوى ثقافته الشعرية كثيرة. ومثلها الأخبار عن علمه بتمييز الشعر ونقده. قال المبرّد سمعت الحسن بن رجاء يقول: ما رأيت أحداً قط أعلم بجيّد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام. وليس أدلّ على ذلك من حسن اختياره في كتبه الستّة التي ألّفها في الشعر، وأشهرها ديوان «الحماسة» المعروف.

وهو، في اختياره، لا يتعصَّب لمذهبه في الشعر، وإنما ينظر إلى الأجود، وإن كان يخالف اتجاهه، وقد قيل في إشارة دالّة على علمه بجيد الشعر، وعدم تعصّبه: إن أبا تمام في اختياره أشعر منه في شعره، ومن الروايات الدالة على ذلك أيضاً ما يرويه ابن الدقّاق من أنه حضر مع آخرين مجلس أبي تمام وهو ينتخب أشعار المحدثين، فمر به شعر محمد بن أبي عيينة المطبوع، فنظر فيه، وقال: هذا كله مختار، وابن عيينة أبعد الناس شبهاً عن أبي تمام فهو يتكلّم بطبعه، وأبو تمام يتكلم بصنعته.

شاعريته

قال الحسين بن إسحاق: قلت للبحتري: يزعمون أنّك أشعر من أبي تمام. فقال: والله ما ينفعني هذا القول ولا يضرّ أبا تمّام، والله ما أكلت الخبز إلاّ به، ولوددتُ أنّ الأمر كما قالوا، ولكنّي والله تابعٌ له لائذٌ به آخذٌ منه، نسيمي يركُد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه[1].

يذكر البحتري أنّه سار أوّل أمره في الشعر ونباهته فيه، إلى أبي تمّام وهو بحمص، فعرض عليه شعره، وكانت الشعراء تقصده لذلك، فلمّا سمع شعر البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس، فلمّا تفرّقوا قال له: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكا إليه القلّة. فكتب أبو تمّام إلى أهل مَعَرَّة النعمان، وشَهِدَ له بالحَذَق، وشفع له إليهم، وقال له: امتدحهم. فسار إليهم فأكرموه بكتاب أبي تمّام، وأعطوه أربعة آلاف درهم فكانت أوّل مال أصابه، ثمّ أقبل عليه أبو تمّام يصف شعره ويمدحه، فلزمه البحتري بعد ذلك، وقيل للبحتري: أنت أشعر أم أبو تمّام؟ قال: جيِّده خيرٌ من جيِّدي، ورديئي خيرٌ من رديئه.

وقيل: سُئل أبو العلاء المعرّي: من أشعر الثلاثة؟ أبو تمّام أم البحتري أم المتنبي؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنّما الشاعر البحتري.

وقيل: أنشد البحتري أبا تمّام شيئاً من شعره، فقال له: أنت أمير الشعراء بعدي. قال البحتري: هذا القول أحبّ إليَّ من كلّ ما نلته.

وقال ابن المعتز: شعره كلّه حسنٌ. وذكر اعتناءه البالغ بشعر مسلم بن الوليد صريع الغواني وأبي نواس[2].

وعن عمارة بن عقيل في حديث نقله عنه ابن عساكر أنّه لمّا سمع قوله:

وطول مقام المرءِ بالحيِّ مُخلِقٌ ‏ ‏ ‏ لديباجتَيهِ فاغترِبْ تتَجَدّدِ

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٨/ ٢٤٨.

(٢) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٨٤.

فإنّي رأيت الشمسَ زيدت محبّةً ⁂ إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

قال: إن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني، واطّراد المراد، واستواء الكلام، فهي لأبي تمام، وهو أشعر الناس، وإن كان بغيرها فلا أدري[1].

روي أنّه لمّا مدح الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات بقصيدته التي يقول فيها:

ديمــةٌ سَمْحَــةُ القِيــادِ سَكُــوبٌ ⁂ مستغيــثٌ بهــا الثــرى المكــروبُ
لــو سعَــتْ بُقعــةٌ لإعظـام أخـرى ⁂ لَسَعـى نحـوهـا المكـان الجَـديـبُ

قال له ابن الزيّات: يا أبا تمّام، إنّك لتُحَلّي شعرك من جواهر لفظك ودُرَر معانيك ما زيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب، وما يُدَّخَرُ لك شيء من جزيل المكافأة إلاّ ويَقْصُر عن شعرك في الموازرة، وكان بحضرته الكندي الفيلسوف، فقال له: إنَّ هذا الفتى يموت شابّاً.

فقيل له: من أين حكمتَ عليه بذلك؟

فقال: رأيت فيه من الحدَّةِ والذكاء والفطنة مع لطافة الحسّ وجودة الخاطر ما علمت به أنَّ النفس الروحانيّة تأكل جسمه كما يأكل السيف المهنّد غمده[2]. ويروى أن الكندي قال ذلك في مناسبة أخرى يرويها الصولي فيقول: إنَّ أبا تمام امتدح أحمد بن المعتصم، أو ابن المأمون، بقصيدة سينيّة، فلمّا انتهى إلى قوله:

إقـدام عمـروٍ في سماحة حاتـمٍ ⁂ فـي حِلْـمِ أحنـفَ فـي ذكـاء إيـاسِ

قال له الكندي الفيلسوف، وكان حاضراً: الأمير فوق ما وصفت. فأطرق قليلاً ثمّ رفع رأسه فأنشد:

لا تُنكـروا ضَـربـي لـه مـن دونَـهُ ⁂ مَثَـلاً شَـروداً فـي النـدى والبـاسِ
فــاللهُ قــد ضـربَ الأقـلَّ لنـورِهِ ⁂ مثــلاً مــن المشكــاةِ والنِّبــراسِ

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٤/ ١٥٧. وفي مختصر تاريخ دمشق، ٦/ ١٨١.
(٢) الغدير، م.س.، ٢/ ٤٧٧.

فَعَجِبوا من سرعة فطنته، وقال الكندي ما مفاده إن هذا الفتى يموت شاباً [1].

محدِّث

كان أبو تمام يروي الحديث، فقد حدّث عن صهيب بن أبي الصهباء الشاعر، والعطّاف بن هارون، وكرامة بن أبان العدوي، وأبي عبد الرحمن الأموي، وسلامة بن جابر النهدي، ومحمد بن خالد الشيباني.

وروى عنه خالد بن شريد الشاعر، والوليد بن عبادة البُحتري، ومحمد بن إبراهيم بن عتّاب، والعبدويّ البغدادي [2].

المؤلِّفون في أخبار أبي تمَّام

لقد جمع أخباره وما يؤثر عنه غضون حياته من نوادر وظرف ونُكَت وأدب وشعر جماعةٌ، منهم:

١ ـ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر: المتوفّى (٢٨٠هـ)، له كتاب سرقات النحويِّين من أبي تمّام.

٢ ـ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: المتوفّى (٣٣٦هـ)، له أخبار أبي تمّام. طبع مع فهرسته في (٣٤٠) صحيفة.

٣ ـ أبو القاسم الحسن بن بِشْر الآمُدي البصري: المتوفّى (٣٧١هـ)، له كتاب الموازنة بين أبي تمّام والبحتري في عشرة أجزاء. ولياقوت الحموي في معجم الأدباء كلمات حول هذه الموازنة، وللآمدي هذا ردٌّ على ابن عمّار فيما خطّأ فيه أبا تمام.

٤ ـ الخالديّان ابنا هاشم: أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد: المتوفّى (٣٧١هـ)، لهما كتاب أخبار أبي تمّام ومحاسن شعره.

---

(١) المصدر نفسه، ٢/ ٤٧٧ و٤٧٨.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٤/ ١٥٧. وفي مختصر تاريخ دمشق، ٦/ ١٨١.

٥ ـ أبو عليّ أحمد بن محمد المرزوقي الإصبهاني: المتوفّى (٤٢١هـ)، له كتاب الانتصار من ظَلَمَةِ أبي تمام، دَفَعَ عنه ما انتُقِد به.

٦ ـ أبو عبيدالله محمد بن عمران المرزباني: المتوفّى (٤٤٤هـ)، له كتاب أخبار أبي تمام في نحو من مائة ورقة.

٧ ـ أبو الحسين عليّ بن محمد العَدَوي السُمَيْساطي، له كتاب أخبار أبي تمام والمختار من شعره، وله كتاب تفضيل أبي نواس على أبي تمام.

٨ ـ أبو ضياء بشر بن يحيى النصيبي، له كتاب سرقات البحتري من أبي تمّام.

٩ ـ أحمد بن عبيدالله القطربلي المعروف بالفريد، صنّف في أخطاء أبي تمّام في الإسلام وغيره.

١٠ ـ الشيخ يوسف البديعي القاضي بالموصل: المتوفّى (١٠٧٣هـ)، له كتاب هبة الأيّام فيما يتعلّق بأبي تمام في (٣٠٩) صحيفة طبع بمصر سنة (١٣٥٢هـ).

١١ ـ الشيخ محمد عليّ بن أبي طالب الزاهدي الجيلاني: المتوفّى ببنارس الهند سنة (١١٨١هـ).

١٢ ـ سيّدنا المحسن الأمين العاملي مؤلّف أعيان الشيعة.

١٣ ـ عمر فرّوخ من كتّاب العصر الحاضر، له تأليفٌ في المترجم طُبع ببيروت في مئة صحيفة.

ديوان شعره

قد يقال: إنَّ المترجم لم يُدوِّن شعره، لكنَّ الظاهر من قراءة عثمان بن المثنّى القرطبي (المتوفّى ٢٧٣هـ) ديوانه عليه، كما في بغية الوعاة[1]، أنَّ شعره كان مدوّناً في حياته، واعتنى بعده جمعٌ من الأعلام والأدباء بترتيبه وتلخيصه وشرحه وحفظه، ومنهم:

(١) بغية الوعاة، ٢/١٣٦، رقم ١٦٣٤.

١ ـ أبو الحسن محمد بن ابراهيم بن كيسان: المتوفّى (٣٢٠هـ)، له شرحه.

٢ ـ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: المتوفّى (٣٣٥، ٣٣٦هـ)، رتَّبه على حروف المعجم في نحو ثلاثمائة ورقة.

٣ ـ عليّ بن حمزة الأصبهاني، رتّبه على الأنواع.

٤ ـ أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الشافعيّ: المتوفّى (٣٨٠هـ)، له شرحه.

٥ ـ أبو القاسم الحسن بن بِشر الآمدي: المتوفّى (٣٧١هـ)، له شرحه.

٦ ـ الخالع حسين بن محمد الرافقي، كان حيّاً في حدود (٣٨٠هـ)[1]، له شرحه.

٧ ـ الوزير حسين بن عليّ المغربيّ: المتوفّى (٤١٨هـ)، له كتاب اختيار شعره.

٨ ـ أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني: المتوفّى (٣٤٠هـ)، له شرحه، رآه الحَمَوي بخطّه.

٩ ـ أبو العلاء أحمد بن عبدالله المعرّي: المتوفّى (٤٤٩هـ)، له تلخيصه المسمّى بذكرى حبيب وشرحه.

١٠ ـ أبو زكريا يحيى بن عليّ الخطيب التبريزي: المتوفّى (٥٠٢هـ)، له شرحه.

١١ ـ أبو البركات ابن المستوفي مبارَك الإربلي: المتوفّى (٦٣٧هـ)، له شرحه في عشر مجلّدات.

١٢ ـ أبو الفتح ضياء الدين نصر بن محمد: المتوفّى (٦٣٧هـ)، كان يحفظه.

١٣ ـ أبو الحجّاج يوسف بن محمد الأنصاري: المتوفّى (٦٧٢هـ)، كان يحفظه ويحفظ الحماسة.

١٤ ـ محيي الدين الخيّاط، له شرحه[2].

١٥ ـ الدكتور ملحم إبراهيم أسود، له شرحه المطبوع بمصر.

---

(١) لسان الميزان، ٢/ ٣٧٩ رقم ٢٧٩٦، أنّه توفّي سنة ٤٢٢هـ.

(٢) راجع: الفهرست لابن النديم، ص ١٩٠، الفهرست للنجاشي، ص ١٤١ رقم ٣٦٧. طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة، ٢/ ٢٠. وفيات الأعيان لابن خلكان، ١/ ١١٤ رقم ٤٧.

والظاهر أنَّ النسخة المطبوعة من ديوان أبي تمام هي من ترتيب الصولي؛ لأنّها مرتَّبة على الحروف، إلاّ أنَّ فيها سقطاً كثيراً من شعره؛ لأنَّ النجاشي قال في فهرسته: له شعرٌ في أهل البيت كثيرٌ[1]. وذكر أحمد بن الحسين رحمه الله أنّه رأى نسخةً عتيقةً، ولعلّها كُتِبت في أيّامه أو قريباً منه، وفيها قصيدةٌ يذكر فيها الأئمّة، حتى انتهى إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام لأنّه توفّي في أيّامه.

ولا يوجد في الديوان المطبوع شيء من ذلك الكثير عدا رائيّته المذكورة في هذا الكتاب، فإمّا أنَّ يد الأمانة في طبع الكتب حذفت تلكم القصائد عند تمثيل الديوان إلى عالم الطباعة كما صنعت مع غيره أيضاً، أو أنّها لم تصل إليها عند النشر، أو أنَّ المطبوع اختصار أبي العلاء المعرّي المذكور.

أبرز ممدوحيه

يروي البحتري أن أبا تمام قال: أول شعر قلته:

تقي جمحاتي، لست طوع مؤنّبي ‏ ‏ ‏ ‏ وليس جنيبي، إن عذلت، بمصحبي

(تقي: أتقي. جنيب: فرس يقاد من دون أن يركب وأراد به هنا هواه، مصحب: منقاد له)، ومدحت به عياش بن لهيعة، فأعطاني خمسة آلاف درهم.

مدح أبو تمام رجال الدولة في عصره، وأحصي عدد الذين مدحهم فبلغ ثمانية وأربعين ما بين خليفة وابن خليفة ووزير وكاتب وقاضٍ. وكان كثيراً ما يمدح الطّائيّين، وقال في جميع أغراض الشعر الأخرى من غزل وهجاء ورثاء. . .

إتّصل بالمأمون ومدحه بقصيدتين، يرى جامع ديوانه أن الأولى أولى أن تكون في المعتصم، ولكن ما تتضمّنه يفيد أنها قيلت في المأمون، ففيها يذكر أبو تمام بيعة المأمون للإمام الرضا بولاية العهد، فيقول:

عذلت غروبُ دمعه عذاله ‏ ‏ ‏ ‏ بسواكب فنّدن كلَّ مفنّد

(1) رجال النجاشي، ص ١٤١، رقم ٣٦٧.

الله يشهـد أن هـديـك للـرّضـا ... فينـا ، ويلعـن كـلّ مـن لـم يشهـد
أوَلـيَّ أمّـة أحمـد، مـا أحمـد ... بمُضيـع مـا أوليـت أمَّـة أحمـد
وأرى الأمور المشكلات تمزَّقت ... ظلمـاتهـا عـن رأيـك المتـوقّـد
ووسيلتـي فيهـا إليـك طـريفـة ... شـامٍ يـديـن بحـبِّ آل محمَّـد. . .

ومدح وزيـر المأمون الحسن بن سهل، وصرَّح أنه كان آنذاك في السادسة والعشرين من عمره، وقد بدا الشَّيب في مفرقه:

أبدت أسىً أن رأتني مخلّس القصب ... وآل مـا كـان مـن عجبٍ إلى عجب
ست وعشرون تدعوني فأتبعها ... إلى المشيب، ولم تظلم ولم تحب

(القصـب: الخصـل مـن الشعـر ـ مخلّس: بيـاض فيـه سـواد. ولـم تحـب: مـن الحوبة، أي الذنب).

ثم اتَّصل بالمعتصم وصار الشاعر الأثير عنده وعند الواثق من بعده.

وقصـد عبـدالله بـن طـاهـر الخـزاعـي، والـي خـراسان، وكان مقيماً في نيسابور. فلمَّا انتهى إلى «قومس»، وعظمت عليه المشقة، قال:

يقول، في قومس، صحبي، وقد أخذت ... منـا السّرى وخطى المهـريـة القـود
أمطلـع الشمـس تبغـي أن تـؤمّ بنـا ... فـقلت: كـلاّ، ولـكن مطلع الجود

في «مطلع الشمس» تورية، فخراسان معناها بالفارسية مطلع الشمس.

وهذان البيتان مأخوذان من بيتين لمسلم بن الوليد هما:

يقول صحبي، وقد جدّوا على عجل ... والخيـل تـفتـن بـالركبـان في اللجم
أمطلع الشمس تنوي أن تؤم بنا ... فقلـت: كـلا، ولكـن مطلـع الكـرم

ولـمـا وصـل أبـو تـمـام إلـى دار الـوالـي حجبه أيَّـاماً مـع الشعـراء الآخـريـن. وكـان عبـدالله بـن طـاهـر لا يجيز شاعراً إلاّ إذا رضيه أبو العميثل (عبـدالله بـن خليـد) وأبـو سعيـد الضـريـر، فقصـدهمـا أبـو تمام، وأنشدهما قصيدته، ومطلعها:

هـن عـوادي يـوسف وصواحبه ... فعـزمـاً فقـدمـاً أدرك السُّؤْلَ طـالبـه

(هن: أهن)

فلما سمعا هذا الابتداء أسقطاها، فسألهما استتمام النظر فيها، ولمّا سمعا قوله:

وركب كأطراف الأسنّة عرّسوا ... على مثلها، والليل تسطو غياهبه

لأمـر عليهـم أن تتـم صـدوره ... وليـس عليهـم أن تتـم عـواقبـه

فاستحسنا القصيدة، ولما سمع ابن طاهر القصيدة نثر على أبي تمام ألف درهم فلم يلتـقطهـا، فأخذهـا الغلمان، فوجد عليه عبدالله، وأهمله إلى أن قدم الشتـاء، فـاشتـد علـى الشـاعـر الأمر، وطلب من أبي العميثل أن يحدث الأمير ففعل، وأجازه الأمير بألفي درهم، وبراحلة وثياب وبحماية له.

وكانت تدور بين أبي تمام وأبي العميثل وسعيد الضَّرير الأحاديث، ويروى أن أحدهما قال له: لم لا تقول ما يفهم؛ فأجاب: لم لا تفهم ما يقال.

وفـي طـريـق العـودة دخـل همـدان، فأنزله أبو الوفاء بن سلمة في داره، وأكرمه. ولما أصبح ذات يوم وقع ثلج عظيم قطع الطرق، فأقام أبو تمام مدة عند أبي الوفا ألَّف خلالها كتاب الحماسة من خزانة كتبه. ويبدو أنه رغب في الاستقرار فطلب من الحسن بن رجاء، الكاتب، أن يوفر له ذلك فولاّه بريد الموصل.

ديوان الحماسة وشروحه:

ولأبـي تمّـام ممّـا أفـرغـه في قالب التأليف ديوان الحماسة الذي سار به الركبان واستفادت به الأجيال بعده، جمع فيه عيون الشعر ووجوهه من كلام العـرب، جمعـه بـدار أبـي الوفاء بن سَلَمة بهمَدان، عندما اضطرّته الثلوج إلى الالتجـاء إلـى هـذه المـدينـة أثناء أوبتِهِ من زيارة عبدالله بن طاهر، ورتّبه على عشـرة أبـواب، خـصَّ كـلَّ باب بفنّ، وقد اعتنى بشرحه جمع كثيرٌ من أعلام الأدب منهم:

١ ـ أبو عبدالله محمد بن القاسم ماجيلويه البرقي .

٢ ـ أبو الحسن عليّ بن محمد السُّمَيْساطي : المتوفّى أواسط المئة الرابعة .

٣ ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا اللغويّ الرازي : المتوفّى (٣٦٩هـ) .

٤ ـ أبو عبدالله الحسين بن عليّ بن عبدالله النِمري : المتوفّى (٣٨٥هـ)، ولأبي محمد الأسود الحسن الغندجاني ردٌّ على النمري هذا في شرح الحماسة[1] .

٥ ـ أبو الفتح عثمان بن جنّي : المتوفّى (٣٩٢هـ)، له المنهج في اشتقاق أسماء شعراء الحماسة ، وشرح مستغلق الحماسة .

٦ ـ أبو الحسن عليّ بن زيد البيهقي .

٧ ـ أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري ، كان حيّاً إلى سنة (٣٩٥هـ) .

٨ ـ أبو المظفّر محمد بن آدم بن كمال الهروي النحوي : المتوفّى (٤١٤هـ) .

٩ ـ الشيخ أبو عليّ أحمد بن محمد المرزوقي الإصبهاني : المتوفّى (٤٢١هـ) .

١٠ ـ أبو العلاء أحمد بن عبدالله محمد المرزوقي الإصبهاني : (المتوفّى (٤٤٩هـ) .

١١ ـ أبو الحسن عليّ بن أحمد بن سيده الأندلسي : المتوفّى (٤٥٨هـ) .

١٢ ـ أبو الحسين عبدالله بن أحمد بن الحسين الشاماتي : المتوفّى (٤٧٥هـ) .

١٣ ـ أبو القاسم زيد بن عليّ بن عبدالله الفارسي : المتوفّى (٤٦٧هـ) .

١٤ ـ أبو حكيم عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله الخَبْرِيّ : المتوفّى (٤٧٦هـ) .

١٥ ـ أبو الحجّاج يوسف بن سلمان الشنتمري : المتوفّى (٤٧٦هـ)، شرحها شرحاً كبيراً ورتّبها على الحروف .

---

(١) معجم الأدباء، ٧/ ٢٦٥ .

١٦ ـ أبو زكريّا يحيى بن عليّ الخطيب التبريزي: المتوفّى (٥٠٢هـ)، له شروحها الثلاثة.

١٧ ـ أبو الحسن عليّ بن عبد الرحمن الأشبيلي: المتوفّى (٥١٤هـ).

١٨ ـ أبو المحاسن مسعود بن عليّ البيهقي: المتوفّى (٥٤٤هـ).

١٩ ـ أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري: المتوفّى (٥٧٧هـ).

٢٠ ـ أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الحضرمي الأشبيلي: المتوفّى (٥٨٤هـ).

٢١ ـ أبو محمد القاسم بن محمد الديمرتي الإصبهاني.

٢٢ ـ الشيخ عليّ بن الحسن الشميم الحلّي: المتوفّى (٦٠١هـ).

٢٣ ـ أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العُكْبَري البغدادي: المتوفّى (٦١٦هـ).

٢٤ ـ أبو عليّ الحسن بن أحمد الأسترابادي اللغويّ النحويّ.

٢٥ ـ المولوي فيض حسين، شرحها مختصراً وأسماه بالفيضي.

٢٦ ـ الشيخ لقمان.

٢٧ ـ الشيخ سيد بن علي المرصفي الأزهري (معاصر).

تديّنه

ذكر أبو العباس أحمد بن علي النجاشي (٣٧٢ ـ ٤٥٠هـ) أبا تمام في كتابه المعروف باسم «رجال النجاشي»، فقال: «. . . كان إمامياً وله شعر في أهل البيت عليهم السلام كثير». وأضاف أن أحمد بن الحسين، ابن الغضائري رأى نسخة فيها قصيدة لأبي تمام يذكر فيها الأئمة عليهم السلام حتى ينتهي إلى الإمام محمد الجواد عليه السلام أبي جعفر الثاني لأنه توفي في أيامه، وأن الجاحظ قال في كتاب الحيوان: «وحدثني أبو تمام الطّائي، وكان من رؤساء الرّافضة»[1]. وذكره

(١) راجع: رجال النجاشي، ١/ ٣٣٥ و٣٣٦، ترجمة رقم ٣٦٥.

محمد بن الحسن، الحر العاملي في كتابه: «أمل الآمل في علماء جبل عامل»، فوصفه بـ «العاملي الشاعر المشهور»، وأضاف: «كان شيعياً فاضلاً أديباً منشئاً»، وَوَصْفُه بالعاملي، كما يقول السيِّد الأمين «توسُّع»[1].

ويقول السيِّد الأمين إنّه أبان عن تشيّعه لأهل البيت بمدحه لهم، ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها المأمون أو المعتصم:

هـذا أميـن الله آخـر مصـدر   شجـي الظمـاء بـه وأول مـورد
ووسيلتـي فيهـا إليـك طـريفـة   شـام يـديـن بحـبِّ آل محمّـد
نيطـت قـلائـد ظـرفـه بمحيـر   متـدمشـق متكـوّف متبغـدد
حتـى لقـد ظـن الغـواة وبـاطـل   أنّـي تجسّـم فـيّ روح السَّيِّـد

(شام: أصله من بلاد الشام. بمحير: لعله نسبة إلى الحير، وهو موضع قبر الإمام الحسين عليه السلام. باطل: باطل ظنّهم. السيِّد: السيد الحميري، الشاعر الشيعي المعروف. والغواة إشارة إلى أولئك الذين يقولون بالتقمُّص، فهو ينفي قولهم هذا الذي أدّى إليه قوله الشعر في مدح آل البيت، فظنوا أن روح السيِّد حلت فيه).

ويردّ على هذا بقوله في بعض قصائد مدحه:

فلو صحّ قول الجعفريّة في الذي   تنـصّ مـن الإلهـام خلنـاك ملهمـا

والجعفرية، هنا، أصحاب الإمام جعفر الصَّادق، وهذا يعني أنه يشكك في صحة القول بأن الإمام ملهم، ويرى السيد الأمين أن ذلك لا ينافي تشيعه لأنه ليس من لوازم التشيّع القول بأن الإمام ملهم (أعيان، ٤/ ٣٩٤).

ونسب إلى أبي تمام أنه لم يكن متديناً، فكان يشرب الخمرة، ولا يؤدِّي واجباته الدِّينية، وبالغ بعضهم فنسب إليه الكفر والإلحاد. فقد جاء في مروج الذهب: «كان أبو تمام خليعاً ماجناً وربَّما أداه ذلك إلى ترك موجبات فرضه

(١) أعيان الشيعة، م.س.، ص ٣٩١.

تماجناً واعتقاداً». وحدّث محمد بن يزيد المبرد عن الحسن بن رجاء أنه تأكد من أن أبا تمام لا يصلّي، ولمّا سأله عن ذلك قال: «لم أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام وأتجشّم هذه الطرقات الشّاقة وأكسل عن ركعات لا مؤونة عليَّ فيها لو كنت أعلم أن لمن صلاّها ثواباً ولمن تركها عقاباً» (أعيان/ ٣٩٤).

وفي أخبار أبي تمام للصولي بسنده عن الحسن بن رجاء أنه رأى أبا تمام يوماً يصلي صلاةً خفيفة، فقال له: أتم، فاحتج بأنه في سفر. وهذه الرواية تكذِّب الرواية الأولى، وتفيد أنه كان يقصّر في سفره. ويروي أحمد بن أبي طاهر أنه دخل على أبي تمام، وهو يعمل شعراً أو بين يديه شعر أبي نواس ومسلم، فقال له: ما هذا؟ فقال: اللات والعزى، وأنا أعبدهما من دون الله منذ ثلاثين سنة. وإن صحّت هذه الرواية فقوله يفهم على أنه نوع من المبالغة في عكوفه على شعر هذين الشاعرين وإعجابه بهما.

ويرى السيِّد الأمين أن أبا تمام لو فرضنا أنّه يعتقد بما ينسب إليه، ما كان ليصرِّح باعتقاده هذا أمام ممدوحه، وهو أحد رجالات الدولة الحسن بن رجاء، ويضيف فيقول: «إنَّ تديّنه وصحة اعتقاده أمر مشهور»، وهو يعتقد بوجوب الحج، وفي ديوانه قصيدة يصف بها حجةً حجَّها، وجاء فيها:

وقد أَمَمْتُ بيت الله نضواً ... على عيرانةٍ حرف سعوم
رمت خطواتها بمنى خطايا ... مواشكةً إلى ربٌّ كريم

«وفي ديوانه قصائد في الوعظ والزّهد لا يمكن أن يقولها إلاّ ذو دينٍ متين وعقيدة صحيحة وتقوى قوية». ومنها قوله:

. . . واخلص لدين الله صدراً ونيّةً ... فإن الذي تخفيه يوماً سيظهر
فلا بدّ يوماً أن تصير لحفرةٍ ... بأثنائها تُطوى إلى يوم تُنشر

ويبدو أنَّ أبا تمام كان مثله مثل أيّ شاعر، أو أي إنسان، فهو غير معصوم، يمرّ بالتجربة فيخطئ أحياناً، ثم يثوب إلى نفسه فيحاسبها، ويرجو المغفرة من ربِّه، ولما كان خصومه وحسَّاده كُثُراً، فقد رصدوا أخطاءه

وضخّموها، ونسبوا إليه ما لم يقع منه. وفي الأبيات الآتية نقرأ بوضوح أنه يخاف الله ويرجو نواله وإن كان بعض الليالي عاصياً، فإنّه يدَّخر التقوى ويرجو المغفرة، ولم يشرك:

أخاف إلهي، ثم أرجو نواله ... ولكنَّ خوفي قاهرٌ لرجائيا
ولولا رجائي واتّكالي على الذي ... توحَّد لي بالصُّنع كهلاً وناشيا
لما ساغ لي عذبٌ من الماء باردٌ ... ولا طاب لي عيشٌ، ولا زلتُ باكيا
وادَّخرُ التَّقوى بمجهود طاقتي ... وأركبُ في رشدي خلافَ هوائيا
على أثر ما قد كان منِّي صبابةً ... ليالي فيها كنت لله عاصيا
وإنّي جديرٌ أن أخاف وأتَّقي ... وإن كنتُ لم أُشرك بذي العرش ثانيا

غديرية الطائي

أظبيةُ حيث استنّتِ الكُثُب العُفرُ ... رُوَيدَكِ لا يغتالكِ اللومُ والزجرُ[1]
أسرّي حِذاراً لم تُقيِّدْك ردّةٌ ... فيحسرُ ماءً من محاسنِكِ الهذرُ
أراكِ خلالَ الأمر والنهي بوّةً ... عَداكِ الردى ما أنتِ والنهيُ والأمرُ
أتُشغلُني عمّا هُرِعتُ لمثلِهِ ... حوادثُ أشجانٍ لصاحِبها نُكْرُ
ودهرٌ أساءَ الصُّنْعَ حتى كأنّما ... يُقَضّي نذوراً في مساءتيَ الدهرُ
له شجراتٌ خَيّمَ المجدُ بينها ... فلا ثَمَرٌ جانٍ ولا ورقٌ نَضْرُ
وما زِلتُ ألقى ذاك بالصبرِ لابساً ... رداءَيهِ حتى خِفْتُ أن يَجزَعَ الصبرُ
وإنَّ نكيراً أن يضيقَ بمن لهُ ... عشيرةُ مِثلي أو وسيلتُهُ مِضْرُ
وما لامرىءٍ من قائلٍ يومَ عثْرةٍ ... لعاً وَخَدِيناهُ الحداثةُ والفقرُ
وإن كانتِ الأيّامُ آضَتْ وما بها ... لذي غُلّةٍ وِردٌ ولا سائلٍ خُبْرُ
همُ الناسُ سارَ الذمُّ والحربُ بينهمْ ... وحمّرَ أن يغشاهُمُ الحمدُ والأجرُ

---

(١) الغدير، م.س.، ٢/٤٦٩ ـ ٤٧١، نقلاً عن ديوان أبي تمام، ص ١٤٣، القصيدة ٧٣ بيتاً.
استنّت: عدت. الكثب: جمع كثيب، وهو المرتفع من الرمل. العُفر: الظباء. البوّة: الحمقاء.
لعاً: كلمة يدعى بها للعاثر.

صفيُّكِ منهمْ مُضمِرٌ عُنجهيّةً[1] فقائدهُ تِيْهٌ وسائِقُهُ كِبْرُ
إذا شام برقَ اليُسرِ فالقُربُ شأنَهُ وأنأى من العَيّوقِ إن نالهَ عُسْرُ
أريني فتىً لم يَقْلِهِ الناسُ أو فتىً يصحُّ له عَزْمٌ وليس له وَفْرُ
تَرَى كلَّ ذي فضلٍ يطولُ بفضلِهِ على مُعتفيهِ والذي عنده نَزْرُ
وإنَّ الذي أحذانيَ الشيبَ لَلَّذي رأيتِ ولم تَكْمُلْ له السبعُ والعشرُ
وأخرى إذا استودعتُها السرَّ بيّنَتْ به كَرَهاً ينهاض من دونها الصدرُ
طغى من عليها واستبدَّ برأيهمْ وقولِهمُ إلاّ أقلَّهمُ الكفرُ
وقاسَوا دُجى أمْرَيْهِمُ وكلاهما دليلٌ لهمْ أولى به الشمسُ والبدرُ
سَيَحْدوكُمُ استسقاؤكمْ حَلَبَ الردى إلى هُوّةٍ لا الماءُ فيها ولا الخمرُ
سَئِمتم عبور الضحل خوضاً فأيّةً تعدّونها لو قد طغى بكمُ البحرُ
وكنتم دماءً تحتَ قِدرٍ مفارةٍ على جهلٍ ما أمست تفورُ به القِدرُ
فهلّا زجرتمْ طائرَ الجهل قبل أن يجيءَ بما لا تبسؤون[2] به الزجرُ
طَوَيْتُمْ ثنايا تخبؤون عُوارَها فأين لكمْ خِبءٌ وقد ظهر النشرُ
فعلتمْ بأبناءِ النبيِّ ورهطِهِ أفاعيلَ أدناها الخيانةُ والغدرُ
ومن قبله أخلفتمُ لوصيِّهِ بداهيةٍ دهياءَ ليس لها قَدرُ
فجئتم بها بِكراً عَواناً ولم يَكُنْ لها قبلَها مِثْلٌ عَوانٌ ولا بِكرُ
أخوه إذا عُدّ الفَخارُ وصِهْرُهُ فلا مثلُهُ أخٌ ولا مثلُه صِهْرُ
وشُدَّ به أزْرُ النبيِّ محمدٍ كما شُدَّ من موسى بهارونِهِ الأزْرُ
وما زال كشّافاً دياجيرَ غَمْرَةٍ يُمزِّقُها عن وجهِهِ الفتحُ والنصرُ
هو السيفُ سيفُ الله في كلِّ مشهدٍ وسيفُ الرسولِ لا ددانٌ ولا دثرُ[3]
فأيُّ يدٍ للذمِّ لم يَبْرِ زَنْدَها ووجهِ ضلالٍ ليس فيه له أثرُ
ثوى ولأهلِ الدينِ أمنٌ بحدّهِ وللواصمين الدينَ في حدّه ذُعْرُ

(١) العُنجهيّة: الكبر.
(٢) بسأ بالشيء: أنسَ به ومرنَ عليه.
(٣) الدّدان: الكليل الضعيف. الدثر: الصدىء.

يسدُّ به الثغرَ المخوفَ من الرَّدى ... ويعتاضُ من أرض العدوِّ به الثغرُ
بأُحُدٍ وبدرٍ حين ماجَ بِرَجْلِهِ ... وفُرسانه أُحدٌ وماجَ بهم بدرُ
ويوم حُنينٍ والنضيرِ وخيبرٍ ... وبالخندق الثاوي بعقوتِهِ عمرو
سما للمنايا الحُمْر حتى تكشّفتْ ... وأسيافُه حمرٌ وأرماحُهُ حُمْرُ
مشاهدُ كان الله كاشفَ كَرْبها ... وفارجَه والأمرُ ملتبسٌ إمْرُ
ويوم الغدير استوضح الحقَّ أهلُهُ ... بضحياء[1] لا فيها حجابٌ ولا سترُ
أقام رسول الله يدعوهمُ بها ... ليقربَهمْ عُرْفٌ وينآهمُ نُكْرُ
يَمُدُّ بضبعيه ويُعلِمُ[2] أنّهُ ... وليٌّ ومولاكمْ فهل لكُمُ خُبْرُ
يروحُ ويغدو بالبيانِ لِمَعْشرٍ ... يروح بهم غَمْرٌ ويغدو بهمْ غَمْرُ[3]
فكان لهم جَهْرٌ بإثباتِ حقِّهِ ... وكان لهم في بَزِّهمْ حقَّهُ جَهْرُ
أثَمَّ جعلتمْ حظَّهُ حدَّ مُرْهَفٍ ... من البيضِ يوماً حظُّ صاحبهِ القبرُ
بكفَّيْ شقيٍّ وجَّهَتْهُ ذنوبُهُ ... إلى مرتعٍ يُرعَى به الغَيُّ والوِزرُ

وفاته وبعض ما قيل في رثائه

يتّفق المؤرّخون على أنه توفي في الموصل شماليّ العراق، ودفن هناك، وبنى عليه أبو نهشل بن حُمَيد الطّوسي قبّة خارج باب الميدان على حافّة الخندق، ورثاه علي بن الجهم بقوله:

غاضَت بدائع فِطنةِ الأوهام ... وغدت عليها نكبةُ الأيّامِ
وغدا القريضُ ضئيل شخصٍ باكياً ... يشكو رزيّته إلى الأقلامِ
وتأوّهت غُرَرُ القوافي بعده ... ورمى الزَّمان صحيحها بسقامِ
أودى مثقِّفها ورائدَ صعبها ... وغدير روضتها أبا تمامِ

(١) وفي نسخة: بفيحاء. (المؤلف).

(٢) من أفعل. ويظهر من الدكتور ملحم، شارح ديوان أبي تمّام أنه قرأه مجرّداً من (عَلِمَ) لا مزيداً من (أعلم) كما قرأناه، ومختارنا هو الصحيح الذي لا يعدوه الذوق العربي. (المؤلف).

(٣) الغمْر: الكريم.

وقال الحسن بن وهب يرثيه، ويعزى هذان البيتان إلى ديك الجنّ:

فُجِع القريضُ بخاتم الشعراءِ ... وغديرِ روضتها حبيبِ الطائي
ماتا معاً فتجاوروا في حُفرَةٍ ... وكذاك كانا قبلُ في الأحياءِ

ورثاه الحسن بن وهب، أيضاً، بقوله:

سقى بالموصلِ القبرَ الغريبا ... سحائبُ ينتحبنَ له نحيبا
إذا أظلَلْنَهُ أظلَلْنَ فيه ... شَعِيبَ المُزْنِ يتبعُها شَعِيبا
ولطّمْنَ البُروقُ به خدوداً ... وأشققن الرعودُ به جُيوبا
فإنَّ ترابَ ذاك القبرِ يحوي ... حبيباً كان يُدعى لي حبيبا

وقال محمد بن عبد الملك الزيّات وزير المعتصم يرثيه، (ويعزى هذان البيتان إلى أبي الزِّبْرِقان عبدالله بن الزِّبْرِقان الكاتب مولى بني أميّة):

نبأٌ أتى من أعظم الأنباءِ ... لمّا ألَمَّ مُقَلقِلُ الأحشاءِ
قالوا حبيبٌ قد ثوى فأجبتُهُمْ ... ناشدتكُمْ لا تجعلوه الطائي

سُئل شرف الدين أبو المحاسن محمد بن عنين عن معنى قوله:

سقى اللهُ روحَ الغوْطتين ولا ارتوتْ ... من الموصل الحدباءِ إلاّ قبورُها

لِمَ حرَمها وخصَّ قبورها؟ فقال: لأجل أبي تمام.

تمام ابنه

خلف المترجم ولده الشاعر تمام، قصد بعد موت أبيه عبدالله بن طاهر، فاستنشده فأنشده:

حيّاك ربُّ الناس حيّاكا ... إذ بجمَالِ الوجهِ رَوّاكا
بغدادُ من نورِكَ قد أشرقتْ ... وأورقَ العودُ بجدواكا

فأطرق عبدالله ساعة ثمَّ قال:

حيّاك ربُّ الناس حيّاكا ... إنَّ الذي أمّلْتَ أخطاكا
أتيتَ شخصاً قد خلا كيسُهُ ... ولو حوى شيئاً لأعطاكا

فقال: أيّها الأمير؟ إنَّ بيع الشعر بالشعر ربا؛ فاجعل بينهما فضلاً من المال. فضحك منه وقال: لئن فاتك شعر أبيك فما فاتك ظَرفه، فأمر له بصلة[1].

شعره مثار اختلاف وجدل

اختلف المعنيُّون بالشعر في أبي تمام في عصره وفي العصور التوالي ويقول الآمدي، في هذا الصدد: «أفرط المتعصبون لأبي تمام في تفضيله وقدّموه على من هو فوقه من أجل جيّده وسامحوه في رديئه، وتجاوزوا له عن أخطائه وتأوَّلوا له التأويل البعيد فيه، وقابل المنحرفون عنه إفراطهم فبخسوه حقّه واطّرحوا إحسانه ونعوا عليه سيئاته وقدَّموا عليه من هو دونه، وتجاوز ذلك بعضهم إلى القدح في الجيِّد من شعره...»، ثم يقول إن أحدهم لم يقنع بالمذاكرة، وإنما ألَّف في ذلك كتاباً، وهو أبو العباس أحمد بن عبيدالله بن محمد بن عمار القرطبلي المعروف بالفريد.

ويقول المسعودي في ذلك: «الناس في أبي تمام في طرفي نقيض مُتعصّبٌ له، يعظمه أكثر من حقه ويتجاوز به في الوصف، ويرى أن شعره فوق كل شعر، ومنحرف عنه معاند له فهو ينفي عنه حسنه ويعيب مختاره ويستقبح المعاني الظريفة التي سبق إليها وتفرَّد بها، ولأبي تمام أشعار حسان ومعانٍ لطاف واستخراجات بديعة وحكي عن بعض العلماء بالشعر أنه سئل عن أبي تمام فقال كأنه جمع شعر العالم فانتخب جوهره». ووصفه الشريف المرتضى في أماليه بـ «الفحل المبرز» وابن خلكان بـ «واحد عصره».

وتحدَّث كثير من القدماءعما تميّز به أبو تمام، فقال صاحب الأغاني، مشيراً إلى مذهبه الشعري: «أبو تمام، حبيب بن أوس الطّائي من نفس طيء صليبة، شاعر مطبوع لطيف الفطنة، دقيق المعاني، غواص على ما يستصعب منها...».

(١) غرر الخصائص لوطواط، ص ٢٦٢.

(١١)
دعبِل الخزاعي

إسمه ونسبه

دعبل بن عليّ بن رَزِين بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبدالله بن بُديل بن ورقـاء الخزاعي[(١)]. يُكنّى بأبي علي، وفي رواية بأبي جعفر. ودعبل لقبٌ لُقِّب به، ومعناه، كما يقول أبو الفرج الأصفهاني «الناقة التي معها ولدها»، أو «البعير المسـن»، أو «الشـيء القـديـم». وقيـل: إنّمـا لقبته دايته بدعبل لدعابة كانت فيه[(٢)]. ولد سنة ١٤٨هـ، وتوفي سنة ٢٤٦هـ، بعد أن عمّر طويلاً.

سليل أسرة متميِّزة..

وآل رزيـن بـيت عـلـم وفضـل وأدب. وإن خصَّ ابنُ رشيق هذا البيت بـالشعـر[(٣)]، فـإنَّ فيهـم محـدِّثـين وشعراء، وفيهم السُّؤدد والشرف، والفضل والفضيلة ببركـة دعـاء النبيِّ الأطهر لجدِّهم الأعلى بُديل بن ورقاء، لمّا أوقفه العبّاس بن عبد المطّـلب يـوم الفتح بين يدي رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، هذا يوم قد شرّفتَ فيه قـومـاً، فمـا بال خالك بُديل بن ورقاء، وهو قعيد حبّـه؟ قـال النبـيُّ ﷺ: «احسِـرْ عـن حاجبيك يا بُديل»؛ فحَسَر عنها وحدَر لثامه، فرأى سواداً بعارضه، فقال: «كم سنوك يا بُديل؟» فقال: سبعٌ وتسعون

---

(١) رجال النجاشي، ص ١٦١، رقم ٤٢٨، أمالي الطوسي، ص ٣٧٦، ح٨٠٥، تاريخ مدينة دمشق، ٦/ ٨٦، وفي مختصر تاريخ دمشق، ٨/ ١٧٢.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٣٤ و١٣٥.

(٣) العمدة، ٢/٣٠٧، باب ١٠٢.

يـا رسـول الله، فـتبسّـم النبـي ﷺ وقال: «زادك الله جمالاً وسواداً وأمتعك وولدك»[١].

ومؤسِّس شرفهم الباذخ البطل العظيم عبدالله بن بُديل بن ورقاء الذي كان هـو وأخـواه عبـد الرحمـن ومحمـد رُسل رسول الله ﷺ إلى اليمن كما في رجال الشيخ. وكانوا هم وأخوهم عثمان من فرسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الشهداء فـي صفّيـن[٢]، وأخوهم الخامس نافع بن بُديل استشهد على عهد النبيِّ ﷺ ورثاه ابن رواحة بقوله:

رحِـمَ اللهُ نـافـعَ بـنَ بُـديـلِ ... رحمـةَ المبتغـي ثـوابَ الجهـادِ
صـابـراً صَـادقَ الحـديـثِ إذا مـا ... أكثَـرَ القـومُ قـالَ قـولَ السَّـدادِ

فحسب هذا البيت شرفاً أنّ فيه خمسةَ شهداء، وهم بعين الله ومع ابن عمّ رسول الله ﷺ، وكان عبدالله من متقدِّمي الشجعان، والمتبرّز في الفروسيّة، والمتحَلّي بـأعلى مراتب الإيمان، وعدّه الزُّهري من دُهاة العرب الخمسة كما في الإصابة[٣]. قال له أمير المؤمنين يوم صفّين: «احمل على القوم». فحمل عليهـم بمـن معـه من أهل الميمنة وعليه يومئذٍ سيفان ودرعان، فجعل يضرب بسيفه قدماً ويقول:

لـم يبـقَ غيـرُ الصَّبـر والتـوكّـلِ ... والتُّـرسِ والـرّمـحِ وسيـفٍ مصقـلِ
ثـمَّ التمشّـي فـي الـرعيـل الأوّلِ ... مشـي الجِمـال فـي حياضِ المنهـلِ

فلـم يـزل يحمـل حتـى انـتهى إلـى معـاوية والذين بايعوه على الموت، فأمرهم أن يصمدوا لعبدالله بن بُديل، وبعث إلى حبيب بن مَسلَمة الفهري وهو في الميسرة، أن يحمل عليه بجميع من معه، واختلط الناس واضطرم الفيلقان؛

---

(١) أمالي الشيخ الطّوسي، ص٣٧٦، حديث ٨٠٥، الإصابة في تمييز الصحابة، ١/ ١٤١، رقم ٦١٤. ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ٣/ ٥٤٣، رقم ٨٦٥٠.

(٢) ابن مزاحم، وقعة صفّين، ص ٢٤٥. وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥/ ١٩٦ خطبة ٦٥.

(٣) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، م.س.

ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام، وأقبل عبدالله بن بُديل يضرب الناس بسيفه قُدُماً، حتى أزال معاوية عن موقفه وجعل ينادي: يا ثارات عثمان! وإنّما يعني أخاً له قُتل، وظنَّ معاوية وأصحابه أنّه يعني: عثمان بن عفان، وتراجع معاوية عن مكانه القهقرى كثيراً، وأرسل إلى حبيب بن مسلَمة مرّة ثانية وثالثة يستنجده ويستصرخه، ويحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق، فكشفها حتى لم يبق مع ابن بُديل إلاّ نحو مئة إنسان من القرّاء، فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم، ولجَّ ابن بُديل في الناس، وصمّم على قتل معاوية، وجعل يطلب موقفه، ويصمد نحوه حتى انتهى إليه، ومع معاوية عبدالله بن عامر واقفاً، فنادى معاوية بالناس: وَيْلَكم؛ الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح. فرضخه الناس بالصخر والحجارة، حتى أثخنوه فسقط، فأقبلوا عليه بسيوفهم فقتلوه.

وجاء معاوية وعبدالله بن عامر حتى وقفا عليه؛ فأمّا عبدالله بن عامر فألقى عمامته على وجهه وترحّم عليه، وكان له من قبلُ أخاً وصديقاً، فقال معاوية: اكشف عن وجهه. فقال: لا والله لا يُمثَّل به وفيَّ روح، فقال معاوية: اكشف عن وجهه فإنّا لا نُمثِّل به؛ قد وهبناه لك، فكشف ابن عامر عن وجهه فقال معاوية: هذا كبش القوم وربِّ الكعبة، اللّهمَّ أظفِرني بالأشتر النخعي والأشعث الكندي! والله ما مثل هذا إلاّ كما قال الشاعر حاتم الطائي:

أخو الحرب إن عضّت به الحربُ عضّها ... وإن شمّرَتْ عن ساقِها الحربُ شمّرا
ويحمي إذا ما الموت كان لقاؤه ... قدى الشِّبْر[1] يحمي الأنف أن يتأخّرا
كليثِ هزبرٍ كان يحمي ذمارهُ ... رمَتْهُ المنايا قَصْدَها فتقطّرا[2]

(١) قدى الشِّبْر: قدره.
(٢) ديوان حاتم الطائي، ص ٤٩. مع ملاحظة أن البيت الثالث غير مذكور في الديوان.

ثمّ قال: إنّ نساء خزاعة لو قدَرَت على أن تقاتلني، فضلاً عن رجالها، لفَعَلتْ[1].

ومرّ بعبدالله بن بُديل وهو بآخر رمق من حياته الأسود بن بن طَهْمان الخزاعي، فقال له: عزَّ عليَّ والله مصرعك! أما والله لو شَهِدْتُك لآسيتُك ولدافعت عنك، ولو رأيت الذي أشعرك لأحببتُ أن لا أُزايله ولا يزايلني حتى أقتله أو يلحقني بك. ثمّ نزل إليه فقال: رحمك الله يا عبدالله، إن كان جارُك ليَأمنُ بوائقك، وإن كنت لمن الذاكرين الله كثيراً. أوصني رحمك الله. قال: أُوصيك بتقوى الله، وأن تناصح أمير المؤمنين، وتقاتل معه حتى يظهر الحقّ أو تلحق بالله، وأبلغ أمير المؤمنين عنّي السلام، وقل له: قاتل على المعركة حتى تجعلَها خلف ظهرك؛ فإنّه من أصبح والمعركة خلف ظهره كان الغالب. ثمّ لم يلبث أن مات، فأقبل الأسود إلى عليّ عليه السلام فأخبره فقال: «رحمه الله جاهد معنا عدوّنا في الحياة ونصح لنا في الممات»[2].

وينمُّ عن عظمة عبدالله بن بُديل بين الصحابة العلويّة قول ابن عدي بن حاتم (رضوان الله عليه) يوم صفّين:

أبَعْد عمّارٍ وبعدَ هاشمِ ... وابن بُديلٍ فارسِ الملاحمِ
نرجو البقاءَ مثل حُلْم الحالمِ ... وقد عضَضْنا أمسِ بالأباهمِ[3]

وقول سليمان بن صُرَد الخزاعيّ يوم صفّين:

يا لَكَ يوماً كاسفاً عَصَبْصَبا[4] ... يا لكَ يوماً لا يُواري كوكبا
يا أيّها الحيُّ الذي تذبذبا ... لسنا نخاف ذا ظُلَيْمٍ حَوْشَبا

(١) ابن مزاحم المنقري، وقعة صفّين، ص ٢٤٦، وانظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩٦/٥، خطبة ٦٥.

(٢) ابن مزاحم، المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

(٣) نفسه، ص ٤٠٣.

(٤) عصبصب: شديد.

لأنّ فينـــا بطـــلاً مُجـــرَّبـــا ... إبـنُ بُـديـلٍ كـالهِـزَبْـرِ مُغْضَبـا
أمســى علــيٌّ عنــدنــا مُحَبَّبـا ... نفــديــه بــالأمّ ولا نُبقــي أبــا[1]

وقول الشنّي في أبيات له:

فإن يكُ أهلُ الشامِ أوْدَوا بهاشمٍ ... وأوْدَوا بعمّــارٍ وأبقَــوا لنــا ثُكْــلا
ويابنَي بُديلٍ فارِسَيْ كلِّ بُهْمَةٍ ... وغيثٍ خزاعيٍّ به ندفعُ المَحْلا[2]

أمّـا أبـو المتـرجـم علـيُّ بـن رزيـن فـكان مـن شعـراء عصره، ترجم له المـرزبـانـي فـي معجـم الشعـراء[3]، وجـدّه رزين كان مولى عبدالله بن خلف الخزاعيّ أبي طلحة الطلحات، كما ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء[4].

أمّا أبو الحسن عليّ، أخو دعبل، فقد كان شاعراً له ديوان شعر في نحو خمسيـن ورقـة كما في فهرست ابن النديم[5]، سافر مع أخيه المترجم إلى أبي الحسن الرضا (سلام الله عليه) سنة (١٩٨هـ) وحظيا بلقائه مدّة طويلة.

قال أبو الحسن عليٌّ هذا: رحلنا أنا ودعبل سنة (١٩٨هـ) إلى سيِّدي أبي الحسن عليِّ بن موسى الرضا، فأقمنا عنده إلى آخر سنة مئتين، وخرجنا إلى قـمٍّ بعـد أن خلـع سيِّـدي أبو الحسن الرضا على أخي دعبل قميصاً خزّاً أخضر وخاتماً فُصُّه عقيق، ودفع إليه دراهم رضويّة، وقال له: «يا دعبل صِرْ إلى قم؛ فـإنّـك تفيـد بها». وقال له: «احتفظ بهذا القميص؛ فقد صلّيت فيه ألفَ ليلةٍ ألـفَ ركعة، وختمت فيه القرآن ألفَ ختمة»[6] وُلِدَ عليّ سنة (١٧٢هـ) وتوفّي سنة (٢٨٣هـ).

---

(١) ابن مزاحم، وقعة صفّين، ص ٤٠٠.
(٢) البُهمة بالضم: الجيش. المحل: الخديعة والكيد. الشدّة. الجدب.
انظر: ابن مزاحم، وقعة صفّين، ص ٤٠٥.
(٣) معجم الشعراء، ص ١٣٦.
(٤) الشعر والشعراء، ص ٥٧٦.
(٥) فهرست ابن النديم، ص ١٨٣.
(٦) فهرست النجاشي، ص ٢٧٦ رقم ٧٢٧، أمالي الشيخ الطّوسي، ص ٣٥٩ حديث ٧٤٩.

ولدعبل أخٌ اسمه رَزين، وله فيه شعر ذكره بعض محقِّقي ديوانه.

في سفر دائم

ولد دعبل ونشأ في الكوفة. وقيل: ولد في قرقيسيا. كان، منذ يفاعته، غير راضٍ عن واقعه، ويرغب في التغيير العادل، ما دفعه إلى الهجرة إلى بغداد، كان أكثر مقامه فيها، وخرج منها غير مرَّةٍ، كان في إحداها هارباً من المعتصم، لمّا هجاه، وعاد إليها بعد ذلك. جوّل في الآفاق، فدخل البصرة ودمشق ومصر على عهد المطّلب بن عبدالله الخزاعي فولاّه أسوان، فلمّا بلغ هجاؤه إيّاه عزله، فأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له، وقال: انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه، وامنعه من الخطبة، وأنزله عن المنبر واصعد مكانه. فلمّا أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب، فقال له دعبل: دعني أخطِب فإذا نزلتُ قرأته. قال: لا، قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه، فقرأه وأنزله عن المنبر معزولاً وخرج منها إلى المغرب إلى بني الأغلب[1].

سافر إلى الحجاز مع أخيه رزين، وإلى الريّ وخراسان مع أخيه عليّ، وقال أبو الفرج: كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلّها، ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشراة والصعاليك يلقَونه ولا يؤذونه، ويواكلونه ويشاربونه ويَبَرُّونه، وكان إذا لَقِيَهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه، ودعا بغلاميه: ثقيف وشعف، وكانا مغنِّيين فأقعدهما يغنِّيان، وسقاهم وشرب معهم، وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وأَلِفُوه لكثرة أسفاره وكانوا يواصلونه ويَصِلونه، وأنشد دعبل لنفسه في بعض أسفاره:

حللتُ محلاً يقصُرُ البرقُ دونَهُ ... ويعجِزُ عنه الطيفُ أن يتجشَّما[2]

(١) الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/١٧٦.
(٢) نفسه، ٢٠/١٤٩.

شاعريته

كـان محمـد بن القاسم بن مهرويه يقول: سمعت أبي يقول: خُتم الشعر بدعبل. وقال البحتري: دعبل بن عليّ أشعر عندي من مسلم بن الوليد، فقيل له: كيـف ذلـك؟ قال: لأنّ كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم، وكان يتعصّب له(١).

وعن عمرو بن مسعدة، قال: حضرت أبا دُلَف عند المأمون وقد قال له المأمون: أيَّ شيءٍ لأخي خزاعة يا قاسم؟ فقال: وأيّ أخي خزاعةَ يا أمير المؤمنين؟ قال: ومَن تعرف فيهم شاعراً؟ فقال: أمّا مِن أنفُسِهم فأبو الشيص ودعبل وابن أبي الشيص وداود بن أبي رزين، وأمّا من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله.

فقـال: ومـن عسـى في هؤلاء أن يُسأَل عن شعره سوى دعبل؟ هات أيّ شيء عندك فيه.

وقال الجاحظ: سمعت دعبل بن عليّ يقول: مكثت نحو ستّين سنة ليس من يوم ذرَّ شارقه إلاّ وأنا أقول فيه شعراً(٢)، ولمّا أنشد دعبل أبا نواس شعره:

أيـنَ الشبـابُ؟ وأيّـةً سَلَكـا؟ لا أيـنَ يُطلـبُ؟ ضـلَّ بـل هَلَكـا
لا تعجبـي يـا سَلْـمُ مـن رَجُـلٍ ضَحِـكَ المشيـبُ بـرأسـه فبكـى

فقال: أحسنت ملء فيك وأسماعنا. قال محمد بن يزيد: كان دعبل والله فصيحاً(٣).

أخـذ الأدب عـن صريـع الغـوانـي مسلم بن الوليد، وأُسقي من بحره، وقال: ما زلت أقول الشعر وأعرضه على مسلم فيقول لي: اكتم هذا حتى قلت:

(١) نفسه، ٢٠/ ١٣٥، ١٤٩.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٦٥.
(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/ ٢٦٨ رقم ٢٢٧.
ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٦/ ٧٦.

أيـنَ الشبـابُ؟ وأيَّـةً سَلَكـا؟ لا أينَ يُطلَبُ؟ ضلَّ بل هلكا...

فلمّا أنشدته هذه القصيدة قال: إذهب الآن فأظهر شعرك كيف شئت لمن شئت.

وقـال أبو تمام: ما زال دعبل مائلاً إلى مسلم بن الوليد مُقِرّاً بأستاذيّته، حتى ورد عليه جرجان، فجفاه مسلم، وكان فيه بخلٌ، فهجره دعبل وكتب إليه:

أبـا مُخْلَـدٍ كنّـا عَقيـدَيْ مـودّةٍ هـوانـا وقلبنـا جميعـاً معـاً معـا
أحُوطكَ بالغيبِ الذي أنت حائطي وأيْجَـعُ إشفـاقـاً لأن تتـوجّعـا
فصيّرْتَني بعد انتحائِكَ مُتْهِماً لنفسي، عليها أرهَبُ الخَلْقَ أجمعا
غَشَشْتَ الهوى حتى تداعتْ أصولُهُ بنـا وابتـذلْـتَ الـوَصْـلَ حتى تَقَطّعا
وأنزلتَ من بينِ الجوانحِ والحشا ذخيـرةَ وُدٍّ طـالمـا قـد تمنّعـا
فلا تَعْذِلَـنّي ليس لي فيكَ مَطمعٌ تخـرّقْتَ حتى لـمْ أجِـدْ لَكَ مَرْقَعا
فَهَبْكَ يميني استأكَلَتْ فَقَطَعْتُها وجَشَّمتُ قلبي صبرَهُ فتشجّعا[(١)]

ويـروي عنه في الأدب محمد بن يزيد، والحمدَوي الشاعر، ومحمد بن القاسم بن مهرويه، وآخرون.

ولاؤه لآل بيت النبي ﷺ

كـان دعبل صادق الولاء لآل البيت في عمله وشعره، ما جعله يعيش في خوف وسفر دائمين.

وليس من عبارة تحكي درجة ولائه لآل البيت أكثر تعبيراً من عبارته التي يقول فيها:

«أنا أحمـل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة ولست أجد أحداً يصلبني عليها».

(١) الأصفهاني، م.س. ٢٠/ ١٧٣.

وقيل للوزير محمد بن عبد الملك الزيّات: لِمَ لا تُجيب دعبلاً عن قصيدته التي هجاك فيها؟ قال: إنَّ دِعبلاً جعل خشبته على عنقه يدور بها، يطلبُ من يصلبه بها منذ ثلاثين سنة وهو لا يُبالي(١).

كلُّ ذلك من جرّاء التزامه بالذبِّ عن البيت النبويِّ الطاهر، والتجاهر بموالاتهم، والوقيعة في مناوئيهم، لا يَقِرُّ به قرارٌ، فلا يُقلّه مأمنٌ ولا يُظلّه سقفُ منتجَعٍ [منزل في طلب الكلأ]، وما زالت تتقاذف به أجواز الفلا فرَقاً من خلفاء الوقت، وأعداء العترة الطاهرة، ومع ذلك كلّه فقصائده السائرة تلهَجُ بها الركبان، وتزدان بها الأندية، وهي مسرّات للمُوالين، ومُحفِظاتٌ للأعداء، ومثيرات للعِهَن [الحقد والغضب] والضغائن حتى قُتل على ذلك شهيداً.

ويؤخذ على دعبل التوغّل في الهجاء. والحقيقة أنه إنما كان يعبِّر عن موقف يؤمن به، ويعرض في سياق بيان موقفه لمن حَسِبَهم أعداءً للعترة الطاهرة وغاصبي مناصبهم، فكان يتقرّب به إلى الله، وهو من المُقَرَّبات إليه سبحانه زلفى، وإنَّ الولاية لا تكون خالصةً إلاّ بالبراءة ممّن يُضادُّها ويعاندها كما تبرّأ الله ورسوله من المشركين، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، غير أنّ أكثر مؤرخي الأدب من الفئة المتحيِّزة إلى أعداء هذا البيت الطاهر، حسبوا ذلك منه ذنباً لا يُغفر كما هو عادتهم في جُلِّ رجالات الشيعة.

غديريّة دعبل، التّائية المشهورة

ويتجلى ولاء دعبل في قصيدته التائية المشهورة(٢) التي يقول فيها:

تَجَاوَبْنَ بالإرْنان والزَّفراتِ ... نوائحُ عُجمُ اللفظِ والنَّطقَاتِ
يُخَبِّرنَ بالأنفاسِ عن سِرِّ أنفُسٍ ... أُسارى هِوىً ماضٍ وآخرَ آتِ

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٦٥.

(٢) أثبتنا القصيدة كاملةً، هنا، وكانت متفرّقة في كتاب الغدير، في غير موضع، معتمدين على النص الوارد: في أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ٦/٤١٨ و٤١٩.

فأسْعَدْن أو أسْعَفْن حتى تقوّضت[1] صفوفُ الدُّجى بالفجر منهزماتِ
على العرصاتِ الخاليات من المهى سلام شجٍ صبّ على العرصاتِ
فعهدي بها خُضْر المعاهد مألفاً من العَطِراتِ البيضِ والخَفِراتِ[2]
لياليَّ يعدينَ الوِصَال على القِلى ويعدي تدانينا على الغُرُباتِ
وإذ هُنَّ يَلْحَظنَ العيون سَوافراً ويَسْتُرْنَ بالأيدي على الوَجناتِ
وإذ كلُّ يومٍ لي بلحظيَ نشوةٌ يبيتُ بها قلبي على نشواتِ
فكم حسراتٍ هاجها بمُحَسِّرٍ[3] وقُوفيَ يوم الجمع من عَرَفاتِ
ألم ترَ للأيّام ما جرّ جورُها على النّاس من نقصٍ وطولِ شتاتِ
ومن دُوَلِ المستهزئين ومن غدا بهم طالباً للنور في الظلماتِ
فكيف ومن أنّى بطالبِ زُلْفَةٍ إلى الله بعد الصَّوم والصَّلواتِ
سوى حبِّ أبناء النبيِّ ورهطِهِ وبُغضِ بني الزَّرقاء والعَبَلاتِ
وهندٍ وما أدّت سُميّةُ وابنُها أولو الكفرِ في الإسلامِ والفَجَراتِ
هُمُ نقضوا عهدَ الكتاب وفرضَهُ ومُحْكَمَهُ بالزُّورِ والشُّبُهاتِ
ولم تكُ إلاّ محنةٌ كشَفَتْهُمُ بدعوى ضلال من هنٍ وهَناتِ
تراثٌ بلا قُرْبى وملكٌ بلا هُدَى وحُكْمٌ بلا شورى بغَيْر هُداةِ
رزايا أرَتْنا خُضرةَ الأفقِ حُمْرَةً وردّتْ أُجاجاً طعمَ كلِّ فراتِ
وما سَهّلَتْ تلك المذاهبَ فيهمُ على الناس إلاّ بيعةُ الفلَتاتِ
وما قيل أصْحَابُ السقيفة جهرةً بدعوى تُراثٍ في الضَّلال نَتَاتِ
ولو قلّدوا المُوْصى إليه أمورَها لزَمّتْ بمأمونٍ عن العثراتِ
أخي خاتَمِ الرُّسْلِ المُصَفّى من القذى ومُفْتَرِسِ الأبطالِ في الغَمَراتِ
فإن جَحَدوا كان الغديرُ شهيدَهُ وبدرٌ وأُحدٌ شامخُ الهضباتِ
وآيٌ من القرآن تُتْلى بفضلِهِ وإيثاره بالقُوْتِ في اللّزباتِ

---

(١) تقوّضت الصفوف: إنتقضت وتفرّقت.
(٢) خفرت الجارية: استحيت أشد الحياء.
(٣) وادي محسَّر: حدٌّ مِنى إلى جهة عرفة.

وغُرٌ خِلالٍ أدركتْه بِسَبْقِها ... مناقبُ كانت فيهِ مؤتَنِفَاتِ
مناقبُ لم تدركْ بخير (بكيد) ولم تُنَلْ ... بشيءٍ سوى حدِّ القَنَا الذَّربَاتِ
نجيٌّ لجبريل الأمين وأنتُم ... عُكُوفٌ على العِزَّى معاً ومُنَاة
بَكَيْتُ لرَسْم الدَّارِ من عرفات ... وأَذْرَيْتُ دَمْعَ العين بالعَبَرات
وفكَّ عُرى صَبْرِي وَهاجَتْ صَبَابتي ... رسومُ ديارٍ قد عَفَت وَعراتِ
مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ ... وَمنزِلُ وَحْيٍ مُقْفرُ العَرَصَات
لآل رسولِ الله بالخَيْفِ من منًى ... وبالبيتِ والتَّعريف والجَمُراتِ
ديارٌ لعَبْدِ اللهِ بالخَيْفِ من مِنَى ... وللسَّيد الدَّاعي إلى الصَّلوات
ديارُ عليٍّ والحُسَين وجعفر ... وحَمْزَةَ والسَّجَّاد ذي الثَّفَنات
ديارٌ لعبدالله والفضل صنوه ... نجيِّ رسولِ الله في الخَلَوات
وسِبْطَي رسول الله وابني وصيِّه ... ووارثِ علم الله والحَسَنات
منازلُ وحي الله ينزلُ بينها ... على أحمد المذكور في السّورات
منازلُ قومٍ يُهْتَدى بهداهُم ... فَتُؤمَن منهم زلَّةُ العَثَرات
منازلُ كانت للصَّلاة وللتُّقى ... وللصَّوم والتَّطهير والحسنات
منازلُ لا فعلَ يحلُّ بربعها ... ولا ابنُ فعالٍ هاتك الحُرُمات
ديارٌ عَفاها جَوْرُ كلِّ مُنَابذٍ ... ولم تعفُ للأيَّام والسَّنوات
فيا وارثي علمِ النَّبي وآلِه ... عليكم سلامٌ دائمُ النَّفحات
لقد أمِنَت نفسي بكم في حَيَاتِها ... وإنّي لأرجو الأمن بَعْدَ مماتي
قفا نسألِ الدَّار التي خفَّ أهلُها ... متى عَهْدُها بالصَّوم والصَّلواتِ
وأين الأولَى شطَّت بهم غربةُ النوى ... أفانين في الآفاق (الأقطار) مُفْتَرقات
هم أهلُ ميراثِ النبي إذا اعتزَوا ... وهم خيرُ ساداتٍ وخَيْرُ حماة
إذا لم نناجِ الله في صَلواتنا ... بأسمائهم لم يَقْبلِ الصَّلوات
مطاعيمُ في الإعسار في كل مشهد ... لقد شرفوا بالفضل والبركات
وما النَّاس إلا غاصبٌ ومكذِّبٌ ... ومضْطَغِنٌ ذو أحنة وتِرات
إذا ذكروا قتلى ببدرٍ وخَيْبَر ... ويوم حنين أسْبَلوا العَبَرات

فكيف يحبُّون النبيَّ ورَهْطَه … وهم تركوا أحشاءهم وَغِرات

لقد لايَنُوه في المقال وأضمَروا … قلوباً على الأحقاد مُنْطويات

فإن لم تكن إلاّ بقربى محمَّدٍ … فهاشم أولى من هن وهنات

سقى الله قبراً بالمدينة غيثه … فقد حلَّ فيه الأمنُ بالبركات

نبي الهدى صلى عليه مليكُه … وبلّغ عنا روحه التحفات

وصلى عليه الله ما ذرَّ شارقٌ … ولاحت نجومُ اللَّيل مبتدرات

أفاطمُ لو خِلْتِ الحسين مجدَّلا … وقد مات عطشاناً بشطٍّ فرات

إذاً للطمت الخدَّ فاطمُ عنده … وأجريت دَمْعَ العين في الوَجَنات

أفاطمُ قومي، يا ابنة الخير، واندبي … نجومَ سماواتٍ بأرض فلاة

قبورٌ بكوفان وأخرى بطيبة … وأخرى بفخٍّ نَالها صلواتي

وأخرى بأرض الجوزجان محلها … وقبرٌ بباخمرى لدى الغربات

وقبرٌ ببغداد لنفس زكية … تضمَّنها الرحمن في الغرفات

وقبرٌ بطوس[1] يا لها من مُصِيبَةٍ … ألحّت على الأحشاء بالزَّفرات

إلى الحَشْر حتى يبعثَ الله قائماً … يفرِّجُ عنا الغمّ والكُربَات

***

فأمّا المُمِضَّات التي لستُ بالغاً … مبالغها منّي بكُنْهِ صِفَات

قبورٌ بجنبِ النّهر من أرض كربلا … معرسُهم فيها بشطّ فرات

توفوا عُطَاشَى بالفرات فليْتَني … تُوفِّيت فيهم قبل حين وفاتي

إلى الله أشكو لوعةً عند ذكرهم … سَقَتْني بكأسِ الثكل والفَظَعات

أخافُ بأن ازدراهم فتشوقني … مصارعهم بالجزع فالنَّخلات

(١) يروى أنَّ الإمام الرضا عليه السلام قال لدعبل، عندما كان ينشده هذه القصيدة ووصل إلى هذا الموضع: أفلا ألحقت لك بيتين بهذا الموضع بهما تمام قصيدتك؟ فقال: بلى، يا ابن رسول الله. فقال الإمام الرضا عليه السلام: وقبر بطوس... فقال دعبل: هذا القبر الذي بطوس قبر من؟ فقال الإمام الرضا عليه السلام: هو قبري. وألحق مجهول بهما هذا البيت:

علي بن موسى أرشدَ الله أمره … وصلّى عليه أفضل الصَّلَوات

تقسمهم (تغشاهم) ريب المنون فما ترى ... لهم عقوة مغشية الحجرات
لهُم، كلّ يوم، تربةٌ بمضاجع ... ثوت في نواحي الأرض مُفْتَرِقات
تنكب لاواء السنين جوارهم ... ولا تصطليهم جمرة الجمرات
وقد كان منهم في الحجاز وأرضها ... مغاويرُ نحّارون في الأزمات
حمى لم تزره المدنيات وأوجهٌ ... تضيء لدى الأستار في الظُّلمات
إذا وردوا خيلاً بسُمْر من القنا ... مسَاعير حربٍ أقحموا الغمرات
وإن فخروا يوماً أتوا بمحمد ... وجبريل والفرقان ذي السورات
وعدوا علياً ذا المناقب والعُلى ... وفاطمة الزهراء خير بنات
وحمزة والعباس ذا الهدي والتقى ... وجعفراً الطيار في الحجبات
أولئك لا منتوج (ملتوح) هند وحزبها ... سمية من نوكى ومن قذرات
ستسأل فعل عنهم وفعيلها ... وبيعتهم من أفجر الفجرات
هم منعوا الآباء عن أخذ حقّهم ... وهم تركوا الأبناء رهْنَ شُتات
وهم عَدَلوها عن وصيّ محمد ... فبيعتُهم جاءت على الغدرات
وليُّهم صنو النبي محمَّدٍ ... أبو الحسن الفرّاج للغُمرات
ملامك في آل النبي فإنّهم ... أحباي ما داموا وأهلُ ثقاتي
تخيَّرتهُم رشداً لنفسي إنهم ... على كلِّ حال خيرة الخيرات
نبذت إليهم بالمودّة صادقاً ... وسلَّمت نفسي طائعاً لولاتي
فيا ربُّ زِدْني في هواي بصيرةً ... وزِدْ حبّهم يا ربُّ في حسناتي
سأبكيهم ما حجّ لله راكبٌ ... وما ناح قمريٌّ على الشَّجَرات
وإني لمولاهم وقال عدوّهم ... وإني لمحزونٌ بطول حياتي
بنفسي أنتم من كهولٍ وفتية ... لفكِّ عَنَاةٍ أو لحَمْل ديات
وللخيل لما قيّد الموتُ خطوها ... فأطلقتم منهن بالذربات
أحبّ قصيّ الرّحم من أجل حبكم ... وأهجر فيكم أسرتي (زوجتي) وبناتي
وأكتم حبيكم مخافةَ كاشحٍ ... عنيدٍ لأهل الحقّ غير مواتي
فيا عينُ بكّيهم وجودي بعبرةٍ ... فقد آن للتَّسكاب والهملات

لقد خِفتُ في الدنيا وأيّام سعيها وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي
ألم تَرني مُذ ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحَسَرات
أرى فَيئهم في غيرهم متقسّما وأيديهم من فيئهم صفرات
فكيف أداوي من جوىً لي، والجوى أمية أهلُ الفسق والنبعات
وآل زياد في الحرير (القصور) مصونة وآلُ رسول الله في الفَلَوات
سأبكيهم ماذر في الأرض شارقٌ ونادى منادي الخير بالصَّلواتِ
وما طلعت شمسٌ وحان غروبُها وبالليل أبكيهم وبالغَدَوات
ديارُ رسولِ الله أصبحت بلقعا وآلُ زياد تسكن الحجرات
وآل رسول الله تدمى نحورهم وآل زياد آمنوا السربات
وآل رسول الله نحفٌ جسومهم وآل زياد حفل (غلظ) القصرات
إذا وتروا مَدّوا إلى واتريهم أكفّاً عن الأوتار منقبضات
فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطّع نفسي أثرهم حسراتي
خروجُ إمام لا محالة خارجٍ يقوم على اسم الله والبركات
يميّز فينا كلّ حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات
فيا نفس طيبي، ثم يا نفس أبشري فغيرُ بعيدٍ كل ما هو آتي
ولا تَجزَعي من مدَّة الجور إنني أرى قوتي قد آذنت بثبات
فإن قرّب الرحمن من تلك مدتي وأخَّر من عمري ووقت وفاتي
شفيت ولم أترك لنفسي غصَّة ورويت منهم منصلي وقناتي
فإني من الرحمن أرجو بحبهم حياة لدى الفردوس غير تبات
عسى الله أن يرتاح للخلق إنه إلى كل قوم دائم اللحظات
فإن قلت عرفا أنكروه بمنكرٍ وغطّوا على التحقيق بالشبهات
تقاصرُ نفسي دائماً عن جدالهم كفاني ما ألقى من العبرات
أحاول نقل الصمِّ عن مستقرها وإسماع أحجار من الصلدات
فحسبي منهم أن أبوء بغصبة تردد في صدري وفي لهواتي
فمن عارفٍ لم ينتفع ومعاندٍ تميل به الأهواء للشهوات

كأنك بأضلاع قد ضاق ذرعها　　لما حملت من شدة الزفرات

التَّائية من منظور مؤرِّخي الأدب

تعـدَّدت تعليقات مؤرِّخي الأدب العربي على هذه القصيدة. وفي ما يأتي بعض تلك التعليقات:

١ ـ قال أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني»: قصيدة دِعبل

مـدارسُ آيـاتٍ خلت من تِلاوةٍ　　ومنـزلُ وحـيٍ مُقفـرُ العَـرَصـاتِ

مـن أحسـن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام، قصد بها عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان، قال: دخلت على عليٍّ بن موسى الرضا عليه السلام، فقال لي: «أنشدني شيئاً ممّا أحدثت»، فأنشدتُه:

مـدارسُ آيـاتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ　　ومنـزلُ وَحـيٍ مُقفِـرُ العَـرَصـاتِ

حتى انتهيتُ إلى قولي:

إذا وُتِـروا مَـدّوا إلـى واتـريهـمُ　　أَكُفّـاً عـن الأوتـار مُنقبضـاتِ

قـال: فبكـى حتـى أُغمـي عليـه، وأومـأ إليَّ خادم كان على رأسه: أن اسكت فسكتُّ، فمكث ساعة ثمَّ قال لي: «أعِدْ»، فأعدتُ حتى انتهيتُ إلى هذا البيت أيضاً، فأصابه مثل الذي أصابه في المرّة الأولى، وأومأ الخادم إليَّ: أن اسكـت فسكـتُّ، فمكث ساعة أخرى ثمَّ قال لي: «أعِدْ»، فأعدتُ حتى انتهيت إلى آخرها، فقال لي: «أحسنتَ» ـ ثلاث مرّات ـ ثمَّ أمر لي بعشرة آلاف درهم ممّـا ضُرِبَ باسمه، ولم تكن دُفِعَت إلى أحد بعدُ، وأمر لي من في منزله بحلي كثير أخرجه إليَّ الخادم، فقدمتُ العراق، فبعتُ كلَّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها منّي الشيعة، فحصل لي مئة ألف درهم، فكان أوّل مال اعتقدته[1].

قـال ابـن مهـرويـه: وحـدّثني حـذيفة بن محمد: أنَّ دعبلاً قال له: إنّه استوهب من الرضا عليه السلام ثـوبـاً قـد لبسه ليجعله في أكفانه، فخلع جُبّة كانت

(١) الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/١٣٢ ـ ١٦٢.

عليه فأعطاه إيّاها، وبلغ أهل قم خبرها، فسألوه أن يبيعهم إيّاها بثلاثين ألف درهم، فلم يفعل، فخرجوا عليه في طريقه فأخذوها منه غصباً، وقالوا له: إن شئتَ أن تأخذ المال فافعل، وإلاّ فأنت أعلم، فقال لهم: إنّي والله لا أعطيكم إيّاها طوعاً ولا تنفعكم غصباً وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام فصالحوه على أن أَعطوه الثلاثين ألف درهم وفرد كُمٍّ من بِطانتها، فرضي بذلك، فأعطوه فرد كُمٍّ فكان في أكفانه، وكتب قصيدته:

مـدارسُ آيـاتٍ خلَتْ من تلاوةٍ ومنـزلُ وحـيٍ مُقفِـرُ العـرصـاتِ

في ما يقال على ثوب وأحرم فيه وأمر بأن يكون في أكفانه[1].

وروى الأصفهاني عن دعبل قال: لمّا هربتُ من الخليفة بتُّ ليلةً بنيسابور وحدي، وعزمتُ على أن أعمل قصيدة في عبدالله بن طاهر في تلك الليلة، فإنّي لفي ذلك إذ سمعت والباب مردودٌ عليَّ: السلام عليكم ورحمة الله، انجُ يرحمك الله، فاقشعَرَّ بدني من ذلك ونالني أمرٌ عظيمٌ، فقال لي: لا تُرَع عافاك الله، فإنّي رجلٌ من إخوانك من الجنِّ من ساكني اليمن، طرأ إلينا طارىء من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك:

مـدارسُ آياتٍ خلَتْ من تِلاوةٍ ومنـزلُ وحـيٍ مُقفِـرُ العـرصـات

فأحببتُ أن أسمعها منك، قال فأنشدته إيّاها فبكى حتى خرَّ، ثمَّ قال: رَحِمَك الله الا أُحدِّثُكَ حديثاً يزيد في نيّتك ويعينك على التمسّكِ بمذهبك؟ قلت: بلى.

قال: مكثتُ حيناً أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام فصرتُ إلى المدينة فسمعته يقول: حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «عليٌّ وشيعته هم الفائزون». ثمّ ودّعني لينصرف، فقلت له: يرحمك الله، إن رأيت أن تُخبرني باسمك فافعل. قال: أنا ظبيان بن عامر[2].

---

(١) معجم الأدباء، ١١/١٠٣، معاهد التنصيص، ٢/١٩٩، رقم ١١٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/١٥٥. وانظر: معاهد التنصيص، ١/٢٠٥.

وهذا الخبر يدلُّ، سواء كان ينقل واقعةً حدثت فعلاً أم واقعة نفسية، أن دعبلاً كان يعيش في حالةٍ من الخوف الشديد، وأنه كان يستمدّ من إيمانه العميق بأن علياً وشيعته هم الفائزون القوّة التي تجعله يواصل المضيَّ في ولاء أهل البيت ونصرتهم.

٢ ـ قال أبو إسحاق القيرواني الحصري، المتوفّى سنة (٤١٣هـ)، كان دعبل مدّاحاً لأهل البيت عليهم السلام، كثير التعصّب لهم والغلوّ فيهم، وله المرثية المشهورة، وهي من جيِّد شعره، وأوّلها:

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وَحيٍ مُقفِرُ العَرَصاتَ... (١)

٣ ـ قال الحافظ ابن عساكر في تاريخه(٢): ثمّ إنّ المأمون لمّا ثبتت قدمه في الخلافة، وضرب الدنانير باسمه، أقبل يجمع الآثار في فضائل آل الرسول صلى الله عليه وآله، فتناهى إليه في ما تناهى من فضائلهم قول دعبل:

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ ومنزلُ وحي مقفرُ العرَصاتِ...

فما زالت تردَّدُ في صدر المأمون حتى قدم عليه دعبل، فقال له: أنشدني قصيدتك التائيّة، ولا بأس عليك، ولك الأمان من كلِّ شيء فيها؛ فإنّي أعرفها وقد رُوِيتُها، إلاّ أنّي أُحبُّ أن أسمعها من فيك.

قال: فأنشده حتى صار إلى هذا الموضع:

ألم ترَ أنّي مُذْ ثلاثين حِجّةً أروحُ وأغدو دائمَ الحَسَراتِ
أرى فيئهم في غيرِهمْ مُتقَسَّماً وَأيدِيَهُمْ من فَيْئِهِمْ صَفِراتِ
فآلُ رسول الله نُحْفٌ جسومُهمْ وآلُ زيادٍ غُلّظُ القَصَراتِ
بناتُ زيادٍ في الخدورِ مصونةٌ وبنتُ رسولِ اللهِ في الفلواتِ
إذا وُتروا مَدّوا إلى واتريهمُ أكفّاً عن الأوتارِ مُنْقبضاتِ

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، ١/ ١٣٤.
(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٦/ ٧٧، وفي مختصر تاريخ دمشق، ٨/ ١٨٢.

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ تـقـطّـع نـفسـي إثْـرَهـمْ حَسَـراتي
خـروج إمـام لا محـالـة واقـع يقـوم علـى اسـم الله والبـركـات

فبكى المأمون حتى اخضلّت لحيته وجرت دموعه على نحره، وكان دعبل أوّل داخل عليه وآخر خارج من عنده.

٤ ـ قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء: قصيدة دعبل التائيّة في أهل البيت من أحسن الشعر وأسنى المدائح، قصد بها عليّ بن موسى الرضا عليه‌السلام بخراسان (وذكر حديث البردة وقصّتها المذكورة ثمّ قال): ويقال: إنّه كتب القصيدة في ثوب وأحرم فيه، وأوصى بأن يكون في أكفانه. ونُسَخُ هذه القصيدة مختلفةٌ، في بعضها زيادات يُظنّ أنّها مصنوعةٌ ألحقها بها أناسٌ من الشيعة، وإنّا موردون ما صحّ منها:

مـدارسُ آيـاتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقفِرُ العرصَاتِ...

ويذكر خمسة وأربعين بيتاً آخرها:

كأنّك بالأضلاع قد ضاق رحبها لمـا ضُمِّنـت مـن شـدَّة الـزَّفـرات

ويعلّق السيّد محسن الأمين على ما يظنه صاحب معجم الأدباء فيقول: «فالظن بأن الزيادات مصنوعة لا شاهد له، ولعل ظنه بأن الزيادة مصنوعة لأن فيها ما لم تألفه نفسه»، وكان قد فسّر اختلاف نسخها بقوله: «لعل بعضهم لطولها أورد بعضها وترك البعض، ونفسها واحد لا تفاوت فيه»(١).

٥ ـ أخرج شيخ الإسلام أبو إسحاق الحمّوئي عن أحمد بن زياد عن دعبل الخزاعي، قال: أنشدت قصيدة لمولاي عليّ الرضا رضي الله عنه:

مـدارسُ آيـاتٍ خَـلَتْ من تِلاوةٍ ومـنـزلُ وحـيٍ مُقفـرُ العـرصـاتِ

(١) أعيان الشيعة، ٦/٤١٨.

قال لي الرضا: «أفلا أُلحِقُ البيتين بقصيدتك؟». قلت: بلى يا ابن رسول الله، فقال:

وقبر بطوسٍ يا لها من مصيبةٍ — ألحّت بها الأحشاءُ بالزّفراتِ
إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً — يفرّج عنّا الهمّ والكرباتِ

قال دعبل: ثمّ قرأت باقي القصيدة فلمّا انتهيت إلى قولي:

خروجُ إمامٍ لا محالة واقعٌ — يقوم على اسم الله والبركاتِ

بكى الرضا بكاءً شديداً، ثمّ قال: «يا دعبل نطق روح القُدس بلسانك، أتعرف من هذا الإمام؟» قلت: لا، إلاّ أنّي سمعت خروج إمام منكم يملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

فقال: «إنّ الإمام بعدي ابني محمد، وبعد محمد ابنه عليّ، وبعد عليّ ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجّة القائم، وهو المنتظر في غيبته، المُطاع في ظهوره، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، وأمّا متى يقوم فإخبارٌ عن الوقت. لقد حدَّثني أبي عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال: مَثَلُه كَمَثَل الساعة لا تأتيكم إلاّ بغتة». ويأتي هذا الحديث عن الشبراوي أيضاً.

٦ ـ قال أبو سالم بن طلحة الشافعي المتوفّى (٦٥٢هـ):

قال دعبل: لمّا قلت «مدارس آيات» قصدت بها أبا الحسن عليّ بن موسى الرضا وهو بخراسان وليّ عهد المأمون، فأحضرني المأمون وسألني عن خبري، ثمّ قال لي: يا دعبل أنشدني مدارس آيات خلت من تلاوة، فقلت: ما أعرفُها يا أمير المؤمنين، فقال: يا غلام أحضر أبا الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام. فلم يكن إلاّ ساعة حتى حضر، فقال له: يا أبا الحسن، سألت دعبلاً عن «مدارس آيات خَلَتْ من تلاوة»، فذكَرَ أنّه لا يعرفها. فقال لي أبو الحسن: «يا دعبل أنشِدْ أمير المؤمنين». فأخذت فيها فأنشدتها، فاستَحْسَنَها فأمر لي بخمسين ألف درهم. وأمر لي أبو الحسن الرضا بقريبٍ من ذلك.

فقلت: يا سيِّدي إن رأيتَ أن تَهَبَني شيئاً من ثيابك ليكون كفني. فقال: «نعم». ثمّ دفع لي قميصاً قد ابتذله ومِنْشفة لطيفة، وقال لي: «احفظ هذا تُحْرَسْ به» ثمّ دفع لي ذو الرياستين أبو العبّاس الفضل بن سهل وزير المأمون صلةً، وَحَمَلَني على برذون أصفر خراسانيّ، وكنت أُسايره في يوم مطير وعليه ممطر خزّ وبُرْنُس، فأمر لي به ودعا بغيره جديد ولبسه، وقال: إنّما آثرتك باللبيس لأنّه خير الممطرين، قال: فأُعطِيتُ به ثمانين ديناراً فلم تَطِبْ نفسي ببيعه، ثمّ كَرَرْتُ راجعاً إلى العراق، فلمّا صِرتُ في بعض الطريق خرج علينا الأكراد فأخذونا، فكان ذلك اليوم يوماً مطيراً، فبقيتُ في قميصٍ خَلَقٍ وضُرٍّ شديد، متأسِّفاً، من جميع ما كان معي، على القميص والمنشفة، ومفكّراً في قول سيّدي الرضا، إذ مرَّ بي واحدٌ من الأكراد الحراميّة تحته الفرس الأصفر الذي حملني عليه ذو الرياستين وعليه الممطر، ووقف بالقرب منّي ليجتمع إليه أصحابه وهو ينشد «مدارس آيات خلت من تلاوة» ويبكي، فلمّا رأيت ذلك عَجِبْتُ من لصّ من الأكراد يتشيّعُ، ثمّ طمعتُ في القميص والمنشفة فقلت: يا سيِّدي، لمن هذه القصيدة؟ فقال: وما أنت وذاك؟ ويلك!. فقلت: لي فيه سببٌ أُخبرك به، فقال: هي أشهر بصاحبها من أن تُجهلَ. فقلت: من؟ قال: دعبل بن عليّ الخزاعي شاعر آل محمد جزاه الله خيراً. قلت له: يا سيِّدي فأنا والله دعبل وهذه قصيدتي[1]. . ثم يورد منها أربعة وعشرين بيتاً.

٧ ـ روى الشبراوي الشافعي: (المتوفّى سنة ١١٧٢هـ) في «الإتحاف بحب الأشراف» عن الهروي، قال: سمعت دعبلاً يقول: لمّا أنشدت مولاي الرضا قصيدتي التي أوّلها:

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ ومهبطُ وحيٍ مقفرُ العَرَصاتِ

فلمّا انتهيت إلى قولي:

---

(١) الشافعي، مطالب السؤول، ص ٨٥.

خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٍ يقوم على اسم الله والبركاتِ
يميِّز فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ ويُجزي على النعماء والنقماتِ

بكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً، ثمَّ رفع رأسه إليّ فقال لي: «يا خزاعيُّ نطق روحُ القُدُس على لسانِك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام؟ ومتى يقوم؟». فقلت: لا يا سيِّدي؟ إلاّ أنّي سَمِعْتُ بخروجِ إمامٍ منكم. إلى آخر ما مرَّ عن الحمّوئي.

وفي الإتحاف أيضاً: نقل الطبري في كتابه عن أبي الصلت الهَرَوي قال: دخل الخزاعيُّ على عليٍّ بن موسى الرضا بمرو، فقال: يا ابن رسول الله، إنّي قلت فيكم أهلَ البيتِ قصيدة، وآليتُ على نفسي أن لا أُنشِدَها أحداً قبلك، وأُحبُّ أن تسمعها منّي، فقال له عليُّ الرضا: «هات قل»، فأنشأ يقول...

وهي قصيدةٌ طويلةٌ عدّة أبياتها مئةٌ وعشرون بيتاً. ولمّا فرغ دعبل من إنشادها نهض أبو الحسن الرضا وقال: «لا تبرح»، فأنفذ إليه صُرّة فيها مائة دينار واعتذر إليه. فردّها دعبل وقال: والله ما لهذا جئتُ وإنّما جئت للسلام عليه والتبرُّك بالنظر إلى وجهه الميمون، وإنّي لفي غنىً، فإن رأى أن يعطيني شيئاً من ثيابه للتبرُّك فهو أحبُّ إليَّ، فأعطاه الرضا جبّة خَزّ وردَّ عليه الصُرَّة وقال للغلام: «قل له: خذها ولا تَرُدَّها؛ فإنّك ستصرفها أَحوَجَ ما تكونُ إليها». فأخذها وأخذ الجبّة. إلى آخر حديث اللصوص المذكور[1].

شروح تائية دعبل

للقصيدة التائية التي أنشدها الشاعر دعبل الخزاعي في آل البيت عدّة شروح نذكر منها:

١ ـ شرح العلاّمة السيد نعمة الله الجزائري، المتوفى سنة ١١١٢هـ.

(١) الشبراوي، الاتحاف بحب الأشراف، ص ١٦١ وما بعدها.

٢ ـ شرح العلاّمة كمال الدين محمد بن محمد القَسَوي الشيرازي.

٣ ـ شرح العلاّمة ميرزا علي العلياري التبريزي، المتوفى سنة ١٣٢٧هـ.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنّ مستهلّ هذه القصيدة ليس كلّ ما ذكروه؛ فإنّها مبدوءةٌ بالنسيب، ومطلعها:

تجـاوبـن بـالإرنـان والـزَّفـراتِ نـوائـحُ عُجْـمُ اللفـظِ والنطقـاتِ

قـال ابـن الفتّـال(١)، وابـن شهـرآشـوب(٢): رُوي أنّ دعبـل أنشـدهـا الإمام عليه السلام من قوله: مدارس آياتٍ، وليس هذا البيت رأس القصيدة، ولكن أنشدها من هذا البيت فقيل له: لِمَ بدأت بمدارس آيات؟ قال: استحييت من الإمام عليه السلام أن أُنشدَه التشبيب، فأنشدته المناقب ورأس القصيدة:

تجـاوبـن بـالإرنـان والـزَّفـراتِ نـوائـحُ عُجْـمُ اللفـظِ والنطقـاتِ

نماذج من شعره في مدح آل البيت

ويمـدح الشـاعر دعبل الخزاعي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ويذكر تصدُّقـه بخاتمـه للسائل في الصلاة ونزول قوله تعالى: ﴿**إنّما وَلِيّكُمُ اللهُ وَرَسُـولُـهُ والَّـذِيـنَ آمَنُـوا الَّـذِيـنَ يُـقِيمُـونَ الصَّلاَةَ ويُؤْتُـونَ الزَّكَاةَ وَهُـمْ رَاكِعُـونَ**﴾ [المائدة/ ٥٥] فيه بقوله:

نَطَـقَ القـرآنُ بفضـلِ آلِ محمَّـدٍ ووِلايـــةٍ لعليِّـــهِ لـــم تُجحَـــدِ
بـولايـةِ المختـارِ مَن خير الذي بعـد النبـيِّ الصـادق المتـودّدِ
إذ جاءَهُ المسكينُ حالَ صلاتِهِ فـامتـدَّ طـوعـاً بـالـذِّراع وبـاليـدِ
فتنـاولَ المسكيـنُ منـهُ خـاتَمـاً هِبـةَ الكـريـم الأجـودِ بـنَ الأجـودِ
فـاختصّـهُ الـرحمـنُ في تنزيلِـهِ مــنْ حـازَ مثـلَ فَخـارِهِ فليَعْــدُدِ
إنَّ الإلـهَ وَليُّكــمْ ورسـولَــهُ والمـؤمنيـن فَمَـنْ يَشَـأْ فلْيجحَـدِ

---

(١) روضة الواعظين، ١/ ٢٢٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب، ٤/ ٣٦٦.

يكنِ الإلهُ خصيمَهُ فيها غداً   واللهُ ليس بمُخْلِفٍ فيْ الموعدِ[(١)]

وله يمدح أمير المؤمنين (صلوات الله عليه):

سقياً لبيعةِ أحمدٍ ووصيِّهِ   أعني الإمامَ وليَّنا المحسودا
أعني الذي نصَرَ النبيَّ محمداً   قبلَ البريّةِ ناشئاً ووليدا
أعني الذي كَشَفَ الكروبَ ولم يكنْ   في الحربِ عند لقائهِ رِعديدا
أعني المُوَحِّدَ قبلَ كلِّ مُوَحِّدٍ   لا عابداً وَثناً ولا جلمودا

وله يرثي الإمام السبط شهيد الطفّ (سلام الله عليه):

إن كنتَ محزوناً فمالكَ ترقُدُ   هلاّ بَكَيْتَ لمن بَكاهُ محمَّدُ
هلاّ بَكَيْتَ على الحسينِ وأهلِهِ   إنَّ البكاءَ لمِثلِهمْ قد يُحمَدُ
لِتَضَعْضُعِ الإسلامِ يوم مُصابِهِ   فالجودُ يبكي فقدَهُ والسؤددُ
فلقدْ بَكَتْهُ في السماءِ ملائكٌ   زُهْرٌ كرامٌ راكعون وسُجَّدُ
أنَسِيتَ إذ صارتْ إليه كتائبٌ   فيها ابن سعدٍ والطُّغاةُ الجُحَّدُ
فسَقَوْهُ من جُرَعِ الحُتوفِ بمشهدٍ   كَثُرَ العِداةُ بهِ وقَلَّ المُسعِدُ
لم يَحفظوا حَقَّ النبيِّ محمَّدٍ   إذْ جَرّعوهُ حرارةً ما تبردُ
قتلوا الحسينَ فأثكلوهُ بسبطِهِ   فالثُّكْلُ من بعد الحسين مُبَرَّدُ
كيف القرارُ وفي السبايا زينبٌ   تدعو بفَرْطِ حرارةٍ: يا أحمدُ
هذا حسينٌ بالسيوفِ مُبضَّعٌ   مُتلطِّخٌ بدمائه مُسْتَشْهَدُ
عارٍ بلاثوبٍ صريعٌ في الثرى   بين الحوافرِ والسنابكِ يُقْصَدُ
والطيِّبونَ بَنوكَ قتلى حولَهُ   فوقَ التُّرابِ ذبائحٌ لا تُلْحَدُ
يا جدُّ قد مُنِعوا الفراتَ وقُتِّلوا   عَطَشاً فليسَ لهمْ هنالكَ موردُ
يا جدُّ من ثُكْلي وطولِ مُصيبتي   ولِما أُعانيهِ أقومُ وأقعدُ

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ٣/ ١١.

وله من قصيدة طويلة في رثاء الشهيد السبط عليه السلام قوله:

جاؤوا من الشامِ المَشُومةِ أهلُها ... للشوم يَقدِمُ جُنْدَهمْ إبليسُ

لُعِنوا وقد لُعِنوا بقتلِ إمامِهِمْ ... تَركوهُ وهو مبضَّعٌ مخموسُ

وسَبَوا فواحَزَني بناتِ محمدٍ ... عبرى حواسرَ ما لهنَّ لبوسُ

تبّاً لكمْ يا ويلكمْ أرضيتمُ ... بالنّارِ ذَلَّ هنالكَ المحبُوسُ

بِعتم بدنيا غيرِكمْ جَهْلاً بكمْ ... عِزَّ الحياةِ وإنَّهُ لنفيسُ

أُخزي بها من بيعةٍ أمويّةٍ ... لُعِنت وحظُّ البائعين خسيسُ

بؤساً لمن بايعتمُ وكأنّني ... بإمامكمْ وَسْطَ الجحيمِ حَبيسُ

يا آل أحمدَ ما لقيتمْ بعدَهُ ... من عُصْبةٍ هم في القياسِ مجوسُ

كم عَبرةٍ فاضتْ لكم وتقطّعتْ ... يومَ الطفوف على الحسين نفوسُ

صبراً مَوالينا فسوف نُديلُكمْ ... يوماً على آل اللعين عَبوسُ

ما زلتُ متّبعاً لكمْ ولأمرِكُمْ ... وعليه نفسي ما حَيِيتُ أسوسُ

وذكر له ياقوت الحموي، في معجم الأدباء، في رثاء الإمام السبط عليه السلام قوله:

رأسُ ابن بنت محمدٍ ووصيِّهِ ... يا للرجالِ على قناةٍ يُرفعُ

والمسلمونَ بمنظرٍ وبِمَسْمَعٍ ... لا جازعٌ من ذا ولا مُتَخَشِّعُ

أيقظتَ أجفاناً وكنتَ لها كرىً ... وأنمتَ عيناً لم تكن لكَ تهجَعُ

كُحِلَتْ بمنظرِكَ العيونُ عمايةً ... وأصمَّ نعيُكَ كلَّ أُذنٍ تسمعُ

ما روضةٌ إلاّ تمنّت أنّها ... لك مضجعٌ ولخطِّ قبرك موضعُ

وله في مدح الإمام الطاهر عليٍّ بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ:

أبو تراب حيدرَه ... ذاك الإمامُ القَسْوَرَه

مُبيدُ كلِّ الكفَرَه ... ليس له مناضلُ

***

مبارزٌ ما يهبُ ... وضيغمٌ ما يُغلَبُ

وصـــادقٌ لا يكـــذِبُ　　　وفـــــارسٌ محـــــاولُ

***

سيــفُ النبــيِّ الصــادقِ　　　مُبيـــدُ كـــلِّ فـــاســـقِ
بمُـــرْهــفٍ ذي بـــارقِ　　　أخلصَـــهُ الصيـــاقـــلُ

***

وله يرثي الإمام السبط ـ صلوات الله عليه ـ:

منـــازلُ بيـــن أكنـــافِ الغَـــرَيِّ　　　إلـــى وادي الميـــاه إلـــى الطـــويِّ
لقد شغلَ الدموعَ عن الغواني　　　مُصـــابُ الأكـــرميـــن بنـــي علـــيِّ
أتى أسفي على هفواتِ دهري　　　تضـــاءل فيـــه أولاد الـــزكـــيِّ
ألـــمْ تَقِـفِ البكـاءَ علـى حسيـنٍ　　　وذكـــرك مصـــرعَ الحَبْـــر التقـــيِّ
ألـــم يُحـــزِنْـــكَ أنَّ بنـــي زيـــادٍ　　　أصـــابـــوا بـــالتـــراتِ بنـــي النبـــيِّ
وأَنَّ بنـــي الحَصَـــانِ يمـــرُّ فيهـــمْ　　　عـــلانيـــةً سيـــوفُ بنـــي البغـــيِّ

ويقول في رثاء الإمام السبط الشهيد عليه السلام أيضاً:

أتَسْكُـبُ دمـعَ العيـنِ بـالعبراتِ　　　وبـتَّ تُقـاسـي شِـدّةَ الـزفَـراتِ؟
وتبكـــي لآثـــارٍ لآلِ محمـــدٍ　　　فقد ضاقَ منك الصدرُ بالحسراتِ
ألا فـابكهـمْ حَقّـاً وبُـلَّ عليهـمُ　　　عُيـونـاً لـرَيْـبِ الـدهـر مُنسَكبـاتِ
ولا تنسَ في يوم الطفوفِ مُصابَهمْ　　　وداهيـــةً مـن أعـظـمِ النكَبـاتِ
سقى اللهُ أجداثاً على أرضِ كربلا　　　مـرابيـعَ أمطـارٍ مـن المُـزُنـاتِ
وصلّى على روح الحسينِ حبيبه　　　قتيـلاً لـدى النهـريـن بـالفَلَـواتِ
قتيـلاً بـلا جُـرمٍ فُجعنـا بفقـدِهِ　　　فـريـداً ينـادي: أيـنَ أيـنَ حُمـاتي
أنا الظامىءُ العطشانُ في أرضِ غربةٍ　　　قتيـلاً ومظلـومـاً بغيـر تِـراتِ
وقد رفعوا رأسَ الحسينِ على القنا　　　وسـاقـوا نسـاءً وُلَّـهـاً خَـفِـراتِ
فـقل لابـن سعدٍ عذَّبَ اللهُ روحَهُ　　　ستلقـى عـذابَ النـارِ بـاللعنـاتِ

دعبل وخلفاء عصره

تحفل سيرةُ الشاعر دعبل الخزاعي بكثيرٍ من القصص والمواقف مع خلفاء عصره، نقتطف في ما يأتي بعض تلك القصص:

١ ـ عن يحيى بن أكثم، قال: إنَّ المأمون أقدم دعبلاً، رحمه الله، وآمنه على نفسه، فلمّا مثل بين يديه وكنت جالساً بين يدي المأمون، قال له: أنشدني قصيدتك الرائيّة، فجحَدها دعبل وأنكر معرفتها، فقال له: لك الأمان عليها كما أمِنتك على نفسك. فأنشده:

تأسّفَتْ جارتي لَمّا رأت زَوَري ... وعَدّتِ الحِلْمَ ذنباً غيرَ مُغْتَفَرِ
ترجو الصِّبا بعد ما شابت ذوائبُها ... وقد جَرَتْ طَلَقاً في حِلبةِ الكِبَرِ
أجارتي إنَّ شيبَ الرأس يُعلمني ... ذِكرَ المعاد وأرضاني عن القدَرِ
لو كنت أركنُ للدنيا وزينتِها ... إذاً بَكَيت على الماضين من نفرِ
أخنى الزمان على أهلي فصدّعهمْ ... تصدُّع الشعبِ لاقى صدمةَ الحجرِ
بعضٌ أقام وبعضٌ قد أصات به ... داعي المنيّةِ والباقي على الأثرِ
أمّا المقيمُ فأخشى أن يُفارقَني ... ولستُ أَوبةَ من ولّى بمُنتظِرِ
أصبحتُ أُخبِرُ عن أهلي وعن وَلَدي ... كحالم قَصَّ رؤياً بعد مُدَّكرِ
لولا تَشَاغلُ عيني بالأُلى سَلَفُوا ... من أهل بيت رسول الله لم أقِرِ
وفي مواليك للمحزون مشغلةٌ ... من أن تبيت لمشغولٍ على أثرِ
كم من ذراعٍ لهم بالطفّ بائنةٍ ... وعارضٍ بصعيد التُّرْب مُنعفرِ
أمسى الحسينُ ومسراهم لمقتلهِ ... وهم يقولون: هذا سيِّدُ البشرِ
يا أمّةَ السُّوءِ ما جازيتِ أحمدَ في ... حُسْن البلاء على التّنزيل والسُّوَرِ
خَلَفتموه على الأبناء حين مضى ... خلافةَ الذِّئب في أبقار ذي بقرِ

قال يحيى: وأنفذني المأمون في حاجة، فقمتُ فعدت إليه وقد انتهى إلى قوله:

لم يبقَ حيٌّ من الأحياء نعلمُهُ ... من ذي يمانٍ ولا بكرٍ ولا مُضَرِ

إلاّ وهـم شُـرَكـاءُ فـي دمـائِهمُ   كمـا تَشَـارك أيسارٌ[1] على جُزُرِ
قتـلاً وأسـراً وتخـويفـاً ومَنْهَبَـةً   فِعـلَ الغـزاة بـأرض الـرومِ والخَـزَرِ
أرى أميّـة معـذوريـن إن قتلـوا   ولا أرى لبنـي العبّـاس مـن عُـذُرِ
قومٌ قتلتمْ على الإسلام أوّلَهمْ   حتى إذا استمكنوا جازَوا على الكُفُرِ
أبنـاءُ حـربٍ ومـروانٍ وأُسـرتُهـمْ   بنـو مُعَيْـطٍ ولاةُ الحقـدِ والـزَّعـرِ[2]
إربَعْ[3] بطُوسٍ على قبر الزكيِّ بها   إن كنتَ تربَعُ من دِينٍ على وَطَرِ
قبرانِ في طوسَ: خيرُ النّاسِ كلِّهمُ   وقبـرُ شَـرِّهـمُ هـذا مـن العِبَـرِ
ما ينفع الرِّجسَ من قبرِ الزكيِّ ولا   على الزكيِّ بقُرْبِ الرِّجْسِ من ضَرَرِ
هيهات كلُّ امرىءٍ رهنٌ بما كَسَبَتْ   لـه يـداه، فخـذ مـا شئـت أو فَـذَرِ

قال: فضرب المأمون بعمامته الأرض، وقال: صدقت والله يا دعبل[4].

روى الشيخ الصّدوق بإسناده عن دعبل أنّه قال: جاءني خبر موت الرضا عليه السلام وأنا مقيمٌ بقم فقلت القصيدة الرائيّة، ثمّ ذكر أبياتاً منها[5].

٢ ـ دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فشكا إليه حاله، وقال: يا أمير المؤمنين إنَّ الله سبحانه وتعالى فضّلك في نفسك عليَّ، وألهمك الرأفة والعفو عنّي، والنسب واحدٌ، وقد هجاني دعبل فانتقم لي منه، فقال: وما قال؟ لعلَّك تقصد قوله:

نعَـرَ ابـنُ شَكْلَـةَ بـالعـراقِ وأهلِـهِ   فهفـا إليـهِ كـلُّ أطلـسَ مـائـقِ

---

(١) الأيسار: جمع يَسَر، وهو الذي يتولّى قسمة الجُزُور.
(٢) الزَّعر: سوء الخلق وشراسته.
(٣) أي قف وانتظر.
(٤) الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٩٤، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٦/ ٧٦.
وانظر مجلة «المنهاج» العدد الثامن شتاء ١٤١٨هـ/١٩٩٧م دراسة بعنوان: الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي.
(٥) أمالي الصّدوق، ص ٥٢٦ حديث ١٦.

وأنشده الأبيات فقال: هذا من بعض هجائه، وقد هجاني بما هو أقبح من هذا، فقال المأمون: لك أُسوةٌ بي فقد هجاني واحتملته، وقال فيَّ[1]:

أيسومُني المأمون خطّة جاهلٍ   أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمدِ
إنّي من القومِ الذين سيوفُهمْ   قَتَلَتْ أخاك وشرّفَتْك بمقعَدِ
شادُوا بذكرِكَ بعد طُولِ خُموله   واستنقذوك من الحضيضِ الأوْهدِ

فقال إبراهيم: زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وعلماً، فما ينطقُ أحدُنا إلاّ عن فضل علمك، ولا يحلم إلاّ اتّباعاً لحلمك[2].

٣ ـ حدّث ميمون بن هارون، قال: قال إبراهيم بن المهدي للمأمون قولاً في دعبل يحرِّضه عليه، فضحك المأمون، وقال: إنّما تحرِّضني عليه لقوله فيك:

يا معشر الأجنادِ لا تَقْنَطوا   وارضَوا بما كانَ ولا تسخطوا
فسوف تُعطَوْنَ حُنينيّةً   يلتذُّها الأمردُ والأشمطُ
والمعبدِيّاتُ لقُوّادِكمْ   لا تدخلُ الكيس ولا تُربطُ
وهكذا يَرْزُقُ قُوّادَهُ   خليفةٌ مُصْحَفُهُ البَربطُ[3]

فقال له إبراهيم: فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين، فقال: دع هذا عنك، فقد عفوتُ عنه في هجائه إيّاي لقوله هذا وضحك. ثمّ دخل أبو عبّاد، فلمّا رآهُ المأمون من بُعْد قال لإبراهيم: دعبل يجسر على أبي عبّاد بالهجاء ولا يُحجم عن أحد. فقال له: وكأنّ أبا عبّاد أبسط يداً منك؟ قال: لا، ولكنّه حديدٌ جاهلٌ لا يُؤمَن، وأنا أحلم وأصفح، والله ما رأيت أبا عبّاد مقبلاً إلاّ أضحكني قول دعبل فيه:

أولى الأمور بضَيْعَةٍ وفسادِ   أمرٌ يُدبِّره أبو عبّادِ[4]

---

(١) أول القصيدة:

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيَدِ   والنائباتُ من الأنامِ بمرصَدِ

(٢) وفيات الأعيان، ٢/٢٦٧، رقم ٢٢٧.

(٣) البربط العود.

(٤) انظر القصّة كاملةً والأبيات في: الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٥٤ وما بعدها.

٤ ـ حدّث أبو ناجية قال: كان المعتصم يبغض دعبلاً لطول لسانه، وبلغ دعبلاً أنّه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل، وقال يهجوه:

بكى لشَتاتِ الدينِ مكتئبٌ صَبُّ ... وفاض بفَرْطِ الدمعِ من عينِهِ غَرْبُ(١)
وقام إمامٌ لم يكن ذا هدايةٍ ... فليس له دينٌ وليس له لُبُّ
وما كانتِ الأنباءُ تأتي بمثلِهِ ... يُملَّكُ يوماً أو تَدينُ له العُرْبُ
ولكن كما قال الذين تتابعوا ... من السلَفِ الماضين إذ عظُم الخَطْبُ
ملوكُ بني العبّاس في الكُتْبِ سَبْعَةٌ ... ولم تأتِنا عن ثامنٍ لهمُ كُتْبُ
كذلك أهلُ الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ ... خِيارٌ إذا عُدّوا وثامنُهمْ كلبُ
وإنّي لأُعلي كلبَهمْ عنك رِفعةً ... لأنّك ذو ذَنْبٍ وليس لهُ ذَنْبُ
لقد ضاع مُلْكُ الناسِ إذ ساس مُلْكَهمْ ... وصيفٌ وأشناسٌ وقد عَظُم الكَربُ(٢)
وفضلُ بنُ مروانٍ يُثَلِّمُ ثَلْمةً ... يَظَلُّ لها الإسلامُ ليس لهُ شَعبُ(٣)

٥ ـ حدّث ميمون بن هارون، قال: لمّا مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيّات يَرثيه:

فقد قلْتُ إذْ غيّبوهُ وانصرفوا ... في خيرِ قبرٍ لخيرِ مدفونِ
لن يَجْبُرَ اللهُ أمّةً فَقَدَتْ ... مثلَكَ إلاّ بمثلِ هارونِ

فقال دعبل يعارضه:

قد قُلتُ إذ غيّبوهُ وانصرفوا ... في شَرِّ قبرٍ لشرِّ مدفونِ
إذهبْ إلى النارِ والعذابِ فما ... خِلْتُكَ إلاّ من الشياطينِ
ما زلتَ حتى عَقَدْتَ بيعةَ مَنْ ... أضرَّ بالمسلمين والدينِ(٤)

---

(١) الغَرْب: عِرق في مجرى الدمع يسقي ولا ينقطع.
(٢) وصيف وأشناس: من قُوّاد المعتصم.
(٣) شَعب: إصلاح.
الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/١٥٧ ـ ١٥٨.
(٤) نفسه، م.س. ٢٠/١٥٨.

٦ ـ حدّث محمد بن قاسم بن مهرويه قال: كنت مع دعبل بالصيمرة وقد جاء نعي المعتصم وقيام الواثق، فقال لي دعبل: أمعك شيء تكتب فيه؟ فقلت: نعم، وأخرجت قرطاساً، فأملى عليَّ بديهاً:

الحمدُ للهِ لا صبرٌ ولا جَلَدُ ... ولا عزاءٌ إذا أهلُ البلا رَقَدوا
خليفةٌ ماتَ لم يَحزنْ له أحدٌ ... وآخرٌ قام لم يفرحْ به أَحدُ[1]

٧ ـ حدّث محمد بن جرير قال: أنشدني عبيدالله بن يعقوب هذا البيت وحده لدعبل يهجو به المتوكّل، وما سمعت له غيره فيه:

ولستُ بقائلٍ قَذْعاً ولكنْ ... لأمرٍ ما تعبّدك العبيدُ

قال: يرميه في هذا البيت بالأُبنَة.

٨ ـ دخل عبدالله بن طاهر على المأمون فقال له المأمون: أيَّ شيءٍ تحفَظُ يا عبدالله لدعبل؟ فقال: أحفظ أبياتاً له في أهل بيت أمير المؤمنين. قال: هاتها ويحك، فأنشده عبدالله قول دعبل:

سقياً ورعياً لأيّام الصباباتِ ... أيّامَ أرفُلُ في أثواب لذّاتي
أيّامَ غُصني رطيبٌ من لَيانتِهِ ... أصبو إلى غير جاراتٍ وكنّاتِ
دع عنك ذكرَ زمانٍ فات مطلبُهُ ... واقذِفْ برجلِكَ عن متنِ الجهالاتِ
واقصد بكلِّ مديحٍ أنت قائلُهُ ... نحو الهداةِ بني بيتِ الكراماتِ

فقال المأمون: إنّه قد وجد والله مقالاً، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله في وصف غيرهم. ثمّ قال المأمون: لقد أحسن في وصف سَفرٍ سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه:

ألَمْ يَئنِ للسفرِ الذين تحمّلوا ... إلى وطنٍ قبل المماتِ رجوعُ
فقلت ولم أملكْ سوابق عَبرةٍ ... نطقنَ بما ضُمَّت عليه ضلوعُ
تَبَيَّنْ فكم دارٍ تفرّقَ شملُها ... وشملٍ شتيتٍ عادَ وهو جميعُ

(١) نفسه، ٢٠/ ١٦٠.

كذاك الليالي صرفُهنَّ كما ترى ... لكـلِّ أنـاسٍ جَـذْبـةٌ وربيـعُ

ثمّ قال: ما سافرت قطُّ إلاّ كانت هذه الأبيات نُصبَ عينيَّ في سفري، وهجِّيري[1] ومُسَلّيتي حتى أعود[2].

٩ـ حدّث ميمون بن هارون قال: كان دعبل قد مدح دينار بن عبدالله وأخاه يحيى فلم يرضَ ما فعلاه، فقال يهجوهما:

مـا زال عصيـانـنـا لله يُـرذِلُنـا ... حتّـى دُفعنـا إلـى يحيـى ودينـارِ
وَغْدَينِ عِلجَين لم تُقطَعْ ثمارُهما ... قد طال ما سجدا للشمس والنارِ

قال: وفيهما وفي الحسن بن سهل والحسن بن رجاء وأبيه يقول دعبل:

ألا فاشتروا منّي ملوك المخزم ... أبـعْ حَسَنـاً وابنَـي رجـاءٍ بـدرهـمِ
وأُعْـطِ رجـاءً فـوق ذاك زيـادةً ... وأسمـحْ بـدينـارٍ بغيـر تنـدُّمِ
فإن رُدَّ من عيبٍ عليَّ جميعُهم ... فليس يَـردُّ العيبَ يحيـى بـن أكثـمِ

من نوادر دعبل

١ ـ حدّث أحمد بن خالد قال: كنّا يوماً بدار صالح بن عليّ من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعةٌ من أصحابنا، فسقط على كنينَةٍ في سطحه ديكٌ طار من دار دعبل، فلمّا رأيناه قلنا: هذا صيدنا، فأخذناه. فقال صالح: ما نصنع به؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشويناه. فخرج دعبل وسأل عن الديك فعَرَف أنّه سقط في دار صالح، فطلبه منّا فجحدناه، وشربنا يومنا. فلمّا كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة، ثمّ جلس على المسجد، وكان ذلك المسجد مجمع الناس، يجتمع فيه جماعةٌ من العلماء وينتابهم الناس، فجلس دعبل على المسجد وقال:

أسَـرَ المـؤذِّنَ صـالـحٌ وضيوفُهُ ... أسْرَ الكميِّ هفا خلال الماقطِ[3]

(١) هجيري: دأبي وعادتي.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٣) الماقط: المضيق في الحرب.

بعثـوا عليـه بَنيهـمُ وبنـاتِهـمْ		مِـن بيـن نـاتفـةٍ وآخـرَ سـامـطِ
يتنـازعـون كـأنّهـم قـد أوثقـوا		خاقان أو هزموا كتائب ناعطِ[1]
نَهشـوهُ فـانتُـزِعـتْ لـهُ أسنـانهُـمْ		وتهشّمـتْ أقفـاؤهـمْ بـالحـائـطِ

فكتبها الناس عنه ومضوا. فقال لي أبي وقد رجع إلى البيت: ويحكم، ضاقت عليكم المآكل، فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديك دعبل؟ ثمّ أنشدنا الشعر، وقال لي: لا تَدَعْ ديكاً ولا دجاجةً تقدر عليه إلاّ اشتريته، وبعثتَ به إلى دعبل، وإلاّ وقعنا في لسانه؛ ففعلتُ ذلك[2].

٢ ـ عن إسحاق النخعي قال: كنت جالساً مع دعبل بالبصرة وعلى رأسه غلامه ثقيف، فمرَّ به أعرابيٌّ يرفل في ثياب خَزّ، فقال لغلامه: أُدعُ لي هذا الأعرابي، فأومأ الغلام إليه، فجاء، فقال له دعبل: ممّن الرجل؟ قال: من بني كلاب، قال: من أيِّ ولد كلاب أنت؟ قال: من ولد أبي بكر، فقال دعبل: أتعرف القائل؟

ونُبِّئْتُ كلباً مِن كِلابٍ يَسبُّني		ومحضُ كِلابٍ يقطعُ الصلواتِ
فإنْ أنا لم أُعلِمْ كِلاباً بأنَّها		كِلابٌ وأنّي باسلُ النقِماتِ
فكان إذاً من قيسِ عَيلانَ والدي		وكانت إذاً أمّي من الحبَطاتِ[3]

قال: وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلابي. فقال له الأعرابيُّ: ممّن أنت؟ فكره أن يقول من خزاعة فيهجوهم، فقال: أنا أنتمي إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر:

أناسٌ عليُّ الخيرِ منهمْ وجعفرٌ		وحمزةُ والسجّادُ ذو الثفناتِ
إذا فخروا يوماً أتَوا بمحمّدٍ		وجبريلَ والفرقانِ والسُّوراتِ

(١) ناعط: قبيلة من هَمْدان. وأصله جبل نزلوا به فنُسِبوا إليه.
(٢) الأغاني، ٢٠/ ١٤١.
(٣) الحبَطات: أولاد الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم.

فوثب الأعرابيُّ وهو يقول: ما لي إلى محمدٍ وجبريل والفرقان والسوَرات مرتقىً [1].

٣ ـ حدَّث الحسين بن أبي السُّرى قال: غَضِبَ دعبل على أبي نصر بن جعفر بن محمد بن الأشعث ـ وكان دعبل مؤدِّبه قديماً ـ لشيء بلغه عنه، فقال يهجو أباه:

ما جعفرُ بن محمد بن الأشعثِ عندي بخيرٍ أبوةً من عَثْعَثِ
عبثاً تمارسَ بي تمارسُ حيّةً سوّارةً إن هجتَها لم تَلبَثِ
لو يعلمُ المغرورُ ماذا حازَ من خِزيٍ لوالدِهِ إذاً لم يَعْبَثِ

قال: فلقيه عَثعث، فقال له: أيّ شيءٍ كان بيني وبينك حتى ضربتَ بي المَثَل في خِسَّة الآباء؟، فضحك دعبل، وقال: لا شيء والله إلاّ اتّفاق اسمك واسم ابن الأشعث في القافية، أوَلا ترضى أن أجعل أباك وهو أسود خيراً من آباء الأشعث بن قيس [2]؟

٤ ـ عن الحسين بن دعبل قال: قال أبي في الفضل بن مروان:

نصَحْتُ فأخلَصتُ النصيحةَ للفضلِ وقلتُ فسيّرتُ المقالةَ في الفضلِ
ألا إنَّ في الفضلِ بنِ سهلٍ لَعِبْرَةً إن اعتبَر الفضلُ بنُ مروانَ بالفضلِ
وللفضل في الفضل بن يحيى مواعظٌ إذا فكّر الفضلُ بنُ مروانَ في الفضلِ
فأبْقِ حميداً من حديثٍ تَفُزْ بهِ ولا تَدَعِ الإحسانَ والأخذَ بالفضلِ
فإنّك قد أصبحتَ لِلمُلْكِ قَيِّماً وصرتَ مكانَ الفضلِ والفضلِ والفضل
ولم أرَ أبياتاً من الشعر قبلَها جميعُ قوافيها على الفضلِ والفضلِ
وليس لها عيبٌ إذا هي أُنشِدَتْ سوى أنّ نصحي الفضلَ كان من الفضلِ

(١) الأغاني، ٢٠/١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) المصدر السابق، ٢٠/١٦١.

فبعث إليه الفضل بن مروان بدنانير، وقال له: قد قبلتُ نُصحَك، فاكفني خَيرَك وشرَّك[1].

* * *

قصّة وفاته

استشهد دعبل ظلماً وعدواناً وهو شيخ كبير سنة (٢٤٦هـ) فعاش سبعاً وتسعين سنة وشهوراً من السنة الثامنة. يُقال: إنّه هجا مالك بن طوق بأبيات، وبلغت مالكاً، فطلبه فهرب، فأتى البصرة وعليها إسحاق بن العبّاس العبّاسي، وكان بلغه هجاء دعبل نزاراً، فلمّا دخل البصرة بعث من قبض عليه، ودعا بالنطع والسيف ليضرب عنقه، فحلف بالطلاق على جَحْدها، وبكلّ يمين تبرّئ من الدم أنّه لم يقُلها، وأنّ عدوّاً له قالها؛ إمّا أبو سعيد أو غيره ونسبها إليه ليُغريَ بدمه، وجعل يتضرّع إليه ويقبّل الأرض ويبكي بين يديه، فرقّ له فقال: أمّا إذا أعفيتك من القتل فلا بدّ من أن أشهرَك، ثمّ دعا بالعصا فضربه حتى سلح، وأمر به وأُلقي على قفاه، وفُتِح فمه فردَّ سَلحه فيه والمقارع تأخذ رجليه، وهو يحلف أن لا يكفَّ عنه حتى يستوفيه ويبلعَه أو يقتله. فما رُفِعت عنه حتى بلع سلَحه كلّه، ثمّ خلّاه فهرب إلى الأهواز، وبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مِقداماً وأمره أن يغتاله كيف شاء، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم، فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس، فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العُتمة، فضرب ظهر قدمه بعُكّاز لها زجٌّ مسمومٌ، فمات من غد، ودفن بتلك القرية.

وقيل: بل حُمل إلى السوس ودُفن بها[2]. وفي تاريخ ابن خلّكان[3]: قُتل بالطيب، وهي بلدةٌ بين واسط العراق وكور الأهواز.

(١) نفسه، ٢٠/ ١٥٣.
(٢) الأغاني، ٢٠/ ٢٠٠، معاهد التنصيص، ٢/ ٢٠٦ رقم ١١٥.
(٣) وفيات الأعيان، ٢/ ٢٧٠ رقم ٢٢٧.

وقال الحموي[1]: وبزويلة[2] قبرُ دعبل بن عليّ الخزاعي، قال بكر بن حمّاد:

الموت غادَرَ دِعبلاً بزويلةٍ في أرض برقة أحمد بن خصيبِ

لا يخفى على الباحث أنّ تردّد ابن عساكر في تاريخه[3] (٥/ ٢٤٢) بعد ذكر وفاة المترجَم سنة (٢٤٦هـ) وقوله: قيل: إنّه هجا المعتصم فقتله. وقيل: إنّه هجا مالكاً فأرسل إليه من سمَّه بالسوس تردّدٌ بلا تأمّل، ونقلٌ بلا تدبّر؛ إذ المعتصم توفّي (٢٢٧هـ) قبل شهادة المترجَم بتسع عشرة سنة. كما أنّ ما ذكره الحموي في معجم البلدان (٤/ ٤١٨) من أنّ دعبلاً لمّا هجا المعتصم أهدر دمه، فهرب إلى طوس واستجار بقبر الرشيد، فلم يُجِزْهُ المعتصم وقتله صبراً في سنة (٢٢٠هـ)، خلاف ما اتّفق عليه المؤرّخون وعلماء الرجال من شهادته سنة (٢٤٦هـ).

كان البحتري صديقاً للمترجَم وأبي تمام المتوفّى قبله، فرثاهما بقوله:

قد زادَ في كَلَفي وأوْقَدَ لَوْعتي مثوى حبيبٍ يومَ ماتَ ودعبلِ
أَخويَّ لا تزلِ السماءُ مَخِيلةً[4] تغشاكما بسماءِ مُزْنٍ مُسْبلِ
جدثٌ على الأهوازِ يبعدُ دونَهُ مسرى النَّعيِّ ورمْسُهُ بالموصلِ

قال أبو نصر محمد بن الحسن الكرخي الكاتب: رأيت على قبر دعبل مكتوباً:

أعدَّ للهِ يومَ يَلْقاهُ دعبلُ: أن لا إلهَ إلاّ هُو
يقولها مُخْلِصاً عساهُ بها يرحمُهُ في القيامة اللهُ
اللهُ مولاه والرسول ومنْ بعدِهما فالوصيُّ مولاهُ

(١) معجم البلدان، ٣/ ١٦٠ مادة (طوس).
(٢) أوّل حدود بلاد السودان. (المؤلف)
(٣) تاريخ مدينة دمشق، ٦/ ٨٤.
(٤) خيل السحاب: رعد وسحا وتهيّأ للمطر.

خلـف المترجَم ولداه: عبدالله وحسين الشاعر، ذكر ابن النديم[1] للثاني منهما ديواناً في نحو مئتي ورقة، وترجم له ابن المعجز في طبقات الشعراء[2] وذكر نماذج من شعره، وقال: الدعبليّ مليح الشعر جدّاً.

* * *

(١) فهرست ابن النديم، ص ١٨٣.
(٢) طبقات الشعراء، ص ٤٠٨.

(١٢)

أبو إسماعيل، محمّد بن علي، العلوي

ينتمي هـذا الشـاعـر إلى الأسرة العلويّة، وهو أبو إسماعيل، محمد بن علـي بـن عبدالله بن العبّاس بن الحسن بن عبيدالله بن العباس ابن أمير المؤمنين الإمـام علـي بن أبي طالب عليه السلام. عاش في بغداد في زمن الخليفة العباسي المتوكل، «وبقي بعده دهراً»، كما يقول المرزباني في معجم الشعراء..

يـرفـل أبـو إسمـاعيـل، كما يفيد نسبه، «في حلّة المجد الضّافية»، فهذا النّسب يعود إلى إمام المتّقين، ووصيّ خاتم المرسلين عليهما السلام، ثم إلى قمر بني هاشم، وفارس كربلاء، أبي الفضل العبّاس، الذي جسّد المثل الأعلى للإيمان والتّقى، والقيم الإسلاميّة من شجاعةٍ ومواساة وتضحية وإيثار...

ويبـدو، كمـا تـفيـد كـتب تـاريـخ الأدب، أنَّ أبـا إسماعيل سليل أسرة شـاعـرة، فجدّه أبو الفضل العباس بن الحسن... كان شـاعراً، وأخو العباس هـذا، الـفضل بـن الحسـن كـان شـاعـراً، وقد أبّنَ الفضل هذا جدّه أبا الفضل العباس ابن الإمام علي عليه السلام، شهيد الطف عليه السلام بقوله:

أحــقُّ النّــاس أن يُبْكَــى عليــه ... فتــىً أبكــى الحسيــنَ بِكَــرْبَــلاَء
أخــوه، وابــن والــده علــيٌّ ... أبــو الفضــل المضــرَّج بــالــدِّمــاء
ومــن واسَــاهُ لاَ يَثْنِيــه شــيءٌ ... وجَــادَ لــه علــى عطــشٍ بمــاء

وقـد شـاعت هـذه الأبيـات، وأعـجب بـها العلمـاء والشعـراء، فذكرها المـؤرّخ الهنـدي أشـرف علي في كتابه المطبوع «روض الجنان في نيل مشتهى الجنان»، وشطرها الشيخ محمد علي الأوردبادي، فقال:

أحقُّ الناسِ أن يُبكى عليه ... بدمعٍ شابَهُ علَقُ الدِّماءِ
بجنب العلقميِّ سريّ فهرٍ ... فتىً أبكى الحسين بكربلاءِ
أخوه وابن والده عليٍّ ... هزبر الملتقى ربُّ اللِّواءِ
صريعاً تحت مُشتَبَكِ المواضي ... أبو الفضل المضرّجُ بالدماءِ
ومن واساه لا يثنيه شيءٌ ... عن ابن المصطفى عند البلاءِ
وقد ملك الفراتَ فلم يَذُقْهُ ... وجاد له على عطشٍ بماءِ

وقد اتّصف أبناء هذه الأسرة، فضلاً عن انتسابهم إلى الأكارم من آل هاشم، وعن تقاهم وحميد أخلاقهم، بعزّة النَّفس والقناعة والصّبر من ناحية، وبغزارة العلم وتدبّر الأمور بعقل حكيم من ناحية ثانية. ومما يدلُّ على ذلك ما ترويه كتب الأدب من أخبار عنهم، ومن هذه الأخبار نذكر، على سبيل المثال، ما يتعلق بالعباس بن الحسن، وكان كما يقول الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عالماً شاعراً فصيحاً، فقد جاء إلى باب الخليفة العباسيّ المأمون يريد الدّخول عليه، فنظر إليه الحاجب، ثم أطرق كأنّه يخفي أمراً أصدره إليه المأمون، ولا يريد قوله احتراماً للرَّجل، فقال له هذا: «لو أُذن لنا لدخلنا، ولو اعتُذر إلينا لقبلنا، ولو صُرفنا لانصرفنا، فأمّا اللفتة بعد النّظرة فلا أعرفها». ثم أنشد:

وما عن رضىً كان الحمار مطيّتي ... ولكنّ من يمشي سيرضى بما ركب

وتذكر كتب الأدب من درر كلماته الحكمية قوله: «إعلم أنّ رأيك لا يتّسع لكلّ شيء ففرِّغه للمهمّ، وأنّ مالك لا يغني الناس كلّهم فخصّ به أهل الحقّ، وأنّ كرامتك لا تطيق العامّة فتَوَخَّ بها أهل الفضل، وأنّ ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك، وإن دأبت فيهما، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك من ذلك؛ فإنّ ما شغلك من رأيك في غير المهمّ إزراءٌ بالمهمّ. وما صرفت من مالك في الباطل فقدته حين تريده للحقّ، وما عمدت من كرامتك إلى أهل النقص أضرّ بك في العجز عن أهل الفضل، وما شغلك من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة».

رأى العباس بن الحسن إلى الأمور رؤية عاقل حكيم يدرك مكانته، وكثيراً ما أنشد شعراً يفخر فيه بهذه المكانة، ويذكر إخاء أبي طالبٍ عم النبي ﷺ لعبدالله أبي النبي ﷺ لأبيه وأمّه من بين إخوته الآخرين، فما يجمع آل أبي طالب ورسول الله «أب وأم وجدّ غير موصوم...».

إنّا وإنّ رسول الله يجمعنا ... أبٌ وأمٌّ وجَدٌّ غير موصومِ
جاءت بنا ربّة من بين أسرتهِ ... غرّاءُ من نسلِ عمرانَ بنِ مخزومِ
حُزنا بها دون من يسعى ليُدركَها ... قرابةً من حَواها غيرُ مسهومِ
رزقاً من الله أعطانا فضيلتَهُ ... والناس من بين مرزوقٍ ومحرومِ

والتركيز على هذا الإخاء، وعلى الجدّ «غير الموصوم» ذو دلالة على الصِّراع الذي كان دائراً في العصر العباسي بين العباسيين والعلويين، وبخاصة في زمن المأمون على من هو الأحق بالخلافة، فبه يدحض حجة العبَّاسيين القائمة على حق العم بالإرث، فإن يكن الأمر هكذا فإن أبا طالب هو «العم» الأقرب نسباً (أخ شقيق) وتقىً (غير موصوم).

ومضى أبو إسماعيل العلوي وفق هذا النهج، فكان، كما يقول المرزباني، في معجم الشعراء، شاعراً يكثر الفخر بآبائه (رضوان الله عليهم) ومن فخره بهم قوله:

□ وإنّي كريمٌ من أكارم سادةٍ ... أكفّهمُ تندى بجزل المواهبِ
هُم خيرُ من يحفى وأفضلُ ناعلٍ ... وذروةُ هُضْبِ العُربِ من آل غالبِ
هُم المنُّ والسلوى لدانٍ بودِّهمْ ... وكالسمّ في حَلْقِ العدوِّ المجانبِ

وكان من رجاحة العقل في جانب عظيم، مثيل جدِّه، فهو يقول في الصَّبر:

□ بعثتُ إليهم ناظري بتحيّةٍ ... فأبدتْ ليَ الإعراضَ بالنَّظرِ الشَّزرِ
فلمّا رأيتُ النفسَ أوفتْ على الردى ... فزعتُ إلى صبري فأسلمني صبري

وكـانـت كلماته تجري مجرى الحكم والأمثال، ومنها قوله في رجل من أهلـه: «إنـي لأكـره أن يكون لعلمه فضلٌ على عقله، كما أكره أن يكون للسانه فضل على علمه».

يوم الغدير

ومـن جميـل شعره قوله في بيان أمرين أولهما وصيّة النبي ﷺ للإمام علـي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة، يوم الدوح، أي يوم غدير خم، وثانيهما دور الإمام في نصرة الإسلام وتثبيت دعائمه، يقول الشاعر:

وجدّي وزيرُ المصطفى وابنُ عمّهِ ... عليٌّ شهابُ الحربِ فـي كـلِّ مَلْحـمِ
أليـس ببـدرٍ كـان أوّلَ قـاحـمِ ... يُطيـرُ بحـدّ السيـف هـامَ المقحّـمِ
وأوّلَ مـن صلّـى ووحّـد ربَّـهُ ... وأفضـلَ زُوّارِ الحطيـمِ وزمـزمِ
وصاحبَ يومِ الدوحِ إذ قام أحمدٌ ... فنـادى بـرفـعِ الصـوتِ لا بِتَهمهُـمِ
جعلتُـكَ منّـي يـا عَلـيُّ بمنـزلٍ ... كهارونَ من موسى النجيبِ المكلّمَ
فصلّـى عليـه اللهُ مـا ذرّ شـارقٌ ... وأوفتْ حجورَ البيت أركُبُ مُحرِمِ[1]

* * *

(١) الغدير، ٣/ ١١ ـ ١٤.

(١٣)

بقراط بن أشوط (الوامق الأرميني) وشعراء آخرون[(١)]

مدح كثير من الشعراء النّصارى الإمام عليّاً بن أبي طالب عليه السلام، وضمّنوا مدائحهم حديث الغدير. وهؤلاء، وإن كانوا غير مسلمين، فإنّهم كانوا يعيشون في المجتمع الإسلامي، ويعرفون وقائعه وحقائق التاريخ، ويستطيعون التّمييز بين شخصٍ وآخر، ولهذا فإن المنصف منهم كان يقول ما يعرفه وما يتبيّنه في كثير من الأحيان[(٢)]، وفي حب النّاس لآل البيت يقول الشاعر زبيتا بن إسحق النصراني:

يقولون: ما بال النصارى تحبُّهم وأهل النُّهى من أعرب وأعاجم!؟
فقلت لهم: إني لأحسب حبَّهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وفي المعنى نفسه يقول الشاعر عبد المسيح الأنطاكي المصري:

كذا النصارى بحب المرتضى شغفت ألبابُها وشدت فيه أغانيها

ومن هؤلاء الشعراء نذكر:

□ **بقراط بن أشوط، الوامق الأرميني النصراني، بطريق** (قائد حاذق بالحرب وشؤونها) بطارقة أرمينية. وقائدهم الأكبر، وأميرهم المقدّم في القرن الثالث الهجري، عدّه ابن شهرآشوب، في كتابه: «معالم العلماء» «من مقتصدي المادحين لأهل البيت». عاش في أرمينية في زمن الخليفة العبّاسي

(١) العلامة الأميني، الغدير...، ٣/ ١٨ ـ ٢٢.
(٢) يذكر العلامة الأميني أسماء ثلاثين كتاباً لمؤلفين غير مسلمين يثني فيها مؤلّفوها على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، أو وصيه عليه السلام، راجع: نفسه، ٣/ ١٦.

المتوكِّل، ولمّا وليها يوسف بن محمد سيَّره هو وابنه نعمة سنة ٢٣٧هـ إلى الخليفة في بغداد، ما أدَّى إلى حدوث اضطرابات في أرمينية يفصِّلها اليعقوبي في تاريخه وابن الأثير في الكامل(١).

يمدح الوامق الأرميني الإمام علياً عليه السلام، فيتساءل: أليس هو من أقامه النبيُّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم في غدير خم، أمام الملأ، ثم يبيِّن دوره في نصرة الإسلام ويعدِّد فضائله، وينتهي إلى تقرير أنه أحق الناس بعد محمد بالولاية، وهذا ما ينبغي أن يعتقده كل عالم بحقائق الأمور، ومن هذه القصيدة قوله:

أليس بخمٍّ قد أقام محمَّدٌ ... علياً بإحضار الملا في المواسمِ
فقال لهم: من كنتُ مولاه منكُمُ ... فمولاكمُ بعدي عليُّ بنُ فاطمِ
قال: إلهي كن وليّ وليّهِ ... وعادِ أعاديه على رغم راغمِ
أما ردَّ عمراً يوم سَلعٍ بباترٍ ... كأنّ على جنبيهِ لطخَ العنادمِ
وعاد ابن معدي نحو أحمدَ خاضعاً ... كشاربِ أثلٍ في خطامِ الغمائمِ
وعاديتَ في اللهِ القبائل كلّها ... ولم تخشَ في الرحمن لومةَ لائمِ
وكنتَ أحقّ الناس بعد محمَّدٍ ... وليس جهول القوم في حكم عالمِ

□ زينبا بن إسحق الرسعني الموصلي النَّصراني، وفي مصادر أخرى، كما يقول صاحب الغدير، «زبيتا» و «زينبا» وزينب بنت إسحق، ويضيف العلامة الأميني فيقول:

ذكر له البيهقي في المحاسن والمساوئ، والزمخشري في ربيع الأبرار، وأبو حيّان في تفسيره البحر المحيط، وأبو العبّاس القسطلاني في المواهب اللدنيّة، وأبو عبدالله الزرقاني المالكي في شرح المواهب، والمقري المالكي في نفح الطيب والشيخ محمد الصبّان في إسعاف الراغبين (ص ١١٧) نقلاً عن إمامهم أبي عبدالله محمد بن عليّ بن يوسف الأنصاري الشاطبي قوله:

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٤٨٩، الكامل في التاريخ، ٤/ ٣٢٠، حوادث سنة ٢٣٧هـ.

عديٌّ وتيمٌ لا أحاولُ ذِكرَها بسوءٍ، ولكنّي محبٌّ لهاشمِ
وما تعتريني في عليٍّ ورهطِهِ إذا ذكروا في الله لومةُ لائمِ
يقولون: ما بال النصارى تحبُّهم وأهل النهى من أعرُبٍ وأعاجمِ!؟
فقلت: لهم إنّي لأحسبُ حبَّهمْ سرى في قلوب الخلق حتى البهائمِ

□ وذكر الخطيب الخوارزمي في المناقب، وابن شهرآشوب في مناقبه، والإربلي في كشف الغمّة لبعض النصارى قوله:

عليٌّ أميرُ المؤمنين صريمةً وما لسواهُ في الخلافة مطمعُ
له النسب الأعلى وإسلامه الذي تقدّم فيهِ والفضائلُ أجمعُ
بأنّ علياً أفضلُ الناسِ كلّهم وأورعُهم بعد النبيّ وأشجعُ
فلو كنتُ أهوى ملّةً غيرَ ملّتي لما كنتُ إلاّ مسلماً أتشيّعُ

□ وذكر شيخنا عماد الدين الطبري، في الجزء الثاني من كتابه: «بشارة المصطفى» لأبي يعقوب النصراني قوله:

يا حبّذا دوحةٌ في الخُلدِ نابتةٌ ما في الجِنان لها شِبهٌ من الشجرِ
المصطفى أصلُها والفرعُ فاطمةٌ ثمّ اللقاحُ عليٌّ سيّدُ البشرِ
والهاشميّان سبطاه لها ثَمرٌ والشيعةُ الورقُ الملتفُّ بالثمرِ
هذا مقالُ رسول الله جاءَ بهِ أهلُ الروايات في العالي من الخَبرِ
إنّي بحبّهمُ أرجو النجاة غداً والفوزَ معْ زمرةٍ من أحسنِ الزمَرِ

أشار بها إلى ما أخرجه الحفّاظ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أنا الشجرة، وفاطمة فرعها، وعليّ لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، وشيعتنا ورقها، وأصل الشجرة في جنّة عدن، وسائر ذلك في سائر الجنّة».

هذا لفظه عند العامّة، وأمّا عند مشايخنا فهو: «خُلق الناس من أشجارٍ شتّى وخُلِقتُ أنا وعليُّ بن أبي طالب من شجرة واحدة، فما قولكم في شجرة أنا أصلُها، وفاطمةُ فرعها، وعليٌّ لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وشيعتنا أوراقها؟ فمن تعلّق بغصن من أغصانها ساقته إلى الجنّة، ومن تركها هوى في النار».

□ وممّن مدحه عليه السلام من متأخّري النصارى **عبد المسيح الأنطاكي المصري**، بقصيدته العلويّة المباركة ذات (٥٥٩٥) بيتاً، ومنها قوله (ص ٥٤٧) في ما نحن فيه:

للمرتضى رتبةٌ بعد الرسولِ لدى ... أهلِ اليقين تناهت في تعاليها
ذو العلمِ يعرفُها ذو العدلِ ينصِفُها ... ذو الجهل يَسرِفها ذو الكفر يكميها
وإنّ في ذاك إجماعاً بغير خلا ... فِ في المذاهب معْ شتّى مناحيها
وإن أقرّ بها الإسلامُ لا عجبٌ ... فإنّه منذُ بدءِ الوحي داريها
وإن تنادى جموعُ المسلمين بها ... فقد وعت قدرَها من هدي هاديها
بل جاوزتهم إلى الأغيارِ فانصرفتْ ... نفوسهم نحوها بالحمدِ تُطريها
وذي فلاسفةُ الجحّادِ مُعجبةٌ ... بها وقد أكبرت عجباً تساميها
وردّدتْ بين أهل الأرض مِدحتَها ... فيه وقد صدقت وصفاً وتشبيها
كذا النصارى بحبّ المرتضى شُغِفَتْ ... ألبابُها وشَدت فيهِ أغانيها
فلستَ تسمعُ منها غير مدحته الـ ... ـغرّاءِ ما ذَكَرَتهُ في نواديها
فارجع لقُسّانها بين الكنائس معْ ... رُهبانِها وهي في الأديار تأويها
تَجِدْ محبّتهُ بالإحترام أتتْ ... نفوسُها وله أبدت تَصبّيها
وانظر إلى الديلمِ الشُجعانِ خائضةَ الـ ... ـحروب والتركِ في شتّى مغازيها
تُلفِ استعاذتَها بالمرتضى ولقَد ... زانت بصورته الحسنا مواضيها
وآمنت أنّ ترصيع السّيوف بصو ... رة الوصيّ يُنيلُ النّصر مُنضيها[1]

□ وفي الآونة الأخيرة نظم الأستاذ بولس سلامة، ملحمته العصماء: «عيد الغدير» في (٣٠٨٥) بيتاً، وفيها يروي بأسلوب ملحمي تاريخ الإسلام ويُبيّن دور الإمام علي عليه السلام والأئمة من بعده في هذا التاريخ، مركزاً على حادثة غدير خمّ.

وطبيعي أن البحث في شعر القرون التوالي سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) الغدير، ٣/١٩ـ٢٢.

(١٤)
ابن الرّومي (٢٢١هـ/٨٣٥م)

التَّعريف بالشّاعر

ابـن الـرّومـي[١]، هـو أبـو الحسـن علـيّ بـن عبّـاس بـن جريج، مولى عبيدالله بن عيسى بن جعفر البغدادي، الشهير بابن الرومي. مفخرةٌ من مفاخر المسلميـن الشيعـة، وعبقـريٌ مـن عباقرة الأمّة، وشعره الذهبيُ الكثير الطافح بـرونق البلاغة قد أربى على سبائك التّبر حسناً وبهاءً، وعلى كثرة النجوم عدداً ونوراً. برع في المديح، والهجـاء، والوصف، والغزل من فنون الشعر، فقصر عـن مـداه الطـامحـون، وشخصت إليـه الأبصار، فجلّ عن النّدّ كما قصر عن مزاياه العدُّ.

ولـه فـي مـودّة ذوي القـربـى من آل الرسول (صلوات الله عليه وعليهم) أشـواط بعيـدة، واختصاصـه بهم ومدائحه لهم ودفاعه عنهم من أظهر الحقائق الجليّـة، وقـد عدّه ابن الصبّاغ المالكي (المتوفّى ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) في فصوله المهمّـة، والشبلنجـي فـي نـور الأبصـار مـن شعـراء الإمـام الحسن العسكري (صلوات الله عليه)[٢].

---

(١) راجع للمزيد من المعلومات المؤلّفات الآتية: الفهرست: ص ١٩٠، معجم الشعراء: ص ١٤٥، ص ٤١٠، مروج اللهب: ٤/ ٣٠١، العمدة: ص ٦٩، ٧٢، ١١٠، معالم العلماء: ص ١٥١، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٥٨ رقم ٤٦٣، شذرات الذهب: ٣/ ٣٥٢ حوادث سنة ٢٨٤هـ، معاهد التنصيص: ١/ ١٠٨ رقم ١٨، كشف الظنون: ١/ ٧٦٦، روضات الجنّات: ٥/ ٢٠١ رقم ٤٨٥، نسمة السحر: مج ٨/ ج٢/ ٣٥٨، الأعلام: ٤/ ٢٩٧، الشيعة وفنون الإسلام: ص ١٣٧.

(٢) راجع: الفصول المهمّة، ص ٢٨١ ونور الأبصار، ص ٣٣٨.

عاش ابن الروميّ حياته كلّها في بغداد، لا يفارقها قليلاً حتى يعود سريعاً، وقد نازعه إليها الشوق وغلبه نحوها حنين. وكانت بغداد، يومئذٍ، عاصمة الدنيا غير مدافعة، وكان صاحب ضيْعَة ومالك دارين وثراء وتحف موروثة، منها قدح زعم أنّه كان للرشيد، ووصفه في شعره لمّا أهداه إلى عليّ ابن المنجّم يحيى:

قدحٌ كان للرشيد اصطفاهُ   خلفٌ من ذكوره غير خلفِ
كفم الحِبِّ في الحلاوة بل أحلى   وإن كان لا يناغي بحرفِ
صِيغ من جوهرٍ مصفّى طِباعاً   لا علاجاً بكيمياءِ مصفِ
تنفُذُ العينُ فيه حتى تراها   أخطأتهُ من رِقّة المستشفّ
كهواه بلا هباءٍ مشوبٍ   بضياءٍ ارقّ بذاك وأصفِ

ولعلَّ هذا الثَّراء كان في بداية حياته، وقبل أن ينال منه الدَّهر في ما بعد؛ إذ إنّه كثيراً ما يشكو الحاجة، ويلحف من طلب العطاء.

عُنِيَ بجمع آثاره وكتابة أخباره وروايتها عدد من المؤلفين، منهم:

١ ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن عبيدالله بن عمّار (المتوفّى ٣١٩هـ/ ٩٣١م)، قال ابن المسيّب: لمّا مات ابن الرومي عمل كتاباً [١] في تفضيله ومختار شعره، وجلس يمليه على الناس، كما في فهرست ابن النديم ومعجم الأدباء[٢].

٢ ـ أبو عثمان الناجم، ترجمه في كتاب مقصور عليه.

٣ ـ أبو الحسن عليّ بن عبّاس النوبختي (المتوفى ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م). جمع أخباره في كتاب مفرد، كما في معجم الشعراء للمرزباني ومعجم الأدباء[٣].

(١) ينقل الحموي عنه ترجمة أحمد بن محمد بن عمار في معجم الأدباء، ٣/ ٢٤٠.
(٢) الفهرست، ص ١٦٦، ومعجم الأدباء، ١/ ٢٧٧.
(٣) معجم الشعراء، ص ١٥٥، ومعجم الأدباء، ١٣/ ٢٦٧.

وأفرد، من الكتّاب المتأخّرين، الأستاذ عبّاس محمود العقّاد كتاباً [١] في ترجمته في ٣٩٢ صفحة، ونحن نأخذ منه ما هو المهمّ ملخّصاً بلفظه. قال:

قد أدرك ابن الرومي في حياته ثمانية خلفاء، هم: الواثق، المتوكّل، المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتضد المتوفّى بعد ابن الرومي.

أثنى عليه العميدي صاحب الإبانة[٢]، وابن رشيق صاحب العمدة[٣] وقال: أكثر المولّدين اختراعاً وتوليداً في ما يقول الحذّاق: أبو تمام وابن الرومي. وأطراه ابن سعيد المغربي (المتوفى ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) في كتابه: عنوان المرقصات والمطربات[٤].

ويظهر أنّ أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدي ـ من أدباء القرن الهجري الرابع ـ توسّع في ترجمته، إمّا في كتابه حماسة المحدثين، أو في كتاب مقصور عليه. ولكنّ أخباره هذه ذهبت كلّها ولم يبقَ منها أثر إلاّ متفرّقات في الكتب، لا تغني في ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية، فنحن ننقلها كما هي:

ولد ابن الرومي يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب (٢٢١هـ/ ٨٣٥م) ببغداد، في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختليّة، في دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن منصور ويعلّق الشيخ الأميني، فيقول: وجاء في معجم الشعراء: في الجانب الغربي بالعتيقة، وهذا هو الصحيح.

كان ابن الرومي مولىً لعبدالله بن عيسى، ولا يشكّ أنّه روميّ الأصل، فإنّه يذكره ويؤكّده في مواضع من ديوانه، واسم جدّه مع هذا: جريج ـ أو جرجيس ـ اسم يونانيّ لا شبهة فيه؛ فلا ينبغي الالتفات إلى من قال: إنّه سمّي بابن الرومي لجماله في صباه.

---

(١) طبع أخيراً ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، المجلد ١٥.
(٢) الإبانة، ص ٢٤.
(٣) العمدة، ج١، ص ٢٦٥، باب ٣٥.
(٤) المرقصات والمطربات، ص ٥٠.

وكان أبوه صديقاً لبعض العلماء والأدباء منهم: محمد بن حبيب الراوية الضليع في اللغة والأنساب، فكان الشاعر يختلف إليه لهذه الصداقة، وكان محمد بن حبيب يخصّه لما يراه من ذكائه وحدّة ذهنه، وحدّث الشاعر عنه فقال: إنّه كان إذا مرّ به شيء يستغربه ويستجيده يقول لي: يا أبا الحسن، ضع هذا في تامورك (وتامور الرجل: قلبه وعقله).

وقد علمنا أنّ أمّه كانت فارسيّة من قوله: الفرس خُؤولي والروم أعمامي، وقوله: فلم يلدني أبو السوّاس ساسان. بعد أن رفع نسبه إلى يونان من جهة أبيه، وربّما كانت أمّه من أصل فارسيّ، ولم تكن فارسيّة قحّاً لأبيها وأمّها ـ وهذا هو الأرجح ـ لأنّ علمه بالفارسيّة لم يكن علم رجل نشأ في حجر أمّ تتكلّم هذه اللغة، ولا تحسن الكلام بغيرها، وماتت أمّه وهو كهل أو مكتهل كما يقول في رثائها:

أقول، وقد قالوا: أتبكي لفاقدٍ رضاعاً وأين الكهلُ من راضع الحَلَمْ؟
هي الأمُّ، يا للناسِ، جزّعت فقدها ومن يَبْكِ أمّاً لم تُذمْ قطُّ، لا يُذَمْ

وكانت أمّه تقيّة، صالحة، رحيمة، كما يُؤخذ من أبياته في رثائها.

قال الأميني: أُمّه حسنة بنت عبدالله السجزي كما في معجم الشعراء[1]، و «سِجز» بلدةٌ من بلاد الفرس من أرباض خراسان، فهي فارسيّة قحّ.

أخوه وشقيقه محمد المكنّى بأبي جعفر، وهو أكبر منه، وتوفّي قبله، وكان يتفجّع بذكراه ورثاه، ومات أخوه وهو يعمل في خدمة عبيدالله بن عبدالله بن طاهر أحد أركان بيت بني طاهر، ويظهر من ديوانه أنّه كان أديباً كاتباً أيضاً.

ولم يبقَ لابن الرومي، بعد موت أخيه، أحدٌ يعوّل عليه من أهله أو ممن يحسبون في حكم أهله، إلاّ أناسٌ من مواليه الهاشميّين العبّاسيّين، كانوا يبرّونه

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ص ١٤٥.

حيناً ويتناسونه أحياناً، وكان لعهد الهاشميّين الطالبيّين أحفظ منه لعهد الهاشميّين العبّاسيّين، كما يظهر ممّا يلي. أمّا ابن عمّه الذي أشار إليه في قوله:

لـيَ ابـنُ عمٍّ يَجُرُّ الشرّ مجتهداً   إلـيّ قِـدْمـاً، ولا يُصْلـي لـه نـاراً
يجني فأَصْلى بما يجني فَيَخْذُلني   وكلّمـا كـان زنـداً كنـتُ مِسْعَـاراً

فلا ندري أهو ابن عمّ لحّ، أو ابن عمّ كلالة؟ ومبلغ ما بينهما من صلة المودّة ظاهرٌ من البيتين.

أولاده

رُزق ابن الرومي ثلاثة أبناء هم: هبة الله، ومحمد، وثالث لم يذكر اسمه في ديوانه، ماتوا جميعاً في طفولتهم، ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد أبناءه، وقد سبق الموت إلى أوسطهم محمد، فرثاه بداليّة مشهورة، يقول فيها:

توخّى حِمامُ الموتِ أوسطَ صِبْيَتي   فللّـهِ كيـف اختـارَ واسطـةَ العِقـدِ
على حينَ شِمتُ الخيرَ في لمحاتِهِ   وآنستُ مـن أفعـالِـهِ آيـةَ الـرشـدَ

ومنها في وصف مرضه:

لقد قلّ بين المهدِ واللّحدِ لَبثُهُ   فلم ينسَ عهدَ المهدِ إذ ضُمَّ في اللّحدِ
ألَـحّ عليـه النّـزفُ حتـى أحـالَـهُ   إلى صُفرةِ الجاديِّ عن حمرةِ الوردِ
وظَـلَّ علـى الأيدي تَساقطُ نفسُهُ   ويذوي كما يذوي القضيبُ من الرندِ(١)

ويذكر فيها أخويه الآخرين:

محمـدُ مـا شـيء تُـوهّـم سلـوةً   لقلبـيَ إلاّ زاد قلبـي مـن الـوجْـدِ
أرى أخـويـك البـاقييـنِ كليهمـا   يكونان للأحزان أورى من الزنْدِ
إذا لعبـا فـي ملعـبٍ لـكَ لـذّعـا   فؤادي بمثل النّارِ عن غير ما عمْدِ
فما فيهما لي سلوةٌ بل حزازةٌ   يُهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

(١) الجادي: الزّعفران. يذوي من ذوى النبات يذوي: ذبل ونشف ماؤه. الرند: نبات من شجر البادية طيّب الرائحة يشبه الآس.

أمّا ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يُفهم من قوله في رثائه :

يا حسرتا فارقْتَني فَنَناً غَضّاً ولم يُثْمِرْ ليَ الفَنَنُ
أبُنيّ إنّكَ والعزاءَ معاً بالأمسِ لُفَّ عليكما كَفَنُ

وفي الديوان أبيات يرثي بها ابناً لم يذكر اسمه ، وهي :

حماه الكرى هَمٌّ سَرى فتأوَّبا فباتَ يراعي النجمَ حتى تصوَّبا
أعينيّ جودا لي فقد جُدتُ للثرى بأكثرَ ممّا تمنعانِ وأطيبا
بُنيّ الذي أهديتُهُ أمسِ للثَّرى فللّه ما أقوى قناتي وأصلبا
فإن تمنعاني الدمعَ أرجِعْ إلى أسىً إذا فترتْ عنه الدموعُ تلهّبا

وهي على الأرجح رثاؤه لأصغر أبنائه الذي لم يذكر اسمه ، ولا ندري هل مات قبل أخيه أو بعده ، ولكن يخيّل إلينا من المقابلة بين هذه المراثي أنّ الأبيات البائيّة كانت آخر ما رثى به ولداً ، لأنّها تنمُّ عن فجيعة رجل راضه الحزن على فقد البنين ، حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء إلاّ الأسى الملتهب في الضلوع ، وإلاّ العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكلّ هذه الفجائع ، وقد كان رثاؤه لابنه الأوسط صرخة الضربة الأولى ، ففيها ثورةٌ لاعجةٌ تحسّ من خلل الأبيات ، ثمّ حلّ الألم المرير محل الألم السوّار في مصيبته الثانية ، فوجم وسكن واستعبر ، ثمّ كانت الخاتمة فهو مستسلمٌ يعجب للحزن كيف لم يقضِ عليه ، ويحسّ وقدة المصاب في نفسه ولا يحسّه في عينيه ، ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلّها ، وماتت زوجته بعد موت أبنائه جميعاً ، فتمّت بها مصائبه وكبر عليه الأمر . . . إلخ .

تعليمه

ليس في المصادر أخبار كثيرة عن صبا ابن الرومي وتعلّمه ، ويروى أنّه كان منذ صغره فطناً ذكياً سريع الحفظ ، يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة واحدة . وقد جاء في الأغاني[1] أنّه كان يروي عن أبي العباس ثعلب ، عن حمّاد بن

(١) الأغاني ، ٧/ ١٩٤ .

المبارك، عن الحسين بن الضحَّاك، فيصح أن تكون الرواية، هنا، رواية تلميذ عن أستاذ. وقد مرَّ بنا أنَّه كان يختلف إلى محمد بن حبيب الراوية النسَّابة الكبير، وكان يرجع إليه في بعض مفرداته اللغوية، فيذكر شرحها في ديوانه معتمداً عليه. قال بعد قوله:

وأصدق المدح مدحُ ذي حسدٍ   ملآنَ من بغضَةٍ ومن شَنَفِ

قال لي محمد بن حبيب: الشَّنف ما ظهر من البغضة في العينين، وأشار إليه بعد بيت آخر وهو:

بانوا فبانَ جميلُ الصبرِ بعدهُمُ   فللدموعِ من العينينِ عِينانُ

إذ فسّر كلمة «عينان»، فروى عن ابن حبيب أنّه قال: عان الماء يعين عيناً وعيناناً إذا ساح. فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومي على هذا الاعتبار، ولا علم لنا بغيرهم في ما راجعناه، وحسبنا مع هذا أنّ الرجل ـ كيفما كان تعليمه وأيّاً كان معلّموه ـ قد نشأ على نصيب وافٍ من علوم عصره، وساهم في القديم والحديث منها بقسط وافر في شعره، فلو لم يقل المعرّي: إنّه كان يتعاطى الفلسفة، والمسعودي: إنّ الشعر كان أقلّ آلاته لعلمنا ذلك من شواهد شتّى في كلامه، فهي هناك كثيرةٌ متكرّرةٌ لا يلمّ المتصفِّح ببعضها إلاّ جزم باطّلاع قائلها على الفلسفة، ومصاحبة أهلها، واشتغاله بها، حتى سَرَت في أسلوبه وتفكيره، وما كان متعلّم الفلسفة في تلك الأيّام يصنع أكثر من ذلك ليتعلّمها أو لِيُعَدّ من متعلّميها، فأنت لا تقرأ لرجل غير مشتغل أو ملمّ بالفلسفة والقياس المنطقيّ والنجوم كلاماً كهذا الكلام:

لما تُؤْذِنُ الدُّنيا به من صروفها   يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يولَدُ
وإلاّ فما يُبكيه منها وإنّها   لأرحبُ ممّا كانَ فيه وأرغدُ

عقيدته

من المعروف أن القرن الثالث الهجري كان عصراً كثرت فيه النّحل والمذاهب، وكثر فيه الجدل في أمور العقيدة. وكان ابن الرومي من رجالات

ذلك العصر الكبار الذين استوعبوا علومه، وحصّلوا معارفه، وخلصوا إلى الإيمان بعقيدة وإلى اتخاذ موقف، فهو إلى جانب كونه شاعراً وكاتباً كبيراً، كان «يتعاطى الفلسفة» كما يقول المعرِّي، وكان الشعر «أقلّ آلاته»، كما يقول المسعودي.

كان ابن الرّومي مسلماً صادق الإسلام، وكان شيعياً معتزليّاً قدرياً يقول بالطّبيعتين. وهي أسلم النِّحل التي كانت شائعة في عصره من حيث الإيمان بالدِّين.

وقد قال المعرِّي، في رسالة الغفران[1]: إن البغداديين يدَّعون أنه متشيِّع، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيميّة. ثم عقّب على ذلك فقال: ما أراه إلاّ على مذهب غيره من الشعراء.

ولعله يقصد بـ «على مذهب غيره من الشعراء» إمّا أنه كان شيعيّاً يحبّ آل البيت، ويمدحهم، غير أنه في الوقت نفسه، يمدح أصحاب السلطان، رغبة في عطائهم، أو أنّه كان مثله مثل الشعراء الآخرين يقبل على طلب ملذّات الدّنيا. والشاعر يشير إلى تقصيره في إحدى قصائده، فيقول على سبيل المثال:

ومن التقصير صون مهجتي فِعْلَ من أضحى إلى الدنيا ركنْ

غديريَّته، وشعره في مدح آل البيت عليهم السلام

ومن القصائد التي تؤكد تشيُّعه غديريته المعروفة، وهي جيميّة، ولعلّها الجيمية التي يقصدها أبو العلاء، إذ إن له جيمية أخرى سيلي ذكرها. يقول ابن الرومي في غديريته هذه:

يا هندُ لم أعشق ومثليَ لا يرى عشق النساء ديانةً وتحرُّجا
لكنّ حبّي للوصيّ مخيّمٌ في الصدر يسرحُ في الفؤاد تولّجا
فهو السراجُ المستنيرُ ومن بهِ سببُ النجاةِ من العذاب لمن نجا

(1) المعرّي، رسالة الغفران، ص ٢٤٤.

وإذا تركتُ له المحبّة لم أجدْ ... يومَ القيامةِ من ذنوبي مَخرجا
قل لي: أأتركُ مستقيمَ طريقِهِ ... جهلاً وأتّبعُ الطريقَ الأعوجا؟
وأراهُ كالتّبرِ المُصفّى جوهراً ... وأرى سواه لناقديهِ مبهرجا
ومَحِلُّهُ من كلِّ فضلٍ بيّنٌ ... عالٍ محلّ الشمسِ أو بدر الدجى
قال النبيُّ له مقالاً لم يكنْ ... يوم الغديرِ لسامعيه مُمجمجا[1]
من كنتُ مولاهُ فذا مولىً له ... مثلي وأصبحَ بالفَخارِ متوّجا
وكذاك إذْ منعَ البتولَ جماعةً ... خطبوا وأكرمَهُ بها إذ زوّجا
وله عجائبُ يومَ سارَ بجيشِهِ ... يبغي لقصرِ النهروانِ المخرجا
رُدّت عليهِ الشمسُ بعد غروبِها ... بيضاءَ تلمعُ وقدةً وتأجُّجا[2]

ويقول الشيخ الأميني: ولا ندري لماذا شك المعرّي في تشيّعه لأنّه على مذهب غيره من الشعراء. فإن الشعراء إذا تشيعوا كانوا شيعة حقاً كغيرهم من الناس وربّما أفرطوا فزادوا في ذلك على غيرهم من عامّة المتشيعين. وإنما نعتقد أن المعري لم يطلع على شعره كلّه، فخفيت عنه حقيقة مذهبه، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء.

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية في إظهار التشيّع الذي لا شك فيه، لأن الشاعر نظمها بغير داعٍ إلى نظمها من طمع أو مداراة، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بني طاهر وناحية الخلفاء، فقد رثى بها يحيى ابن عمر بن الحسين بن زيد بن علي الثائر في وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان، وقال فيها يخاطب بني العباس ويذكر ولاة السوء من أبناء طاهر:

أجِنّوا بني العبّاس من شنآنكم ... وأوكوا على ما في العيابِ وأشرجوا
وخلّوا ولاة السوء منكم وغيَّهم ... فأحرى بهم أن يغرقوا حيث لجّجوا
نظارِ لكم أن يُرجِعَ الحقَّ راجعٌ ... إلى أهله يوماً فتَشجُّوا كما شَجوا

(١) مجمجع الرجلُ في حديثه: لم يُبيّنه.
(٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب، ٣/٣٨.

على حين لا عُذرى لمعتذريكمُ ... ولا لكم من حُجّةِ اللهِ مخرجُ
فلا تُلقحوا الآنَ الضغائنَ بينكم ... وبينهمُ إنّ اللواقحَ تنتجُ
غُرِرتم لئن صَدّقتمُ أنّ حالةً ... تدوم لكم والدهرُ لونان أخرجُ[1]
لعلّ لهم في منطوى الغيبِ ثائراً ... سيسمو لكم والصبحُ في الليل مولَجُ

وفي قصيدته النونيّة ينذر ابن الرومي بني العباس ـ كما أنذرهم في قصيدته السابقة ـ بزوال الملك، متمنّياً هلاك أعداء آل بيت النبي ﷺ، ويلوم نفسه على التقصير في بذل دمه لنصرتهم، فيقول:

إن يوالي الدهرُ أعداءً لكمْ ... فلهم فيه كمينٌ قد كَمَنْ
خلعوا فيه عِذارَ المعتدي ... وغدوا بين اعتراضٍ وأرَنْ
فاصبروا يُهلِكْهُمُ الله لكمْ ... مثل ما أهلكَ أذواءَ اليمنْ
قَرُبَ النَّصرُ فلا تستبطِئوا ... قَرُبَ النصرُ يقيناً غيرَ ظنْ
ومن التقصيرِ صوني مهجتي ... فِعلَ من أضحى إلى الدنيا ركنْ
لا دمي يُسفكُ في نُصرتِكمْ ... لا ولا عِرضيَ فيكم يُمْتَهنْ
غير أنّي باذلٌ نفسي وإنْ ... حقنَ الله دمي في ما حقنْ
ليت أنّي غَرضٌ من دونكمْ ... ذاك أو دِرعٌ يقيكمْ ومِجَنْ
أتلقّى بجبيني من رمى ... وبنحري وبصدري من طَعَنْ
إنّ مبتاعَ الرضا من ربّه ... فيكمُ بالنفس لا يخشى الغَبَنْ

وليس يجوز الشكّ في تشيّع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور، فإنّه يعرّض نفسه للموت في غير طائل حبّاً لبني عليّ، وغضباً لهم، وإشهاراً لهم لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر إلاّ بلقب الشهيد كما ذكره في القصيدة الجيميّة، وفي خاطرة أخرى مفردة نظمها في هذين البيتين:

كسته القنا حلّةً من دم ... فأضحتْ لدى الله من أُرجوانِ
جزته معانقةُ الدارعـ ... ـين معانقةَ القاصراتِ الحسانِ

---

(١) الأخرج: ذو اللونين، ومؤنّثه خرجاء.

وبعض هذا يكفي في الدلالة على تشيّعه للطالبيّين، واتّخاذه التشيّع مذهباً في الخلافة كمذهب الشعراء أو غير الشعراء، ولا سيّما التشيّع المعتدل الذي يقول أهله بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا عليّاً في الخلافة.

ويلوح لنا أنّ ابن الرومي ورث التشيّع وراثة من أمّه وأبيه، لأنّ أمّه كانت فارسيّة الأصل فهي أقرب إلى مذهب قومها الفرس في نصرة العلويّين، ولأنّ أباه سمّاه عليّاً وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التي يتجنّبها المتشدّدون من أنصار الخلفاء، ولا حرج على أبي الشاعر أن يتشيّع وهو في خدمة بيت من بيوت العبّاسيّين، لأنّ مواليه كانوا أناساً بعيدين من الخلافة وولاية العهد، وهما علّة البغضاء الشديدة بين العبّاسيّين والعلويّين، وقد اتّفق لبعض الخلفاء وولاة العهد أنفسهم أنّهم كانوا يكرمون عليّاً وأبناءه، كما كان مشهوراً عن المعتضد الخليفة الذي أكثر ابن الرومي من مدحه، وكما كان مشهوراً عن المنتصر وليّ العهد الذي قيل إنّه قتل أباه المتوكّل جريرة ملاحاة وقعت بينهما في الذبّ عن حرمة عليّ وآله.

مذهبه في الاعتزال

وكان مذهبه في الاعتزال مذهب القدريّة الذين يقولون بالاختيار، وينزّهون الله عن عقاب المُجبر على ما يفعل، وذلك واضح من قوله: يخاطب العبّاس بن القاشي، ويناشده صلة المذهب:

إن لا يكنْ بيننا قربى فآصرةٌ ... للدين يقطع فيها الوالدُ الولدا
مقالةُ العدلِ والتوحيدِ تجمعُنا ... دون المضاهين من ثنّى ومن جحدا
وبين مستطرِفي غَيٍّ مرافقةٌ ... تُرعى فكيف اللذان استطرفا رشدا
كن عند أخلاقِك الزُّهرِ التي جُعِلَتْ ... عليكَ موقوفةً مقصورةً أبدا
ما عذرُ معتزليٍّ مُوسرٍ مَنَعَتْ ... كفّاهُ معتزليّاً مُقتراً صفدا
أيزعمُ القدرُ المحتومُ ثبّطَه ... إن قال ذاك فقد حلّ الذي عقدا
أم ليس مستأهلاً جدواه صاحبُهُ ... أنّى وما جار عن قصدٍ ولا عَنَدا

أم ليس يُمكِنُهُ ما يرتضيه له   يكفي أخاً من أخ ميسورُ ماوجدا
لا عذرَ في ما يُريني الرأي علّمهُ   للمرء مثلُكَ ألاّ يأتيَ السددا

فواضحٌ من كلامه هذا أنّه معتزليٌّ، وأنّه من أهل العدل والتوحيد، وهو الاسم الذي تسمّى به القدريّة، لأنّهم ينسبون العدل إلى الله، فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسبق إليه، ولأنّهم يوحّدون الله فيقولون: إنّ القرآن من خلقه، وليس قديماً مضاهياً له في صفتَي الوجود والقدم، وقد اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردّوا به على الذين سمّوهم القدريّة، ورووا فيهم الحديث: «القدريّة مجوس هذه الأمّة». فهم يقولون: ما نحن بالقدريّة؛ لأنّ الذين يعتقدون القدَر أولى بأن ينسبوا إليه، إنّما نحن من أهل العدل والتوحيد، لأنّنا ننزّه الله عن الظلم وعن الشريك.

وواضحٌ كذلك من كلامه أنّه يعتقد حرّية الإنسان في ما يأتي من خير وشرّ، ويحتجُّ على زميله بهذه الحجّة فيقول له: لِمَ لا تثيبني؟ إن قلتَ: إنّ القدر يمنعك فقد حللت ما اعتقدت من اختيار الإنسان في أفعاله، وإن قلتَ: إنّك لا تريد فقد ظلمت الصداقة وأخللت بالمروءة.

وله عدا هذا أبيات صريحة في اعتقاد الاختيار وخلق الإنسان لأفعاله، كقوله:

لولا صروفُ الاختيارِ لأعنقُوا   لهوىً كما اتّسعت جمالُ قِطارِ

وقوله:

أنّى تكون كذا وأنت مخيّرٌ   متصرّفٌ في النقضِ والإمرارِ

وقوله:

الخيرُ مصنوعٌ بصانِعِهِ   فمتى صنعتَ الخيرَ أعقبَكا
والشرُّ مفعولٌ بفاعِلِهِ   فمتى فعلتَ الشرّ أعطَبَكا

إلاّ أنّه كان يقول بالقدَر في تقسيم الأرزاق وأنّ:

الرزق آتٍ بلا مطالبةٍ   سيّانَ مدفوعُهُ ومجتَذبُهُ

ويقول:

أمـا رأيـتَ الفجـاجَ واسعـةً   واللهَ حيّـاً والـرزقَ مضمـونـاً

قال الأميني: هذا في الرزق الذي يطلبك لا في الرزق الرزق الذي تطلبه كما فصّله الحديث.

ولا تناقض عند القدريّة في هذا، لأنّهم يقولون بالاختيار في ما يُعاقب عليه الإنسان ويُثاب، لا في ما يناله من الرزق وحظوظ الحياة.

أمّا القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون في قوله:

فينـا وفيـكَ طبيعـةٌ أرضيّـةٌ   تهـوي بنـا أبـداً لشـرٍّ قـرارِ
هبطـتْ بـآدمَ قبلَنـا وبـزوجِـهِ   مـن جنّـةِ الفِـردوس أفضـلِ دارِ
فتعوّضا الدنيا الدنيّة كاسمِها   مـن تلكـمُ الجنّـاتِ والأنهـار
بئسـت، لعمـرُ الله تلـك طبيعـةٌ   حـرَمـت أبـانـا قُـرب أكـرم جـار

قال (أي العقاد): وابن الرومي كان مفطوراً على التديّن لأنّه كان مفطوراً على التهيّب والاعتماد على نصير، وهما منفذان خفيّان من منافذ الإيمان والتصديق بالعناية الكبرى في هذا الوجود، ومن ثمّ كان مؤمناً بالله خوفاً من الشكّ، مقبلاً على التسليم، بسيطاً في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة على أيّ شيء. وبلغ من بساطته أنّه كان ينكر على الحكماء الذين يشكّون في حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت ويحسبونه من فعل الدواء والحنوط، فقال لابن أبي ناظرة حين تذوّق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء:

يا ذائق الموتى ليعلمَ هل بقوا   بعـد التقـادمِ منهـمُ بـدواءِ
بيّنـتَ عـن رعـةٍ وصـدقِ أمـانـةٍ   لـولا اتّهـامُـكَ خـالـقَ الأشيـاءِ
أحسِبـتَ أنّ الله ليـس بقـادرٍ   أن يجعـلَ الأمـواتَ كـالأحيـاءِ
وظـننـتَ مـا شـاهـدتَ من آياته   بلطيفـةٍ مـن حيلـةِ الحكمـاءِ

ومات، وهو يقول في ساعاته الأخيرة:

ألا إنّ لقـــــــــاء اللّـ ـــــــهِ هـــولٌ دونـــه الهـــولُ

وهـو، كمـا يبدو، يتفلسف ويرى الآراء في الدين، ولكن في حدودٍ من الشعور لا في حدود من التفكير، ولهذا كان الفنّان ولم يكن الفيلسوف.

قـال: وليس من الاجتراء أنّه قال بالاختيار، ورأى له في الدين رأياً غير ما اصطلح عليه السواد، فإنّه كان يحيل الذنب على الإنسان، وينفي الظلم عن القدر فـي العقاب والثواب، ويتصوّر الله على أحسن ما يتصوّر المتفلسف مثله إلهـه، فكـأنّمـا جـاءه هـذا الرأي من محاباة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه، وإنّما دفع به إلى رأي المعتزلة مخاوفة الشكوك التي كانت تخامره، فلا يستريح حتى يسكن فيها إلـى قـرار، وينتهي فيها إلى برّ الأمان، ولذلك كان يأوي إلى الأصدقاء يكاشفهم بما في صدره، ويستعين بهم على تفريج غمّته:

□ ويدمجُ أسبابَ المودّة بيننا ... مـودّتُنـا الأبـرارَ مـن آلِ هـاشـمِ
وإخـلاصُنـا التـوحيـدَ لله وحـدهُ ... وتَـذبيبُنـا عـن دينـهِ فـي المقـاومِ
بمعـرفـةٍ لا يقـرع الشـكُّ بـابَهـا ... ولا طعـنُ ذي طعـنٍ عليهـا بهـاجـمِ
وإعمالنا التفكير في كلّ شبهةٍ ... بهـا حجّـة تُعيـي دُهـاة التـراجـمِ
يبيت كلانا في رضى الله ماحضـاً ... لحجّتـه صـدراً كثيـر الهمـاهم(١)

□ أنـت إن لـم يكـن لنـا ... شـافـعٌ خيـرُ شـافـعِ
فَـأُجيبـوا إجـابـةً ... لـم تقـع فـي المسـامـعِ
ليـس مـا تصنعـونَـهُ ... أوليـائـي بضـائـعِ
إبـذلـوا لـي نفـوسَكـم ... إنّهـا فـي ودائـعِ

ولـه مـن طـراز هـذا الشعـر الخـاشع كثيرٌ لا تسمعه من ابن الفارض ولا محيي الدين بن عربي.

(١) الهماهم: جمع همهمة، وهي الكلام الخفي.

قال الأميني: ليس ما ارتآه ابن الرومي في باب الاختيار نتيجة مخامرة الشُبَه والشكوك كما يراه المترجِم، وإنّما هي وليدة البرهنة الصادقة، وإنّه لم يعطِ القدر حقّه محاباةً له، لكنّ الحجج الدامغة ألجأته إلى ذلك، وكذلك ما يقوله في باب الأرزاق، فهي تقادير محضة غير أنّ الإنسان كلف بتحرّي الأسباب الظاهريّة جرياً على النواميس الإلهيّة المطردة في النظام العالميّ الأتمّ، وهذه مسائل كلاميّة لا يروقنا الخوض فيها إلاّ هنالك.

وأمّا اعتماد ابن الرومي على العدل والرحمة وتنزيه ربّه، فهو شأن كلّ مؤمن بالله، عارف بكمال قدسه وصفاته الجمالية الجلاليّة، وليس قرب أهل البيت الطاهر عليهم السلام إلاّ نتيجة مودّتهم التي هي أجر الرسالة بنصّ من الذكر الحكيم، وإنّما مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، وهم عدل الكتاب، وقد خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله بعده وقال: «ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي»، فأحرِ بهم أن يكون القرب منهم مؤمّناً للإنسان نشأته الأخرى، وأمّا ماعزاه إليه من مظاهر المجون، فهي معانٍ شعريّة لا يؤاخذ بها القائل، وكم للشعراء الأعفّاء أمثالها.

مقبلٌ على الحياة

بيد أنّ الإيمان شيءٌ وأداء الفرائض الدينيّة شيءٌ آخر، فقصارى الإيمان عنده أنّه يؤمّنه بقرب آل البيت، وتنزيه ربّه، والاطمئنان إلى عدله ورحمته، ثمّ يدَعُ له سبيله يلعب ويمرح كلّما لذّ له اللعب والمرح، ولا أهلاً بالصيام إذا قطع عليه ما اشتهى من لذّة وأرب:

فلا أهلاً بمانعِ كلِّ خيرٍ وأهلاً بالطعامِ وبالشراب

بل لا حرج عليه إذا قضى ليلة في السرور أن يشبّهَها بليلة المعراج:

رَفَعَتْنا السعودُ فيها إلى الفو زِ فكانت كليلةِ المعراجِ

ذلك أنّه كان في تقواه طوع الإحساس الحاضر، كما كان في كلّ حالة من حالاته. يلعب فلا يبالي أن يتماجن حيث لا يليق مجونٌ، ويستحضر

التقوى والخشوع فلا يُباريه أحدٌ من المتعبّدين، ويخيّل إليك أنّك تستمع إلى متعبّد عاش عمره في الصوامع حين تستمع إليه يقول:

تتجافى جنوبُهم عن وَطيء المضاجعِ
كلّهم بين خائفٍ مستجيرٍ وطامعِ
تركوا لذّة الكرى للعيونِ الهواجعِ
ورَعَوا أنجُمَ الدجى طالعاً بعد طالعِ
لو تراهم إذا همُ خَطَروا بالأصابعِ
وإذا هم تأوّهوا عند مرّ القوارعِ
وإذا باشروا الثرى بالخدودِ الضوارعِ
واستهلّت عيونُهمْ فائضاتِ المدامعِ
ودعوا يا مليكَنا يا جميلَ الصنائعِ
اعفُ عنّا ذنوبَنا للوجوهِ الخواشعِ
اعفُ عنّا ذنوبَنا للعيونِ الدوامعِ

معدود في بلغاء الكتّاب

وقد وردت في أبياته الهمزية إشارة إلى حذقه الكتابة، ومشاركته في البلاغة المنثورة، تعزّزها إشارة مثلها في هذا البيت:

ألَمْ تَجدوني، آلَ وهبٍ، لمدحِكمْ بشعري ونثري أخطلاً ثم جاحظا

كان ابن الرّومي يكتب ويمارس الصناعة النثريّة، إلاّ أنّ ما استجمعناه من منثوراته لا يعدو نبذاً معدودة موجزة، منها:

١ ـ رسالة إلى القاسم بن عبيدالله يقول فيها متنصِّلاً:

«ترفّع عن ظلمي إن كنت بريئاً، وتفضّل بالعفو إن كنت مسيئاً، فوالله إنّي لأطلب عفو ذنب لم أجنِه، والتمس الإقالة ممّا لا أعرفه، لتزداد تطوّلاً، وأزداد تذلّلاً، وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واشٍ يكيدها، وأحرسها

بوفائك من باغٍ يحاول إفسادها، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظّي منك بقدر ودّي لك، ومحلّي من رجائك بحيث أستحقُّ منك. والسلام».

٢ ـ رسالة كتبها يعود صديقاً:

«أذن الله في شفائك، وتلقّى داءك بدوائك، ومسح بيد العافية عليك، ووجّه وفد السلامة إليك، وجعل علّتك ماحية لذنوبك، مضاعفة لثوابك».

٣ ـ كتب إلى صديق له قَدِم من سيراف[1]، فأهدى إلى جماعة من إخوانه ونسيه:

«أطال الله بقاءك، وأدام عزّك وسعادتك، وجعلني فداءك، لولا أنّي في حيرة من أمري، وشغل من فكري لما افترقنا، وشوقي ـ علم الله ـ فغالبٌ، وظمئي فشديدٌ، وإلى الله الرغبة في أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبّة، إنّه قادرٌ جوادٌ.

ومكاننا من جميل رأيك ـ أيّدك الله ـ يبعثنا على تقاضي حقوقنا قِبَلك، وكريم سجاياك وأخلاقك يشجّعنا على إمضاء العزم في ذلك، وما تطوّلت به من الإيناس يؤنسنا بك، ويَبسُطنا إليك، وآثار يديك تدلّنا عليك، وتشهد لنا بسماحتك، والله يطيل بقاءك، ويديم لنا فيك وبك السعادة.

وبلغني، أدام الله عزّك، أنّ سحابة من سحائب تفضّلك أمطرت منذ أيّام مطراً عمّ إخوانك، بهدايا مشتملة على حسن وطيب، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجي منها مع دخولي في جملة من يعتدّك، ويعتقدك، وينحوك، ويعتمدك، وسبق إلى قلبي من ألم سوء الظنّ برأيك أضعاف ما سبق إليه من الألم بفوت الحظّ من لطفك، فرأيت مداواة قلبي من ظنّه، وقلبك من سهوه، واستبقاء الودّ بيننا بالعتاب الذي يقول فيه القائل: ويبقى الودّ ما بقي العتابُ، وفي ما عاتبت كفايةٌ عند من له أذنك الواعية، وعينك الراعية».

(١) سيراف: مدينة على ساحل بحر فارس، منها إلى شيراز ستّون فرسخاً، معجم البلدان، ٣/ ٢٩٤.

٤ ـ وقال في تفضيل النرجس على الورد:

«النرجس يشبه الأعين والمضاحك، والورد يشبه الخدود، والأعين والمضاحك أشرف من الخدود، وشبيه الأشرف من شبيه الأدنى، والورد صفةٌ لأنّه لونٌ، والنرجس يضارعه في هذا الاسم، لأنَّ النرجس هو الريحان الوارد، أعني أنّه أبداً في الماء، والورد خجل والنرجس مبتسم، وانظر أدناهما شبهاً بالعيون فهو أفضل».

هذه نماذج من منثوراته لا نعرف غيرها في ما بين أيدينا، وخليقٌ بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يُعدّ في بُلغاء الكتّاب، وإن لم يُعدّ في أبلغهم، على أنّ ابن الرومي لم يكن يحسب نفسه إلاّ مع الشعراء إذا اختلفت الطوائف، فإنّه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبي الأصبع:

ونحن معاشر الشعراءِ ننمي ... إلى نسبٍ من الكتّابِ دانِ
وإن كانوا أحقّ بكلّ فضلٍ ... وأبلغَ باللسانِ وبالبيانِ
أبونا عند نسبتنا أبوهم ... عطاردٌ السماويُّ المكانِ

حظّه من علوم العربية

يندر، في قصائده المطوّلة أو الموجزة، قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقنٌ باستبحار ناظمها في اللغة، وإحاطته الواسعة بغريب مفرداتها، وأوزان اشتقاقها، وتصريفها، وموقع أمثالها، وأسماء مشاهيرها، وما يصحب ذلك من أحكام في الدين، ومقتبسات من أدب القرآن، فليس في شعر العربيّة من تبدو هذه الشواهد في كلامه بهذه الغزارة والدقّة غير شاعرين اثنين: أحدهما صاحبنا والثاني المعرّي، وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال: عبيدالله بن عبدالله، وعليّ بن يحيى، وإسماعيل بن بلبل، فيفسّر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصائده، كأنّه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته، ثمّ يعود إلى الاعتذار من ذلك إذا أنِسَ منهم الجفوة والتغيّر، فيقول، على سبيل المثال:

ـ لم أفسّر غريبها لكَ لكنْ ... لامرئٍ يجهلُ الغريبَ سواكا

ـ لغيرِكَ، لا لكَ، التفسيرُ أنّى يُفسَّرُ لابن بجَدَتِها الغريبُ

وكانوا، لشهرته باللغة، وعلم أسرارها، ولطيف نكاتها، يختلقون له الكلمات النافرة، يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه، وقصّة الجرامض إحدى هذه المعابثات التي تدلّ على غيرها من قبيلها، فقد سأله بعضهم في مجلس القاسم بن عبيدالله: ما الجرامض؟ فارتجل مجيباً:

وسألت عن خبرِ الجرا مضِ طالباً علمَ الجرامضْ
وهو الخزاكل، والغوا مض قد تفسّر بالغوامضْ
وهو السلجكلُ شئت ذ لك أم أبيت بفرض فارضْ

وكلّها كلمات من مادّة الجرامض لا معنى لها ولا وجود.

هجاؤه

أخرج القرن الثالث الهجري شاعِرَيْن هجّاءين، هما أشهر شعراء الهجاء في أدب العصور الإسلاميّة بعامّة، أحدهما ابن الرومي، والآخر دعبل الخزاعي.

وقد جمع المعرّي بينهما في بيت واحد، وضرب بهما المثل لهجاء الدّهر لبنيه، فقال:

لو أنصفَ الدهرُ هجا أهلَهُ كأنّه الرُّوميُّ أو دعبلُ

وليس للمؤرّخ الحديث أن يضيف اسماً جديداً إلى هذين الاسمين، فإنّ العصور التالية للقرن الهجري الثالث لم تخرج من يضارعهما في قوّة الهجاء والنفاذ في هذه الصناعة، وكلاهما مع هذا نوع فذٌّ في الهجاء يظهر متى قُرن بالآخر.

كان ابن الرّومي فنّاناً بارعاً أُوتي ملكة التصوير، ولطف التخيّل والتوليد، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال، فإذا قصد شخصاً أو شيئاً بهجاء صوّب إليه (مصوّرته) الواعية، فإذا ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورةٌ مهيّأةٌ في الشعر

تهجو نفسها بنفسها، وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الأشكال في المرايا المعقوفة والمحدّبة، فكلّ هجوه تصويرٌ مستحضرٌ لأشكاله، أو لعبٌ بالمعاني على حساب من يستثيره.

وابن الرومي يسلب مهجوّه الفطنة والكياسة والعلم، ويلصق به كلّ عيوب الحضارة التي يجمعها التبذّل والتهالك على اللذّات، فإذا حذفت من هجوه كلّ ما أوجبته الحضارة والخلاعة الفاشية في تلك الحضارة فقد حذفت منه شرّ ما فيه، ولم يبقَ منه إلاّ ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير.

وكان لصاحبنا فنٌّ واحد من الهجاء، لا ترتاب في أنّه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجئه النقمة إليه، ونعني به فنّ التصوير الهزليّ والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهيّة والمشابهات الدقيقة، فهو مطبوعٌ على هذا كما يطبع المصوّر على نقل ما يراه، وإعطاء التصوير حقّه من الإتقان والاختراع، وما نراه كان يقع عنه في شعره، ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته، لكنّ هذا الفنّ أدخلُ في التصوير منه في الهجاء، وهو حسنة وليس بسيّئة، وقدرةٌ تُطلب وليس بخَلّة تُنبذ، وأنت لا يغضبك أن ترى ابنك الذي تهذّبه وتهديه ماهراً فيه، خبيراً بمغامزه وخوافيه، وإن كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم، ويهين المهين، ويهجو من يستهدف عرضه للهجاء؛ لأنّك إذا منعته أن يفطن إلى الصور الهزليّة وأن يفتنّ في إدراك معانيها وتمثيل مشابهاتها منعت ملكة فيه أن تنمو، وأبيتَ على حاسّته الصادقة فيه أن تصدّقه وتفقه ما تقع عليه، أمّا إذا منعت الهجاء وبواعثه، فإنّك تمنع خُلُقاً يستغنى عنه، وميلاً لا بدّ له من التقويم.

ذلك هو فنُّ ابن الرومي الذي لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار، فأمّا ما عدا ذلك من هجائه فهو مسوقٌ فيه لا سائق، ومدافعٌ لا مهاجم، ومستثارٌ عن عمدٍ في بعض الأحيان لا مستثيرٌ، وإنّك لتقرأ له قوله:

ما استبّ قطّ اثنانِ إلاّ غلبا　　　شرّهما نفساً وأمّاً وأبا

فلا تصدّق أنّ قائله هو ابن الروميّ هجّاء اللغة العربيّة وقاذف المهجوّين بكلّ نقيصة، لكنّ الواقع هو هذا، والواقع كذلك أنّه كان يسكن إلى رشده أحياناً، فيسأم الهجاء ويعافه ويودُّ الخلاص منه حتى لو كان مهجوّاً معدوّاً عليه، ويعتزم التوبة عن الهجاء مقسماً:

آليتُ لا أهجو طوا ... لَ الدهرِ إلاّ من هجاني
لا بل سأطّرحُ الهجا ... ءَ وإن رماني من رماني
أمِنَ الخلائقُ كُلُّهم ... فليأخذوا منّي أماني
حِلْمي أعزُّ عليَّ من ... غضبي إذا غضبي عَراني
أولى بجهلي بعدما ... مكّنتُ حلمي من عِناني

وهذا أشبه بابن الرومي لأنّه في صميمه خُلِق مسالماً سهلاً، ولم يُخلق شريراً مطويّاً على المشاكسة والعداوة، بل هو لو كان شرّيراً لما اضطرّ إلى كلّ هذا الهجاء، أو هو لو كان أكثر شرّاً لكان أقلّ هجاءً، لأنّه كان يأمن من جانب العدوان فلا يقابله بمثله، وما كان الهجاء عنده كما قلنا إلاّ سلاح دفاع لا سلاح هجوم، وما كان هجاؤه يشفُّ عن الكيد والنكاية وما شابههما من ضروب الشرّ المستقرّ في الغريزة، كما كان يشفُّ عن الحرج والتبرّم والشعور بالظلم الذي لا طاقة له باحتماله ولا باتّقائه، وكثيرٌ من الأشرار الذين يقتلون ويعتدون ويفسدون في الأرض، يقضون الحياة دون أن تسمع منهم كلمة ذمٍّ في إنسان، وكثيرٌ من الناس يذمّون ويتسخّطون لأنّهم على ذلك مطبوعون.

ومن قرأ مراثي ابن الرومي في أولاده، وأمّه، وأخيه، وزوجته، وخالته، وبعض أصدقائه، علم منها أنّها مراثي رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والأنس بالأصدقاء والإخوان، فمراثيه هي التي تدلّ عليه الدلالة المنصفة وليست مدائحه التي كان يمليها الطمع والرغبة، أو أهاجيه التي كان يمليها الغيظ وقلّة الصبر على خلائق الناس. ففي هذه المراثي تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامع والضرورات، ونرى فيه الولد البارّ، والأخ الشفيق،

والوالد الرحيم، والزوج الودود، والقريب الرؤوف، والصديق المحزون، ولا يكون الرجل كذلك ثمّ يكون مع ذلك شرّيراً مغلق الفؤاد، مطبوعاً على الكيد والإيذاء.

وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فأحجى بنا أن نصدّق كلامه هو في أبناء عصره قبل أن نصدّق كلامهم فيه، لأنّهم كانوا يستبيحون إيذاءه، ويستسهلون الكذب عليه لغرابة أطواره، وتعوّد الناس أن يصدّقوا كلّ ما يُرمى به غريبُ الأطوار من التهم والأعاجيب، في حين أنّه كان يتحاشى عن تلك التهم، ويغفر الإساءة بعد الإساءة مخافةً من كثرة الشكاية وعلماً منه بقلّة الإنصاف:

أتاني مقالٌ من أخٍ فاغتفرتُهُ ... وإن كان في ما دونه وجهُ معتبِ
وذكّرتُ نفسي منه عند امتعاضِها ... محاسنَ تعفو الذنبَ عن كلِّ مُذنبِ
ومثلي رأى الحُسنى بعينٍ جليّةٍ ... وأغضى عن العوراءِ غيرَ مؤنّبِ
فيا هارباً من سُخطنا متنصِّلاً ... هربتَ إلى أنجى مفرٍّ ومهربِ
فعذرُكَ مبسوطٌ لدينا مقدَّمٌ ... وودُّك مقبولٌ بأهلٍ ومرحبِ
ولو بلَّغتْني عنك أذني أقمتُها ... لديّ مقام الكاشحِ المتكذِّبِ
ولستُ بتقليبِ اللسانِ مصارماً ... خليلي إذا ما القلبُ لم يتقلّبِ

فالرجل لم يكن شرّيراً، ولا رديء النفس، ولا سريعاً إلى النقمة، فلماذا إذاً كثر هجاؤه، واشتدّ وقوعه في أعراض مهجوّيه؟ نظنُّ أنّه كان كذلك لأنّه كان قليل الحيلة، طيّب السريرة، خالياً من الكيد والمراوغة والدسيسة، وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش في مثل عصره، فكان مستغرقاً في فنّه يحسب أنّ الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلةٌ بنجاحه وارتقائه إلى مراتب الوزارة والرئاسة، لأنّه كان في زمن يتولّى فيه الوزارة الكتّاب والرواة، ويجمعون في مناصبهم ألوف الألوف، ويحظَوْنَ بالزلفى عند الأمراء والخلفاء، وقد كان هو شاعراً كاتباً، وكان خطيباً واسع الرواية، مشاركاً في المنطق والفلَك واللغة، وكلّ ما تدور عليه ثقافة زمانه، أو كما قال المسعودي: كان الشعر أقلّ أدواته.

وكان الشعر وحده كافياً لجمع المال وبلوغ الآمال؛ فماذا بعد أن يعرف الناس أنّه شاعرٌ، وأنّه كاتبٌ، وأنّه راويةٌ مطّلعٌ على الفلسفة والنجوم إلاّ أن تجيئه الوزارة ساعية إليه تخطب ودّه، كما جاءت إلى أناس كثيرين لا يعلمون علمه، ولا يبلغون في البلاغة مكانه؟! ألم يصل ابن الزيّات إلى الوزارة بكلمة واحدة فسّرها للمعتصم وفصّل له تفسيرها، وهي كلمة الكلأ التي يعرفها عامّة الأدباء؟ بلى، وابن الرومي كان يعرف من غرائب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه، فما أولاه إذاً بالوزارة! وما أظلم الدنيا إن هي ضنّت عليه بحقّه من المناصب والثراء!

فإذا لم تكن الوزارة، فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتّاب المبرّزين؟ فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فهل غبنٌ أصعب على النفس من هذا الغبن؟ وهل تقصيرٌ من الزمان آلم من هذا التقصير؟

ونبوءة أبيه ورجاؤه في مستقبله وقوله: أنت للشرف، أيذهب هذا كلّه هباءً لا يقبض منه اليدين على شيءٍ؟ تلك النبوءات التي تنطبع على أفئدة الصغار بمثل النار، ولا تزال غرارة الطفولة وأحلام الصبا تزخرفها وتوشّيها وتعمّق في الضمير أغوارها، أيأتي الشباب وهي محوٌ لغوٌ مطموسٌ لا يبين، أوَلا يبين منه إلاّ ما ينقلب إلى الأضداد، وتترجمه الأيّام بالسقم والفقر والكساد؟ وكيف يُمحى إلاّ وقد مُحي القلب الذي طبعت فيه؟ وكيف ينعكس معناه إلاّ وقد انعكس في القلب كلّ قائم والتوى فيه كل قويم؟ ذلك صعبٌ على النفوس وليس بالسهل، إلاّ على من يلهو به وهو بعيدٌ.

وهكذا كان ابن الرومي يسأل نفسه مرّة بعد مرّة ويوماً بعد يوم:

ما لي أُسَلُّ من القرابِ وأُغمَدُ ... لِمْ لا أُجرَّدُ والسيوفُ تُجرَّدُ
لِمْ لا أُجرَّبُ في الضرائبِ مرّةً ... يا لَلرجالِ، وإنّني لَمهنّدُ!؟

ولا يدري كيف يجيب نفسه على سؤاله، لأنّه لم يكن يدري أنّ فضائله كلّها لا تساوي فتيلاً بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس، وأنّ

الحيلة وحدها قد تغني عن فضائله جميعاً ولو كان صاحبها لا ينظم شعراً، ولا ينظر في كتب الفلسفة والرواية والنجوم.

حسن، إذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد يأس مضيض يسهل علينا هناأن نسطّره في كلمة عابرة، ولكنّه لا يسهل على من يعالجه ويشقى بمحنته في كلّ ساعة من ساعات حياته، ندع الوزارة والولاية والعمالة، ونقنع بالمثوبة من الوزراء والولاة والعمّال، إن كانوا يثيبون المادحين، فهل تراهم يفعلون؟

لا! لأنّ الحيلة لازمةٌ في استدرار الجوائز والمثوبات لزومها في كلّ غرض من أغراض المعاش، ولا سيّما في ذلك الزمان الذي شاعت فيه الفتن والسعايات، وما كانت تنقضي منه سنةٌ واحدةٌ بغير مكيدة خبيثة تودي بحياة خليفة، أو أمير، أو وزير، وربما كانت مصانعة الحجّاب، والتماس مواقع الهوى من نفوس الحاشية والندمان، واللعب بمغامز النفوس الخفيّة، وإضحاك هؤلاء وهؤلاء، أجدى على الشاعر في هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه.

ابن الرّومي وشعراء عصره

عاصر ابن الرومي في بيئته كثيرٌ من الشعراء، أشهرهم في عالم الشعر: الحسين بن الضحّاك، ودعبل الخزاعي، والبحتري، وعليٌّ بن الجهم، وابن المعتزّ، وأبو عثمان الناجم.

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممّن عاصروه وعرفوه أو لم يعرفوه أثر يُذكر في تكوينه غير اثنين في ما نظنّ، هما الحسين بن الضحّاك ودعبل الخزاعي.

قال الأميني: وكان بين ابن الرومي والشاعر المفلق ابن الحاجب محمد بن أحمد صلة ومودّة، وجرت بينهما نوادر، منها: أنّ ابن الحاجب سأله ابن الرومي زيارته في يوم معلوم، فصاروا إليه فلم يجدوه، فقال ابن الرومي فيه شعراً أوّله:

نجّاك يا ابن الحاجب الحاجبُ ... وليس ينجو منّيَ الهاربُ

وأجابه ابن الحاجب بأبيات توجد في معجم الشعراء[١].

قال العقّاد: فكان ابن الرومي معجباً بالحسين بن الضحاك، يروي شعره، ويستملح أخباره، ويذكرها لأصحابه، وكان ابن الرومي يافعاً يحضر مجالس الأدب ويتلقّى دروسه، والحسين في أوج شهرته يتناشد أشعاره أدباء الكوفة وبغداد ومدن العراق. ثمّ ذكر بعض ما رواه ابن الرّومي من شعر ابن الضحّاك نقلاً عن الأغاني فقال:

وقد مات الحسين بن الضحّاك وابن الرومي في التاسعة والعشرين، ولم نرَ في تاريخه ولا في تاريخ الحسين، ما يشير إلى تلاقيهما في بغداد حيث عاش ابن الرومي معظم حياته، أو في غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحّاك.

أمّا دعبل فابن الرومي عارضه في موضعين: أحدهما القصيدة الطائيّة التي نظمها دعبل حين اتّهم خالداً بسرقة ديكه وإطعامه لضيوفه، وقال في مطلعها:

أسر المؤذّنَ خالدٌ وضيوفُهُ ... أسْرَ الكميِّ هفا خلال الماقط[٢].

والآخر في قصيدة لدعبل مطلعها:

أتيتُ ابنَ عمروٍ فصادفتُهُ ... مريضَ الخلائقِ مُلتاثَها

وكان دعبل عدا ذلك متشيّعاً لآل بيت النبي ﷺ، فجذب ذلك كلّه نفس ابن الرومي الفتى نحوه، وحبّب إليه محاكاته ومجاراته، وربما كانت الرغبة في مجاراته إحدى دواعيه إلى الهجاء، ومات دعبل وابن الرومي في الخامسة والعشرين، ولا نعلم أنّهما تعارفا أو كان بينهما لقاء.

وأمّا البحتري وأبو عثمان الناجم فالثابت أنّ ابن الرومي كان على معرفة وصحبة معهما، عرف البحتري في بيت الناجم، وكان هذا صديقاً له بقي على صداقته إلى يوم موته.

---

(١) المرزباني، معجم الشعراء، ص ٤١٠.

(٢) راجع كتابنا هذا، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨.

ولابن الرومي قصيدة في البحتري وأدبه وشعره، توجد منها أبيات في كتاب ثمار القلوب للثعالبي[1].

وأمّا عليّ بن الجهم المتوفّى (٢٤٩هـ/ ٨٦٣م) فقد كان بينه وبين ابن الرومي برزخ واسع من اختلاف المذهب في الدين والشعر، فابن الرومي متشيّع، وابن الجهم ناصب يذمُّ عليّاً وآله، ولا يلتقي الشيعي والناصب كما يقول ابن الرومي. وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى أهل العدل والتوحيد منهم خاصّة، يهجوهم ويدسُّ لهم، ويقول في زعيمهم أحمد بن أبي دؤاد:

ما هذه البدعُ التي سمّيتَها ... بالجهل منك العدلَ والتوحيدا

وابن الرومي كما مرّ بك من هذه الجماعة، فمذهبه في الدين ينفّره من ابن الجهم ولا يرغّبه في مجاراته ولو تشابها في ما عدا ذلك من المزاج والنزعة. لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومي الإغضاء عنه، وهو ناشِئٌ يتلمّس القدوة، ويخطو في سبيل الشهرة، ولكنّك تقرأ شعر ابن الجهم في فخره ومزاحه فيخيّل إليك أنّك تقرأ كلام جنديٍّ يتنفّج أو يعربد لخلوّه من كلّ عاطفة غير عواطف الجند الذين يقضون أوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو والسكر، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومي مسرب للقدوة أو للمقاربة في الميل والإحساس.

وأمّا ابن المعتز فقد ولد في سنة سبع وأربعين ومائتين هـ/ ٨٦١م، فلمّا أيفع وبلغ السنّ التي يقول فيها الشعر كان ابن الرومي قد جاوز الأربعين أو ضرب في حدود الخمسين، ولمّا بلغ واشتهر له كلام يروى في مجالس الأدباء كان ابن الرومي قد أوفى على الستّين وفرغ من التعلّم والاقتباس، ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتزّ هو السابق في الميلاد لما أخذ منه ابن الرومي شيئاً، أو لكان أفسد سليقته بالأخذ عنه، لأنّ ابن المعتزّ إنّما امتاز بين شعراء بغداد في

(١) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٥٠، رقم ٣٤١ وص ٤٣١، رقم ٦٩٠.

عصره بمزاياه الثلاث، وهي البديع والتوشيح والتشبيه بالتحف والنفائس. وابن الرومي لم يُرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا، ولم يكن قطُّ من أصحاب البديع وأصحاب التوشيح أو أصحاب التشبيهات التي تدور على الزخرف، وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبّهات.

تاريخ وفاته

قال ابن خلّكان: توفّي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومئتين. وقيل: ست وسبعين ومئتين، ودفن في مقبرة باب البستان[(١)].

والذين جاؤوا بعد ابن خلّكان تابعوه في هذا الشكّ، ولا مسوّغ لهذا الشكّ لأمور:

الأوّل: قوله:

طربتُ ولم تطرب على حين مطربِ　　وكيف التصابي بابن ستّينَ أشيبِ

فبملاحظة تاريخ ولادته المتسالم عليه بين أرباب المعاجم يوافق ستّين مع سنة (٢٨١)، فهو لم يمت في سنة (٢٧٦) على التحقيق، ولا يُظنّ أنّ الستّين هنا تقريبيّة لضرورة الشعر، فإنّه ذكر الخمس والخمسين في موضع آخر، حيث قال:

كبرتَ وفي خمس وخمسين مكبرُ　　وشِبتَ فألحاظُ المها عنك نُفّر

الثاني: ما في مروج الذهب للمسعودي: من أنّ قطر الندى بنت خمارويه وصلت إلى مدينة السلام مع ابن الجصّاص في ذي الحجّة سنة إحدى وثمانين، ففي ذلك يقول ابن الرومي:

يا سيّدَ العربِ الذي زُفّتْ له　　باليُمنِ والبركاتِ سيّدةُ العجم[(٢)]

(١) وفيات الأعيان، ٣/ ٣٦١، رقم ٤٦٣.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤/ ٢٨٩.

قـال الطبـري محـدِّداً تـاريـخ وصـول قطـر الندى وذويها لبغداد: «كان دخولهم بغداد يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرّم سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م»[١].

الثالث: مقطوعاته التي نظمها الشاعر فـي العرس الذي احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين.

قـال الأميني: وممّـا ينـفـي الشـكّ عـن عـدم وقـوع وفـاة المترجم سنة (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) قصيدته التي يمدح بها المعتضد بالله أبا العبّاس أحمد في أيّام خلافتـه، وقد بويع له في شهر رجب بعد عمّه المعتمد سنة (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) قال فيها:

هنيئـاً بنـي العبّـاس إنّ إمـامَكـمْ　　　إمامُ الهدى والبأسِ والجودِ أحمدُ
كما بأبي العبّاس أنشئَ ملككمْ　　　كـذا بـأبـي العبّـاس أيضـاً يُجـدّدُ

قـال العقّـاد: وأمّـا التـاريخان الآخران، أي سنتا ثلاث وثمانين وأربع وثمـانيـن، فعندنـا تـاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية، وهذا ممّا يرّجح وفاته في سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين.

قال الأميني: لم نـعرف وجه الترجيح بذكر تاريخ اليوم والشهر لمجرّده، مع قطع النظر عمّا ذكره بعدُ من مضاهاة التاريخ بقوله:

ويقوّي هذا الترجيح أنّ مضاهاة التواريخ تُثبت لنا أنّ جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بـدأت يوم جمعة، فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى في تلك السنة كما جاء في تاريخ الوفاة.

وقد ضاهينا هـذا اليوم على التاريخ الافرنجي فوجدناه يوافق الرابع عشر مـن شهـر يـونيـو، أي يـوافـق إبّان الصيف في العراق، وابن الرومي مات في الصيف كمـا يـؤخـذ من قـول النـاجم: أنّه دخل عليه في مرضه الذي مات فيه

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٠/ ٣٩، حوادث سنة ٢٨٢هـ.

وبيـن يـديـه مـاءٌ مثلـوجٌ، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأنّ أصحّ التواريخ هو التـاريخ الأوّل، وهـو يـوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين.

والأقـوال، بعـد ذلك، مجمعة على موت ابن الرومي بالسمّ، وأنّ الذي سمّـه هو القاسـم بن عبيـدالله أو أبوه. قال ابن خلّكان في وفيات الأعيان: إنّ الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كـان يخـاف مـن هجوه وفلتات لسانه بالفحش، فدسّ عليه ابن فراس فأطعمه خشكنانجة[١] مسمومة وهو في مجلسه، فلمّا أكلها أحسّ بالسمّ، فقام فقال له الوزير: إلى أيـن تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه. فقال له: سلّم على والدي. فقال له: ما طريقي على النار[٢].

* * *

(١) الخشكنانجة: نوع من الخبز المحلّى بالسكّر.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/٣٦١، رقم ٤٦٣.

(١٥)
الحِمّاني الأفوه

التعريف بالشّاعر

أبـو الحسيـن علـيّ بـن محمـد بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد بن علـيّ بـن الحسيـن بن عليّ بن أبي طـالب عليهم السلام ، الكوفي الحِمّاني المعروف بالأفوه.

و «حِمَّـانـي» نسبـةٌ إلـى حِمَّان، وهي محلّة بالكوفة، والنسبة إلى حِمّان قبيلة من تميم، وهم بنو حِمّان بن عبد العزيز بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. واسم حمّان: عبد العزّى. وقد سكن هذه المحلّة من نسب إليها وإن لم يكن منها[١].

ولـد فـي الكوفة، في هذه المحلّة، وأقام فيها. ويبدو، من خلال قراءة شعره، أنّه كـان يحبّ موطنه ويأنس إلى الناس فيه، فيروى أن صاحباً له يكنّى بأبـي علـي؛ قـال له بعد أن خرج من حبس الموفّق بالله: قد عدت إلى وطنك الذي تلذّه، وإخوانك الذين تحبّهم.

فقال: يا أبا علي ذهب الأتراب والشباب والأصحاب، وأنشد:

هبني بقيتُ على الأيّام والأبدِ ... ونلتُ ما شئتُ من مالٍ ومن وَلَدِ
مـن لـي بـرؤية من قد كنت آلفُهُ ... وبـالشبـاب الـذي ولّـى ولـم يَعُـدِ
لا فارقَ الحزنُ قلبي بعد فرقتِهمْ ... حتى يفرّقَ بين الروحِ والجسدِ[٢]

---

(١) معجم البلدان، ٢/ ٣٠٠. مادة (حِمّان)، ولباب الأنساب، ١/ ٢٤٨.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤/ ١٦٤. أنوار الربيع، ٤/ ١٤٧.

تـفيـد هذه الأبيات أنَّه خرج من السِّجن بعد أن فارق موطنه مدَّةً طويلة، وبعـد أن ولَّـى شبابه وفقد من يألفه، وهو لهذا حزين حزناً دائماً لن يفارق قلبه حتى الممات.

ويبـدو، أيضـاً، أنَّـه عمَّر طويلاً لأنّه يكثر من الحسرة على الشَّباب الذي ولَّى ولم يعد، ويرى أن المصيبة بالحياة هي المصيبة بالشّباب.

وإن لم تفد المصـادر بتـاريخ ولادته، فالمرجَّح، كما مرّ بنا، وكما يرى العـلامـة الأمينـي، «هـو أن السيِّد الحماني كان من المعمَّرين». أما وفاته فقد اختُلف في تاريخها. قال النسَّابة العمري في المجدي[1] أنه مات سنة ٢٧٠هـ، بعد مخرجه من الحبس. وقال ابن الأثير في الكامل: إنه توفي سنة ٢٦٠هـ[2]. وقال ابن حبيب صاحب التاريخ في اللوامع: إنه مات سنة ٣٠١هـ.

والـرّاجـح أن التـاريـخ الأخيـر هو الصحيح، فقد خرج من الحبس سنة ٢٧٠هـ، وقال في ذلك شعـراً، كمـا مرَّ بنا، وقد قال شعراً يتأمَّل فيه حال بني طـاهـر بـن مصعـب بـعدمـا حكم عليهم الدهر وانقرضت حكومتهم بعد موت رئيسهـم عبيـدالله بـن عبـدالله المتوفى في الثاني عشر من شوال سنة ٣٠٠هـ، فشعره فيهم يقتضي بقاءه حيّاً إلى هذا التاريخ.

فقيه، خطيب، وشاعر

يعدّ المؤرِّخون والنقَّاد الحمَّاني الأفوه بين الفقهاء والمدرِّسين والخطباء والشُّعراء، وفي مـرتبـة عليا في كلِّ أمر من هذه الأمور، وقد سار بذكره، كما يقول الشيـخ الأمينـي، وبشعره الركبان، وعرفه القريب بحسن الصِّياغة وجودة البيـان[3]. ويقـول النسَّـابـة العمـري عنـه: «هـو أشعـر قـريشٍ إلـى وقتنـا،

(١) المجدي، ص ١٨٥.
(٢) الكامل في التاريخ، ٤/ ٤٥٣، حوادث سنة ٢٦٠هـ.
(٣) راجع لمعرفة آراء المؤرخين والنقاد مفصَّلة، الغدير، ٣/ ٨٨ ـ ٩٠.

وحسبك أن يكون قريش في أوَّلها الحارث بن هشام، والعبلي، وعمر بن أبي ربيعـة، وفـي آخـرها[إلى زمانه] محمد بن صالح الموسوي، وعلي بن محمَّد الحمّاني»[1].

وشهد له الإمام علي الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أشعر النَّاس. فقد روى الجاحظ في «المحاسن والأضداد»، والبيهقي في «المحاسن والمساوئ» والطوسي في أماليه وبهاء الدين في تاريخ طبرستان وابن شهرآشوب في «المناقب» الخبر الآتي:

سـأل المتـوكّـل ابـن الجهـم: مـن أشعـر النـاس؟ فذكر شعراء الجاهليّة والإسـلام، ثـمّ إنّـه سـأل أبـا الحسـن الإمـام علـيّ بـن محمـد الهادي فقال: الحِمّاني، حيث يقول:

لـقـد فـاخرتْنا من قريشٍ عصابةٌ ... بمــطِّ خُـدودٍ وامتــدادِ أصــابــعِ
فلمّـا تنـازعنـا المقـالَ قضـى لنـا ... عليهـم بمـا يهـوى نـداءُ الصَّـوامـعِ
تـرانـا سكـوتـاً والشهيـدُ بفضلِنـا ... عليهم جهيرُ الصوتِ في كلِّ جامعِ
فـإنّ رسـول الله أحمـدَ جـدُّنـا ... ونحـن بنـوهُ كـالنجـومِ الطـوالـعِ

قـال: ومـا نـداء الصَّـوامـع يا أبا الحسن؟ قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمَّداً رسـول الله، جدّي أم جدّك؟ فضحك المتوكّل، ثمّ قال: هو جدُّك لا ندفعك عنه[2].

وكثيـراً مـا كـان المـؤرّخـون النقـاد يـقارنونه بعبدالله بن المعتز، فيقول بعضهـم[3]: كـان الحمـانـي الأفـوه، في العلويَّـة، من الشهرة والأدب والطَّبع كعبـدالله بن المعتـز في العباسيَّـة، ويروى أنه كان يـقول: أنا شاعر وأبي شاعر وجدِّي شاعر إلى أبي طالب.

---

(١) المجدي، ص ١٨٥ و١٢٦.
(٢) الغدير، ٣/ ٨٨ و٨٩، نقلاً عن المحاسن والأضداد، ص ٩٠. المحاسن والمساوئ، ص ٩٩، أمالي الطوسي، ص ٢٨٧، ح٥٥٧ تاريخ طبرستان، ص ٢٢٥. مناقب آل أبي طالب، ٤/ ٤٣٧ـ٤٣٨.
(٣) نسمة السحر، مجلد ٨/ ج٢/ ص ٣٨٥.

ملامح شخصيَّته

كان الحمَّاني الأفوه، وهو في هذه المرتبة العليا من شرف النَّسب وغزارة العلم وشموله وجودة الشعر، ذا شخصيّة قويّة، وعلى جانبٍ عظيم من الإباء والحماسة وقوّة القلب ورباطة الجأش والجرأة على مناوئيه، وهو في ذلك يمثل ما اتصف به أسلافه الطاهرون، آل بيت النبي ﷺ من صفاتٍ جعلتهم مثالاً يقتدى. ومن المواقف التي تؤكِّد ما ذهبنا إليه نذكر:

قال المسعودي: لمّا دخل الحسن بن إسماعيل الكوفة، وهو صاحب الجيش الذي لقي يحيى بن عمر الشهيد سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، قعد عن سلامه ولم يمضِ إليه، ولم يتخلّف عن سلامه أحدٌ من آل عليّ بن أبي طالب الهاشميّين، وكان عليّ بن محمد الحِمّاني مفتيهم بالكوفة ـ إلى أن قال ـ: فتفقّده الحسن بن إسماعيل، وسأل عنه، وبعث بجماعة فأحضروه، فأنكر الحسن تخلّفه فأجابه عليّ بن محمد بجواب مستقتلٍ آيسٍ من الحياة. فقال: أردتُ أن آتيك مهنّئاً بالفتح، وداعياً بالظفر!

وأنشد شعراً لا يقوم على مثله من يرغب في الحياة:

قتلتَ أعزَّ من ركِبَ المطايا وجئتكَ أَستلينُكَ في الكلام!
وعزَّ عليَّ أن ألقاك إلاّ وفيما بيننا حدُّ الحُسامِ
ولكنَّ الجناحَ إذا أُهيضتْ قوادمُه يرفُّ على الأكامِ

فقال له الحسن بن إسماعيل: أنت موتورٌ فلست أنكر ما كان منك. وخلع عليه وحمله إلى منزله[1].

كان الحِمّاني صادقاً مع نفسه، وواضحاً حازماً في إعلان موقفه، فكيف له أن يهنِّئ بالظَّفر من قتل «أعزَّ من ركب المطايا»!؟، وكان يدرك أن اللقاء بينه وبين هذا القاتل ينبغي أن يكون في ساحة الحرب، ولكن هذا غير ممكن له

(١) المسعودي، مروج الذّهب، ٤/ ١٦٣.

فعبَّر عن ذلك بصورة شعريَّة، تمثِّل حالة الطَّائر المضطر إلى أن يرفَّ على الآكام، إذ لم يقدر على التحليق في الفضاء الرَّحب.

ولم تنل مصائب الدَّهر من عزيمته، فبقي ثبت الجنان، وهذا ما يفيده قوله:

وإن يك دهري لوى رأسه فقد لقي الدَّهر منِّي التواءَ
ونحن، إذا كان شرب المدام، شربنا على الصَّافنات الدماء

وهذه الحالة تخلِّف في النَّفس قهراً وغيظاً وصبراً وتماسكاً، وتدفع الآخر إلى تحيُّن الفرص للنَّيل منه، وهذا ما حدث، فقد حُبس مرَّتين، وفي إحداهما اتهم بأنَّه يريد الخروج على الخليفة. ولم ينل الحبس من شجاعته وعمق تفكيره وجودة بيانه، فكتب إلى الخليفة العباسي الموفَّق بالله (المتوفى ٢٧٨هـ/ ٩٠٠م)، وهو من أمر بحبسه، يقول:

قد كان جدُّك عبدُالله خيرَ أبٍ لابنَي عليٍّ حسين الخير والحسن
فالكفُّ يوهنُ منها كلّ أنملةٍ ما كان من أختها الأخرى من الوهن

فلما وصل إليه الشعر خلَّى سبيله.

يذكِّر الحماني، في بيتيه هذين، بالعلاقة التاريخيَّة التي كانت قائمة بين عبدالله بن عباس وبين الإمامين الحسنين عليهما السلام، ويبيِّن نتائج الأعمال التي يقوم بها أبناء عبدالله بعدما تولّوا السّلطة، في بيتٍ يتضمن حكمة مستفادة من الواقع، ويمكن أن يذهب مثلاً يُضرب في كل حالة مشابهة.

ونجد، في نماذج من شعره، ما يرسم شخصيته ويمثِّل رؤيته إلى الحياة، فهو يعصي الهوى، ويصبر على ما تجنيه الليالي، ويبقى صادق العزم مواجهاً للمصائب، له من السؤدد ما يبلغه السماء، ويترفَّع عن الهجاء، وعن ذلِّ الخضاب، فيواجه المشيب بتأمل الحياة، ويكرِّر رأيه القائل إن المصيبة بالحياة هي المصيبة بالشباب، ما يفيد أنه عُمِّر طويلاً وخبر الحياة، وصبر على مرّها، وتصفّى هذا المرّ شجىً عميقاً في النَّفس، ومن هذه النماذج نقرأ قوله:

□عَصَيتُ الهوى وهجرتُ النساء ... وكنت دواءً فأصبحتُ داءَ
وما أنسَ لا أنسَ حتى المماتِ ... نزيبَ الظباءِ تُجيبُ الظباءَ
دعيني وصبري على النائباتِ ... فبالصبرِ نلتُ الثرى والثواءَ
وإن يكُ دهري لوى رأسَهُ ... فقد لقيَ الدهرُ منّي التواءَ
ونحن إذا كان شُرب المدام ... شَربنا على الصافنات الدماءَ
بلغنا السماءَ بأنسابِنا ... ولولا السماءُ لجزنا السماءَ
فحسبُكَ من سؤددٍ أنّنا ... بحُسنِ البلاءِ كَشفْنا البلاءَ
يطيبُ الثناءُ لآبائنا ... وذكرُ عليٍّ يَزينُ الثناءَ
إذا ذُكِرَ الناسُ كنّا مُلوكاً ... وكانوا عبيداً وكانوا إماءَ
هجانيَ قومٌ ولم أهجُهُمْ ... أبى اللهُ لي أن أقولَ الهجاءَ[(١)]
□ هبني حننتُ إلى الشبابِ ... فطمستُ شَيْبي باختضابي
ونفقتُ عند الغانياتِ ... بحيلتي وجهلت ما بي
من لي بما وقف المشيبُ ... عليه من ذُلِّ الخِضابِ
ولقد تأمّلتُ الحياةَ ... بُعيدَ فقدانِ التصابي
فإذا المصيبةُ بالحياةِ ... هي المصيبةُ بالشبابِ[(٢)]

وكان هذا الشجي الرقيق، العميق، قرين خوفٍ مما تجنيه الليالي، فالشاعر يحبّ أن يكون «قرير العين»، وأن يقبض على «الفتوّة» باليدين، غير أن الخوف كان يحول دون ذلك، يقول:

ويومٍ قد ظللتُ قريرَ عينٍ ... بهِ في مثل نعمةِ ذو رعينِ
تُفكّهُني أحاديثُ الندامى ... وتطربني مثقّفةُ اليدينِ
فلولا خوفُ ما تجني الليالي ... قبضتُ على الفتوّة باليدينِ[(٣)]

---

(١) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٩٩.
(٢) المجدي، ص ١٨٥.
(٣) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٤٢٥. وذو رعين، من ملوك اليمن يضرب به المثل في النعمة.

والخوف ممّا تجنيه الليالي ماثل في أعماق ذاكرته ووجدانه، فالظلم قائم منذ أن رحل المصطفى ﷺ . . .، وهو يعايشه في كل يوم، وقد عبّر عن ذلك فقال:

نحـــنُ لـــلأيّـــام مـــن بيـــن ... قتيـــــلٍ وجــــــريـــــــحِ

وهـذا يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد، الشهيد، مثال حيّ لما يصنعه السّلطان في الليالي. وقد هزَّ مصاب يحيى الشاعر فرثاه بشعرٍ يجسِّد عمق الحزن ومرارة المصاب، وعظمة الشهادة والشهيد في آن. ومن شعره في رثاء يحيى الثائر في وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان نذكر:

في الرِّثاء، وتأمل ما تجنيه الليالي

□ فإن يكُ يحيى أدركَ الحتفَ يومهُ ... فما ماتَ حتى ماتَ وهو كريمُ
وما مات حتى قال طلاّبُ نفسِه ... سقى اللهُ يحيى إنّه لصميمُ
فتىً آنستْ بالبأسِ والرَّوعِ نفسه ... وليس كما لاقاه وهو سؤومُ[1]
إلى آخر الأبيات . . .

□ تضوّعَ مِسكاً جانبُ النهر إذ ثوى ... وما كان إلاّ شِلوُهُ يتضوّعُ
مصارع أقوامٍ كرامٍ أعزّةٍ ... أبيح ليحيى الخيرِ في القومِ مصرعُ[2]
□ يا بقايا السَّلَفِ الصا ... لحِ والبحرِ الربيحِ
نحنُ للأيّام من بين ... قتيلٍ وجريحِ
خابَ وجه الأرض كم ... غيّبَ من وجهٍ صبيحِ
آهِ من يومك ما أو ... راه للقلب القريحِ[3]
□ إنّي وقوميَ من أحساب قومِكمُ ... كمسجد الخيفِ من بُحبوحة الخيفِ

(١) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص ٥٢٠، رقم ٦٤.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤/ ١٦٢.
(٣) المصدر نفسه، أورى القلب: أخرج ناره.

ما علّق السيف منّا بابن عاشرةٍ ... إلاّ وهمّته أمضى من السيف[1]

□ لعمري لئن سُرّت قُريشٌ بِهُلكِهِ ... لما كانَ وقّافاً غداةَ التوقّفِ

فإن ماتَ تلقاءَ الرماحِ فإنّه ... لَمن معشرٍ يشنونَ موت التترُّفِ

فلا تَشمتُوا فالقومُ من يبق منهمُ ... على سننٍ منهم مقام المخلفِ

لهم معكم إمّا جدعتم أنوفَكمْ ... مقاماتُ ما بين الصفا والمَعرّفِ[2]

تراثٌ لهم من آدمٍ ومحمّدٍ ... إلى الثقلَينِ من وصايا ومصحفِ

□ قد كان حين علا الشباب به ... يقَقَ السوالفِ حالكَ الشعرِ

وكأنّه قمرٌ تمنطقَ في ... أُفُقِ السماءِ بدارةِ البدرِ

يا ابن الذي جُعِلتْ فضائلُهُ ... فَلَكَ العلا وقلائدَ السوَرِ

من أسرةٍ جُعِلتْ مخايلُهمْ ... للعالمين مخايلَ النظرِ

تتهيّبُ الأقدارُ قدرَهمُ ... فكأنّهم قدرٌ على قَدَرِ

والموتُ لا تُشوي رَميّتُهُ ... فَلَكَ العُلا ومواضعَ الغررِ[3]

وله في رثاء أخيه لأمّه إسماعيل العلويّ شعرٌ كثيرٌ، ومنه قوله:

□ هذا ابن أمّي عديل الروح في جسدي ... شقَّ الزمانُ به قلبي إلى كبدي

فاليوم لم يبقَ شيءٌ أستريحُ به ... إلاّ تفتُّتُ أعضائي من الكَمَدِ

أو مقلةٌ بحياءِ الهمّ باكيةٌ ... أو بيتُ مرثيّةٍ تبقى على الأبدِ

تُرى أناجيك فيها بالدموعِ وقد ... نامَ الخليُّ ولم أهجع ولم أكَدِ

من لي بمثلك يا نورَ الحياة ويا ... يُمنى يَدَيَّ التي شُلّتْ من العضُدِ

من لي بمثلكَ أدعوهُ لحادثةٍ ... تُشكى إليه ولا أشكو إلى أحَدِ

قد ذُقتُ أنواعَ ثُكلٍ كُنتَ أبلغَها ... على القلوبِ وأجناها على كبدي

قل للردى لا تُغادر بعدهُ أحداً ... وللمنيّةِ من أحببتِ فاعتمدي

(١) المصدر نفسه، ٤/ ١٦٣، الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣/ ٤١٦.

(٢) المصدر نفسه، يشنون: يكرهون. الصفا والمعرّف: جبلان بمكة.

(٣) المصدر نفسه. يقق السوالف: أبيضها ـ أشوى السّهم: أخطأ رميته، ولم يصب مقتلاً.

إنّ الـزمـانَ تَقَضّـى بعـدَ فُـرقَتِـه والعيـشَ آذنَ بـالتفـريـقِ والنكـدِ

وإن يكن بنو طاهر، ولاة خراسان، هم الذين أودوا بيحيى، آملين بدوام ولايتـهم، فـإنـهم سـرعـان ما مضوا..، وهو إذ يتأمَّل مصير دورهم، وقد مرَّ بها، يرى أن الـدهـر سـرعـان ما سلبها البهجة، ما يشير إلى أن فرح هذه الدنيا وسـرورهـا سـريـع الـزوال، ويمثّل تأمّله العميق هذا في زوال أيّام بني طاهر، تشبيه جميل، مبتكر، يصوّر التألّق بألوانه الجميلة، وسرعة أفوله، فيقول:

مـرَرْت بـدور بنـي طـاهـرِ بـدور السـرور ودور الفَـرحْ
فشبَّهـتُ سـرعـة أيّـامهـم بسـرعـة قـوسٍ يُسمَّـى قُـزَحْ
تـألّـق معتـرضـاً فـي السمـاء قليـلاً، ومـا دام حتـى مَصَـحْ(١)

غديريّته، وفضائل آل البيت

تـفاخره قريش، وتنازعه، فيقضي له: «نداء الصوامع»، أي الأذان الذي يـرفـع مـن المآذن: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمَّداً رسول الله، بأنَّ رسـول الله ﷺ جدُّه، وقد أقرّ له المتوكل العبّاسيّ بذلك في حضور علي بن الجهم، وكـلاهـمـا، أي المتـوكـل وابن الجهم كاره للإمام علي بن أبي طالب وآلـه عليهم السلام، وقـد اضطـرّ إلـى الإقـرار بما يفيده ذلك التعبير الشعري المبتكر والمكتنز دلالة: «نداء الصوامع»..

وابـن الحمَّـانـي يعـرف فضائـل جـدّه الإمام علي عليه السلام وحقّه، ويذكُر بذلك، وبخاصّة بـ«يوم الغدير وخطبته» فيقول:

ابـن الـذي رُدّت عليـه الشمـ ـسُ فـي يـوم الحجـابِ
وابـنُ القسيـمِ النـارَ فـي يـومِ المـواقـفِ والحسـابِ

(١) أنوار الرّبيع، ٢/ ٣٣٣، ونسمة السحر، مج ٨/ج٢/ ص ٣٨٦، نقلاً عن الثعالبي، مصح الشيء: ذهب وانقطع.

مولاهمُ يومَ الغديرِ ... برغم مرتابٍ وآبي[1]
□قالوا: أبو بكرٍ له فضلُهُ ... قلنا لَهم: هنّأهُ اللهُ
نسيتمُ خطبةَ خمٍّ وهل ... يُشبَّهُ العبدُ بمولاهُ
إنّ عليّاً كان مولىً لمنْ ... كان رسولُ اللهِ مولاهُ[2]

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو مولاهم يوم الغدير برغم مرتابٍ وآبٍ. . .، ولا يغيِّر فضلٌ يقولونه لأبي بكر في حكم خطبة الغدير القائلة: إن عليّاً كان مولىً لمن كان رسول الله مولاه.

وهكذا يكون بين المصطفى ووصيِّه نسبٌ ذرَّه ذو العرش ذراً، فطاب بينهما، فانبثَّ نُورٌ له في الأرض تخليد. .

وقد قال الحمَّاني في هذا النَّسب الذي تختال فيه المعالي، وفي هذا النور المشعّ في الأرض، الخالد فيها، الكثير من الشعر، ومن نماذج قوله نذكر:

□بين الوصيِّ وبين المصطفى نسبٌ ... تختال فيه المعالي والمحاميدُ
كانا كشمس نهارٍ في البروج كما ... أدارها ثمّ إحكام وتجويدُ
كَسَيرها انتقلا من طاهرٍ علَمٍ ... إلى مطهّرةٍ آباؤها صيدُ
تفرّقا عند عبدالله واقترنا ... بعد النبوّة توفيقٌ وتسديدُ
وذرّ ذو العرش ذراً طابَ بينهما ... فانبثّ نورٌ له في الأرض تخليدُ
نورٌ تفرّع عند البعثِ فانشعبتْ ... منهُ شعوبٌ لها في الدين تمهيدُ
هم فتيةٌ كسيوفِ الهندِ طال بهم ... على المطاولِ آباءٌ مناجيدُ
قومٌ لماءِ المعالي في وجوهِهمُ ... عند التكرّم تصويبٌ وتصعيدُ
يدعونَ أحمدَ إن عُدّ الفخارُ أباً ... والعودُ يُنسَبُ في أفنائه العودُ
والمنعمونَ إذا ما لم تكن نِعَمٌ ... والذائدون إذا قلَّ المذاويدُ

(١) مناقب آل أبي طالب، ٨/ ٣٥٧ و٣٥٨.
(٢) البياضي، الصراط المستقيم، ٢/ ٧٢.

أوفَوا من المجدِ والعلياءِ في قُلَلٍ   شُمٌ قـواعـدُهـنّ الفضـلُ والجـودُ
ما سوّد الناسَ إلاّ من تمكّن في   أحشـائِـهِ لهـمُ ودٌّ وتسـويـدُ
سُبطُ الأكفِّ إذا شيمت مخايلُهمْ   أُسـدُ اللقـاءِ إذا صيـدَ الصنـاديـدُ
يزهو المطافُ إذا طافوا بكعبتِهِ   وتشـرئـبّ لهـم منهـا القـواعيـدُ
في كلّ يومٍ لهم بأسٌ يُعاشُ به   وللمكـارم مـن أفعـالهـمْ عيـدُ
محسّـدون ومـن يعقـدْ بحبّهـمُ   حبلَ المودّة يضحى وهو محسودُ
لا يُنكرُ الدهرُ إن ألوى بحقّهمُ   فالدهر مُذ كان مذمومٌ ومحمودُ[1]

ويعلّق العلامة الأميني على هذه القصيدة، فيقول:

ـ ولعـلّ قـولـه: محسّدون. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**أم يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء/ ٥٤] وقد ورد فيها أنّهم الأئمّة من آل محمد.

قـال ابـن أبي الحـديـد فـي شـرح نـهج البـلاغـة: إنّها نزلت في الإمام علي عليه السلام وما خصّ به من العلم. وأخرج ابن حجر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في هذه الآية: «نحن الناس والله».

حَسَدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَهُ   فـالنـاسُ أعـداءٌ لـه وخصـومُ
كضرائرِ الحسناءِ قُلنَ لوجهِها   حسـداً وبغضـاً إنّـه لـدميـمُ

وأخـرج الفقيـه ابـن المغـازلـي، عـن ابـن عبّـاس: إنّ الآيـة نـزلـت فـي النبـيّ صلى الله عليه وآله وعلـيّ عليه السلام. وقـال الصبّـان فـي إسعـاف الراغبين هامش نور الأبصـار (ص ١٠٩): أخـرج بـعضهم عـن الإمام الباقر في قوله تعالى: ﴿**أمْ يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ أنّه قال: «أهل البيت هم الناس».

☐ ويتـأمّـل النجف المعرّى، فيقول في أبياتٍ ذكرها الحموي في معجم البلدان، ونجد تتمتّها في مناقب ابن شهرآشوب:

فيا أسفي على النجفِ المعرّى   وأوديـةٍ منـوّرةِ الأقـاحـي

(١) الفصول المختارة، ١/ ١٩، مجالس المؤمنين، ٢/ ٥٦٨.

وما بسطَ الخورنقُ من رياضٍ مفجّــرةٍ بــأفنيــةٍ فســاح
ووا أسفـاً علـى القنّـاص تغـدو خرائطُها على مجرى الوشاحِ[1]
وإذ بيتي على رغـم المُلاحـي هـو البيـتُ المقـابـلُ للضـراح
ووالـديَ المُشـارُ بـه إذا مـا دعا الداعي بحيَّ على الفلاحِ[2]

□ ويرى إلى مقام آل بيت النبوّة، الذين يهتز لهم المقام ارتياحاً، ويلقاهم صفاء بصفاء، فيقول:

لنـا مـن هـاشـمٍ هَضَبـاتُ عِـزٍّ مطنّبــةٌ بــأبــراجِ السمــاءِ
تطـوف بنـا المـلائـكُ كـلَّ يـوم ونُكفَــلُ فــي حُجــورِ الأنبيــاءِ
ويهتــزُّ المقــامُ لنــا ارتيــاحــاً ويلقــانــا صَفــاهُ بــالصفــاءِ[3]

□ ويقول في بيان فضائل الإمام علي عليه السلام وموقعه في الإسلام ودوره، مشيراً إلى حديث الثقلين:

يا ابن من بيته من الدين والإسـ ـلام بيـن المقـام والمنبـريـنِ
لك خير البيتينِ من مسجدَي جدّ ك والمَنشـأيـن والمسكنيـنِ
والمساعي من لدن جدّك إسما عيـل حتى أُدرِجْتَ في الـريطتيـنِ
يـوم نيطـت بـك التمـائـمُ ذاتُ الريشِ من جبرئيلَ في المنكبينِ

ومنها:

أنتمـا سيّـدا شبـاب الجنـا ن يـوم الفـوزيـن والـروعتيـنِ
يا عديل القرآن من بين ذا الخلـ ـق ويـا واحـداً مـن الثقليـنِ
أنتمـا والقـرآن في الأرض مـذ أ زلِ مثـلُ السمـاء والفـرقـديـنِ
فهمـا مـن خـلافـةِ الله فـي الأر ضِ بحـقّ مقـامِ مستخلفيـنِ

---

(١) معجم البلدان، ٥/ ٢٧١، مادة (نجف).
(٢) مناقب آل أبي طالب، ٣/ ٢٧٢.
(٣) عمدة الطالب، ص ٣٠١.

قالـه الصـادقُ الحـديـثِ ولـن　　　يفتـرقـا دون حـوضـهِ ورديـنِ[1]

ويعلّق العلامة الأميني على هذه الأبيات فيقول: أشار إلى ما صحّ عند أئمّة فرق الإسلام من قـول النبيّ ﷺ في خطبة له: «إنّي تاركٌ ـ أو مخلّفٌ ـ فيكـم الثقليـن ـ أو الخليفتيـن ـ كتـاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

□ وله في حديث الثقلين قوله:

يـا آل حـاميـمَ الـذيـن بحبّهـم　　　حُكـمُ الكتـاب منـزّلٌ تنـزيـلا
كان المديحُ حُلى الملوكِ وكنتمُ　　　حُلـلَ المـدائـح غُـرّةً وحجـولا
بيـتٌ إذا عـدّ المـآثـرَ أهلُـه　　　عـدّوا النبـيَّ وثـانيـاً جبـريـلا
قومٌ إذا اعتدلوا الحمائل أصبحوا　　　متقسّميـن خليفـةً ورسـولا
نشأوا بآيات الكتاب فما انثنوا　　　حتـى صـدرنَ كهـولـةً وكهـولا
ثقـلانِ لـن يتفـرّقـا أو يُطفيـا　　　بالحوضِ من ظمأ الصدور غليلا
وخليفتـان علـى الأنـامِ بقـولـهِ　　　الحـقّ أصـدقُ مـن تكلّـم قيـلا
فأتوا أكفّ الآيسين فأصبحوا　　　ما يعدلون سوى الكتاب عديلا[2]

□ وله قوله في بيان مكانة الإمام علي عليه السلام من النبي ﷺ:

وأنـزلـه منه علـى رَغمةِ العدى　　　كهارونَ من موسى على قِدم الدهرِ
فمن كانَ في أصحاب موسى وقومِهِ　　　كهـارونَ لا زلتـم علـى ظلـل الكفـرِ
وآخاهمُ مثلاً لمثلٍ فأصبحتْ　　　أخوتُهُ كالشمسِ ضُمّت إلى البدرِ
فـآخـى عليّـاً دونكـمْ وأصـارَهُ　　　لكـم عَلَمـاً بيـن الهـدايـة والكفـرِ
وأنـزلـه منـه النبـيُّ كنفسـهِ　　　روايـة أبـرارٍ تـأدّت إلـى البشـرِ
فَمن نفسُهُ منكم كنفسِ محمّدٍ　　　الا بـأبـي نفـسَ المطهّـر والطهـرِ[3]

(١) مناقب آل أبي طالب، ٣/ ٤٤٥.
(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٢٦، ٣/ ٢٧.
(٣) الصراط المستقيم للبياضي، ١/ ٢٥٢، باب ٨.

ويوضح العلامة الأميني ما ورد من أحاديث في هذه الأبيات فيقول: كلّ هذه الأبيات مأخوذةٌ من الأحاديث النبويّة الصحيحة من حديث الثقلَين وحديث المنزلة وحديث المؤاخاة، وأشار بالبيتين الأخيرين إلى ما أخرجه الحافظ النسائي في خصائصه بإسناده عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنتَهِيَنّ بنو وليعة أو لأبعثنّ عليهم رجلاً كنفسي يُنفِذ فيهم أمري...»[1].

□ وله قوله في العترة الطاهرة:

هـمُ صفـوةُ اللهِ التي ليس مثلها ... ومـا مثلهـم فـي العـالميـن بـديـلُ
خيارُ خيارِ الناسِ من لا يحبّهم ... فليـس لـه إلاّ الجحيـمُ مَقيـلُ[2]

ترفّعه عن الهجاء

كـان الحمّـاني، وهو في هذا المقام الرفيع، يرى أن الله سبحانه وتعالى أبى له أن يقول الهجاء وقد مرّ بنا قوله، في إحدى قصائده:

هجـانـي قـومٌ ولـم أهجُهـم ... أبـى اللهُ لـي أنَّ أقـول الهجـاءَ

لكـنَّ ادّعـاء علي بن الجهم نسباً في قريش، وانحرافه، في الوقت نفسه، عـن الإمـام علـي بـن أبـي طـالب عليه السلام، ومناصبته العداء، وقوله الشعر في ذلك، جعل الحمّاني يعيد النظر في ادعاء ذلك النسب القرشي القائل إنه من عقب سامة بـن لؤي بن غاله، وبخاصّة أن كثيرين طعنوا فيه، وقد قال في ذلك شعراً، منه قوله:

□ وسـامـةُ منّـا فـأمّـا بنـوهُ ... فـأمـرهـمُ عنـدنـا مظلـمُ
أنـاسٌ أتَـونـا بـأنسـابهـم ... خـرافـةُ مضطجـعٍ يحلُـمُ
وقلـتُ لهـم مثـلَ قـولِ النبـيّ ... وكـلُّ أقـاويلـه محكـمُ:
إذا مـا سُئلـتَ ولـم تـدرِ مـا ... تقـولُ فقـل: ربُّنـا أعلـمُ

---

(١) السنن الكبرى، ٥/ ١٢٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب، ٤/ ٣٠١.

وقال فيه أيضاً:

لـو اكتنفـتَ النضـرَ أو معـدّاً ... أو اتّخـذتَ البيـتَ كفّـاً مهـدا
وزمـزمـاً شـريعـةً ووِرداً ... والأخشَبَيـنِ مَحضـراً ومبـدا
مـا ازددتَ إلاّ فـي قـريش بُعـدا ... أو كنـت إلاّ مصقليّـاً وغـدا[1]

تأمّل وحكمة

تأمّل الحمّاني الحياة، ورأى إلى قضاياها وأشيائها، ويبدو، كما مرّ بنا، أنه عمِّر طويلاً، وعانى من الهرم، فقال: إن «المصيبة بالحياة هي المصيبة بالشباب» وبـ «فقد الأتراب والأصحاب». وبدا له المشيب، بما يعنيه من شيخوخة وعجز، «موتاً»، فقال مصوّراً تجربته الطويلة مع الحياة:

لَعمـرُكَ لَلْمشيـبُ علـيَّ ممّـا ... فقـدْتُ مـن الشبـابِ أشـدُّ فـوتـا
تملّيـتُ الشبـابَ فصـارَ شيبـاً ... وأبلَيـتُ المشيـبَ فصـار مـوتـا[2]

ونراه يلحّ على هذه الرؤية إلى الحياة، فيعبِّر عنها مقارناً، في النضارة، بين صدر النهار وفتوة الإنسان فيقول:

إنَّ صـدر النهـار أنضـر شطـر ... يـه، كمـا نضـرة الفتـى فـي فتـائـه

ويرى بعد «أن مضى ما مضى» من فتوّة أن ما بقي ليس له مغنى، فيقول:

كـان يُبكينـيَ الغنـاءُ سـروراً ... فـأرانـي أبكـي لـهُ اليـومَ حـزنـا
قد مضى ما مضى فليس يُرجّى ... وبقـي مـا بقـي فمـا فيـه مَغنـى[3]

ويصوِّر عريه من الشباب في صورة حسيَّة ملموسة، فإذا هو كالقضيب الذي يعرى من الورق، وينوح على ما فقده، غير أنه يدرك أن هذا غير مجدٍ، فيستسلم لسنّة الله في خلقه، ويستدعي الشباب ليخبره بما فعل المشيب، في

---

(١) معجم الشعراء، ص ١٤٠، مروج الذهب، ٤/ ١٢٣. الأخشبان: جبلان بمكّة، معجم البلدان، ١/ ١٢٢.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٢/ ٤٤٢، باب ٣٤، تملّيت: من الملاوة، أي البرهة من الدّهر.
(٣) مجموعة المعاني، ١/ ٢٦٩، رقم ٤٢٢، ص ٣٨٢، رقم ٦٠٧.

بيت شعـري بلغ من السيرورة حدّاً جعله على لسان كل من يعيش هذه الحالة، يقول الحمّاني، في أبيات توجد بتغيير يسير في ديوان أبي العتاهية:

عريتُ عن الشبابِ وكنتُ غضّاً   كما يعرى عن الورقِ القضيبُ
ونُحتُ على الشبابِ بدمعِ عيني   فما نفعَ البكاءُ ولا النحيبُ
ألا ليتَ الشبابَ يعود يوماً   فأخبرَهُ بما فعلَ المشيبُ[(١)]

ويخلص، نتيجة تأمله الفكري، إلى حكمة يصوغها في صورة شعريّة، تمثّل مشهداً حيّاً ينطق بدلالة عميقة، ومن ذلك قوله:

لا تكتسي النَّورَ الرِّياضُ إذا   لم يَرْوهنّ مخايلُ المطرِ
والغيثُ لا يجدي إذا ذرفت   آماق مدمعه على حجر
وكذاك لو نيلَ الغنى بيدٍ   لم تُجتذب بسواعد القدرِ[(٢)]

المرأة: تميّز الرؤية واللغة الشعرية التي تجسّدها

ويبدو أن حياة الحمّاني لم تكن يسيرة، ففي شعره ما يفيد أنّ همومها كانت تثقل كاهله، ولديه شاهدا عدلٍ على شدَّة معاناته، وهما السهاد والدَّمعة، وهذا تعبير طريف عن معاناة الهموم، تتمثل فيه لغة العالم الفقيه، يقول الحماني:

كأنّ همومَ الناسِ في الأرض كلّها   عليَّ وقلبي بينهم قلبُ واحدِ
ولي شاهدا عدلٍ سُهادٌ وعَبرةٌ   وكم مدّعٍ للحقّ من غير شاهدِ[(٣)]

وقد رأى من منظور العالم الفقيه، الشاعر، إلى المرأة، فتمثلت رؤيته المتميزة لغةً شعريّة لا تخلو من تأثير لغة العلماء الفقهاء.

ومن مظاهر تميّز رؤيته قوله في صديق له وُلدت له بنت فسخطها:

---

(١) نشوة السكران، ص ٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢، مخايل: جمع مخيلة، وهي السحابة التي يُخال فيها المطر.
(٣) أنوار الربيع، ص ٤٨١.

قـالـوا لـه: مـاذا رزقـتَ؟ فـأصـاخ ثَمّـة، قـال: بنتـا
وأجـلُّ مـن وَلَـدَ النسـا ءُ أبـو البنـاتِ فَلِـمْ جَـزعتـا
إنّ الـذيـن تَـوَدُّ مـن بيـن الخـلائـقِ مـا استطعتـا
نـالـوا بفضـل البنـتِ مـا كَبَتـوا بـه الأعـداءَ كَبتـا[1]

فـالحمَّـاني ينطـق بـرؤية مغايرة للسّائد، ويدعو من يجزع بسبب ولادة البنـت إلـى التأمُّل في الأمر، بعد معرفة أن أجلّ من ولد النساءُ هو أبو البنات، وأن آل بـيت النبي نالوا بفضل سيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء عليها السلام ما كبتوا به الأعداء كبتاً.

وللحمـانـي شعـر غزلي جميل، تنطق لغته السهلة، الأنيقة، بمعانٍ دقيقةٍ طريفةٍ، لا تخلو مـن تأثيـر لغة الفقه، أحياناً، وتتفرّد بالصّورة الشعرية الجميلة في كثير من الأبيات. ومن نماذج شعره الغزلي[2] نذكر:

□ يـا شـادنـاً أُفْـرِغَ مـن فضّـةٍ فـي خـدِّه تفّـاحـة غَضَّـه
كـأنمـا القُبلـةُ فـي خـدّهِ للحُسـنِ مـن رقّتـه عضّـه
يهتـزُّ أعـلاه إذا مـا مشـى وكلّـه فـي يمنـه قبضـه
إرحـم فتـىً لمّـا تملّكتَـهُ أقـرّ بـالـرقّ فلـم تَـرضَـه

□ بـأبـي فـمٌ شهـد الضميـرُ لـهُ قبـل المـذاقِ بـأنّـه عَـذْبُ
كشهـادتـي للهِ خـالصـةً قبـلَ العيـان بـأنّـه الـربُّ
والعيـنُ لا تُغنـي بنظـرتِهـا حتـى يكـونَ دليلَهـا القلـبُ

□ وجهٌ هو البدر إلاّ أنّ بينهما فضـلاً تحيّـر عـن حـافـاتـه النُّـورُ
فـي وجـهِ ذاكَ أخـاليـطٌ مُسـوّدةٌ وفـي مضـاحِـكِ هـذا الـدرُّ منثـورُ

(١) الظرائف واللطائف، ص ٩٢، باب ٨٥.
(٢) أنوار الربيع، ٤/ ٩٢، ١٤٦، ٢٦٢.

ويخلص قارئ شعر أبي الحسين علي بن محمد. . ، الحمَّاني الأفوه إلى القول: إن هذا الشاعر كان في المقام الأعلى من شرف النَّسب، ومن العلم وقوة الشخصيَّة، عمّر طويلاً، وعانى هموم الحياة، وعجز الهرم، وظلم أصحاب السلطان، فلم يهن أو يجزع، ومضى في نهج أجداده الكرام، وبيَّن في شعره حق آل البيت عليهم السلام وفضائلهم ورثى معاصره الشهيد يحيى بن عمر، وجسَّد رؤيته إلى الحياة وأشيائها وقضاياها بلغة شعرية سهلة، أنيقة، لا تخلو من تأثير لغة الفقهاء وتنطق بمعانٍ دقيقة، وتنفرد في كثيرٍ من الأحيان بصورٍ شعرية جميلة، جديدة.

الفهرس

* * *

الغدير
للدراسات والنشر
حارة حريك - بناية البنك اللبناني السويسري
هاتف: ٠٣/٦٤٤٦٦٢ - ٠١/٥٥٨٢١٥
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٦٠٤ - ص.ب: ٢٤/٥٠ بيروت - لبنان
E-mail : algadeer@inco.com.lb

الغدير
100092